جامعة المولى إسماعيل

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

مكناس

أدب الرحلة والتواصل الحضاري

سلسلة الندوات

5

1993

جامعة المولى إسماعيل
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
مكناس

أدب الرحلة والتواصل الحضاري

سلسلة الندوات
5

الفهرس

الموضوع | **الصفحة**

المحور الرابع : نماذج وأعلام من الرحالة المغاربة

المحور الخامس : الرحلات الدينية

المحور السادس : إسهام الرحلات في انفتاح المغرب على العالم الخارجي

كلمة السيد قيدوم كلية الآداب والعلوم الإنسانية

في إطار احتفال الكلية بالذكرى العاشرة على تأسيسها، يسرني أن أفتتح ندوة شعبة التاريخ، التي تتناول «أدب الرحلة والتواصل الحضاري».
إني سعيد أن تجمع هذه الندوة مختصين ومهتمين بالموضوع من أماكن نائية عن مكناس. وليس هذا بغريب لأنها ندوة أدب الرحلة؛ فقد رحل إليها زملاؤنا الأساتذة والباحثون من ليبيا، من تونس، من الجزائر، من إيطاليا، ومن مصر. فلكل هؤلاء أتقدم بالشكر الجزيل على إلحاحهم على الحضور ومشاركتنا بأفكارهم وآرائهم، على تحملهم تعب السفر وعناء تحضير مداخلاتهم لإغناء محور هذا النشاط. وباسم المشاركين أتقدم كذلك بخالص الشكر للمنظمين الذين سهروا كثيرا لكي يتم البرنامج الذي بين أيديكم.
إني جد سعيد بانعقاد ندوة تسمح لنا بتعزيز التعاون بين كلية الآداب والعلوم الإنسانية والجمعية الإسماعيلية الكبرى للوسط الجنوبي؛ خاصة وأن المبادرة أتت من الجمعية نفسها. فبمجرد ما سمعت الجمعية بتنظيم هذه الندوة، اتصلت، في شخص رئيسها المحترم، بالكلية مقترحة مشاركا أو مشاركين مهتمين بأدب الرحلة من وإلى مكناس. لكن الحوار سرعان ما تطور ليصل إلى التعاون الشامل على تنظيم هذه التظاهرة. فمع شكري لأعضاء الجمعية الإسماعيلية على تشجيعهم اللامشروط، أتمنى المزيد من التعاون لما فيه صالح العلم والمعرفة في المدينة والمنطقة، وأتمنى لكم جميعا كامل النجاح والتوفيق.
والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

كلمة السيد ممثل
الجمعية الإسماعيلية الكبرى للوسط الجنوبي

السيد قيدوم كلية الآداب والعلوم الإنسانية،
السادة الأساتذة،
أيها الحضور الكريم،

في غمرة احتفالات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة المولى إسماعيل بمكناس، بالذكرى العاشرة لتأسيسها، يسر الجمعية الإسماعيلية الكبرى للوسط الجنوبي أن تغتنم هذه الفرصة السعيدة لتقديم تهانئها الخالصة متمنية لهذه المؤسسة الجامعية المزيد من النجاح والتوفيق في مد الإشعاع الثقافي والبحث العلمي. وإن هذه الكلية الفتية قد ساهمت في توسيع أنشطتها العلمية والتربوية، هذا العمل الذي تبلور في مجموعة من المنشورات. والندوات المنظمة حالياً بهذه المناسبة أكبر دليل على ذلك. وإن أشغال هذه الندوات ستسلط الأضواء على عدة جوانب ما زالت غامضة وستصبح مرجعا قيماً للباحثين من مختلف المناطق. وإن الجمعية الإسماعيلية الكبرى للوسط الجنوبي لا تبخل عن تشجيع مثل هذه المبادرات كما كان شأنها منذ تأسيسها.

وأخيرا نتمنى أن تكلل أعمال هذه الندوات بالنجاح والتوفيق.

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

الكلمة الافتتاحية للجنة المنظمة

بسم الله الرحمن الرحيم

سيادة قيدوم كلية الآداب والعلوم الإنسانية بمكناس، السيد رئيس الشعبة، السادة الأساتذة الأفاضل، ضيوفنا الكرام، حضرات السادة والسيدات.

إنه لشرف عظيم، والسعادة تحل عن الوصف، أن أتقدم باسم اللجنة المنظمة لندوة أدب الرحلة والتواصل الحضاري بهذه الكلمة الموجزة ونحن نعيش فرحتين: فرحة إطفاء الشمعة العاشرة من عمر كلية الآداب والعلوم الإنسانية بمكناس، ثم فرحة اللقاء في هذه التظاهرة العلمية التي جمعت كل الفعاليات الثقافية من المغرب العربي الكبير والمشرق العربي وأوروبا، وهي فرصة قلما يجود بها الدهر، بل هي تجسيد للعنوان الذي تم اختياره لهذه الندوة المباركة التي أردناها أن تكون فضاء خصبا للمناقشة والحوار، خاصة أن الرحلة التي هي موضوع الندوة كانت على مر الأحقاب أهم عنصر في حياة البشرية. فبواسطتها تم اللقاء بين الشعوب، وانصهرت العقليات، فأثمرت الحضارات، وتفتقت العبقريات وترسخت قواعد التعايش السلمي وهبت رياح السلام والتفاهم بين مختلف الشعوب على اختلاف أجناسها ودياناتها وعقلياتها.

وإذا كان التاريخ يثبت بما لا يدع مجالا للشك أهمية الرحلة كعنصر فعال في التواصل والتعايش والتفاعل وتبادل الخبرات والتجارب، فها نحن نشهد في هذا اليوم باحثين من مختلف أقطار المغرب العربي وإيطاليا وفرنسا ومصر ييممون وجوههم نحو مدينة مكناس التي كانت عبر كل العصور محطة عبور في رحلة علمية متميزة ليحطوا الرحال في رحاب كلية الآداب. فإلى كل الذين رحلوا إلينا لمشاركتنا في بهجة العيد العاشر، واللقاء الثقافي الهام الذي نطمح إليه، إلى كل هؤلاء نتقدم بعاطر الثناء والشكر على تجشمهم عناء السفر رغم بعد الشقة، راجين لهم المقام السعيد بين ظهرانينا، آملين أن تتجدد مثل هذه المناسبات العلمية. كما نتقدم بآيات الشكر إلى كل من حضر معنا أو ساعد في إنجاح هذه التظاهرة وعلى رأسهم السيد قيدوم كلية الآداب بمكناس الذي مافتئ يبذل قصارى جهده للدفع بالبحث العلمي إلى الأمام. فمرة أخرى نجدد الترحاب بضيوفنا الكرام، ونتمنى أن تكون الجلسات العلمية في مستوى حرارة اللقاء وأن نغترف من حياض العلم والحوار والمناقشة ماهو مأمول، والسلام عليكم.

منسق اللجنة المنظمة
د. إبراهيم القادري بوتشيش

الكلمة الافتتاحية للسيد رئيس شعبة التاريخ

بسم الله الرحمن الرحيم

- سيادة قيدوم كلية الآداب
- السيد ممثل الجمعية الإسماعيلية الكبرى
- إخواني الأساتذة
- أيها الحضور الكريم

إنها لفرصة سعيدة أن نلتقي بكم مرة أخرى في هذه التظاهرة العلمية الكبرى التي بادرت شعبتنا إلى اقتراحها وتنظيمها ضمن ملتقى الذكرى العاشرة لتأسيس الكلية وذلك تحت عنوان : «أدب الرحلة والتواصل الحضاري» ولا يخفى عليكم أهمية هذا الموضوع المقترح، والذي صدر عن وعي أساتذتنا بضرورة تحقيق التواصل والانتفاح على سائر الكليات الوطنية، وكليات الأقطار الشقيقة والصديقة.

وانه لمن دواعي الفخر والاعتزاز أن يتواجد بين ظهرانا اليوم في هذا الملتقى العلمي نخبة من الجامعيين المتخصصين من بلدان مختلفة. فباسم الزملاء في شعبتنا نرحب بالضيوف الأجلاء، ونقدر فيهم روح التعاون والتواصل الميداني، وتكبدهم عناء الرحلة، فإليهم جميعا أصدق عبارات الشكر والامتنان والتقدير.

ولا تفوتني الفرصة أن نهنيء أنفسنا بتواجدنا في كلية يشرف عليها قيدوم غيور على البحث العلمي، ويقدر العمل والمسؤولية، فلم يبخل علينا بوقته الثمين في تهيء شروط نجاح هذه التظاهرة. وذلك بتدخلاته المباشرة واتصالاته اليومية المتكررة، كما نتوجه بالشكر كذلك إلى الطاقم الإداري بالكلية من أساتذة وموظفين إداريين وأعوان على تضحيتهم بأوقات الراحة للاستجابة لكل الطلبات التي نقترحها.

نفس الشكر يوجه أيضا إلى رجال الصحافة المكتوبة والمسموعة على الجهود التي يبذلونها من أجل التعريف بمضامين هذا الملتقى العلمي، وإبرازه على الساحة الوطنية والدولية.

وفي الأخير، وقبل أن أرد الكلمة إلى السيد القيدوم نود أن نتوجه بالشكر والتقدير إلى أعضاء الجمعية الإسماعيلية الكبرى على ما بدلوه من مساعدات في تدعيم هذا النشاط.

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

رئيس الشعبة
محمد تضغوت

المحور الأول

الرحلات في التاريخ القديم

الرحلة كوثيقة من بين أقدم الوثائق المكتوبة في تاريخ المغرب القديم

ذ. عمر علوي أمراني
كلية الآداب ـ مكناس

نعني بالرحلة عامة السفر الذي يتوخى من ورائه الاطلاع على آفاق جديدة من المناطق المجهولة؛ وقد يصل الأمر بصاحبها إلى تسجيل أهم ما يتعلق بها في تقرير يصبح وثيقة تاريخية وجغرافية لها بعد ذلك. وهكذا فالرحلة عامة عملية لكشف النقاب عن المجهول من الأرض والناس،(1) والرحالة في الأساس يمكن أن يكون مكتشفا أو مغامرا أو عالما أو رجل دين أو تاجرا وتبعا لهذا فهو تحركه دوافع سياسية أو اقتصادية أو علمية أو دينية.

وإذا ركزنا على الرحلة البحرية في التاريخ القديم سنجدها متعددة ومتنوعة الأهداف، ابتداء من أقدم الرحلات التجارية والإثنوجرافية على الإطلاق التي قام بها القدماء المصريون عام 1493 ق م.(2) إلى الرحلات الفينيقية المبكرة التي مكنتهم من الوصول إلى أقصى الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط في القرن 12 قم، في مرحلة أولى، لتنطلق بعد ذلك رحلات أخرى ابتداء من القرن السادس قبل الميلاد أهمها(3) رحلة سكيلا كسر الكاريندي Scylax de Caryanda (في ق

1) د. حسين محمد فهيم: أدب الرحلات عالم المعرفة ع 138 يونيو 89 ص: 15.

2) نفس المرجع السابق ص: 22.

3) تتجلى أهمية هذه الرحلات الأربع في كونها الرحلات التي وصلت إلينا تقارير عنها من بين الرحلات القديمة؛ إلى جانب ما قدمته لنا من معلومات عن المناطق والجماعات البشرية التي اتصل بها أصحابها وقد تمت رحلة سكيلاكس الكاريندي في عهد الملك الفارسي=

6 ق م) وسطــا سبيس الاخميني الفــارسي Sataspès (ق 5 ق م) وحانون Hannon وهملكون Himilcon القرطاجيين (ق 5 ق م). تعتبر الرحلــة بصفة عــامة من أهم المصــادر التي يمكن ؟ أن يستفيـد منها المؤرخ والجغرافي والأديب والسياسي والاثنوجرافي وغيرهم.

واعتبارا لما سبق ذكـره فإن الإشكالية التي ننطلق منهــا في تناول موضـوعنا هـي كالآتي:

ماهـي مكانــة أدب الرحلة بين مصادر تاريخ إفــريقيا الشمالية في القديم؟

عادة ما يربـط الباحثون بداية التاريخ في منطقــة إفريقيا الشمالية بالاتصال الذي حدث بين سكــان المنطقة والعناصر الفينيقية في أواخر القرن 12 ق م.

وإذا كان هذا صحيحــا، إلى حد كبير، من الناحيــة الحضارية، على اعتبار أن الاحتكاك يؤدي حتما إلى عملية التأثير والتأثر، وإن المستوى الحضــاري للشعب الفينيقي لا يمكن إنكاره أو تجاهل مــا ترتب عنــه من تأثيرات إيجابيــة بعــد اتصــالهم بمختلف شعوب حــوض البحــر الأبيض المتــوسط من الشرق نحو الغــرب.(4) فإن هـــذا لا ينفي أن منطقة إفريقيا الشمالية مــرت بمختلف المراحل الحضارية المعروفة في فترة مــا قبل التــاريخ(5) من العصر الحجـــري القـــديم إلى عصر

=دارا I (521 ـ 485 ق م). وقد وصف فيهــا رحلته عبر البحر المتوسط والبحــر الأسود. إلا أن كتاب الرحلة الأخير يعتبر من الأثر المنحولة، ذلك أن تاريخ تأليفه يرجع إلى ما بين 360 ـ 370م، وإن كان صاحبه اعتمد على ما يبدو على الكتاب الأصل.

أما رحلة سطاسبيس الأخميني الفارسي، فقد تمت في زمن الملك الفارسي كسركيس (485 ـ 465 ق م). وقد أبحر حول شواطئ ليبيا عقابا له على تهمة رمي بها. (Herodote 43.17).

أما هملكون القـرطاجي فقد أرسـل لاستكشاف الساحل الغـربي لأروبا في ق 5 ق م في الوقت الـذي توجـه فيه أخوه حــانون لاسكشــاف واستيطان بعض المراكـز على الساحل الغربي لإفريقيا.

4) - Sabatino Moscali: "L'expansion phenico-punique dans la méditerranée occidentale" in Actes du 2ème congrès international-d'études des cultures de la méditerranée occidentale. I, Alger, p: 9.

5) - St. Gsell: H.A.A.N. T. I p: 239 .

G. Comps: Massinissa ou les débuts de l'histoire libyca, T. VIII, 1960. p: 69 et suiv.

المعادن،(6) الأمر الـذي جعلها منطقـة مؤهلة لكـي تنتقل بعد ذلك إلى مرحلة التاريخ.

إن ولوج مرحلـة التاريخ تقترن من زاوية أخرى بمســألة منهجية تشترط معرفـة الكتابـة وما يـرتبط بها مثل وجود شـواهد مكتـوبة يستطيع بـواسطتها البـاحث الاطـلاع على بعض مـا يتعلق بالجماعـة المعنية؛ لكن وجود مثل تلك الشواهد لا يصبح مفيدا في العملية إلا إذا كان الباحث يعرف قـراءة تلك الكتابة وفهم مضمونها، دون أن نهمل المخلفات المادية الأخرى طبعا.

ومن هـذا المنظور نشير إلى أن اتصال المنطقـة بالفينيقيين، الـذين كـانوا يعـرفون الكتـابة والتـدوين إلى جـانب مؤهـلاتهم الحضاريـة الأخرى من جهة، والذين تعاملـوا مع سكان المنطقة واتصلوا بهم لتبدأ محاولات التفاهم والتعامل الاقتصادي لأول مرة من جهة أخرى، جعل البـاحثين يعتبرون ذلك نقطـة تحول هامـة في المنطقـة. (مثل حـادث الطـوفـان أو عمليـة التحكم في الأنهار في أرض مـا بين النهـرين، أو الحدث السياسي الذي جمع بين الجنوب والشمال في مصر).

هكـذا إذن نستخلص أن بدايـة التاريخ يمكن إرجـاعها إلى نهايـة القرن 12 ق م. لكن ما هي المصـادر التي تساعدنـا على دراسة وفهم المرحلة القديمة من تاريخ المنطقة؟

أولا لابد من الإشارة إلى وجوب الاعتماد على ما تقدمه لنا الأبحاث الأركيـولوجيـة في الموضوع، ثم على مـا تقـدمه لنـا المصادر الأدبيـة الكـلاسيكيـة لكي نستطيع في الأخير المقـارنـة بينهما والخروج بمادة علمية نطمئن إليهـا. إلا أنه بـالنسبة للمصـادر الأخيرة يجب أن نميز فيها بين مصادر أجنبية عن المنطقة وخرى محلية:

1) المصادر الأجنبية وهي نوعان: دينية وأخرى كلاسيكية :

- بالنسبة لـلأولى يجب التذكير بأن الدراسات الفينيقيـة البونيقية ظهرت وتطورت في إطـار الدراسات الدينية المرتبطة بـالكتاب المقدس

- A. Jodin: Gisement de cuivre au Maroc et l'archeologie B.A.M. T p: et suiv. 6

(التوراة). والدراسات العبرانية، التي قام بها رجال الدين والمعلمون اللاهوتيون، هؤلاء الذين كانوا لا يهتمون بمظاهر الحضارات السامية القديمة إلا كأعمال مساعدة لفهم الكتاب المقدس،(7) الأمر الذي انعكس سلبا على التطور المستقل للدراسات المتعلقة بالحضارة الفينيقية البونيقية، وأدى في بعض الأحيان إلى تشويه أو إلى إصدار أحكام مسبقة في الموضوع.(8)

ـ أما القسم الثاني من المصادر الأجنبية عن المنطقة هو ما خلفه لنا الكتاب الكلاسيكيون، عن التوسع الفنيقي في الحوض الغربي للبحر المتوسط وعن الحضارة البونيقية وغيرها؛ وهذه المصادر إغريقية ولاتينية لكن إذا كان بعض ما تتضمنه محتمل الحدوث، فإن طابع الأسطورة أو الخرافة يغلب عليها في بعض الأحيان. رغم كل هذا فإن ما يجب الانتباه إليه هو أنه لأول مرة أصبحت بعض أخبار المنطقة ترد ضمن ما سجله هؤلاء القمداء عن الفينيقيين في الحوض الغربي وضمنه ما يتعلق بمنطقة إفريقيا الشمالية وإن كانت تلك المعلومات ناقصة وغير مباشرة ومن مصادر متحيزة للإغريق أو الرومان أعداء الفينيقيين.

ومن أهم هذه المصادر وأقدمها نشير إلى ما خلفه المؤرخ هيرودوت (الهاليكارناسي 495 ـ 425 ق م) عن منطقة إفريقيا الشمالية فيما قام به من عمل تاريخي متكامل ومنتظم مستفيدا في عمله ذلك من كونه رحالة لا يكل، دفعته رغبته، في أن يرى وأن يتعلم، إلى زيارة عدة أقطار(9) وربما زار من بينها برقة.(10) لهذا فإن المعلومات التي أوردها في كتاباته عن جغرافية الدول المحيطة بالبحر الأبيض المتوسط، وتاريخها وعاداتها وتقاليد أهلها. مستمدة من مشاهداته

7) - Maurice Sznycer: "l'expansion phenico-punique dans la méditerranée occidentale (Problèmes et methodes).
In Actes du 2ème congérés. Op. cit pp: 36-37.

8) - Ibid p: 37.

9) د. مصطفى أبو ضيف أحمد: منهج البحث التاريخي بين الماضي والحاضر. مطبعة النجاح الجديدة ط 1، 87، ص: 24.

10) جورج سارتون تاريخ العلم (مترجم) ج 2، دا رالمعارف ط 3، 1978 ص: 155.

المباشرة وما استفاده مـن غـيره بطريقة مباشرة أو غير مبـاشرة.(11) فجاءت كتاباتـه شاملـة وتاريخا للحضارة حتى زمانـه.

لقد تحدث فعـلا «عن حـوالي خمسين شعبـا من خـلال رحـلاتـه وقراءاته...»(12) من بينها ما كتبه عن منطقـة إفريقيا الشمالية فكان بحق أول من قدم وصفا دقيقا عن قبائل البدو بليبيا سواء تعلق الأمر بأصولهم العـرقية أو بطريقـة حياتهم.(13) ولـو أن عملـه لم يبلغ مستوى العمل الأثنوجرافي بالمعنى الحديث للكلمة.(14) إضافة إلى ما قدمه من معلومات جغرافية عن المنطقة الإفريقية.(15)

2) المصادر المحلية :

يجب أن نعترف أولا بأن المصـادر الأدبيـة المحليـة، بمعنى التي ترجع لبلاد المغرب في القديم تكاد تكون منعدمة. فحتى المصادر التي يردد عادة أن الرومان وهبوها للأمراء النومديين حلفائهم، بعد تدمير قرطاجـة، فإنها لم تصل إلينا. ولم يبق من الكتابات البـونيقية إلا ما وصل إلينا مترجما إلى الإغريقية أو اللاتينية مثل بعض الإشارات من مؤلف ماكون Magon حـول الزراعـة والذي تـرجم إلى اللاتينيـة، أو الترجمة الإغـريقية لنص رحلـة حانـون أو بعض الكتابـات القديمـة البونيقية.

---

11) د. حسين محمد فهيم. المرجع السابق ص: 24.

12) نفس المرجع السابق، ص: 23.

13) - Herodote, IV, 144-205.

14) د. حسين محمد فهيم، المرجع السابق ص: 23 وص: 49.

15) - Herodote, I, 202 et IV, 42.

ولو أن رؤيتـه الجغرافيـة كانت بمفهـوم الجغرافيـة الإغريقيـة التي تهيمن عليها فكـرة الأراضي المحاطة بالبحار؛ وبمفهوم الجغرافية الرياضية. أي الجغرافية التي تعطي أشكالا هندسية للقارات ومنها القارة الإفريقية التي كانت ترسم على شكل مثلث مستقيم الزاوية ومكـون من وادي النيل إلى بحـر إيـريتريا (المحيط الهنـدي) والبحـر الـداخلي (الأبيض المتوسط) والبحر الخارجي (الأطلسي).
للمزيد انظر مـولاي رشيد المصطفى «حانون والمغـرب» مجلة كلية الآداب جامعـة محمد الخامس ع 10 سنة 84 من ص: 9 إلى 23.

وعندما نقول الترجمة فإن الأمر لا يتعلق بترجمة حرفية وإنما يقصد بها نوع من المطابقة أو التوفيق.(16) (une adaptation).

في هذا الإطار تدخل الصيغة الإغريقية لنص رحلة حانون هذا النص الذي يعتبر أقدم الوثائق المكتوبة في تاريخ إفريقيا الشمالية في القديم.(17) وهو من بين النصوص التي وصلت عن الرحلات القديمة والقليلة جدا.(18) وتتفق رحلة حانون مع المرحلة التاريخية التي كانت تعمل فيها قرطاجة على البحث عن المعادن والسيطرة على أراضي جديدة للاستيطان.(19) وبهذا الهدف وجهت رحلتين إحداهما لاستكشاف الساحل الغربي لأوروبا بقيادة هملكون والأخرى نحو الجنوب حول الساحل الغربي لإفريقيا بقيادة أخيه حانون.(20) ويتضح الطابع الرسمي للرحلتين من المصطلحات التي استعملها بلين Pline في حق هملكون أما بالنسبة لحانون فوصفه «بالملك» كاف للدلالة على طابعهما السياسي الرسمي.(21) وتمثل الرحلتان جرأة في ميدان الملاحة وتحد صارخ جعلهما يخترقان حدود البحر الداخلي ويغامران خارجه وسط المحيط الشاسع في هذه المرحلة القديمة.

وسنقتصر على رحلة حانون، لكن ليس بقصد إعادة ما قيل فيها، فقد سال حبر كثير في هذا الموضوع (حوالي 28 مقالة ما بين

(16 - C. Nicolet : Rome et la conquète du monde méditerraneen 264-27 av. J. C. T.I. N^lle clio 78 , p: 591.

(17 - Sf Gsell, Herodote, Alger, 1914, p: 233

ويجب التنبيه هنا إلى أن النص الأصلي مفقود. وان كل ما كتب وقيل عن هذه الرحلة يعتمد على الترجمة الإفريقية له أو على الترجمة للنص الإغريقي.

«والترجمة الإغريقية نسختان : نسخة موجودة الآن بروما، والنسخة الثانية بلندن».

د.مولاي رشيد المصطفى، المرجع السابق ص 11.

ولهذا لا يمكن إصدار أي حكم نهائي فيما له علاقة بهذه الرحلة في غياب النص الأصلي البونيقي.

18) جورج سارتون المرجع السابق ص: 153.

19) د. يولي فركوفيتش تسير كيف: الحضارة الفينيقية في إسبانية. ترجمة د. يوسف أبي فاضل جروس برس 87. بيروت ص: 10.

(20 - G.C. Picard; vie et mort de carthage; hachette, 1970, p: 57.

(21 - Pline, H.N. II, . St. Gsell, H.A.A.N. I pp: 468 -469.

1882و1984) وتضـــاربت الآراء حـــول مـــراميهـــا ومنـــاطق حط رحالها(22) وبين من يشـــك فيهــــا(23) أو حتى من يـــرفضهـــا ويكذبها(24) وبين من يصـــدقهـا ويثق في نجـاحهـا(25) ســواء من القدماء أو المحدثين، بل لتوضيح أهمية التقرير الذي أعد حولها والذي تثبت الـدراســات على أنه نص فـريـد من نـوعه وأول وثيقـة حـول الجغرافية القديمة في المنطقة.

إن نص التقـريـر الذي بين أيـدينـا هـو ترجمة إغـريقيـة للنص البونيقي(26) الذي نقشه الملـك حانون على لوحة من النحـاس كانت معلقة بمعبد بعل حمون. ويروي فيه حـانون أخبار رحلته وهو أقدم نص مكتـوب على الإطلاق من أصـل قرطـاجي في المنطقـة. وقد قـام اصطفـــان كسيل بترجمة النص الإغـريقـي إلى الفـرنسيـــة والتعليق عليه.(27)

ويمكن تلخيص أهم مراحل الرحلة حسب تأويلات مؤرخي العهد الاستعماري بما جاء في ذلك التقرير كالآتي:

1) من قادس إلى تيميا ثريون (المهدية الآن).

2) من تيميا ثريـون إلى صوليس (أي رأس القنتل شمال آسفي). والجدار القاري، ثم الـرجوع عبر مراحل نحـو جيتا (Gytte). وميليتة (Melitta) (وهي بدون شك المستـوطنات القديمة لكـوطي وميليسا في منطقة طنجة). وأخيرا توقف طويل بليكسوس (العرائش).

22) نذكر على سبيل المثال لا الحصر:
- St. Gsell, I, p: et suiv. J. Carcopine, op. cit. pp: 73-173.

23) - Pline, H.N. V, 8.

24) - H. Tauxier, "Les deux rédactions du periple d'Hannon" Revue Africaine Alger, 1882, p: 25.

25) - St. Gsell, Herodote, op. cit. p: 233.
- J. Carcopino, op. cit. p: 57 .

26) لا يمكن الحديث عـن الكتابة واللغـة البونيقيتيـن بـإفريقيا والغـرب عمـوما إلا ابتداء من ق 5 ق م.
انظر: - C. Nicolet, op. cit p: 591

27) - St. Gssell, I, pp: 476-523

3) من ليكسوس إلى جزيرة سرني (خليج وادي الذهب).
4) رحلة إستكشافية من سرني إلى داخل دلتا السينيغال (وادي قريطيش) والرجوع إلى سرني.
5) من سرني إلى أقصى خليج غينيا حتى سواحل الكامرون.
وانطلاقا من هذه المعطيات يمكن تقسيم أهداف الرحلة إلى مرحلتين أساسيتين بعد تجاوز أعمدة هرقل:
- المرحلة الأولى تأسيس عدة مستوطنات قرطاجية جديدة.(28)
- المرحلة الثانية استكشافية صرفة في اتجاه جزيرة سرني ونهر السينيغال ثم نحو عربة الآلهة. (جبل الكامرون) وأخيرا الرجوع إلى المنطلق.
وهناك تصور آخر للرحلة يفند ذلك الرأي، يعتمد على معطيات جغرافية كما كان يفهمها القدماء، الأمر الذي يترتب عنه نتائج مخالفة تماما لما توصل إليه أصحاب الرأي السابق. وتنطلق وجهة النظر الجديدة هذه من إعادة ضبط نقطة انطلاق أسطول حانون، ففي الوقت الذي كان يعتبرها أصحاب الرأي الأول مدينة قادس أي خارج المضيق إلى الغرب الأمر الذي يترتب عنه وجود الأعمدة إلى الغرب أيضا، وهذا ما لا يتفق وموقع الأعمدة حسب القدماء(29) فإن الرأي الجديد يجعل الأعمدة - حسب القدماء - في بداية المضيق من الشرق الأمر الذي تصبح معه «أول مرحلة لحانون هي أبيلا Abyla أو سبتة الحالية قبل مواجهة ظروف الملاحة بالمضيق».(30)
وانطلاقا من هذا تصبح إذن تيميا ثريون هي طنجيس عوض المهدية.(31) إن هذه النظرة الوجيهة يمكنها أن تتجاوز المواقف

28) - Tlatli (S): La carthaje punique. Librairie d'Amerique et d'rient, Paris 78. p: 259

وإن كان كسيل يخالف هذا الرأي عندما يرى بأن حانون لم يتوجه في رحلة مغامرة لأنه كان يعرف مسبقا مواقع المدن التي أقامها وإنما كان يهدف إلى إيصال المستوطنين إليها : St. Gssell, I, p: 100.

29) - Polybe, histoire, III, 5, 5 et 170. XVII, 3, 2.

30) د. مولاي رشيد المصطفى - المرجع السابق ص: 18.

31) نفس المرجع السابق ص: 19.

العديدة والمتناقضة في موضـوع رحلة حانون، سيما إذا علمنا شهادة علماء الآثار الـذين يرون أنه لا توجـد مخلفات قرطاجيـة من جنوب الصويرة إلى وادي السينغال.(32) وعليه تصبح جزيرة الصويرة هي جـزيرة ســرني أو شـرنــاءة أي السكـنى الأخيـرة كما سمـاهـا القرطاجيون.(33) وبـالتـالي تكون رحلـة حـانـون لم تجتز جـزيـرة الصويرة، وهـذه نتيجة تحتم إعادة النظر في تحديـد المواقع الواردة في التقرير حسب التأويلات السابقة.

لكن مهما تعددت الآراء فإن الحقيقة التي لأمراء فيها هـي أن رحلة حانون تمت بالفعل ولا يمكن الطعن في قدمها أو مضمونها،(34) وإن حانون تـرك تقريرا مكتوبا عـن رحلته تلك. صحيح لم تصل إلينا إلا ترجمتـه بالإغـريقية أو تلخيصا لـه، لكنه تقـرير يعتبر أقـدم وثيقة مكتوبة في تاريخ المغرب حول الجغرافية القديمة بالمنطقة، إلى درجة أن هناك من يعتبره «بمثابة شهادة الازدياد لتاريخ المغرب».(35)

وإذا كـان النص، كمصدر، مهما من النـاحيـة المنهجية في دراسـة تـاريخ المنطقـة، فإن النص في مضمـونـه أيضا يـوضح قـوة القـائد القرطاجي حـانون في هذهالفترة القديمة، واستطـاعته تخطى الحواجز الطبيعية وخوض غمار المحيط الأطلسي، ويدل أيضـا على قوة قرطاجة في الميدان البحـري وسيطرتها المطلقـة على الطرق البحـرية إلى أقصى الغرب وبالتالي هيمنتها الاقتصادية في إفريقيا الشمالية.

32) نفس المرجع السابق ص: 22.
انظر كذلك: G.C. Picard, op. cit, p: 100

33) د. مولاي رشيد المصطفى المرجع السابق ص: 22.

34) - G.C. Picard: "Authenticité du periple d'Hannon" in mélange ch. Saumagne tunis 1968 pp: 27-31.

35) - J. Carcopino: op. cit. p: 57 .

دور الرحلات في الكشف عن حضارة الشرق القديم والعراق

ذ. علي العشاق
كلية الآداب ـ مكناس

إذا كان ثمة حضارات ذاع صيت ماضيها الشهير في التاريخ والأسطورة، فإن حضارة الشرق الأدنى والعراق من بين تلك الحضارات، وأطلالها هي أقدم بكثير من عصر النهضة، فقد أثارت هذه الأطلال فضول الباحثين في كل حين. وكانت أخبار المسافرين القدماء منهم والمعاصرين على حد سواء، وكتابات المؤرخين الإغريق، وكتاب الثوراة مصادر معلوماتنا الوحيدة عنها حتى منتصف القرن التاسع عشر.

فلم نكن نعرف عن مدنيات الشرق والعراق القديمة سوى أخبار ونتف متفرقة، ورد بعضها في الكتب المقدسة ولا سيما أخبار الثوراة وروايات المؤرخين أو الرحالة الكلاسيكيين اليونان والرومان من أمثال هيرودوت وزنيفون وسترابون وغيرهم.

فقبل أن تبدأ التحريات والتنقيبات عن بقايا آثار حضارة وادي الرافدين في منتصف القرن التاسع عشر، بدأ الغرب يتعرف عن أحوال العراق وبلدان الشرق الأدنى بوجه عام، عن طريق أخبار السياح والرحالة الأوربيين الذين شرعوا يؤمون الشرق منذ القرن الثاني عشر.

ويمكن تحديد بداية هذه الرحلات بزيارة السائح اليهودي بنيامين التطيلي سنة 1160م. كما يمكن إنهاء طور الرحلات ببداية أولي التحريات الأثرية على أيدي الهواة وقناصل الدول الأجنبية من أمثال بول بوتا وليرد ورولنصن منذ عام 1842م.

وإذا كان أدب الرحلات من الأنواع الأدبية الغير الواضحة الحدود كما ورد في كتاب بول هازار «أزمة الوعي الأوربية» ص7 فإنه يبقى رغم ذلك من أهم المصادر المعتمدة في الكشف عما يعرفه العالم اليوم عن حضارة الشرق القديمة، كالآثار التي تركها أهل تلك الحضارة من نقوش فنية على أختامهم الأسطوانية، وكتاباتهم على التماثيل والمسلات والألواح الطينية، والأساطين والأوعية ناهيك عما تركوه من نصوص القوانين والشرائع والأساطير والقصص والملاحم الشعرية والتراتيل الدينية والمقالات. وقد تجاوزوا ذلك إلى الحوادث الاجتماعية والاقتصادية.

وهذه الوثائق بالذات التي تقص علينا مجد هذه الحضارة لم تكن لتخرج عن الأسطورة ومن كفن الأرض الذي طمرها منذ آلاف السنين، لولا الرحلات التي انطلقت في منتصف القرن السادس عشر ونشطت في بداية السابع عشر.

لكن في حقيقة الأمر يمكن اعتبار المصادر الكلاسيكية لتاريخ حضارة الشرق وبلاد ما بين النهرين هي البداية الحقيقية لأدب الرحلات، فقد استلهم الرحالة الأوربيون (ق.18) كتب الرحالة الأقدمين مثل سترابون وهيرودوت، في كتابة مذكراتهم المليئة بغرائب البلاد البعيدة.

ففي مستهل أخبار المصادر الكلاسيكية نجد هيرودوت في حدود 480 ـ 425 ق.م، الملقب بأبي التاريخ. وقد احتوت كتبه على أخبار عن أحوال العراق القديم. وتميزت بولوعه سرد القصص والحكايات

والأساطير خالطا إياها في كثير من الأحيان بالأخبار التأريخية بدون أن ينبه على الحد الفاصل ما بين الإثنين.

وقد شك بعض المؤرخين في أن يكون هيرودوت قد زار في الواقع بلاد بابل، بل أن الأخبار التي ذكرها عنها استقاها بالدرجة الأولى من مشاهدين آخرين.

وقد عاصر هيردودوت المؤرخ زينفون (430ـ355 ق.م) الذي ترك مجموعة من أخبار العراق والأمبراطورية الفارسية الأخمينية، وكان قد التحق بآسيا الصغرى بحملة كورش الأصغر حاكم ولاية ليدية الذي ثار على الملك الفارسي أرتحشستا الثاني Artaxerxes II (404ـ359 ق.م) وبعد فشل حملة كورش قاد زينفون فلول الإغريق في تقهقرهم وعودتهم من العراق إلى الأناضول، وخلف أخبار هذه الأحداث وضمنها وصفا للعراق والمدن والأماكن التي مر بها.

وتعد أخباره أوثق من أخبار هيرودوت.(1)

ومن الرحالة اليونان المشهورين نذكر المؤرخ بوليبيوس Polybius (202ـ120 ق.م) الذي ألف في تاريخ الرومان وذكر أحوال عالم البحر الأبيض المتوسط وأحداثه التاريخية. وكان أول من استعمل كلمة ميزو بوتاميا (مابين النهرين) لإطلاقه على الجزء الأوسط والشمالي من أرض الرافدين.

وتجدر الإشارة كذلك إلى الجغرافي الشهير سترابون Strabon في حدود (64 ق.م إلى 19م) الذي اشتهر بمؤلفه عن جغرافية العالم الموسوم، الذي جاى في 17 جزءا، وصف فيه الأقاليم المعروفة أنذاك ومنها بلاد بابل وآشور. ووصف أحوالها الماضية، وأسوارها المشهورة وجنائنها المعلقة التي يذكرها بالمصطلح الإغريقي Kremastos Kepos.

كما دون المؤرخ الروماني كورتيوس روفس (Curtius Rufus) (القرن 1م) تاريخ الأسكندر، تطرق فيه إلى وصف بلاد بابل ومنها مدينة

1) SPEISER - Ethnie Movements in the Neer East in the second mill 1933. p. 13.
BANDINI Jérôme : Voyage du Mont Liban (1596), Paris 1670.

بـابل ووصف جنائنهـا المعلقـة وسماهـــا بالمصطلـح الـــلاثـيــني (Pensiles Horti).

واشتهر الكـاتب الرومـاني بليني الأكبر Peliny (23 أو 24 ـ 79م) بمـؤلفاتـه التاريخيـة والجغرافيـة، أشهـرها كتـابه المعنـون التأريخ الطبيعي الذي وصف فيه جغرافية القـارات المعروفة في زمنه وعادات أهلها ومواردها، ووصف بعض المدن القـديمة التي بقيت في زمنه مثل «سلوكية» و«ارتميتا» و«الوركاء» وغيرها.

ومن الكتاب الرومـان كذلك أريان Arian (95 ـ 175م) وقد اشتهر بمؤلفه عـن حروب الأسكندر الكبير في كتاب المعنـون حملة الأسكندر Anabasis oj Alexander. وجـاءت فيه أخبـار عن بلاد بـابل وبلاد الهنـد والاستكشـافـات البحـريـة التي قـام بها قـائد الأسكنـدر «نيرخش» (Nearchus) في الخليج العربي والبحر الهندي.

ونشير أيضا إلى الكـاتب الـروماني كلـوديوس البـانوس Claudius Aelianus من أهل القـرن الثاني الميـلادي الـذي روى في جملة أخبـاره قصة عن البطل الشهير جلجامش وسماه «كل كاموس».

وبالإضافة إلى هذه المعلومات الواردة في كتب هؤلاء الرحالة والتي صنفت ضمن المصـادر الكـلاسيكية، بـدأ الغـرب يتعرف عن أحـوال العراق وبلدان الشرق الأدنى بـوجه عام وعي الأثار عن طـريق أخبار الرحالة الأوربيين الذين انطلقوا في ق.12 صوب هذه المناطق للاطلاع على بقـايـا حضـارات الشرق القـديم وآثـاره. خـاصـة وأن المصـادر الكلاسيكيـة قد آثارت رغبتهـم لمعرفة مـاضي هذا الشرق لاسيما وأن كثيرا من مـدنه القـديمة ذات صلـة وثيقـة بأخبار الثـوراة وبتأريخ الـديـانـات العبرانيـة والمسيحيـة، بـالإضـافـة إلى أطماع سيـاسيـة واقتصادية.

وقد عمل رحالة القرن 12 على نقل نماذج من آثار العراق إلى أوربا، ومن بينها الألواح الطينية المدونة بالكتـابة المسمارية، مما مهد إلى حل رموز الخط المسماري والشروع في التنقيبات الفعلية بـالمنطقة. ونذكر منهم بنيامين التطيلي بن يـوحنا الذي اعتبر أول سـائح أمَّ العراق من

الغرب (اسبانيا) في عام 1160م. وكانت زيارته في زمن الخليفة العباسي المقتضي بالله (530ـ555هـ / 1160 ـ 1170م) وخلافة المستنجد بالله (555 ـ 566هـ). وقد انطلق من اسبانيا مارا بإيطاليا واليونان وقبرص. ثم فلسطين وانتهى به المطاف إلى العراق وبلاد فارس.

وقد اهتم في مذكراته بالجاليات اليهودية في الأقطار التي زارها وخاصة العراق، ووصف الأطلال وزار بقايا بابل ووصف خرائب قصر نبوخذ نصر.

وعندما ترجمت رحلته إلى الفرنسية والإنجليزية آثارت اهتمام المؤرخين في أوربا ووضعت في متناول أيديهم وصفا لشاهد عيان عن بقايا مدن يعرفون اسماءها وطرفا من أخبارها مما ورد عنها في الثوراة وأخبار المؤرخين اليونان والرومان.

وتعاقب من بعد بنيامين التطيلي في زيارة الشرق القديم والعراق جملة رحالة وسياح كانوا يحنون باستمرار إلى الماضي، إلى الأصول في أرض يشعرون بأنهم لهم أكثر من صلة، وأكثر من ذكرى (الكتاب المقدس والأماكن المقدسة، الحملات الصليبية وما تبقى منهما من آثار) وأصبحت معرفة «الحالة الحاضرة» للأمبراطورية العثمانية تدريجيا الموضوع الفعلي للمناقشة بين الرحالة المؤلفين. وقد استجابت هذه المنافسة في نقل مشاهدات حية وآراء جديدة، إلى حاجة فكرية للانتفاح على الآخر خارج أوربا في أواخر القرن 19، مما أدى إلى إخراج كتب اللاحلات من ارتباطها بالأصول.

فرحالة القرن السادس عشر كانت من الحجاج ورجال الدين، وكانت الرحلة إلى الشرق بالنسبة لهم نوعا من التكملة للحج إلى الأراضي المقدسة. وقد تميزت كتاباتهم بعداء شديد للمسلمين

والمسيحيين حتـــى وصفوا بـالصليبيين المتأخـرين، ولعل هذا العـداء ينبع من عرقـــية أوربية كاثوليكية Européocentrisme.(2)

فلم يكن يبال هؤلاء الرحالــة الأوائل بمخاطر البحر ومن القرصنة (من طـرف قبائل ســوريا وفلسطين) حيث كـان همهم الأساسي هـو الوصول إلى القدس. فقد كان المبشرون وحتى التجار والدبلوماسيون الذين يؤمنون بلاد المشرق لأسبـاب مختلفة، يبدأون زيارتهم بها. من هناك وبعد التعرف، على حقيقة صعوبات السفر، كان الأوربي ينطلق لزيارة بقية أطراف سوريا أو يتجه صوب مصر. وكان الانطلاق غالبا ما يكون من رومـا قصد الحصول على البركة الرسوليـة التقليدية أم من مرسيليا بوابة المشرق الحقيقية. ومن مشاهير رحالة هذا القرن16 العـــالم الطبيعـي والطبيب الألماني راوولف Ranwolf. وزار العـراق في القرن17 النبيل الإيطـالي بترو ديلا فـاله Pietro Della Vallé، واستغرقت رحلته عشر سنوات (من 1616 إلى 1625) فزار بقايا بابل في سنة 1616 وبقايـا أور 1625. وكـان أول رحــالـة أوربي زار بقــايـا «الأخيضر» الشهيرة، كما زار المدينة الفارسية القـديمة بيروسيبوليس وجلب منها نماذج من الخط المسماري الغريب، كما أخذ معـه آجورا مختوما بهذا الخط من بابل وأور.

وفي النصف الثـاني من القــرن 17 عرف أدب الـرحلات انتشــارا واسعا في أوربا وخـاصة فرنسا فـاشتهر كل من ثفينو Thevenot الذي زار العراق وبغـداد سنة 1664 والرحالــة تافرنيه الـذي وصف بغداد وذكر نتفا في بعض البقـايا الآثرية. وكذلك بول لـوكاس برحلته لمصر العليا.

ورغم اشتهار هـؤلاء الرحـالة بـالتجارة فـإن أسلوبهم قـد عرف تحسنا سواء فيما يخص مستواهم العلمي أو فيما يخص قدرتهم على التنقيب والمقارنـة. وقد طبعـــت في الفتـرة المـتـدة بين 1665 و 1745

2) «وصلنا إلى ليما سول : ولكننا بقينا ثلاثة أيام على ظهر الباخرة لأنه لم يكن في المدينة ما يجدر بالمشاهدة خاصة وأن أغلبية سكانها من الأتراك (المسلمين)».

DANDINI Jerome : Voyage du Mont liban (1596) Paris 1970.

ما يـزيـد عـن مائة وخمسين رحـلـة منهـا على الأقل مئـة رحلة جديـدة.

وقـد حملت هـذه الكتب حـول بلاد الشرق والعـراق أول هـذه إلى المفهـوم الأوربي لـلإنسـان والمجتمـع والـدين. كما أدخلت الشرق إلى الحياة الأدبية والفكرية.

وإلى جانب الطـرفة والمغـامرة الخطرة التي كـانت تطغى على كتب الرحلات، نجـدها قد احتوت مـلاحظات جزئية حـول عوائد الشعوب الشرقية وأطبـاعها، بـالإضافة إلى الاستطـرادات التاريخيـة وأوصاف النبـات والحيوان. كـذلك ظهرت المقـارنـات المفيدة. ومـا كان يصفـه الرحـالة الأوائل بسرعـة بالمتوحش والشـاذ عن قوانين الطبيعيـة، أخذ يصبح تـدريجيا مـدار تأمل أعمق ومقـارنـة بين الشعوب. من هـذا الاحتكـاك، بـدأت تنمـو أفكـار النسبيـة والتسـامح التي طبعت عصر الأنوار الأوربي.

إلى هنـا يمكن أن نقول أن الـرحـالة الـذين أمـوا بلاد المشرق قـد اتخذت رحـلاتهم إمـا الطـابع الـديني أو السيـاحي أو التجـاري أو العسكري (مـرافقة الحملات العسكر كما رأينـاه بالنسبة لـزينفون). لكن حب التطلع والاهتمام اللـذين أثـارتهما أخبـار هـؤلاء السيـاح والـرحـالـة أرى إلى ظهـور مـا يعـرف في تـاريخ أوربـا بـالحركـة الرومانطيقية التي اتصفت من جملة ما اتصفت به بالرغبة في الوقوف على أخبـار الماضي واستكشـاف المجهـول من الأقـاليم. فنشطت الأكاديميات والمؤسسـات العلمية الأوربية في إرسال بعثـات إلى أنحاء الشرق، وكانت أولى بعثـة من هذا النوع البعثة الاستطـلاعية المنتظمة التي أرسلهـا الملك الدانماركي في عـامي 1761 و 1767 برئاسة العالم الرياضي الدنمركي كارستن نيبور الـذي امتازت أعماله بالدقة العلمية في وصفـه لبقايـا آثـار بـابـل نينـوي وفي استنساخ نماذج للخـط المسمـاري.

وتقـدمت مـراحل كشـف مـاضي حضـارة الشرق حينما أصبح المهتمون يقيمـون في العراق فترات أطول مـدفوعين في ذلك بـالشؤون

السياسية والتجـارية مثلا وكلاء الشركـات الأجنبية والمقيمين الممثلين لدولهم.

وشملت هذه الرغبة الرأي العام الأوربي وبوجه خاص في أنجلترا حتى أن شركـة الهند الشرقية المعـروفة في لنـدن أرسلت مقيما لها في بغداد قصد جلب الألواح والأجور المختوم بالكتابة المسمارية.

وكـانت تحريات الـرحالـة أواخر القـرن 18 بمثابـة نهاية لطـابع الرحـلات التقليديـة وبداية لعهـد جديـد عهد التنقيبـات العلمية التي تتطلب الـــدقـة في البحث والتـــدوين وتتطلب التكـــوين في المعـاهـــد والمؤسسات المتخصصة وتتطلب تجهيـزات دقيقة. كل هذا أو ذاك غير مفهوم الرحلة إلى الشرق والعراق وغير النتائج، لكن يبقى ذلك أن أدب الرحـلات الكلاسيكيـة هـو المنطلـــق الأول نحـو استكشـاف الماضي البعيـد.

أوضاع موريطانية من خلال رحلة أودوكس الكوزيكي في أواخر القرن الثاني قبل الميلاد

ذ. محمد مجذوب
كلية الآداب ـ المحمدية

أمام قلة المصادر التي تناولت أوضاع موريطانية، تطرح الحاجة الملحة إلى توظيف النص المتوفر عن رحلة أودوكس كمصدر تاريخي، يفيدنا في معرفة مرحلة دقيقة من تاريخ المملكة المورية التي قامت بالمغرب القديم. والجدير بالملاحظة، أن الدارسين المحدثين لم يوظفوا هذا النص للغرض الذي نسعى إليه، بل مروا عليه مر الكرام، لأنه نص يطرح تساؤلات لا تنسجم مع الصورة التي يرسمونها لواقع المملكة المورية.

وهكذا سنتوقف في هذا الموضوع على النقط التالية:

أولا : التعريف بالرحلة من حيث اتجاهها وأهدافها.

ثانيا : بماذا تفيدنا الرحلة عن أوضاع المملكة المورية؟

ثالثا : مدى التطابق بين النص وما نعرفه عن حصيلة البحث الأثري بالمغرب.

إن الرواية الكاملة عن الرحلة، أوردها سترابون نقلا عن بوسيدونيوس،(1) ثم هناك إشارات حولها لبومبيوس ميلا وبلينيوس الشيخ، نقلا عن كورنليوس نبوس.(2)

1) Strabon, 2, 3, 4.

2) Pomponius Mela, 2, 96; Pline l'Ancien, 2,196.

وصاحب الرحلة هو أودوكس، الذي ينتمي لأسرة ثرية، من مدينة كوزيك، الواقعة شمال غرب آسيا الصغرى، التي شملتها هيمنة رومة خلال القرن الثاني قبل الميلاد. وهو من رجال الأعمال، الذين كانت لهم أنشطة تجارية في العالم الإغريقي - الروماني، خاصة بعدما فسحت لهم الأمبراطورية الرومانية آفاق التوسع التجاري في أرجاء الأبيض المتوسط.

والرجل كان يمتلك أسطولا تجاريا، عرف عنه أنه قام برحلتين تجاريتين من مصر إلى الهند، ورحلة تجارية بين بلاده وإسبانيا، مرورا بميناء بوزول جنوب رومة، وماسيا وهي مارسيلية الحالية، ثم انتهى به المطاف إلى كَاديرة.(3)

أما عن وقائع الرحلة، فقد انطلقت من مدينة كَاديرة الإسبانية، وهي كَاديس (الخريطة : 1)، حيث ركب أودوكس البحر على متن سفينة كبيرة لاختراق أعالي البحارة وجهز مركبين صغيرين Chaloupe، من النوع الذي كان يستعمله القراصنة. واصطحب معه عددا من الراقصات الشابات، وبعض الأطباء، ومختلف الصناع، ثم أبحر في اتجاه الهند عبر المحيط الأطلسي، تدفعه الرياح الغربية. ولما تغلب العياء على بحارته، فرضوا عليه الاقتراب من الساحل. فاستجاب لرغبتهم، وسرعان ما عصفت الأمواج بسفينته وحطمتها. ومع ذلك نجا كل الركاب، فجمعوا حطام السفينة، واستعملوا أخشابها لصنع مركب ثالث Chaloupe يسع لخمسين جذافا. فواصل السير على متن هذه المراكب الثلاثة حتى بلاد الأثيوبيين، جيران الملك بكوس، ثم قفل راجعا، بمحاذاة الساحل، ووصل سالما إلى موروسية، أي موريطانية، وفيها باع مراكبه الثلاثة، وقصد بكوس مشيا، وطلب من الملك أن يشرف على الرحلة البحرية التي يعتزم القيام بها. لكن أصدقاء الملك عارضوا الفكرة بشدة، وحذروه من عواقب هذا المشروع، الذي سيجعل البلاد عرضة للهجوم. وكان رفضهم يرمي إلى منع الأجانب من معرفة الطريق المؤدية إلى بلادهم. وأخيرا قرروا عقاب أودوكس، بنفيه

---

3) Strabon, 2, 3, 4.

إلى جزيرة خالية للتخلص منه، غير أنه علم بما يبيت ضده، فتمكن من الفرار، والتجأ إلى منطقة خاضعة للرومان، ومنها عاد إلى إبريا وهي إسبانيا.

هنا ينتهي نص الرحلة، وقبل استعراض الإسئلة الجوهرية التي يطرحها النص، أقف عند النقطة الوحيدة التي استأثرت باهتمام الدارسين في معالجة هذا النص. يتعلق الأمر بما ورد في النص حول اتصال أودوكس بالملك الموري مشيا. وفهموا من ذلك أن عاصمة بكوس بعيدة عن الساحل، وعن المدن الواقعة على الأنهار الصالحة للملاحة، فاتفقوا أن الاتصال تم في مدينة وليلي التي اعتبروها عاصمة بكوس الأول، معززين في ذلك رأي كاركوبينو، الذي جعل من وليلي عاصمة ثانية للملك يوبا الثاني.(4)

فإذا اقتصرنا على نص الرحلة، الذي لم يحدد المسافة التي قطعها أودوكس مشيا إلى بكوس، فذلك لا يستبعد أن تكون العاصمة على الساحل، أو على نهر صالح للملاحة. وهنا نلفت النظر إلى ما تتميز به إحدى المدن في عهد بكوس الأول. يتعلق الأمر بمدينة لكسوس التي طبع اسمها الثاني (شمش) على عملة بكوس. وتميز هذه المدينة وحدها بطبع اسمها مع اسم الملك على العملة، يدعو إلى اعتقاد أنها هي عاصمة بكوس الأول (انظر اللوحة 3 ـ 4).

هناك احتمال آخر، هو إمكانية اقتراح مدينة كَليدة الواقعة على واد بهت، كعاصمة ملكية في فترة ما من تاريخ المملكة المورية، واسم المدينة مشتق من اسم أكليدة أو أوجليد، وهو الملك في اللغة الليبية القديمة والأمازيغية المعاصرة.(5)

---

4) Desanges (J) Actirtés des Méditerranéens aux Confins de l'Afrique, Col. Ecole Française de Rome, n° 38, 1978, p. 169-170; Euzennat (M) et Marion (J), Inscriptions antiques du Maroc, 2, Inscription latines, Paris, 1982, p. 207; Jodin (A), Volubilis Regia Iubiae, Paris, 1987, p.303.

5) محمد مجدوب، مملكة الموريين وعلاقاتها مع رومة لغاية سنة 33 ق.م، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا، كلية الآداب، فاس، 1990، ص. 52ـ 59.

بعد هذه الوقفة نعود للأسئلة التي تطرحها رحلة أودوكس، وهي كما يلي:

- ما هو الهدف من الرحلة ؟
- بماذا تفيدنا الرحلة حول الحالة السياسية والاقتصادية في موريطانية؟

ما هو دور الموريين في الملاحة التجارية ؟

يتضح أن رحلة أودوكس هي أولى التجارب الملاحية التي وصلتنا أخبارها عن التفكير في استكشاف الطريق المؤدية إلى الهند عبر المحيط، انطلاقا من شبه جزيرة إبريا. أما الهدف من الرحلة، فهو القيام بمشروع تجاري، لجلب المواد المتوفرة في المجال الأثيوبي على الخصوص. وهي تتلخص في الحيوانات وأخشاب العرعر Thuya، والمريق Murex لاستخلاص الصباغة الأرجوانية، إضافة إلى العاج والنعام والذهب والعبيد والأحجار الكريمة وغيرها.

والمشروع يعتبر في حد ذاته استثمارا يستجيب لتوسيع آفاق التجارة الرومانية، التي أصبحت تسيطر على العالم المتوسطي بعد سقوط قرطاجة. ويبدو أن لموريطانية دورا أساسيا في مشروع هذه الملاحة التجارية، باعتبارها محطة هامة في الاتصال بالأثيوبيين الغربيين عبر المحيط، أو عبر المسالك الصحراوية.

أما زمن الرحلة، فقد أمكن تحديده بسنة 111 ق.م على أكبر تقدير،(6) وهو ظرف دقيق بالنسبة للملكة المورية تحت حكم بكوس الأول. إنه ظرف متوتر على صعيد إفريقيا كلها، حيث انطلق العدوان الروماني على الملك يوغرطة، الذي كان رعايا بكوس يساندونه ويؤيدونه بشهادة سالوست.(7) بينما كان الملك بكوس يميل إلى التعامل مع رومة، كطرف أقوى في الصراع. وموقف رعيا بكوس

6) Desanges, Activités, op. cit n° 4, p. 152-153.

7) سالوست، حرب يوغرطة، 80 و 111.

المعـادي للـرومان، ينسجم مع سيـاســة الحيطـة والحذر التي تطبع مواقفهم من التـوسع الرومـاني، وذلك ما جعلهم قـد التزمـوا موقف الحياد، ولم يتورطوا في الصراع القرطاجي الروماني.

في ضـوء هــذه الظـرفيـة الدقيقــة، نجـد تفسيرا للمعــارضة الشديدة التـي واجـه بما مجلـس بكوس مشــروع أودوكـس. وهـو يعــد في نظـرهــم مــن الغزاة الأجـانب، الـذي يهـددون استقـلال بلادهم السيــاسي والاقتصادي. واختـلاف موقـف هـذا المجلـس مع الملك، يعــبر عن التنــاقضــات الداخليــة التي كانــت تطبــع واقع الموريـين إبان انـدلاع حـرب يوغرطــة، التي صادفـت قيـام رحلـة أودوكـس.

هكذا يتضح أن لبكـوس مجلسا له دور أســاسي في تسيير شؤون البـلاد. وبالنسبـة لقضيـة أودوكس فإن المعارضين الموريين تشبثـوا بمـوقفهم لمراقبــة شـؤون الملاحـة والبحـر، وصيـانــة مصـالحهم الاقتصادية.

ولـدينا في حصيلـة البحث الأثري بـالمغـرب صورة واضحـة عن السياسة الاقتصادية التي اتبعهـا الموريون، لتجنب الخضوع للهيمنة التجـاريـة الرومانيــة، وهـو الــدافــع الـذي جعلهــم يتصــدون لاودوكس.

فلقد ثبـت أن موريطـانية مرت بمـرحلة مـن الفراغ في العـلاقات التجـارية مع الخارج. فبعـدما وصلـت إلى موريطـانية سلع أجنبيـة فنيقية وإغريقية حتى القرن 4 ق.م، فإن أسواقها استغنت عن السلع الرومانية خلال القرنين 3 و 2 ق.م، وهي فترة التـوسع الرومـاني عسكريا وتجاريـا. يتجلى الاستغناء عن السلع الرومانيـة خاصة فيما يلي:

- غيـاب الخـزف ذي البرنـــيــق الأسـود المــطــبوع بأخــتــام صغيـرة Céramique des ateliers de petites estampilles (اللوحة : 1).
- النــدرة الشديـدة للخزف الكمبـاني واللامفـورات الإغــريقيـة الإيطاليـة LesGréco-Italiques وغياب أمفورات روديس (اللوحة : 2).

ـ غياب أو نـدرة الأمفورات البونية التي كـانت تتعايش مع السلع الرومانية المذكورة (اللوحة 2). وأخيرا غياب أو نذرة النقود الرومانية والقرطاجية خلال القرنين 3 و 2 ق.م.

ولقد لخص ســالوست هـذه الوضعيـة بقولـه: «عند قيـام حرب يوغرطة كان الموريون تحت سلطة بكوس، والذي كان يجهل كل شيء عن الشعب الروماني، وكذلك نحن لم تكن لنا معه أية علاقة لا سلمية ولا عدائية». (8)

والمعلوم أن هـذه الفترة التي استغنت فيها مـوريطانيـة عن السلع الأجنبيـة، تمثل مرحلـة ازدهار عمـراني واقتصادي. يتجلى الازدهـار العمراني في أن كل المدن والمواقع الآثرية المعروفـة حاليا بالمغرب كانت موجودة في هذه الفترة (الخريطة: 2). ومن الناحية الاقتصادية، فإن مظاهر إزدهار البلاد في هذا المجال متنوعة، منها وفرة الإنتاج الزراعي الذي تعكســه عملة الموريين، التي طبعت على معظمها صـورة السنبلة وعنقود العنب (اللوحة 3ـ4).

وأهم مظاهـر الازدهار الاقتصـادي قيام صناعـة الكَاروم Garum، وهي صنـاعة غـذائيـة، تعتمـد على تصبير السمك لاستخلاص مـرق رفيع، مرتفع الثمن، يستعمل في التداوي وإثارة الشهية. وهي صناعة موجهة للتصدير، في أمفـورات ضخمة، كانت تصنع في أفران الأقواس بالقرب من مديـنـة أصيلة الحالـيـة (الـلوحـة 5 ـ 6)، وفـي نقود لكســوس تعــبير مــن هـــذه الصناعـــة بطبع سمك التـون عليهـا (اللوحة 4). (9)

ومن جهة أخرى عرفت موريطانية إنتاج خزف جيد ببرنيق أسود، يضـاهي الخـزف الرومـــاني والبـوني خلال القـرنين 3 و 2 ق.م (اللوحة 7).

إضـافـة إلى الخزف المصبـوغ المتقـن الصنع، في أفـران الأقـواس ومدينة بناسة (اللوحة 8).

8) نفسه، 19.

9) محمد مجدوب، الصناعة الغذائية في المغرب القديم، مجلة بحوث، كلية الآداب المحمدية، العدد 4، 1991، ص. 23ـ 34.

ومرة أخرى يلخص سالوست إزدهار المملكة في عهد بكوس الأول واصفا إياه بأعظم ملـوك زمانه، وأنه لا يحتاج إلى مسـاعدة أي كان، وأنه يتوفر على المال والجيش والسلاح.(10)

وهنا نود أن ندعم هذه الصورة المشرقة من تاريخ المملكة المورية، اعتمادا على نص الرحلة بإثارة دور الموريين في الملاحة التجارية.

إن وقائع الرحلة تدعو إلى الاعتقاد بأن المملكة المورية كانت تتحكم في الملاحة بسواحل المحيط الذي يحف بمجـال نفوذها. والنص صريح في القـول إن أصـدقاء الملـك اعترضوا بشـدة على السماح لـلأجـانب بمعـرفـة طريـق الملاحة إلى بـلادهم. ومعنى ذلك أن الموريين كـانـوا يراقبون مسـالك المحيط، الذي اشتهر بأهوالـه منذ القديم، ولم يسلم صاحب رحلتنا من مخاطرة.

إن إشارة النص إلى كون أودوكس طلب من بكوس أن يشرف على الـرحلة، يقتضي أن للملك أسطـولا بحـريا. وذلك عكس رأي ديـزانج الذي ينفي وجود بحـرية عند بكوس.(11) وفي النص، أيضـا إشارة إلى تـداول المراكب البحريـة في موريطـانية، حيث بـاع أودوكس مراكبـه. والإشارة إلى قـرار الموريين بنقل أودكس إلى جزيـرة خالية، لـلانتقام منه، لابد أن يتم بواسطة مراكب بحرية.

وهكـذا نعتبر أن العقـاب الذي تقـرر في حق أودوكس، يـرجع إلى كـونه تجرأ على معـرفـة الطريق البحـريـة المؤديـة إلى مناطق نفـوذ الموريين، خاصة بعدما اضطـر للمساحلة، والنزول على التراب الموري. ونرجح أن للملك حراسا للبحر، ألقـوا القبض على الرجل، الذي حاول أن يجد ذريعـة لـلإفلات من العقـاب، بـاقتراح الإشراف عن رحلتـه. وأعتقد أن إشارة النص لذهابـه مشيا إلى بكوس تصوره في حالة أسر، بسبب المخالفات التي أرتكبها.

وفي النص إشـارة إلى فرار أودوكس من مـوريطانيـة، والتجائه إلى منطقة خاضعة للرومان، ومنها عاد إلى سبانيا. عند قيام الرحلة، كان

10) سالوست، حرب يوغرطة، 110.

11) Desanges, Activités, op. cit n° 4 p. 154.

للرومان ولايتـــان في إسبانيـا منذ 196 ق.م، وولاية في إفريقيـا منذ 146 ق.م، في منطقة نفـوذ قرطـاجة الســابق، أي في تونـس الحالية. فحسب النص، إن فراره إلى إسبـانيا غير وارد، ما دام قـد انتقل إليها فيما بعد، من منطقة أخرى خاضعة للرومان.

وهنا نـرفض فكرة ديـزانج الذي زعم أن أودوكس فـر إلى طنجة، على أنها منطقة لم تكن ضمن نفوذ المملكة المورية.(12) وهذه مغالطة لا يزكيها ما نعرفه عن واقع المملكـة المورية، التي لم تفقد زمام أمورها إلا في فترة فراغ العرش، بعد وفـاة بكوس الثاني سنة 33 ق.م، حيث أقام أوكتافيوس أولى المستـوطنات الرومانية في موريطـانية، وضمنها مستوطنة في طنجة.(13)

إن أودوكس لم يجد حيلة للفرار إلى إسبانيا توا ومن منعه من ذلك في تقديرنا، هو مراقبة الموريين لبحارهم، كما حدث ذلك سنة 82 ق.م، في ظروف ثورة الموريين ضـد أسكاليس، عندما حـاول سيرطوريوس النزول على سواحل المتوسط، للتـزود بالماء لا غير، فهاجمه الموريون، وقتلوا عددا من رجاله.(14)

ولهذا نـرجـح أن أودوكس تجشم مخاطـر التسلل عبر المســالك الداخلية في موريطـانية، وقطع المجال الكَيتولي، قاصـدا ولاية إفريقيا. ولعله اعتمـد على الملك نفسه، وعلى بعـض العناصر الموالية، فـأشعروا الرجل بالعقاب المبيت ضده، وهيأوا له سبيل النجاة بواسطة مرشدين رافقوه إلى الولاية.

ولقد سبقت نفس التجربـة مع ما سنيسا سنة 206 ق.م، في عهد الملك الموري باكَا، الذي أمده بعساكر رافقوه في طريق العودة إلى تخوم مملكة والده، في شرق نـوميدية، وساعدوه في الإفـلات من مراقبة الملك النوميدي سيفكس، الذي كان يتطلع للتوسـع في نوميدية.(15)

---

12) Idem, Ibid, p. 171-172.

13) محمد مجدوب، مملكة الموريين، نفس المرجع في رقم 5، ص 160 ـ 161.

14) Plutarque, Sertorius, 7.

15) Tite live, 29, 30, 1- 4.

انطلاقا من هذه التصورات، نعتقد أنه ليس من قبيل المجازفة، إذا فكرنا في أن المملكة المورية استطاعت أن تستفيد من وضعها المتميز بانفتاحها على واجهتين بحريتين منذ القديم، لتصبح وسيطا تجاريا بين الأثيوبيين والعالم المتوسطي. فلهذه المملكة مجال نفوذ واسع، يمتد من نهر ملوية شرقا إلى جبال الأطلس في الجنوب الغربي.(16)

ومن مظاهر استثمار الموريين للبحر اقتصاديا، ما ذكرناه عن تطور صناعة الكَاروم في موريطانية، اعتمادا على الثروة السمكية التي يزخر بها المحيط. وترجع أقدم الأدلة الأثرية عن تصدير الكَاروم إلى النصف الأول من القرن 5 ق.م، حيث وصلت أمفورات الأقواس إلى المدن اليونانية محملة بالكَاروم (اللوحة 6). وهنا يحق أن نتساءل هل قام الموريون أنفسهم بإيصال هذا الكاروم إلى اليونان؟

وفي التنقيبات التي أجريت بجزيرة موكَادور، دلالة عن توقف الوساطة الأجنبية في التجارة مع أهل المحيط، منذ أواخر القرن 6ق.م، بدليل وجود طبقة أثرية فارغة من السلع الأجنبية. لكن هذا المستوى ليس فارغا تماما، بل يحتوي على أمفورة الأقواس العتيقة وبقايا عظام الفيل.(17)

وإذا صح أن جزيرة موكادور هي جزيرة كيرني الشهيرة، والتي كانت محطة للتجارة مع الأثيوبيين، فإن وجود أمفورة الأقواس وحدها في مستوى الفراغ من السلع الأجنبية، خلال فترة تمتد من أواخر القرن 6 إلى أواخر القرن 2 ق.م، يمثل مؤشرا عن حلول الوساطة المورية محل الوساطة الأجنبية في التعامل مع الأثيوبيين.

وبواسطة بوليبيوس في القرن 2 ق.م، نعلم أن للموريين ميناءان على الأقل جنوب مدينة سلا. الأول يدعى روتوبيس، يقع بين نهر سلا وهو أبو رقراق، ونهر أناتيس وهو أم الربيع حسب معظم الدارسين، والميناء الثاني يدعى روسادير جنوب نهر أناتيس.(18) وإذا كان

16) Strabon, 2, 3, 4 ; 2, 5, 33 ; 17, 3, 5-6 ; pline l'Ancien, 5, 10 et 19.

17) Jodin (A), Mogador comptoir phénicien du Maroc atlantique, ETAM, 2, 1966, p. 35-37.

18) Pline l'Ancien, 5, 9.

الميناءان غير معروفان حاليا، فالغالب أن لهما دورا في استثمار الموريين لثروات المجال الكَيتولي والأثيوبي.

إن بعض الإشارات في النصوص إلى مراقبة قرطاجة للعبور في المضيق،(19) تعكس في تقديرنا سياسة اقتصادية مستقلة فرضها الموريون على مجال نفوذهم، خاصة على الملاحة في المحيط. وهنا نعتقد أن رأي القدماء الأكثر مصداقية جاء على لسان بوليبيوس، في التأكيد على أن نفوذ قرطاجة يمتد من أضرحة الأخوين فلين إلى مضيف أعمدة هرقل.(20) ومعنى ذلك أن نفوذ قرطاجة لم يشمل المحيط. وحتى المستوطنات التي زعم حنون في رحلته بإقامتها بين المضيق ولكسوس، فإن بلينيوس الشيخ يؤكد عدم وجود أي أثر عنهما.(21) كما لم تكتشف أية آثار عنها لحد الآن.

بينما نقف عند إشارات تفيد وجود هذه الوساطة المورية بين الأثيوبيين والعالم المتوسطي، أهمها وردت عند سالوست، الذي انصب باللوم على الموريين، لأنهم كانوا يخفون عن الرومان ما كان يجري في بلاد الأثيوبيين. والمؤرخ يتهم الموريين بالكذب في هذا الباب.(22)

ولقد استأثر هذا الوضع بالشاعر لوكريس الذي صرح بأن الرومان لم يخترقوا المحيط،(23) إلى أن يأتي وقت سنيك الذي عبر عن الانفراج، واقتحام الرومان للمحيط، موضحا أنهم تعرفوا على ما كانوا يجهلونه من قبل.(24)

يستفاد من كل ما سبق أن الوساطة المورية كانت عقبة في وجه رجال الأعمال الرومان إلى مطلع القرن الأخير قبل الميلاد. ويعتبر أودوكس واحدا منهم، تسلط عليه العقاب الموري بسبب اقتحام المحيط، والاقتراب من السواحل والاتصال بالأثيوبيين. أما بعد انفتاح

(19 Strabon, 17, &, 19.
(20 Polybe, 3, 2, 29.
(21 Pline l'Ancien, 5, 8.
(22 Salluste, Histoires, frgt. 92.
(23 Lucrèce, DE la Nature, 4, 34-35.
(24 Sénèques, Consolations, 14, 3 ; Questions, 4a, 2, 24.

موريطانية على الرومان، في مطلع القرن الأخير قبل الميلاد، فإن الوضع أصبح كما يصفه سنينك. ولنا أخبار عن سيتيوس، كأحد رجال الأعمال الرومان، الذي اشترك مع الملك الموري ماستانيسوسوس في صفقة مالية وتجارية قبل سنة 64 ق.م.(25)

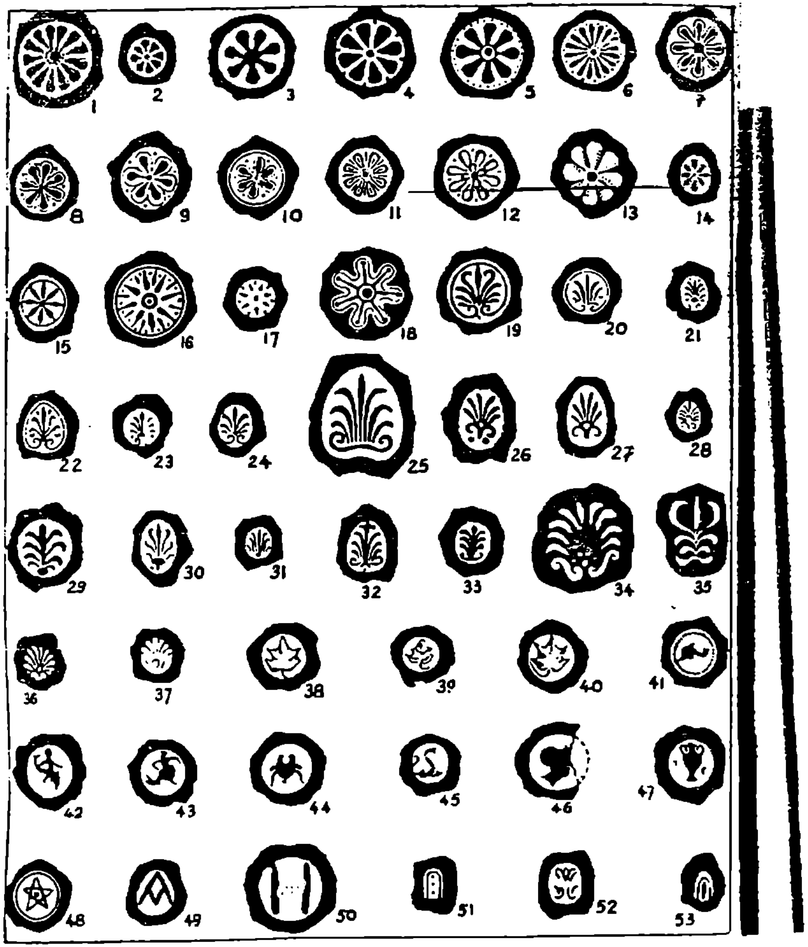
وخلاصة القول نتقدم بهذه التصورات المستمدة من نص الرحلة، لاستنباط أوضاع موريطانية السياسية والاقتصادية. ولنا في البحث الأثري دلالة على معرفة التحول من الانغلاق على الرومان إلى الانفتاح عليهم. وهو انفتاح تعثر كثيرا بسبب مواقف الموريين ومقاومتهم لرومنة بلادهم.

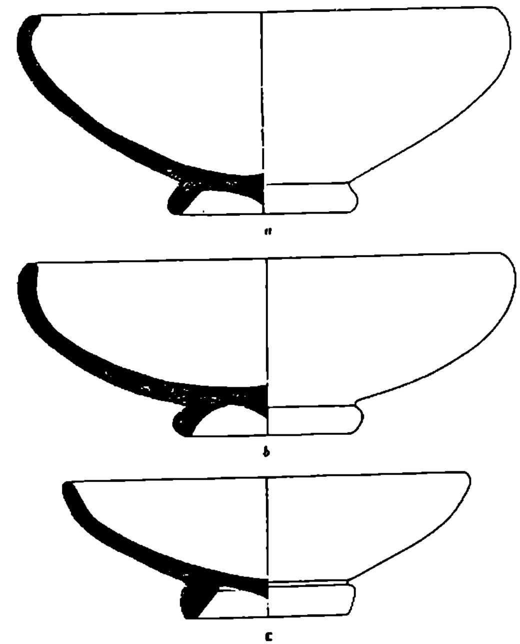
وأخيرا نؤكد أن البحث الأثري في المغرب ما زال ملحا وواعدا، خاصة حول الفترة الموريّة، وهو الاصطلاح الذي يعبر به الأثريون عن عهد استقلال المملكة المورية قبل السيطرة الرومانية.

وأهم ما يطرح حول هذه الفترة، هو معرفة خصوصياتها وسماتها المحلية، ومدى التأثيرات الخارجية البونية والرومانية.

(25 Cicéron, Sylla, 20, 56-58 ; Salluste, Catilina, 21, 3.

الخزف ذو البرنيق الأسود المطبوع بأختام صغيرة



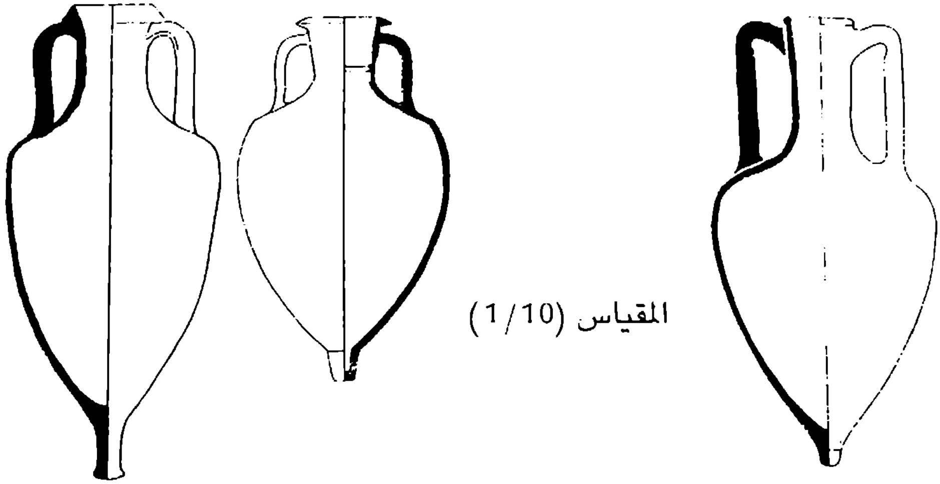


اللوحة : 1.

المرجع :

Morel, Etudes, Fig. 1, p. 61 et Fig. 5, p. 72

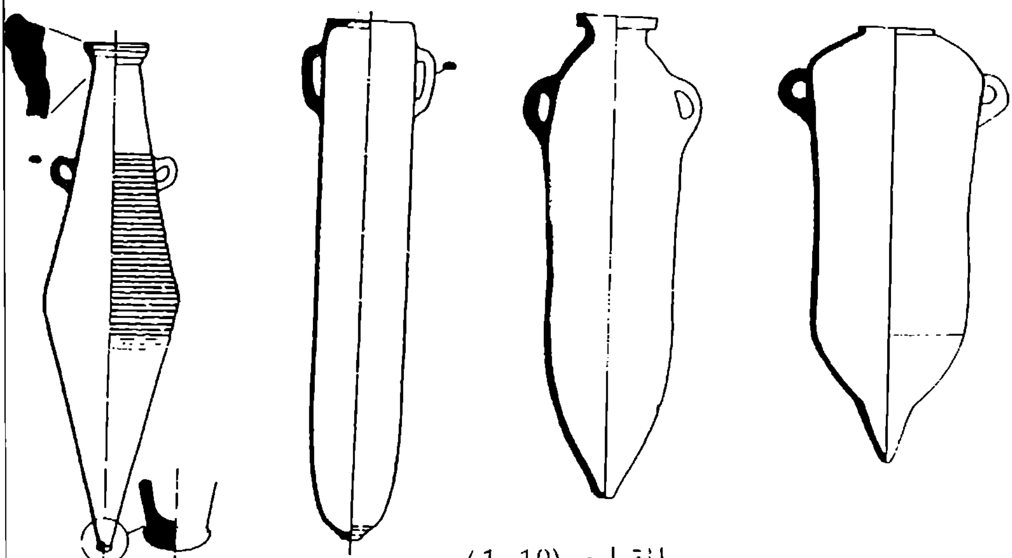
أمفورات لم تصل إلى موريطانية خلال القرنين 3 و 2 ق.م.



المقياس (1/10)

1. أمفورة روديس. 2. نموذجان من الامفورات الإغريقية الإيطالية.

المرجع : *Empéreur et Hesnard, pl. 3 n° 10, pl. 5 n° 23 et 25.*



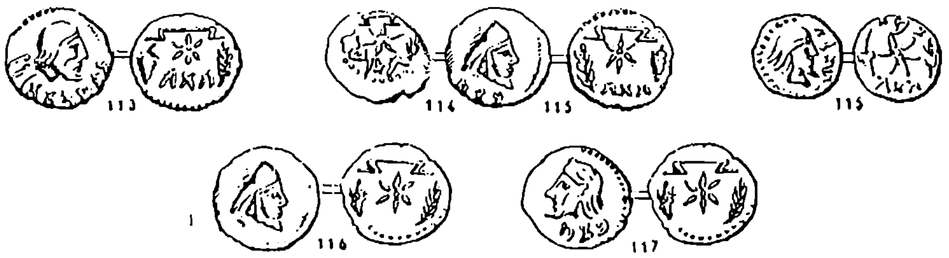
المقياس (1 10)

Mana E Mana D Mana C1 Mana B

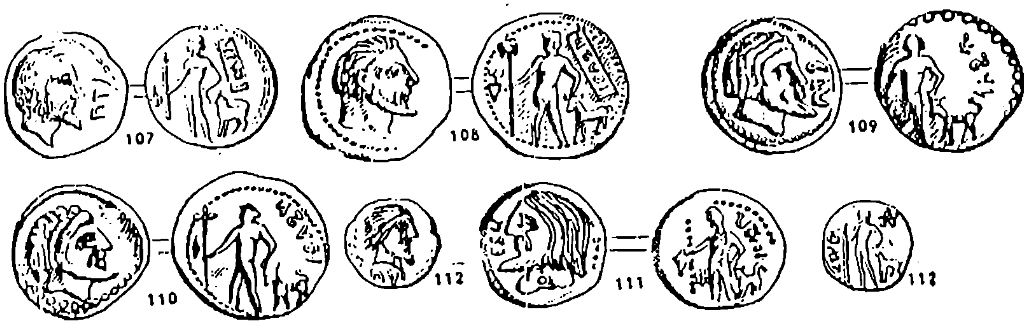
3. الامفورات البونية.

المرجع : *Empéreur et Hesnard, pl. 11 n° 52, 54, 55, p. 71*
Solier, Céramique, Fig. 4 n° 1, p. 137.

العملة الملكية المورية قبل ذيوع التأثيرات الرومانية.



1. بكوس الأول قبل حرب يوغرطة.



2. بكوس الأول بعد حرب يوغرطة.



3. ماستانيسوسوس

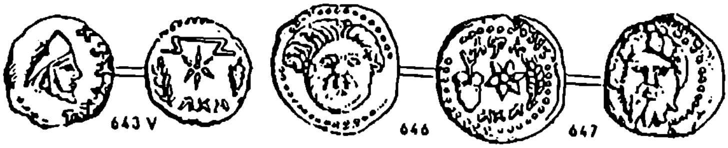
المرجع انظر : *Mazard, Corpus, p. 55, 62-65.*

اللوحة : 3.

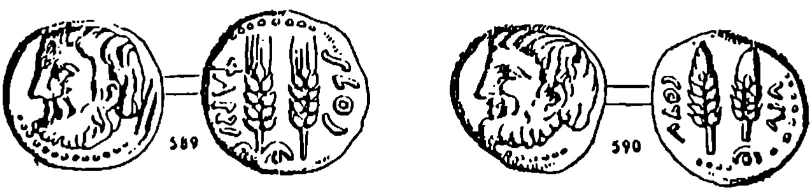
نماذج من عملة بعض المدن المورية.



1. تامودة



2. شمش



3. طنجة

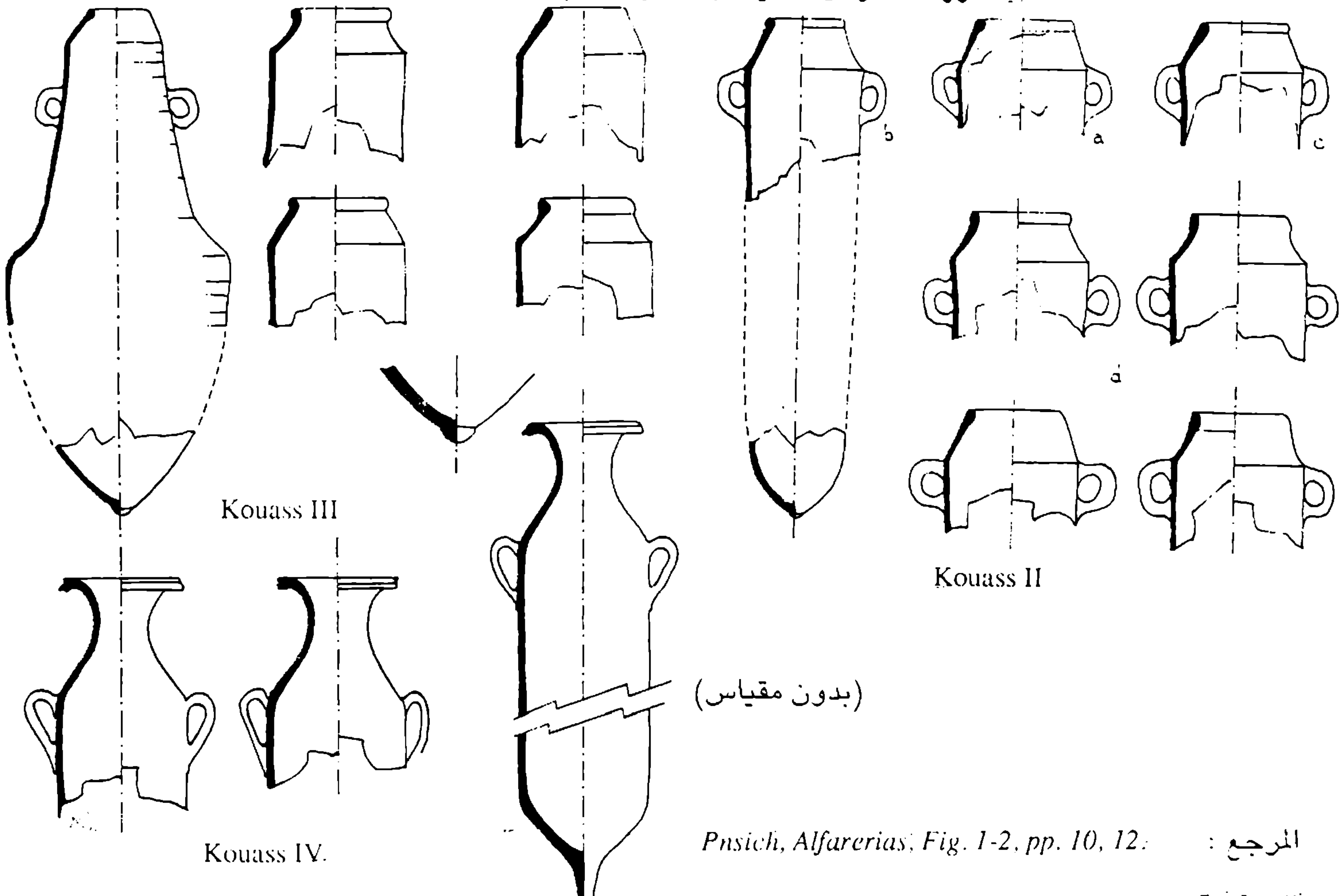


4. لكسوس

المرجع انظر: *Mazard, Corpus, op. cit., p. 179, 181, 190, 191, 193.*

اللوحة : 4.

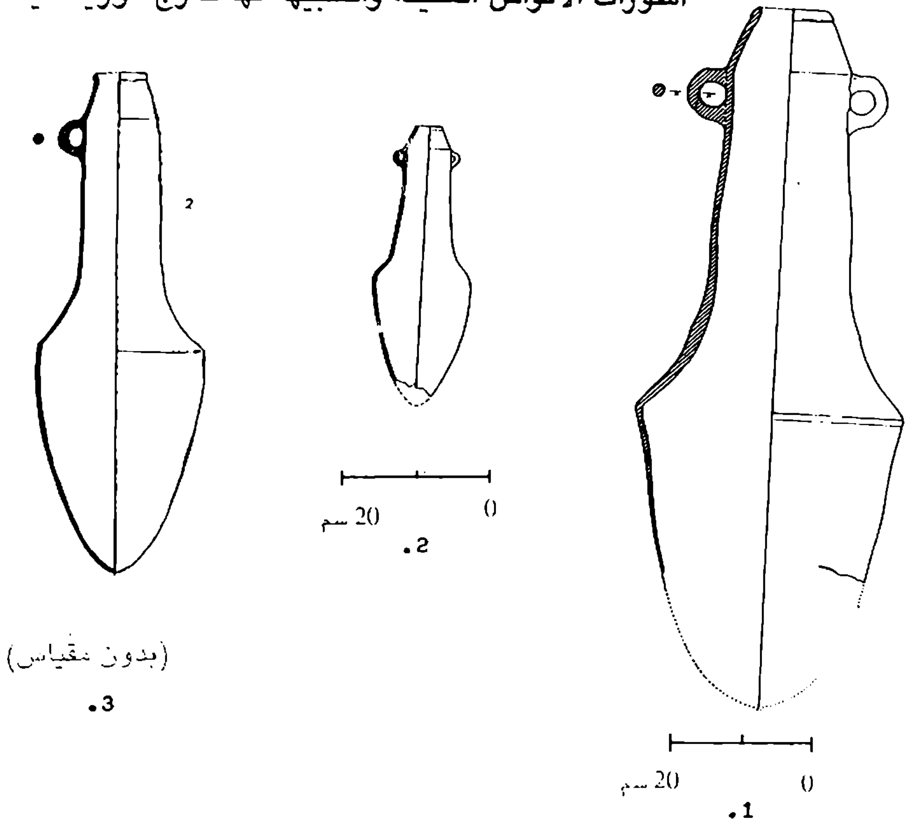
أمفورات الأقواس العتيقة والمتأخرة حسب تصنيف «بونسيك»

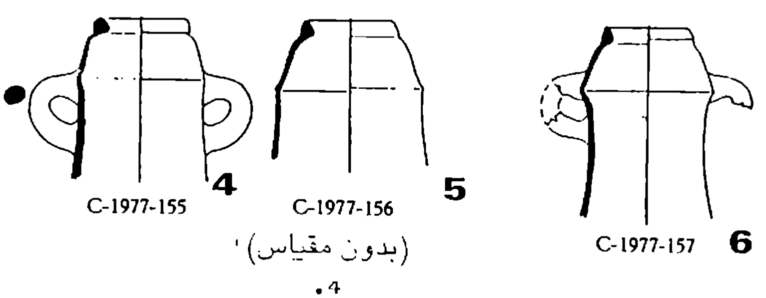


المرجع : *Pnsich, Alfarerias, Fig. 1-2, pp. 10, 12.*

اللوحة : 5.

أمفورات الأقواس العتيقة والشبيهة لها خارج موريطانية.





1. أمفورة وجدت في موقع زيليل

المرجع : *Akerraz et Autres, D.C.J. pl. XVIII*

2. أمفورة وجدت في منطقة وهران.

المرجع : *Vuillemot, Oranie, fig. 97 N. 4, p, 236*

3. أمفورة وجدت في مصانع الكَاروم بكَاديس.

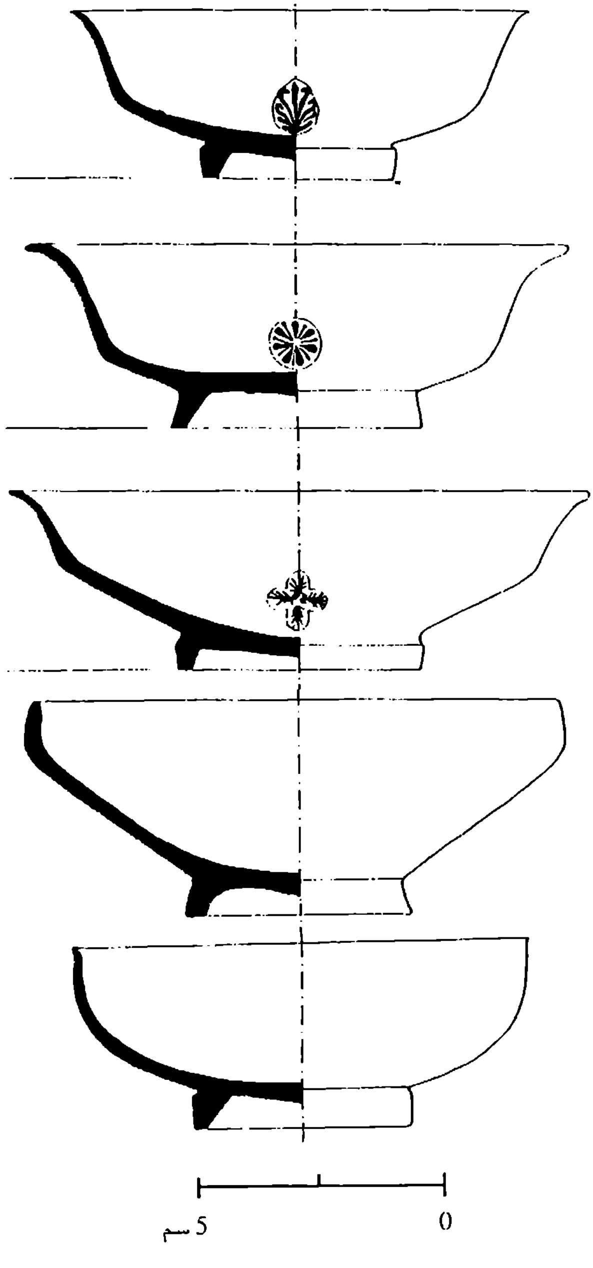
المرجع : *Munoz et Autres, fig. 10, p. 505*

4. أمفورات وجدت في كورنثا.

المرجع : *Rouillard, Commerce, fig. 1*

اللوحة : 6.

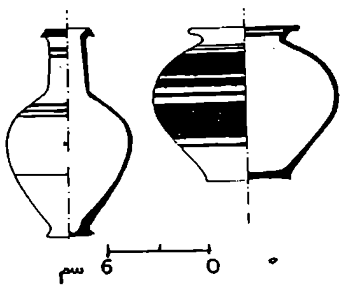
خزف ببرنيق أسود صنع في الأقواش قبل استيراد الخزف الكمباني.



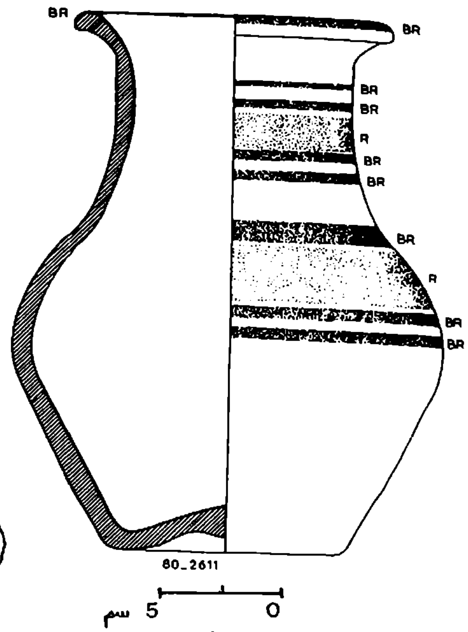
المرجع : *Ponsich, Alfarerias, Fig. 5 et 6, pp. 17, 19*

اللوحة : 7.

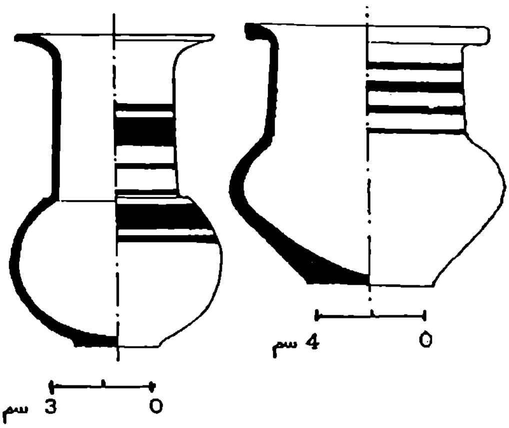
نماذج من الخزف المصبوغ الموري.



.2



.1



.3

1. إناء من الخزف المصبوغ وجد في زيليل بالمستوى الموري الأول.

المرجع : *Akerraz et Autres, D.C.J., pl. XVIII*

2. نموذجان من خزف مصبوغ صنع في أفران الأقواس.

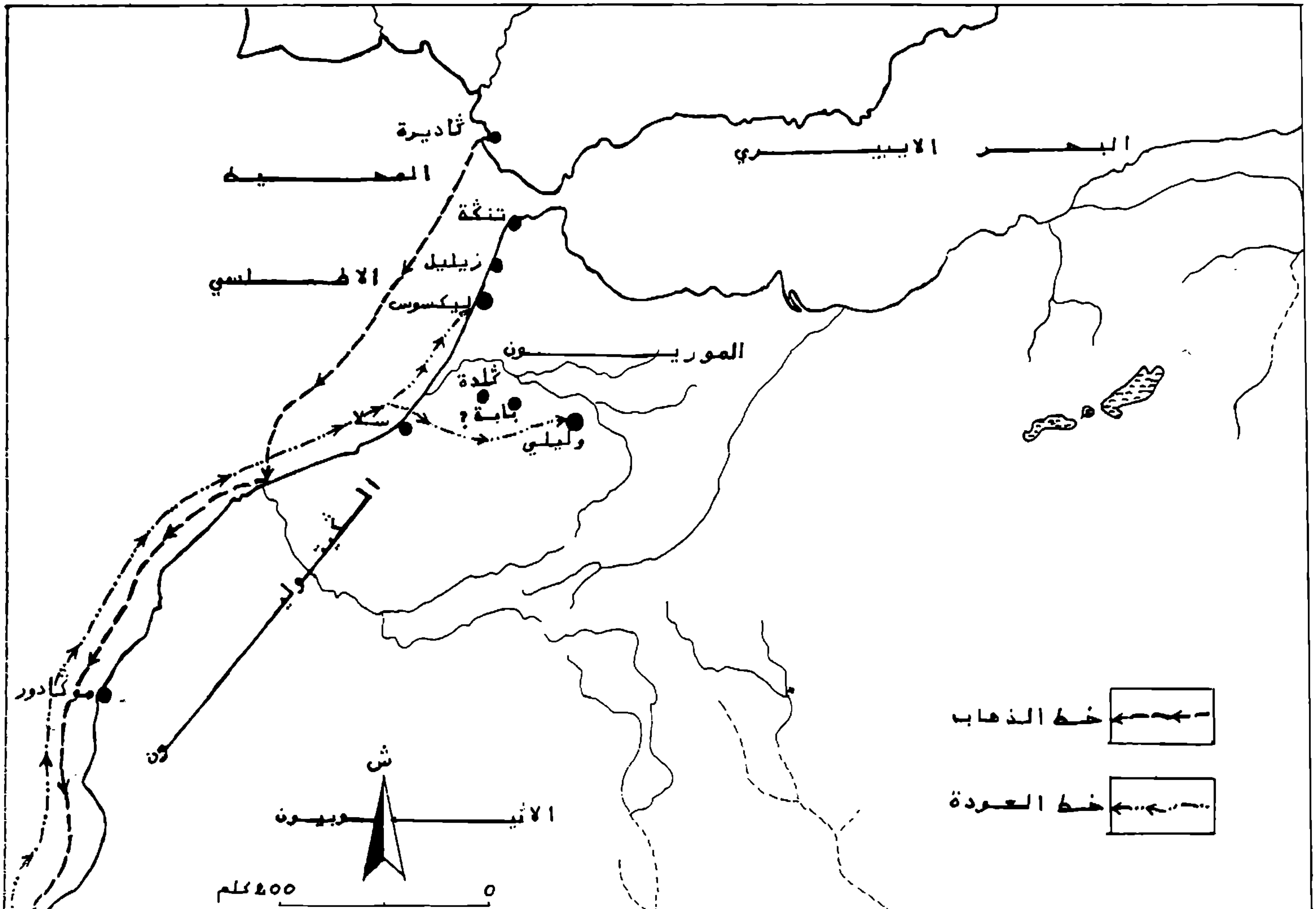
المرجع : *Ponsich, Imitation, fig. 11, p. 73*

3. إناءان من الخزف المصبوغ وجد في مقابر بناحية طنجة.

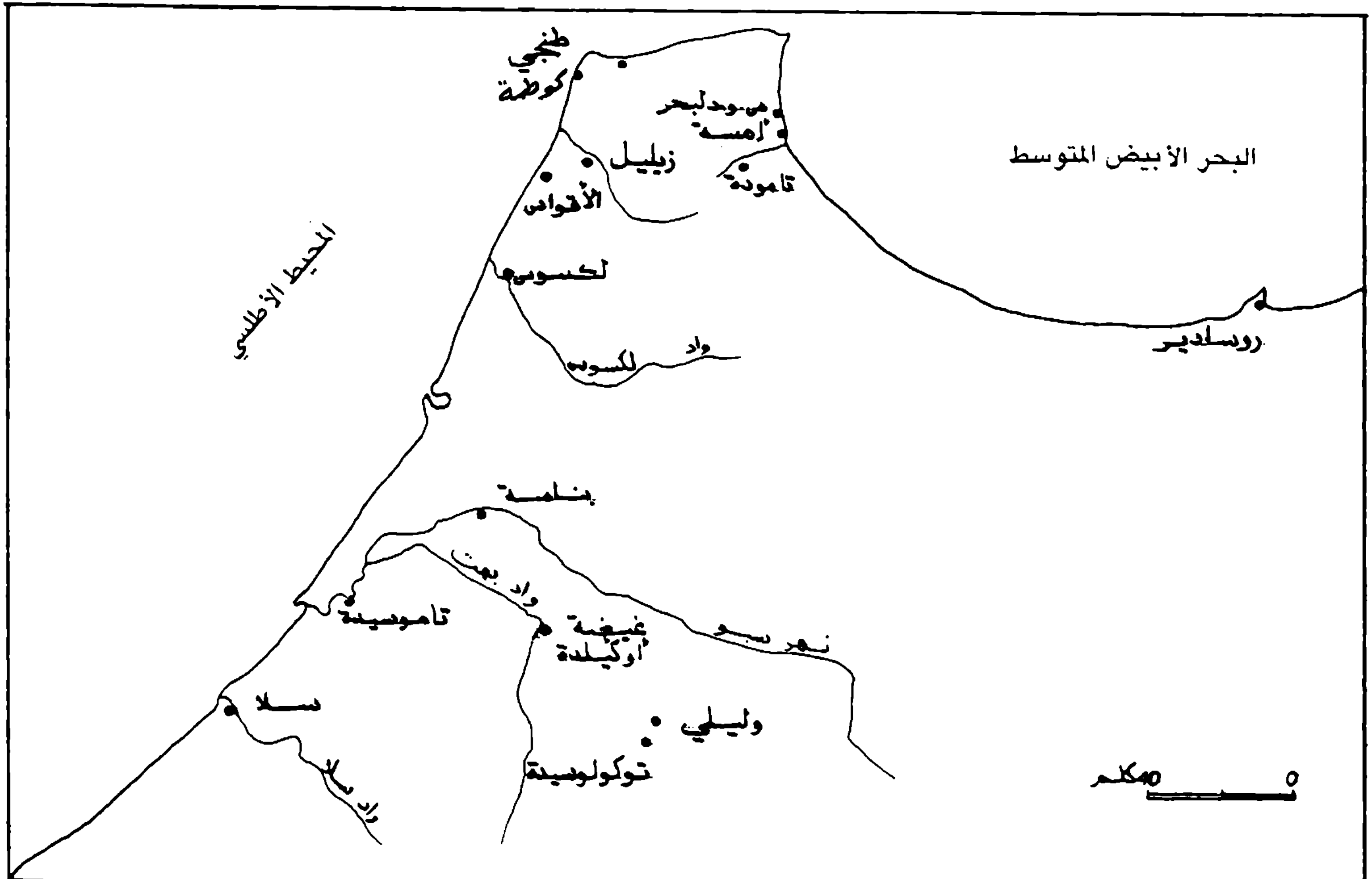
المرجع : *Ponsich, Reoh erches, fig. 44 - 45 pp. 136 _ 137*

اللوحة : 8.

خريطة رقم : 1 خط رحلة أودكس الكوزيكي



خريطة رقم : 2 المراكز الحضرية المعروفة أثريا بالمغرب



مـراجــع الألـواح

اللوحة : 1.

Morel (J.P), Etudes de céramique campanienne, 1, l'Atelier de petites estampilles, MEFR, 81, 1969, 1, p. 59-117.

اللوحة : 2.

Empereux (J.Y.) et Hesnard (A), Les Amphores hellénistiques du bassin occidental de la Méditerranée, Céramique hellénistique et romaine, 2, 1987, p. 9-71.

اللوحة : 3.

Idem, Ibid; Solier (Y), Céramique punique et ibérique sur le littoral du Langodoc, du 6e au début du 2e S. av. J.C., Hommages à F. Benoit, 2, Bordighera, 1972, p. 127-250.

اللوحة : 3 ـ 4.

Mazard (J), Corpus nummorum Numidiae Maurestaneaque, Paris, 1955.

اللوحة : 5.

Ponsich (M), Alfarerias de epoca fenica y punico-mauritana en Kouass (Arcila Marruecos), (Papeles del laboratorio de arqueologia de Valencia, 4), Valencia, 1968.

اللوحة : 6.

1) Akerraz (A) et Autres, Fouilles de Dchar Jdid, 1977-1980, BAM, 14, 1981-1982, p. 169-225.

2) Veuillemot (G), REconnaissances aux échelles puniques d'Oranie, Autun, 1965.

3) Munoz-Vicente (A) et Autres, Contribucion a los origenes y difusion comercial de la industria pesquera y conservera Gaditana a travers de las recientes opontaciones de los factorias de salezones de la Bahia de Cadiz, Actas del congreso internacional "El Est recho de Gibraltar", Ceuta, 1987, Tomo 1, Madrid, 1988, p. 487-508.

4) Rouillard (P), Le Commerce grec du 5e et.4e S; av. J.C. dans la région de Lixus et Gades, 1e Symposium international sur la ville antique de Lixus, Larache, 1989, éd. de l'Ecole Française de Rome,sous press.

اللوحة : 7.

Ponsich (M), Alfarerias, op. cit.

اللـوحـة : 8.

Akerraz (A) et Autres, Fouilles, op. cit.
Ponsich (M), La Céramique d'imitation; la campanienne de Kouass, région d'Arcila – Maroc, AEA, 42, 1969, p. 56-80.

Idem, Recherches archéologiques à Tanger et dans sa région, Paris, 1970.

المحور الثاني

الأهمية المصدرية لكتب الرحلات

كتاب «نزهة المشتاق»[1]
مصدر أساسي لدراسة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي

ذ. محمد حناوي
كلية الآداب ـ المحمدية

مقدمة :

قبل محاولة رصد جوانب من التاريخ الاقتصادي والاجتماعي في الكتاب المشهور **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق** لصاحبه الإدريسي، نؤكد أن كتب الرحلات والجغرافيا تشكل مصادر لا غنى عنها لأي باحث يهتم بحضارات وثقافات مختلفة. فإذا كانت كتب الجغرافيا من المصادر الأساسية في البحث التاريخ لأسباب معروفة أهمها أن الباحثين القدامى لا يكادون يميزون بين التاريخ والجغرافيا، فإن الرحلات العلمية القائمة على المشاهدة والمعاينة أكثر إفادة لأنها تقرب من الواقع المراد دراسته.

نعتقد أن دراسة الحياة الاقتصادية والاجتماعية في العصر الوسيط عموما، تمر بالضرورة من كتب الرحلات والجغرافيا. إن تصنيف مادتها ودراستها بشكل معمق من شأنه أن يدفع إلى الأمام بالدراسات التاريخية، ويكفي الإشارة في هذا الصدد، إلى أن كتب الرحلات العلمية

1) الإدريسي (أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس): **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، نشر: مكتبة الثقافة الدينية، الظاهر، القاهرة، دون تاريخ مجلدان.

ســـاهمت إلى حــد كبير في تطــويـــر الــدراســـات الاثنــولــوجيـــة والاثنوغرافية.(2)

تجدر الإشــارة إلى أن العــالم الإسلامي الــوسيط عــرف رحــلات علميــة متعددة على امتــداد رقعتــه شرقــا وغربــا، وذلك عكس أوربــا الفيودالية. فباستثناء الرحلات التجارية الجماعية التي ازدهرت خلال فترة الحروب الصليبية ظلت الرحلات العلمية في أوربا قليلة إلى حدود القرن الرابع عشر الميلادي.(3) ومن هنــا أهمية الإدريسي الــذي نحن بصدده في هذا البحث، لأنه تجول في منــاطق أوربية مهمة وهو مسلح بمعلــومات جغــرافية مــدققــة. فبعد تجوالــه في الأندلس والمغــرب زار شواطئ إنجلترا وفرنسا وإيطاليا وصقلية دون أن يغفل بلاد آسيا.

إن الإدريسي اهتم أكثر من سابقيه بالقارة الأوربية يقول إسماعيل العربي(4) بأن أوربــا احتلــت لأول مــرة مع الإدريسي مكــانـــا ولــو متــواضعــا في الجغــرافيا العــربيــة ويضيف الــزركلي أن كتــاب **نزهة المشتاق** «... أصح كتاب ألفــه العرب في وصف بلاد أوربة وإيطــالية وكل من كتب عن الغرب من علماء العرب أخذ عنه...».(5)

---

2) الإثنولوجيا علم يحاول وضع مفاهيم نظرية واضحة يتعامل بها مع مجتمع معين ويعتمد علم الإثنــوغرافيــا التي تهتم بالجانب الــوصفي الأولي لحياة هــذا المجتمع. تطورت هــذه الدراسات بشكل كبير ومعقد أحيانا في مدارس البحث الأوربية: انظر مثلا:

Parain (Ch); outils ethnies et développement historique, Paris, édition sociales 1979.

د. حسين محمد فهيم، «**الرحالة كاثنوغرافيين والإثنوغرافيون كرحالة**»، عالم المعرفة، عدد 138 يونيو 1989 صفحات 49 ـ 76.

3) ابتداء من هــذه الفترة بدأت الــرحلات تالكبرى مــن أوربا وأهمها رحلــة المسافــر البندقي الأصل Marco. Polo (1254 ـ 1324)، الذي تجول في آسيا عبر منغــوليا ووصف أسفاره في كتاب بالفرنسيــة معروف (بعجائب الدنيا)، يعتبر من الوثــائق الأساسية حول الشرق الأقصى. وقبــل M. Polo تجولت شخصيــات داخل أوربــا الفيــوداليــة لكن أسفــارهــا وتحركاتها اتسمت بطــابع ديني كنسي وأحيانــا خرافي مبالغ فيــه نذكــر على سبيل المثال شخصيــة Pierre L'ERMITE الذي كــان على رأس إحدى الحروب الصليبيــة ذات الطابع الشعبي عاش ما بين (1050 و1115).

4) **ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي**، بيروت 1970 المقدمة.

5) **الزركلي (خير الدين)، الأعــلام (قامــوس وتراجــم)** بـــيروت، دار العلم للمــلايين ج 7، ص: 24.=

لقد شكل الإدريسي حلقة أساسية في الرحلة العلمية الإسلامية والعالمية في عصره (القرن السادس هـ / الثاني عشر الميلادي)، ولا يمكن فهم واستيعاب المادة العلمية الأساسية الواردة في كتاب «**نزهة المشتاق**» دون الوقوف عند المصادر التي اعتمدها الإدريسي في هذا المصدر الهام وهي مفيدة في إبراز إضافاته في مجالات متعددة.

إن المصادر الأساسية المعتمدة في **نزهة المشتاق** متنوعة. لقد استفاد من العلماء القدامى الذين سبقوه ويذكر أنه استفاد من بطلميوس في **كتاب الجغرافية** ومن البيروني في خرائطة. كما اعتمد على ابن حوقل (صورة الأرض) وأبو عبيد الله البكري (المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب) وابن خرداذبة (المسالك والممالك) وغيرهم.

يبدو الإدريسي أحيانا مكررا لمعلومات هؤلاء، لكن من المفيد الإشارة إلى أنه يناقش وينتقد أيضا المعلومات التي يشك في صحتها ولا يثبت إلا ما صح لديه، يقول في ثنايا **نزهة الشتاق**:

- (نذكر ما حكاه الثقاة):
- (ما اتصل بنا علمه وصحت الأخبار عنه).
- (نأتي بما ذكره المتجولون ونقله المسافرون واتفقت عليه أقاويل الناقلين).
- أخبر بعض الثقاة من متجولي التجار إلى بلاد السودان).
- (فأما أرسطو طاليس وأرشميدس فإنهما قالا في المد والجزر، وهذا كلام يحتاج إلى الزيادة فيه والبيان...).

بعد هذا التقديم يمكن رصد جانبا من المادة الاقتصادية والاجتماعية في كتاب **نزهة المشتاق**، وتبيان أهميتها مركزا على المادة المرتبطة بشمال إفريقيا أو المغرب العربي والأندلس دون إغفال المناطق الصحراوية والسودان وكذا المشرق (مصر والشام)، نظرا

= نضيف أن اهتمام الإدريسي بأوربا وخاصة صقلية التي استقر عند ملكها روجار الثاني وأهدى له كتاب «**نزهة المشتاق**»، كان مفيدا للرحلة العربية الإسلامية، لكن في الوقت نفسه جعل العديد من معاصريه مغاربة ومشارقة ينتقدون لأنه التجأ إلى صقلية المسيحية في الوقت الذي كان فيه الصراع على أشده بين الموحدين والمسيحيين في الأندلس.

لأهميـــة الـــعـــلاقـــات التجاريـــة بين هــذه المنــاطق خــلال العصر الوسيـط.

إن طول هـذه المادة العلمية واستحالة الإلمام بكل جـوانبها في مثل هذا البحث، يـدفعنا إلى الاقتصار على تلك النصـوص والإشارات التي سوف تفيـد اقتصاديا في تبيـان أهمية بعض المناطق وإنتـاجها حتى يسهل تصـور خريطـة اقتصــاديـة وجغرافيـة لها في فترات محددة، واجتماعيا، في الكشف عن دور الفئـات الاجتماعية الفاعلـة في التجارة والإنتاج ـ وكذا العلاقات الاجتماعية التي تنسج بالتجارة أو بالحروب أو بالجوار ـ مع الإشارة إلى نصوص مهمة تكشف عن عادات وتقاليد وقيم ســادت مجتمعــات مختلفـــة عاشـــت قبل الإدريس أو خــلال عصــره.

المجال الاقتصادي :

يصف الإدريسي في كل إقليم(6) من كتاب **نـزهـة المشتـاق** المراكز الأساسية والمسافات التي تربط فيما بينها ليركز بعد ذلك على إنتاجها الفلاحي والصناعي ودورهــا التجاري، فبالنسبة للسودان مثـلا يذكر أهم أقاليمه فيقول: «... غانة أكبر بـلاد السودان قطرا وأكثرها متجرا وإليها يقصد التجار الميـاسير من جميع البلاد الميحطة بها ومن سائر المغرب الأقصى...».(7)

ويقول في طـرق السقي في أرض زغاوة التي تلي أرض فـزان بأن السودان في هذه المناطق «يزرعون الذرة والشعير ويسقونها بالماء نكلا بـــآلات يسمـــونها أنجقـة وتسمـى في بـــلاد المغـرب هـــذه الآلـــة بالخطارة...»،(8) ويضيف أن أهل المدن في السودان يـزرعون البصل

---

6) على غـرار سابقيـه قسم الإدريس العـالم إلى سبعة أقـاليم وكل إقليم يحتـوي على عشرة أقسام.

7) الإدريسي، نزهة المشتاق، المصدر السابق ج 1، ص: 23.

8) نفسه. ص: 112. أورد الإدريسي نصوصــا كثيرة مفيدة في وضع مقارنات في طـرق الري بين العديد من المناطق التي وصفها.

والقـــرع والبطيخ... ولا حنطـــة عنـــدهم أكثـــر من الـــذرة ومنهـــا ينتذرون...(9)

بعـد وصف بلاد الســودان خصص الإدريسي حيزا هـاما لمنطقـة المغـرب العربي والأنـدلس فبـدأ بمـدن الجنوب التي ذكـرت كثيرا في المصادر الوسيطيـة المعروفة قبله كالبكـري وابن حوقل وأشار إلى أن مدينة لمطـة اشتهرت بصناعة الدرق اللمطيـة «التي لا شيء أبدع منها ولا أصلب ظهـرا ولا أحســن منهـا صنعـا وبها يقـاتـل أهل المغـرب لحصانتها وخفـة محملها...»(10) ويضيف أن سكـان لمطـة «قـوم يصنعون السروج واللجم».(11)

وتتميـز لمطـة كذلـك برواج ونفـاذ تجارة بعض الألبسة كالبرانس التي مكننا الإدريسي من أثمنتها وأسعارها حين يقول: «يساوي الزوج منها خمسين دينارا وأكثر وأقل...»(12) إلى جانب ما سبق تمتع أهل لمطة بالأبقار والأغنام الكثيرة.(13)

أمـا مـدينة سجلماســة فهي مـركـز تجاري هام ومحطـة عبـور أســاسيـة خصــوصا قبل عصر الإدريسي فهـي على حد قـولـه قبلـة «الصادر والوارد»،(14) وأهلهـا مشهـورون بإنتــاج «غـلات القطن والكمون والحناء ويتجهز منها إلى سائر بلاد المغرب وغيرها...»،(15) ومن سجلماســة إلى مـركـز درعـة الذي هـو مجمـوعـة من القـرى والتجمعـات السكنية المتصلـة على نهر سجلماســة الـذي تزرع عليـه المنتوجات السالفة الذكر أي الكمون والكرويـاء والنيلج، وتتميز المنطقة بنبات الحناء الذي يكبر «حتى يكـون في قوام الشجر يصعدون إليه لا

9) الإدريسي: نزهة المشتاق، المصدر السابق.. 20 ـ 21.

10) نسفه: 224. انظر كذلك، البكـري (أبو عبيد الله)، المغرب في ذكر بـلاد إفريقية والمغرب، ترجمة ذو سلان الجزائر 1965، ص: 171.

11) الإدريسي ص: 224.

12) نفسه ص: 225.

13) نفسه ص: 225.

14) نفسه ص: 225.

15) نفسه ص: 226.

يؤخذ بذره إلا في هذا الإقليم فقط ولا يؤخذ بغيره من الأقاليم البتة...».(16)

وبعد درعة يأتي دور محطات بلاد السوس الأقصى وأهمها مدينة تارودانت. والسوس كدرعة فيه عمارات مهمة ومتصلة فيما بينها وتتميز بإنتاج الفواكه المختلفة كالتين والعنب والرمان، وكما توضح المصادر المغربية قبل الإدريسي. إن السوس امتاز بإنتاج مادة قصب السكر، ويؤكد الإدريس أنه (قصب السكر) «ليس على قرار الأرض مثله طولا وعرضا وحلاوة وكثرة ماء وهو يساوي السكر السليماني... بل يشف على جميع أنواع السكر في الطيب والصفاء».(17)

يرسم الإدريسي بشكل واضح الطريق الجغرافي والعمارة الرابطة بين مركز تارودانت في السوس ومناطق مراكش وأغمات وريكة بمحاذاة جبل درن، فإلى جانب ما ينبت في المنطقة من أشجار الفواكه المعروفة (التين والعنب العسلي والإجاص والجوز واللوز)، يشير إلى شجر الزيتون دون إغفال ميزة الإقليم في إنتاج شجر أركان (أرقان) الذي يستخدم في منافع شتى، فثمره يستغل في علف المعز وتستخرج منه أدهان تصلح للإنارة (القناديل). كما يستغله الدخانيون لطهي الإسفنج في أسواق الإقليم،(18) كما تستعمله نساء المصامدة في ذهن رؤوسهن لتحسن شعورهن وتطول.(19)

بين الإدريسي بعد ذلك، أهمية عنصر الماء في المنطقة ومدى الدقة بل والعقلانية المتبعة في طرق توزيعه واستغلاله في شتى المجالات، إذ أن النهر الذي يعبر مدينة أغمات وريكة أقيمت عليه أرحاء تستعمل لطحن الحنطة، ومياهه توظف تارة لتلبية حاجيات المدينة وتارة أخرى تستغل بطرق محكمة في الري خارج المدينة، يقول: «هذا النهر يدخل

---

16) الإدريسي المصدر السابق ص: 227.

7) نفسه 227.

18) نفسه 231.

19) نفسه 231.

المدينة يوم الخميس ويوم الجمعة والسبت والأحد، وباقي أيام الأسبوع يأخذونه لسقي جنانهم وأرضيهم ويقطعونه عن البلد فلا يجرى منه إليه شيء...».(20) نشير هنا إلى طريقة ضبط المياه وتنظيمها والتي تقدمت خلال فترة الموحدين(21) (عصر الإدريسي).

بعد وصف دقيق للفلاحة انتقل الإدريس للحديث عن التجارة في أغمات خلال عصر المرابطين ثم في فترة وضعه لكتاب **نزهة المشتاق**، مبينا أن سكان أغمات الذين هم هوارة بربر فيهم تجار أغنياء يتاجرون ويتعاملون مع بلاد السودان خلال المرابطين أو ما يسميه «بدولة الملثم»، بحيث «يدخلون إلى بلاد السودان بأعداد الجمال الحاملة لقناطير الأموال من النحاس الأحمر والملون والأكسية وثياب الصوف والعمائم والمآزر وصنوف النظم من الزجاج والأصداف والأحجار، والعطر وآلات الحديد المصنوع».(22)

يضع الإدريس مقاييسا للغنى عند تجار أغمات ويميز التاجر عندهم بصفات عديدة منها ملكيته لعدد مهم من الجمال في القوافل التجارية الذاهبة إلى السودان، وقد يتراوح ما بين السبعين والمائة جمل.(23) كما يعرف بعلامات تلصق بسكناه تبين لغيره وضعه الاقتصادي والاجتماعي. «إن الرجل منهم إذا ملك أربعة آلاف دينار يمسكها مع نفسه وأربعة آلاف يصرفها في تجارته أقام على يمين بابه وعن يساره عرصتين من الأرض إلى أعلى السقف... فإذا مر الخاطر

---

20) الإدريسي، المصدر السابق، ص: 231.

21) بعد استقرار المرابطين بدأوا بتنظيم طرق السقي، وطورها الموحدون بعدهم، إذ اهتموا أكثر بالزراعة وبالآلات المستعملة فيها، ولا شك أن المرابطين والموحدين استفادوا ممن التجارب الأندلسية في هذا الميدان، للمزيد من التفاصيل انظر على سبيل المثال لا الحصر:
الإدريسي: المصدر السابق 233.
ابن صاحب الصلاة: **تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين**، السفر الثاني تحقيق. د. عبد الهادي التازي، دار الأندلس، بيروت 1964. ص: 460 وما بعدها.
عز الدين أحمد موسى، النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري دار الشروق، بيروت 1983 ص: 181.

22) الإدريسي المصدر السابق: 232.

23) الإدريسي المصدر السابق ص: 232.

بدار ونظر إلى تلك العرض مع الأبواب قائمة عدها فيعلم من عددها كم مبلغ مال صاحب الدار».(24)

لكن هذه الوضعية تغيرت بشكل كبير مع الموحدين، حسب الإدريسي الذي بين أن المصامدة غيروا ما كان بأيدي الملثمين وأكثر من ذلك يثير إلى الوضعية المالية والضرائبية خلال عصر المرابطين وبعدهم، موضحا أن مراكش المدينة التي امتازت بصناعات وإنتاجات مختلفة كانت تدفع «قبالة»(25) مقابل أنشطتها مثل ما كان يحدث بسوق الدخان والصابون والمغازل،(26) ويضيف: «كانت القبالة على كل شيء يباع كل شيء على قدره فلما ولى المصاميد وصار الأمر إليهم قطعوا القبالات بكل وجه، وأراحوا منها واستحلوا قتل المتقبلين لها ولا تذكر الآن القبالة ذكرا في شيء من بلاد المصامدة».(27)

انتقل الإدريسي بعد هذا للحديث عن مراكز أخرى داخل المغرب كانت تلعب دورا اقتصاديا وتجاريا أساسيا كمدن سلا وفضالة وداي (بني ملال) وتادلة وسبتة، ففي سلا تجارات مهمة وأسواق نافقة تزود الأندلس بسلعها كما تزودها الأندلس بدورها بمنتوجاتها يقول: «ومراكب أهل اشبيلية وسائر المدن الساحلية من الأندلس يقلعون عنها ويحطون بها بضروب من البضائع وأهل اشبيلية يقصدونها بالزيت الكثير، ويتجهون منها بالطعام إلى بلاد الأندلس الساحلية».(28) والروابط التجارية نفسها تربط مرسى فضالة

---

24) نفسه 232.

25) بين العديد من الدارسين أن القبالة نوع من الخراج يدفع مقابل مزاولة نشاط اقتصادي معين. اعتقد الأستاذ عبد الهادي التازي أن كلمة القبالة نقلت إلى اللغة الإسبانية تحت إسم **ALCABALA** ونقلت إلى الفرنسية تحت إسم **"La Gabelle"** .
انظر، تاريخ المن بالإمامة، مصدر سابق. 235. نضيف فقط أن ضريبة **Gabelle** الفرنسية اشتهرت خلال فترة ما يعرف بالنظام القديم **Ancien Régime** وهي مرتبطة بمادة الملح، بحيث أن كل مواطن خاضع للملك عليه أن يشتري كل سنة كمية من هذه المادة. ألغيت هذه الضريبة بعد أحداث ثورة 1789.

26) الإدريسي ص: 235.

27) نفسه ص: 236.

28) الإدريسي، المصدر السابق، ص: 239.

بالأندلس، فالمراكب الأندلسية تحمل منه الطعام والحنطة والشعير والفول وكذا الغنم والمعز والأبقار.(29)

أما مناطق داي وتادلة فتتميز بإنتاج النحاس الحلو والجيد في داي،(30) والقطن الجيد في تادلة وهي سوق أساسية في إنتاجه وتوزيعه، وهو يحقق الاكتفاء الذاتي، بل يصدر يقول الإدريسي: «ويسافر به إلى كل الجهات ومنه الثياب القطنية بكل المغرب الأقصى ولا يحتاجون مع قطنها إلى غيره من أنواع القطن».(31)

تحدث الإدريسي كذلك عن ميزة مدينة سبتة في إنتاج وتصنيع مادة المرجان البالغ الجودة فيقول: «يصاد (بها) شجر المرجان الذي لا يعدله صنف من صنوف المرجان المستخرج بجميع أقطار البحار، وبها سوق لتفصيله وحكمه وصنعه».(32) وقد يصدر بالأساس إلى بلاد غانة والسودان..

يصف الإدريس النشاط الاقتصادي في المراكز المغاربية الأخرى ويقارنها أحيانا كثيرة بالمناطق التي سبق ذكرها، فتلمسان مثلا التي ينعثها (بقفل بلاد المغرب) تأتي في المرتبة الثالثة بعد أغمات وفاس في الغنى وفي الأسعار والتجارات المربحة بحيث «لم يكن في بلاد المغرب بعد مدينة أغمات وفاس أكثر من أهلها أموالا»و(33) كما يؤكد أن مدن وهران والمسيلة وتاهرت والجزائر مشهورة في المواد الفلاحية وفي لماشية كالقمح والشعير والقطن والأغنام والأبقار.(34) ويقف بشيء من التفصيل عند أهيمة مدينة بجاية مركز بلاد بني حماد ليؤكد أنها نشطة في استقطاب القوافل والبضائع المختلفة برا وبحرا، وتميزت بإيوائها للعديد من الصناعات، وأكثر من ذلك تعتبر قطب العلاقات

29) نفسه: 240.

30) نفسه: 241. لم يتحدث البكري عن هذا النحاس رغم قوله أن داي كانت مركزا تجاريا مهما تجتمع فيه أمتعة متوعة من فاس وسجلماسة. المغرب في ذكر بلاد إفريقية. مصدر سابق. ص: 154.

31) نفسه: 241.

32) نفسه: ج 2، ص: 529.

33) الإدريسي: المصدر السابق: 248.

34) نفسه 232 وما بعدها.

التجارية إذ يلتقي فيها «تجار المغرب الأقصى وتجار الصحراء وتجار المشرق، وبها تحل الشدود وتباع البضائع بالأموال المقنطرة».(35) وإلى جانب كون بجاية القطب التجاري النشط، تعد مركزا صناعيا مهما فهي «دار صناعة لإنشاء الأساطيل والمراكب والسفن لأن الخشب في جبالها وأوديتها كثير ويجلب من أقاليمها وبها معادن الحديد الطيب».(36)

أما قفصة وقابس وسفاقس والمهدية فمراكز نشطة حسب الإدريسي في المواد التجارية الفلاحية بالدرجة الأولى كالحناء والقطن والكمون والتمر والزيتون والجلود.(37)

ويضيف أن المهدية قاعدة بلاد إفريقية كانت قبل عصره مركزا تحج إليه السفن الحجازية من المشرق ومن المغرب والأندلس وبلاد الروم وغيرها من البلاد.(38)

وبالنسبة لمدينة اطرابلس الحصينة يذكر الإدريسي أنها كانت تنتج الزيتون والتين والنخل لكن عرب بني هلال أضرت بها وبالمناطق المجاورة لها، بحيث أقفرت بواديها وأبادت أشجارها كما هو الحال بالنسبة لمدينة صرت. ولم يقف الأمر عند ذلك بل استباحها الملك روجار سنة 540هـ وأفنى رجالها وخيراتها.(39)

بعد ذلك ينتقل الإدريسي إلى الأندلس ليبين الأهمية الاقتصادية لمدنها، وقف بالخصوص عند قرطبة واشبيلية والمرية وطليطلة. فهذه الأخيرة مشهورة بالحديد والنحاس.(40) أما المرية خلال العصر المرابطي فامتازت بصناعة صنوف كثيرة ومتنوعة من الحرير،(41) وتتاجر مع العديد من المناطق كمصر والشام.

35) نفسه 260.

36) نفسه 260.

37) نفسه 278 وما بعدها.

38) الإدريسي: المصدر السابق ص: 281.

39) نفسه: 297 وما بعدها.

40) نفسه: ج 2، ص: 562.

41) نفسه: 562.

بعد الأندلس استعرض صاحب **نزهة المشتاق**، بعض المراكز الأوربية خصوصا تلك التي زارها مبتدئا بصقلية التي استقر بها لمدة مهمة وألف الكتاب لسلطانها. يمكن القول منذ البداية أن وصفه لصقلية لم يخل من مبالغات أحيانا ومن المراكز المسيحية التي وقف عندها نذكر ليون قاعدة مملكة قشتالة، وبرشلونة، وغسكونيا وطلوشة (تولوز)، وأوش، وأربونة وديجون وغيرها.(42)

نلاحظ في هذا الصدد أن الإدريسي لم يفصل القول كثيرا في تبيان الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية لهذه المراكز كما فعل بالنسبة للمناطق الأخرى، فهو يكتفي بوصف مركز جدا لإنتاج الكروم والعمارات، في حين أن المراكز الفرنسية التي وصفها كانت في عصره - أي خلال القرن الثاني عشر الميلادي - تعلب دورا أساسيافي الفيودالية الأوربية.(43)

المجال الاجتماعي :

نشير في البداية إلى أن كتاب **نزهة المشتاق**، كغيره من المصادر المعاصرة له يزخر بمعلومات مفيدة للباحث في الميدان الاجتماعي، وإن غلب عليها طابع التشتت في ثنايا المصدر، لكن الأمر طبيعي لأن الإدريسي لم يكن يعنى بدراسة مجتمع محدد. إن الذي يعنينا هو الوقوف عند مجموعة من النصوص والإشارات الدالة على أنشطة وعادات وقيم سادت في مجتمعات مختلفة عاشت قبل الإدريسي وخلال عصره.

---

42) الإدريسي، المصدر السابق، ج 2، ص: 736 وما بعدها.

43) للمزيد من التفاصيل حول هذه المراكز، يمكن العودة إلى بعض الدراسات التي اعتمدت على وثائق تلك الفترة، منها:

DUBY (G); L'Economie rurale et la vie des campagnes dans l'occident médiéval. **Paris, Ed. Aubier 1962** . (2. T).

DUBY (G); **Guerriers et paysans: premier essor de l'économie européenne** VII-XIIe siècle. Paris, Gallimard, 1973.

FOSSIER (R); **Enfance de l'Europe: Aspects économiques et sociaux. Paris,** P.U.F, **1982.** (2.T).

تحدث الإدريسي عن علاقات اجتماعية مختلفة كالعبودية مثلا ووقف في نصوص كثيرة عند عادات الأكل والأمراض واللباس والسفر إلى غير ذلك من التقاليد المفيدة في معرفة المجتمعات المختلفة التي سادت العالم، ومن خلال المادة الاجتماعية الواردة في **نزهة المشتاق**، يمكن كذلك تبيان دور بعض الفئات الاجتماعية ـ (اليهود والتجار عموما) في الحياة العامة.

أورد الإدريسي إشارات بالغة الأهمية في العلاقات الاجتماعية التي نسجت بين العرب والزنوج بسبب التجارة إذ أن الزنج كانوا يخافون العرب ويهابونهم باستمرار، يقول «متى عاينوا رجلا من العرب تاجرا أو مسافرا سجدوا له وقالوا بكلامهم هنيئا لكم ياأهل بلاد التمر، وإن المسافرين في بلادهم يسرقون أبناء الزنج بالتمر، يخدعونهم به حتى يقبضون عليهم ويخرجونهم من بلادهم».(44) ويوضح بشكل دقيق ظاهرة استرقاق الأطفال والاتجار بهم في الكثير من المناطق ويبين مثلا أن أهل فزان وزغاوة من السودان رحالة يعمل جيرانهم على اختطاف أبنائهم ليلا ويخفونهم مدة، لينتظروا فرصة بيعهم للتجار الداخلين إليهم بأبخس الأثمان ويخرجونهم إلى أرض المغرب الأقصى ويباع منهم في كل سنة أعداد لا تحصى.(45)

أما ظاهرة الأكل والأمراض واللباس ودور النساء في المجتمع وعادات أخرى، فيوضحها الإدريسي بأمثلة كثيرة، يقول في شأن أهل صحراء نيسر جنوب السودان أنهم لقلة الماء والطعام عندهم يضطرون إلى اصطياد حيات غلاظ الأجسام لأكلها بعد قطع رؤوسها وإبعادها، وطبخها بلماء والملح والشيح لتصبح أطيب طعام.(46) ويعتقد أن بعض الأمراض كالجرب والجذام التي تصيب أهل زغاوة تعالج بأكل الحيات والأحناش.(47)

44) الإدريسي، المصدر السابق. 61.

45) الإدريسي، المصدر السابق ص: 109 ـ 110.

46) نفسه 107.

47) نفسه 110 ـ 111.

يؤكد الإدريسي أن أهل السودان الذين عاشوا في مدينة داوود من بلاد ودان قلت إمكانياتهم المعيشية من الإبل مما جعل عامتهم يحفرون أصول نبات الرمال المعروف بالنجيل ويجففونه ويدقونه بالأحجار ويخبزونه خبزا(48) أما أغنياؤهم فيأكلون اللحوم الجمالية مقددة ويشربون ألبان الإبل.(49)

وفي المغرب بين الإدريسي أن أهل مدينة مراكش يأكلون الجراد الذي يباع منه كل يوم الثلاثون جملا فما دونها وفوقها(50) وأهل سجلماسة يأكلون الكلاب والحيوان المسمى الحرذون ويسمونه بلسان البربر أقزيم.(51)

إلى جانب الظواهر الاجتماعية التي أشرنا إليها أورد الإدريسي أمثلة كثيرة عن عادت أخرى مرتبطة باللباس والأزياء ودور النساء في المجتمع وكذا دور التجار اليهود في مجالات متعددة.

خاتمة :

يتضح من المادة الاقتصادية والاجتماعية التي وقفنا عندها في كتاب **نزهة المشتاق**، أنها مفيدة للبحث في مجالات مختلفة، وأهميتها تتضح أكثر بعد تصنيفها وترتيبها. إنها مادة يغلب عليها الطابع الوصفي، وكما تقول الباحثة C. VANACKER،(52) إن الإدريسي وغيره ممن عاصروه أو عاشوا قبله، قدموا معلومات أساسية عن الأنشطة التجارية والفلاحية خاصة في المدن. نضيف أن الإدريسي

48) نفسه 115.

49) نفسه 115.

50) نفسه 235.

51) نفسه 226.

52) VANACKER (Claudette); "**Géographie économique de l'Afrique du Nord, selon les autres arabes du IX siècle au milieu du XIIe siècle**", dans **Annales E.S.C** mai-juin, 1973. pp. 659. 680.

تحدث أيضا عن الصناعات لكن دون الوقوف كثيرا عند طبيعتها وبنياتها، والملاحظة نفسها تصدق في الميدان الاجتماعي، إذ أن الإدريسي لم يقف عند القوى الاجتماعية الفاعلة في الإنتاج، والعلاقات الاجتماعية المنسوجة بين قوى اجتماعية مختلفة. لكن رغم ذلك لا يمكن للباحث أن يحمل المصادر الوسيطية عموما والإدريسي واحد منها أكثر مما تحتمل. إن الإدريسي لم ينكب على دراسة كل الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية لمجتمع محدد في فترة محددة، بل وضع كتابا عاما وشاملا للحضارة على المستوى العالمي في عصره.

إن كتاب **نزهة المشتاق**، مصدر شامل تمكن، وبدقة متناهية من رصد جوانب متعددة من الحضارات التي سادت في عصر مؤلفه - وذلك بفضل الإمكانيات المهمة التي توفرت له، ولذلك نقول أنه أضاف جديدا امتاز به عن سابقيه.

وكما سبق القول في مقدمة هذا الحبث، إن رصد وتتبع المادة الاقتصادية والاجتماعية في كتاب **نزهة المشتاق**، وتصنيفها، من شأنه أن يفيد الباحث ليس في مجال التاريخ فحسب بل في مجالات مختلفة.

من خلال هذه المادة يمكن وضع خرائط اقتصادية واجتماعية غاية في الدقة والأهمية. ففي الميدان الاقتصادي يسهل بتصنيف مادة الإدريسي رسم خريطة للطرق البحرية والبرية حسب المراحل الزمنية التي تحدث عنها. كما يمكن وضع خريطة أخرى للأنشطة الاقتصادية الهامة قبل الإدريسي وخلال عصره.

أما في الميدان الاجتماعي، فيمكن للباحث أن يرسم خريطة للحياة البشرية من خلال **نزهة المشتاق**، وذلك على امتداد فترات متباينة. وأهم خريطة في اعتقادي هي تلك نتتبع من خلالها المجموعات البشرية (القبلية) التي أوردها الإدريسي في تحركاتها وهجراتها

وأماكن استقرارها من المشرق إلى المغرب أو من الشمال إلى الجنوب.

لكن هذه المجهودات العلمية الطموحة لا يمكن تحقيقها دون تظافر مجهوادات الباحثين المهتمين في ميادين وتخصصات مختلفة، وعلى مستوى الجامعات والمعاهد التي يهمها الأمر (الوطن العربي)، ويمكن للبحث الأثري (التنقيبات) أن يغني هذا المجهود خصوصا أن الكثير من المراكز الحضرية التي وصفها الإدريسي عاشت وازدهرت ثم اندثرت ولم ترد حولها إلا إشارات طفيفة في ثنايا المصادر.

صورة المغرب من خلال ابن حوقل

ذ. محمد تضغوت

كلية الآداب ـ مكناس

تـزخر مـؤلفات الـرحـالة بـالعـديد من النصـوص التي تتضمن معلـومـات جـد مفيـدة يمكن تـوظيفهـا في مختلف حقـول المعـرفـة الإنسانيـة. ولا حاجـة بنا إلى الاستطراد في إبـراز أهمية كتب الـرحلة وميـزتها، وما خلفتـه من تنـوع في المواضيع والمعـارف التي لا يمكن للمشتغل في حقل الإنسانيات أن يتجاهلها أو أن يستغني عنها.

ونظرا لطبيعة الحصة الزمنية المخصصة للعرض، سنكتفي برحلة ابن حوقل للمغـرب واتخاذها كنموذج، محاولين رصد مـا خلفته هذه الرحلة من معلومات قيمة وصـدى كبير، ما يزال الدارسون المحدثون يختلفون في تقييم حصيلتها.

ولعل مـا دفعنـا إلى اختيـار ابن حـوقل (ت. 367هـ) كـونه أول رحالة مشرقي زار المغرب وعايش أحداثه في فترة تاريخية دقيقة كان يعيشها العالم الإسلامي. كما أنه أول رحالة قدم وصفا شاملا للحياة والبيئـة المغربيـة، إذ عـرف بمسالكـه وممالكـه ومـذاهبـه، وأحـاط بمختلف ظـواهـره السياسية والاقتصاديـة والاجتماعية، وحسبنا أن (Jean Claude Garcin)[1] اعتبره أول واصف جغـرافي أعطى للمغـرب

---

[1] انظر : Voir : "Ibn Hawqal, l'Orient et le Maghreb": p: 77
"Revue de l'occident Musulman et de la méditérranée 35, 1983, 1".

مكانة وأهمية في الإمبراطورية الإسلامية، في وقت لم تكن فيه الكتابات حول المغرب كثيرة،(2) وهي نفس الملاحظة التي سجلها (Sauvaget)(3) حينما ذكر بأن هذه الكتابات كانت منعدمة.

ويأتي قيمة مؤلف ابن حوقل في كونه لم يهتم فقط بتقديم معلومات متنوعة حول: «المسالك والممالك والأقاليم والبلدان التي زارها وإنما أرفق هذه المعلومات بخرائط جد هامة صور فيها جميع المناطق التي وقف عليها.(4) ولعل في عنونة إحدى طبعات الكتاب بـ «صورة الأرض» لما يعبر بوضوح على أهمية الخرط في هذا المؤلف. وحسبنا أنه استغرق في تأليفه أزيد من عشرين سنة حسب رواية (André Miquel).(5)

وإذا كان بعض الدارسين قد عثروا في هذا المؤلف على العديد من نقط التشابه والالتقاء بينه وبين مسالك الاصطخري،(6) فإن هذا لا يقلل من أهميته. فكثيرا ما عهدنا تشابه مؤلفات المجال الواحد، كما هو الحال بين مؤلفي الاصطخري والبلخي،(7) غير أن ما يميز مؤلف ابن حوقل هو التدقيق في الأخبار، والاستدلال على المنقول بالخرائط والرسوم التي تصور المناطق المعبورة، مما يوضح أنه لم يكن مقلدا وناقلا كما رأى البعض(8) بقدر ما كان مبدعا ومشاهدا للموصوفات.(9)

---

2) Ibid: p: 77

3) Voir : "Introduction à l'histoire de l'orient musulman" p: 43 Adrien-Maisonneuve- Paris 1961.

4) ابن حوقل، صورة الأرض، ص: 10، 11... دار مكتبة الحياة 1979.

5) Voir : La géographie humanine du monde musulman jusqu'au milieu du 11è siècle. p: 302. 2e édition, La haye, 1973.

6) بوبة مجاني: التقسيم الإداري لبلاد المغرب في عصر الفاطميين من خلال رحلة ابن حوقل ص: 1، 3 ـ ندوة «أدب الرحلات والتواصل الحضاري» كلية الآداب، مكناس (21 ـ 22 أبريل 1992).

- André Miquel, op. cit. P: 302.

7) نيقولا زيادة: الجغرافية والرحلات عند العرب. ص: 32 ـ بيروت 1962.

8) المرجع السابق والصفحة.

9) صورة الأرض: 69.

إن متصفح هذا المؤلف يرى أن هذا الرجل، لم يكن يكتب من فراغ ودون دراية بالميدان. بل كان واعيا تمام الوعي بأن إقدامه على التصنيف الجغرافي جاء تحت الحاجة العلمية واستجابة للظرف. ولا غرو، فقد انتقد معلومات معاصريه وعمل على تصحيحها بالخرط والمشاهدة، ولم يكن هذا العمل بالشيء الهين فقد تكبد خلاله المشقة والصعاب والشدائد والأخطار، حيث استمر في رحلته أزيد من ثلاثين سنة.(10)

يقول بهذا الصدد: «وكان مما حظني على تأليفه وحثني على تصنيفه، وجذبني إلى رسمه أني لم أزل في حال الصبوة شغوفا بقراءة كتب المسالك، متطلعا إلى كيفية البين بين الممالك في السير والحقائق، وتباينهم في المذاهب والطرائق، وكمية وقوع ذلك في الهمم والرسوم، والمعارف والعلوم، والخصوص والعموم، وترعرعت فقرأت الكتب الجليلة المعروفة والتواليف الشريفة الموصوفة، فلم أقرأ في المسالك كتابا مقنعا، وما رأيت فيها رسما متبعا، فدعاني ذلك إلى تأليف هذا الكتاب، واستنطاقي فيه وجوها من القول والخطاب وأعانني عليه تواصل السفر، وانزعاجي عن وطني مع ما سبق به القدر لاستيفاء الرزق والأثر... إلى أن سلكت وجه الأرض بأجمعه في طولها وقطعت وتر الشمس على ظهرها...».(11)

ولعل هذا ما جعل "Sauvaget"(12) يرى فيه شخصية رائدة، واعتبره نيقولا زيادة(13) أهم جغرافي عرفه القرن الرابع الهجري على الإطلاق.

ويرجع الفضل في التعريف بمؤلف ابن حوقل إلى المستشرق De Goeje(14) الذي نشر المخطوط لأول مرة سنة 1873م تحت عنوان: «المسالك والممالك والمفاوز والمهالك»

10) André Miquel, op. cit. p: 302

11) المصدر السابق: 10 ـ 11.

12) انظر: Voir : Sauvaget, op. cit. p: 139

13) انظر المرجع السابق : ص 32.

14) Jean Claude Garcin. op. cit. p: 88

وأفـرد لـه المجلد الثـاني مـن سلسلتـه الجغرافيـة التي تعـرف بـ: (B.G.A) (La bibliotheca Geographorum Auabicorum)، وقـام بعـده (J. H. Kramers) بإصـدار طبعة جديـدة في جزئين وذلـك سنة 1938 مصحوبة بالخرائط الأصلية للمؤلف،(15) ولربما يكون (Kramers)، كما رأى ذلـك (Jean Claude Garcin)(16) قد انطلـق مـن مخطـوط آخـر ليعطيه عنوانـا آخـر هـو: «كتـاب صورة الأرض» وهو الـذي قـام بترجمتـه إلى الفرنسيـة الأسـتاذ (G. Wiet)(17) بنفس العنوان (La configuration de la terre).

وبعد ذلك ظهرت مجموعة من الأبحـاث والدراسات ـ الاستشراقية منها على الخصـوص ـ انصبـت علـى هـذا المؤلـف الهـام وحذرت الدارسين من معلوماته بدعوى أن صاحبه لم يكن يقصد الرحلة مثل باقي الرحالة بقدر ما كـان رجل دعوة، وجامع لمعلومات لتوظيفها في المشروع السياسي التوسعي الفاطمي. ونقرأ هذا التحذير في كتابات كل من دوزي (Dozy) و«برونشفيك» (brunchvig) اللذان اعتبراه جاسوسا فـاطميـا أرسل إلى الأنـدلس لالتقاط الأخبـار والاطـلاع على أحـوال قرطـبة.(18) كما اعتـبره (Sauvaget)(19) رجل المخابـرات الفاطمية، بل الأكثـر من ذلـك فهـو في نظـر (Canard) عميل الإمبرياليـة الفاطمية.(20)

ولعـل فـي هـذه النعـوت التي ألصقـت بشخصـه مـا جعل "Garcin" يحتـاط مـن معلوماتـه ويسـمـه بـالشخص المتهم في

15) Sauvaget, op. cit. p: 10

16) Jean Claude Garcin. op. cit. p: 88

17) Sauvaget, op. cit. p: 139-140

18) Jean Claude Garcin. op. cit. p: 179

19) Sauvaget, op. cit. p: 139

20) M. Canard: L'impérialisme des fatimides et leur propagande p: 193 In Annales de l'institut d'études orientales de la faculté des lettres d'Alger VI. 1942-1947.

الحقيقة،(21) ولربما يعزى هذا التحامل في اعتقادنا إلى كون بعض المستشرقين المشدودين إلى «مركزيتهم» الضيقة لم يستصيغوا أمثال هذه الإنتاجات التي كانت تأتي من خارج محيطهم الثقافي وفضائهم الحضاري بوجه عام. وقد عودونا اتخاذ أمثال هذه المواقف مع كل إنتاج عربي متميز سيما في مجال العلوم الإنسانية ـ فلسفية وتاريخية ـ فكثيرا ما كانوا ينعتون معارفها تارة بالمنقولة والمنسوخة، وتارة أخرى المسوخة والمشوهة. ويمكن أن نفسر هذا التحامل ـ علاوة على ما ذكرت ـ بموقف ابن حوقل من النصارى الذي كان ينعتهم بالكفار،(22) سيما وأن هذا العداء إزاءهم كان يحمل إلى جانب بعده الروحي ـ وفقا لمعطيات العصر ـ بعدا اقتصاديا كذلك، فابن حوقل وهو التاجر العارف المجرب كان على وعي وتبصر بما نجم عن تحرشات النصارى على الحدود، وتهديدهم لخطوط التجارة الدولية من أخطار على العالم الإسلامي برمته سواء تعلق الأمر بمجاله السياسي أو الاقتصادي.

إن تاريخ مغادرة ابن حوقل للعراق سنة (331هـ/943م) جاء في ظرف عصيب. فالصراع على مراكز النفوذ في قلب العاصمة بغداد كان على أشده سيما بعد استحداث منصب أمير الأمراء،(23) والتناحر بين قادة الجيش وتهافتهم على الامتيازات وتركات الخلافة المتهاوية أشغلهم عن القيام بواجب الدفاع،(24) كما أن السياسة الجبائية

21) Garcin. op. cit. p: 77-79

نقلا عن:

R. Brunschvig: "un aspect de la littérature historico-géographique de l'islam" in mélanges Gaudefroy-Démombynes, le caire. 1935-1945. p: 147-149.

22) صورة الأرض. ص: 65.

23) الهمداني، أبو الحسن محمد عبد الملك بن إبراهيم (ت 521هـ): تكملة تاريخ الطبري ص: 57 ـ 71 ـ 72 ـ 79. ج 1، ط 2. المطبعة الكاثوليكية/1961.

ـ الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد عثمان التركماني (ت 748هـ): العبر في خبر من غبر. ص: 202/ج2/تحقيق فؤاد سيد أمين/الكويت 1961.

24) الطبري، محمد بن جرير (ت. 310): تاريخ الأمم والملوك، ج 11. ص: 35. المطبعة الحسينية ـ بدون تاريخ.

الجائـرة أقـعـســت النشيـطـيـن القطـاعـيــيـن مــن الاستمرار في أعمالهم،(25) وترتب عن هذا الوضع استفحال المجاعات الدورية،(26) والكوارث الطبيعية،(27) وتأجج الحروب الأهلية،(28) وازدياد أخطار المعارضــة الشيعية،(29) والتي كـــان من نتـائجهـــا تفـاقم الأزمـــة المالية(30) وميل معظم التجار والفــلاحين إلى مغادرة العــراق والهجرة خارج المناطق المأزومة،(31) نـاهيك عن انفـراط وحدة دار الإســلام باستمرار الكيانات والمقاطعـات الإسلامية في الانسلاخ والاستقلال عن تبعية المركز(32) ولعل في إجماع معظم جغـــرافيي القــرنين الثـــالث

---

25) الهمذاني ـ تكملة ـ ص: 147. ج 1.

26) الحنبلي، ابن عماد أبو الفلاح عبد الحي (ت 1089هـ) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ص: 335/ج 2 ـ المكتبة التجارية بدون تاريخ.

ـ الذهبي، ص: 236/ج 2.

ـ السيـوطي، جلال الدين عبد الـرحمان بن أبي بكر (ت 911هـ)، تاريخ الخلفاء، ص: 398. ط 1. تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة. مصر 1371/1952.

ـ ابن الجوزي، أبـو الفرج جمال الـدين عبـد الرحمان بن علي بن محمـد. (ت 597هـ): المنتظم في تاريـخ الملوك والأمم. م 6 ـ ص: 344. دائرة المعارف العثمانية/حيـدر أباد، 1357.

ـ أبو الفداء، عماد الدين بن إسماعيل بن علي بن محمود (ت 732هـ): المختصر في أخبار البشر، ج 2. ص: 96. دائرة المعارف بيروت/بدون تاريخ.

27) ابن الأثير، عز الـدين أبو الحسن علي بن محمـد بن عبد الكـريم الشيباني (ت 630هـ): الكامل في التاريخ، م 7، ص: 532 / دار صادر، بيروت 1399/1979.

28) النرشخي، أبو بكر محمد بن جعفر (ت 348هـ): تاريخ بخاري، ص: 128، دار المعارف مصر، 1385/1965.

ـ ذو النسبين، أبو الخطاب عمر بن الشيخ، أبو علي حسن بن علي (ت 633).

كتـاب النبراس في تاريخ خلفـاء بني العبـاس، ص: 118، تحقيق عباس العـزاوي بغداد 1365/1946.

29) حول المعارضة الشيعية، انظر: لصاحب المقال: رسالة الماجستير: عصر تسلط الأتراك في العراق: ص: 195 وما بعدها... وهي رسالة مرقونة، فاس، 1984.

30) الصولي: أخبار الأراضي والمتقي. ص: 101.

الهمذاني: ج 1، ص: 75.

31) ابن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية. ص: 66.

الصولي: ص: 234 ـ 251.

32) الهمذاني. ج 1، ص: 11 ـ 19 ـ 63.

والرابع الهجريين في تخصيص عناوين مؤلفاتهم «بالمسالك والممالك» ما يجعل في الحقيقة هذه الأسماء مطابقة لمسمياتها.

فرحلة ابن حوقل إذا جاءت في إطار ظروف العصر الذي أصبح يشكو من أزمات وليس في إطار الجاسوسية كما يزعم البعض، ولا نستبعد أن يكون ابن حوقل من أولئك التجار الذين غادروا العاصمة بعد اشتداد المحن وتأزم الأوضاع واستفحال أخطار العسكر المسيطر على الحكم المركزي.(33) وحسبنا أن هذا الرحالة أوضح دوافع رحلته القسرية «بانزعاجه عن الوطن مع ما سبق به القدر لاستيفاء الرزق والأثر، والشهوة لبلوغ الوطر بجور السلطان وكلب الزمان، وتواصل الشدائد على أهل المشرق والعدوان واستئناس سلاطينه بالجور بعد العدل والطغيان، وكثرة الجوائح والنوائب، وتعاقب الكلف والمصائب واختلال النعم وقحط الديم».(34)

يلخص هذا النص وبوضوح أزمة القرن الرابع، في المشرق الإسلامي ودوافع مغادرة ابن حوقل للعراق أملا في الاستقرار وبحثا عن الرزق. وهذا خلاف لما يعتقده البعض(35) من كونه لم يحدد في رحلته ما سيفعله. فقد وجدناه يجوب أنحاء العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه في مدة استغرقت أزيد من ثلاثين سنة ينشد الاستقرار، ويبحث بين الكيانات الإسلامية الممزقة عن موئل للاستقرار وإعادة وحدة دار الإسلام وهو أمل يكاد يكون ميزة مشتركة عند معظم مثقفي القرن الرابع، فقد اعترف (A. Miquel) بأن هذا الوعي الوحدوي لدار الإسلام كان مترسخا عند بعض الفئات من المجتمع الإسلامي، وعلى رأسهم الجغرافيين.(36) وهي رغبة لم تكن لتفارق التجار، وحسبنا أن ابن حوقل رأى في سيف الدولة الحمداني ـ الذي كان قد نجح نسبيا في صد المسيحيين عن

33) راجع ـ رسالة صاحب المقال: «عصر تسلط الاتراك في العراق 232هـ ـ 334هـ».

34) ابن حوقل: ص: 10.

35) انظر J. C. .Garcin, op. cit p: 80

36) A. Miquel, op. cit p : 269

نصيبين سنة 335هـ، بطلا من الأبطال؛(37) كما يلاحظ أن رحلاته في اتجاه أذربيجان - بالخصوص - والتي زارها في شبابه كانت ضمن النفوذ الحمداني، الذي كان يحلم حكامه بإمبراطوية واسعة تمتد من سوريا الوسطى إلى بحر قزوين(38) حتى إذا ما انهار النفوذ الحمداني تحت ضربات البويهيين رحل إلى مصر حوالي 360هـ(39) حيث كانت جيوش «جوهر» قد قدمت إليها من المغرب ودخلت إلى الفسطاط محققة جزءا مهما من الوحدة السياسية على الأقل في جناح من دا رالإسلام، ليرحل عنها بعد استفحال الخطر القرمطي وتطويقه لمناطق النفوذ التابعة للفاطميين.(40)

وإذا رجعنا إلى الطرح الذي يحذرنا من قراءة ابن حوقل قراءة غير مطمإنة وذلك باعتباره جاسوسا أو رجل استخبار، فهل يخول لنا هذا الطرح أن نستنتج بأن هذا «الجاسوس العميل» كان يقدم لأصحاب القرار السياسي الفاطمي معلومات خاطئة أو مغلوطة، والتي قال عنها (A. Miquel) بأنها لم تعبر عن الواقع بقدر ما كانت تعيش على حلم الماضي المجيد.(41) وهل يخول لنا هذا الطرح إلى حد اعتبار السياسة الفاطمية كانت قاصرة إلى حد تصديقها بكل المعلومات التي تأتيها من الدعاة والجواسيس دون نقد أو تمحيص؟ فالمستشرقون أنفسهم يؤكدون أكثر من مناسبة عن عبقرية التنظيم الإسماعيلي في مجال الدعوة والتسيير والمراقبة.(42) وبراعة الفاطميين في هذا المنحى ولا حاجة بنا إلى الاستطراد في هذه النقطة من تاريخ تنظيم جهاز الدعوة الإسماعيلي، فهناك العديد من الدراسات المتخصصة التي أسهبت في إنارة هذا الباب.

---

37) J.C. .Garcin op. cit p : 82

38) Ibid. p: 82

39) Ibid. p: 82

40) Ibid. p:82.

41) Loc cit. p: 269

42) Henri Laoust: Les schismes dans l'islam. Paris 1965 -

ميكال يان دي خويه. القرامطة: نشأتهم، دولتهم وعلاقاتهم بالفاطميين.
ترجمة وتحقيق: حسيني زينه. / دار ابن خلدون / ط: 1، 1978، ص: 31 وما بعدها.

وعلى أي، فـالرؤيـة الاستعمارية واستحضـارها لقضـايا تـاريخ الإسلام بالتسـاؤل والتشكيك، باستحضار الإيديولوجيـا قبل الرصد العلمي واعتمادهـا في التحليل والتفسير على آلية مشحـونة بـالتمحور على تفوق ذواتهم العارفـة والوصية على المعرفة الإنسانيـة برمتها لا يمكن أن تقدم تصورا وتنظيرا في المستوى المطلوب.

كثيرة هي الـدراسات العربيـة التي نحت وأخـذت بطروحـات هذا الاتجاه. إذ نقـرأ عـنـد «نيقـولا زيادة» ـ على سبيـل المثـال ـ أن الجغرافـيـيـن العرب لم يؤصلوا هذا العلم وإنما «كـانوا متأثرين إلى درجة كبيرة بالمعرفة اليونانية والرومانية(43) «لدرجة أن هذا الباحث استبعـد روح الإبـداع عن الجغرافيين العـرب» ورأى بأن جغـرافيتهم «جغرافيـة يونانية مترجمة ومعـربة»،(44) وقـد ضرب بالمثـال واقع المدرسة العربية المقلدة الناقلة،(45) «بابن خرداد به، واليعقوبي، وابن رسته، والخوارزمي، وابن الفقيـه، والكندي، وقدامة بن جعفـر». وهو زعم كثير مـا ردده مجمـوعـة من المستشرقين. فميكل (Miquel) على سبيل المثال استبعـد أن يكون العرب قـد أقدمـوا بالفعل على تأسيس جغرافية عربية قحة، مدعيا أن ما تواجد من مواضيع جغرافية عندهم كانت تأتي من خارج الثقافة العربية بل خارج الإسلام.(46)

لـذا، فإنه عنـدما تنـاول «ابن حوقل» لم يجد فيـه سوى جغـرافي بسيط لم يأت في نظره بجديد اللهم بعض التعديلات الطفيفة التي أعاد بها كتابة مؤلفات سابقة،(47) وهـي فكرة فندهـا «ابن حوقل» نفسه حينما ذكر بأنه «لم يقرأ في المسالك كتـابا مقنعا وما رأى فيها رسما متبعا»(48) وأنه وقف على ما كتب بـالعيان والمشاهدة،(49) حتى أن

---

43) ميكال يان ذي خويه : المرجع السابق: ص: 17.

44) نفسه والصفحة.

45) نفسه والصفحة.

46) A. Miquel, op. cit p : 270-269

47) Ibid. p: 304-303

48) صورة الأرض: ص: 10.

49) نفسه: ص: 69.

الاصطخـري الذي يعتقـد أن ابن حـوقل قـد نقل عنـه، نجده يشيـد بنباهته ويستحسن عمله. فقد ذكر بعض الدارسين(50) أن ابن حوقل لقي الاصطخري سنة (340هـ/951 ـ 952م) وانتقد خريطته للسند وأراه خـريطتين من صنعه إحـداهما لأذربيجان، والأخـرى للجزيـرة، فمـدحهما الاصطخري كثيرا وأثنـى عليها، بل الأكثـر من ذلك «نجـد الاصطخري يطلب من ابن حوقل أن يعيد النظر في كتابه كله ويحسنه ففعل».(51)

خـلاصة القـول، فإن مؤلـف ابن حوقل، يعتبر من أهم المصـادر التـاريخية التي أولت للعـالم الإسـلامي عنـد منتصف القرن الـرابع الهجري العـاشر الميلادي عنـاية خاصـة فما هو حظ المغـرب من هذا المؤلف؟ ومـاهي الصـورة التي خـرج بها ابن حـوقل من رحلتـه إلى هناك؟

يبـدو أن المغرب الـذي قصـده ابن حوقل في مـؤلفـه هو المجـال السياسي الغـربي الذي كـان تابعـا للنفوذ الفاطـمي ـ مـع بعـض الاستثناءات ـ إذ نجـد المغرب يتردد عنده مرارا تمييـزا له عن بعض الكيانـات التي لم يصلها المد الفـاطمي وهي مع ذلك توجـد في المجال الجغرافي المغاربي.

يمتد المغرب المرسوم في صـورة الأرض من مصر الإسكندرية على النيل وأرض الصعيد حتى يمضي على ظهر الواحات إلى برية تنتهي إلى أرض النوبة آخـذا إلى البحر المحيط وممتدا إلى حقيقة الغـرب بنواحي غانـة وأرض أودغشت، ثم يستمـر (شمالا) مارا على بـلاد برغـواطة وماسة إلى فـوهة بحر الروم الـذي يأخذ من البحر المحيط بين أرض طنجة وأرض الأندلس وراجعا حـده من أرض طنجة على البحر... إلى تـونس والمهـديـة من أرض إفـريقيـة مقبـلا على طـرابلس وبـرقـة والإسكندرية،(52) وإن أضاف إلى هذا المجال الشاسع أرض الأندلس

---

50) انظر: نيقولا زيادة: المرجع السابق: ص: 32.

51) نفسه والصفحة.

52) صورة الأرض: 65 ـ 64.

التي جعلها من «جملة صورة المغرب».(53) وهذه الصورة الحدودية وقف عليها وقفة المشاهد العيان، حيث وصف المدن، وحدد المقاطعات الإدارية، ورسم الطرق التجارية التي تجتاز المغرب الإسلامي من حدود برقة إلى أعمال طنجة، ففاس وسجلماسة إلى قلب الصحراء بأودغشت، وهي طرق فصلها بالمسافات وحددها بالمراحل الزمنية، وبين على أطراف هذه الطرق حياة قبائل من البربر اشتهرت بالكرم والمبالغة في ضيافة المارة.(54)

ومما كان يشغل ذهن ابن حوقل أثناء استعراضه لهذه المقاطعات والتجمعات السكانية أنه كان يعرف بمؤهلاتها الاقتصادية ونشاط سكانها، وعائداتها المالية ومواردها الإنتاجية، ولم يهمل وصف الأنهار وتوضيح الحالة المائية لكون الماء أساس استقرار السكان وضمان الأمن الغذائي.

وقد انفرد مؤلفه بتأطير منهجي متميز، فكثيرا ما نجده يربط بين موقع البلد الجغرافي والإداري، ومؤهلاته الاقتصادية، وطبائع سكانه، وحياتهم المعاشية، وانتمائهم الأثني، ومذهبهم السائد، وهذه التركيبة ما كانت لتغيب على وصفه للأقاليم المغربية إلا نادرا، وهو ما جعل لهذا المصدر قيمة معرفية يمكن استغلاله في إعادة كتابة تاريخ المغرب الوسيط وملء الفراغ الذي وسم بعض فتراته التاريخية.

فعين ابن حوقل كانت يقظة نبيهة لم تترك شيئا ملاحظا إلا أشارت إليه وأسهبت في تفصيله، سيما إذا كان الموصوف من النوع الذي يشغل باله كواقع التجارة، ووزن العلمة، وشكل السلطة، ونوع المذهب وغيرها من القضايا التي استحضرها بالمشاهدة أو المفاوهة.(55)

يورد ابن حوقل معلومات جد هامة حول تاريخ المغرب قلما نعثر عليها في مؤلفات أخرى من نفس النوع. وما يمكن ملاحظته أن

53) نفسه ص: 65.

54) نفسه ص: 91 ـ 93.

55) نفسه ص: 69.

معلومات ابن حوقل اهتمت كثيرا بالخبر الاقتصادي، والخبر المذهبي، ولم تهتم بالخبر السياسي إلا بقدر ارتباطه بالخبرين السابقين.

على أي سنقتصر في هـذه العجالـة على تقديم بعض الأخبار الاقتصادية والمذهبية الهامة:

- يتمثل الخبر الاقتصادي في إبراز واقع المدن الساحلية واشتغال بعضها بالتجارة وصناعة السفن.(56)

- الكشف عن مراصد تجارية منصوبة لمراقبة الحمولات وتقسيم حاصلات الضرائب، ولعل من أهم المراصد المذكورة والتي وقف عليها بنفسه، مرصد «طرابلس» برقة، ومرصد «سجلماسة أودغشت».(57)

- تحدث أيضا عن المنتوجات الفلاحية التي اشتهرت بها المدن والأقاليم وإمكانية تبادلها مع المناطق المجاورة.

- حدد أماكن استخراج المعادن كالحديد في «تونة»(58) والملح في «أودغشت».(59)

- ربط بين مؤهلات البلد من الناحية الاقتصادية بواقع السكان المعاشي، ملاحظا أن تكثيف العمليات الإنتاجية يؤدي إلى رخص الأسعار واستقرار السكان؛ عكس المناطق الجبلية والفقيرة التي كانت تطرد السكان وتسكعهم في الطرقات للتربص بالقوافل التجارية ومهاجمة الزروع وغلات السهول.(60)

● أما الخبر المذهبي فتمثل في عدم إغفاله الحديث عن المذاهب المتبناة في المناطق الموصوفة. وبهذا الصدد ساق مجموعة من المذاهب التي انتشرت في الغرب الإسلامي محددا مجال انتشارها. وقد ترك لنا نصا مهما يمكن استغلاله في إنارة المسألة البرغواطية،(61) التي اختلف بشأنها الدارسون وهذا النص نميز فيه مستويين.

---

56) نفسه ص: 77.

57) انظر التفاصيل في القسم الخاص بالمغرب. ص: 64 وما بعدها.

58) نفسه ص: 77.

59) نفسه ص: 98.

60) نفسه ص: 72 ـ 73.

61) نفسه ص: 83.

ـ مستوى الخبر الوارد عن طريق النقل والمفاوهة.

ـ مستوى الخبر الوارد عن طريق المشاهدة والوقوف بالعيان.

والملاحظ أن ابن حوقل ميز بينهما بوضوح تام، إذ كان يورد الخبر المنقول بصيغة الماضي وذلك باستخدامه كلمة (كان)؛ (وقد كان) بينما يسوق الخبر العياني باستخدامه كلمة (وهم الآن)، (وفيهم الآن) يقول عن المذهب البرغواطي في هذا الصدد:

«وكان صالح يحل لهم الطيبات ويبيح لهم اللذات ويسوسهم في المحظورات...(61م) إلى أن يقول: «وفي برغواطة أمانة وبذل للطعام وتجنب للكبائر من الحرام والمحظورات والآثام»(62)... «وفيهم الآن من يقرأ القرآن بعناية واحترام».(63) وقد لاحظ بالعيان عدم استجابة سكان سجلماسة لقائدهم محمد بن الفتح المعروف بالشاكر لله في حثهم على غزو برغواطة سنة 340هـ.(64)

إن هذا التمييز بين مستويين من الأخبار المنقولة والمشهودة هو ما يكشف عن مصداقية ابن حوقل وموضوعيته على الرغم من تشيعه، مما يدحض الآراء التي تشكك في أخباره.

خلاصة القول :

إن مؤلف ابن حوقل زاخر بالمعلومات الهامة حول مغرب أواسط القرن الرابع الهجري، وبالإمكان استغلالها لسد الثغرات التي أثرت في بعض الفترات من تاريخه، وعوضت عن ضياع المصادر المغربية الأولى، كما أن في الرجوع إلى هذا المصدر الهام مايصحح الكثير من الأخطاء التي جاءت عند المؤرخين الرسميين المشارقة ومؤرخي الفرق ناهيك عما انطوت عليه الأبحاث والدراسات الفرنسية على الخصوص حول تاريخ المغرب ـ في المرحلة المذكورة ـ من مغالطات ومجازفات

61م) نفسه والصفحة.

62) نفسه والصفحة.

63) نفسه والصفحة.

64) نفسه والصفحة.

استهــدفت معظمهــا عــزل العــالم الشرقي عن الغــربي بــدعــوى الخصوصيــة، سيما وأن هذه الكتــابات كما هــو معروف جــاءت من مواقع استعمارية وكان أصحابها يشغلــون مناصب سياسية وإدارية عسكرية هامة في الجزائر المستعمرة،(65) وهو ما يمكن ملاحظاته في كتــابات كل مــن «جــوتيـــة» و«جــورج مارسيــه» و«شــارل اندريــه جوليــان»، و«ليفي بروفنسال» وغيرهــم.

65) محمود إسماعيل: مقالات في الفكر والتاريخ. ص: 92. ط 1. البيضاء 1979.

المحور الثالث

كتب الرحلات كمصدر للتاريخ الحضاري

رحلة ابن بطوطة
مصدر هام لدراسة الطرق الصوفية
في الشرق الإسلامي

د. محمود اسماعيل
جامعة الكويت

شكل التصوف تيارا رئيسيا من تيارات الفكر الإسلامي، وأثر في المجتمعات الإسلامية تأثيرات هامة سواء بجوانبه الإيجابية أو السلبية.

فخلال القرون الستة الأول من التاريخ الهجري، تجلب إيجابيات التصوف حين كان نزعة للزهد والتقى في مبدأ نشأته، ودعوة لمقاومة مفاسد النزعة الدنيوية التي غمرت العالم الإسلامي بعد الفتوحات. ويعبر القشيري عن ذلك بقوله: «فلما ظهرت البدعة وتشاحنت الفرق، انفرد خواص أهل السنة المراعون أنفسهم مع الله الحافظون قلوبهم عن طوالق الغفلة باسم الصوفية».

وفي نفس المعنى ذكر ابن خلدون «التصوف هو العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلوة للعبادة، وكان ذلك عاما في أهل السلف. فلما فشا الإقبال على الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية».

على أن هذه المفاسد التي تصدى لها المتصوفة خلال القرنين الهجريين الأولين لم تكن ذات طابع أخلاقي بقدر ما كانت تعبر عن ظروف اجتماعية وسياسية تمثلت في ظهور اتجاهات دنيوية على حساب الدين، وفرقة سياسية عبرت عنها الفرق التي نشأت إبان الفتنة الكبرى.

وحين تفاقت المشكلات السياسية والاجتماعية في العصر الأموي، تحول التصوف من كونه نزعة فردية للزهد إلى حركة اجتماعية ذات أطر فكرية. وقد عبر عن هذه المرحلة الجنيد البغدادي وذو النون المصري اللذين يعزى إليهما فضل وضع الأسس الفكرية لهذا الاتجاه. تلك الأسس التي تشكل إطارا فلسفيا ينطلق من فكرة وحدة الوجود.

وفي القرن الثالث الهجري، انتكست إصلاحات الثورة العباسية فتحول التصوف إلى إيديولوجية ثورية تناهض الفوضى السياسية والتسلط العسكري وتنطوي على أبعاد اجتماعية كحركة الحلاج الذي كان عضوا في تنظيم الحركة القرمطية.

تلت ذلك مرحلة شكل التصوف إبانها تيارا إنسانيا يدعو إلى التوفيق بين سائر القوى السياسية الدينية المتصارعة، بل تطلع إلى ما هو أبعد من ذلك فاستهدف المصالحة بين الأديان. ولا يخفى تأثيرات النهضة العلمية والفكرية التي ازدهرت آنذاك خلال القرن الخامس الهجري في تلك الانعطافة الإيجابية للتصوف.

وحين انتكست هذه النهضة بانتكاس الصحوة الاقتصادية - الاجتماعية البورجوازية - حول منتصف القرن الخامس الهجري - تحول التصوف إلى حالة من الاغتراب فنحى نحوا غيبيا متأثرا في ذلك بالأفلاطونية المحدثة. وخير مثال على ذلك نتلمسه في فكر السهروردى الذي اتخذ طابعا هرطقيا.

وحين حسم الصراع الاجتماعي في القرن السادس الهجري لصالح الاقطاعية العسكرية صار التصوف إيديولوجية شعبية وأصبح غطاء فكريا للنظم الاقطاعية العسكرية التي ناهضت النزعات العقلانية لصالح الخرافة والشعوذة. ففشت الطرفية بمظاهرها السلبية المعبرة عن انحطاط الحضارة العربية الإسلامية(1).

لقد ظهرت الطرق الصوفية كنظام اجتماعي ومؤسسة شعبية تساندها النظم الاقطاعية العسكرية، حتى أن مشيخة الخانقاه كانت

1) حول مزيد من المعلومات، راجع.
محمود اسماعيل : تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، ص 156 وما بعدها، الكويت 1989.

من الـوظائف الكبرى في الـدولـة حيث كـانت تصدر لها قـرارات من ديوان الإنشاء السلطاني.

وقد تأثـر النظام الطرقي بـالسلك التنظيمي للحركـة الإسماعيلية فمـراتب الصوفيـة الطرقيـة من القطب إلى الوتـد إلى البدل إلى المريـد تقابله عند الإسماعيلية مقامات الإمام وداعي الدعاة والنقيب والتابع.

وحرص السلاطين والأمراء والوزراء والموسرون على تأسيس أماكن لتجمعات المتصوفة تعرف بالزوايا أو الخوانق أو التكايا.

ومن أهم هـذه الطرق الـرفاعيـة والقادريـة والبدويـة والشاذليـة وغيرها.

لقـد كـانت أمـاكن إقـامـة دائمـة للمتنطعين من «الفقـراء»(2) أو «الدراويش» المنقطعين للعبادة. ثم تحولت إلى بؤر للفساد بعد أن عدل الصـوفيـة عن التقشف وانحـرفـوا إلى الرذيلـة. وصـدق فيهم قـول المقريزي(3) «لا ينسبـون إلى علم ولا ديانـة، وإلى اللـه المشتكى»، وإن كان ابن خلدون(4) يتحفظ على ذلك فيقول: «ومن هـؤلاء المريدين من المتصوفة قـوم بهاليل معتوهون أشبه بـالمجانين من العقلاء، وهم مع ذلك صحت لهم مقامات الولاية وأحوال الصديقين».

لقد كان الإقبـال على الطرقية حلا سلبيا لمشكلات الفقـر والمعاناة التي سادت إبان تسلط الدول والسلطنات الاقطاعية العسكري(5). ومع ذلك كـان مـؤشرا على الانحطاط الاجتماعي والـديني والأخـلاقي. من مظاهر هـذا الانحطاط مخالفة تعاليم الإسـلام الصحيحة، إذ استحل الدراويش تـرك الصلاة، لأنهم في ذكر دائم مع الله... كـذلك التعويل على البطالة وترك العمل إلى حد التسـول مبالغة في التوكل على الله إلى

---

2) أطلق هذا المصطلح على الصوفي كناية عن الزهد والتقى.
انظر : الشعراني : لواقح الأنوار في طبقـات السادة الأخيار جـ 1، ص 242، القاهرة 1881.

3) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، حـ 4، 272، القاهرة 1907.

4) انظر : المقدمة، ص 124، 125، القاهرة 1909.

5) سعيد عاشور : دولة المماليك البحرية، ص 186، القاهرة 1909.

حد التواكل. كذلك تخلوا عن الزهد وركنوا إلى المتع الحسية والتردي في الرذيلة لأنهم في حل من التكاليف الشرعية(6).

كانت الطرقية بهذا المعنى بمثابة اغتراب وتغييب للوعي، وهو أمر كرس للنظم المتسلطة البقاء والاستمرار. ومن ثم لم تتقاعس عن الترويج لها، فأسست الزوايا وأغدقت على الشيوخ وكرست الأوقاف والحبوس للإنفاق على الدراويش.

تلك الظاهرة المعبرة عن انحطاط العالم الإسلامي جديرة بالدرس والبحث. ولا غرو فقد أفردت لها الكثير من الدراسات لكن في إطار تجزيئي إقليمي محلي، دون تعويل على مسح شامل يستكنه علل انتشارها وسيادتها في العالم الإسلامي منذ أواخر القرن السادس الهجري.

وهنا تبرز القيمة الحقيقية لرحلة ابن بطوطة الذي جاب سائر بلدان العالم الإسلامي وعاين الظاهرة عن كثب وخالط الدراويش والفقراء شيوخا ومريدين وضمن ملاحظات كتابه الفذ «تحفة النظار». كاشفا عن أسباب ذيوعها وعلل شيوع مؤسساتها فضلا عن نظمها ورسومها وتقاليدها، معللا ومدققا لعوامل استمرارها وطرائق حياة أتباعها، وموضحا جوانبها الإيجابية والسلبية على حد سواء. ولا غرو فابن بطوطة رحالة مغربي أحاط بقوام التصوف والطرقية في الغرب الإسلامي، فضلا عن كونه عالما وفقيها وقاضيا ومتصوفا أيضا في فترة من فترات حياته.

من هنا تبرز قيمة معلوماته باعتباره شاهد عيان عارك في رحلته أهوالا من أجل المعرفة، قدر له أن يقدم لتلك الظاهرة عرضا شاملا يمسح كل بلدان الشرق الإسلامي ويكتب بجياد وموضوعية عن ظاهرة طالما اختلف الدارسون في تثمينها.

مهمة هذه الورقة ليس تقديم عرض واف عن تلك الظاهرة، بقدر إبراز قيمة المعلومات المتناثرة في ثنايا «الرحلة» في التأريخ الشمولي لها وتعليل أسباب انتشارها تعليلا مقنعا. كما تكشف معلومات ابن

6) محمود اسماعيل : المرجع السابق.

بطوطة - خصوصا في حديثه عن كرامات الصوفية - عن البنية العقلية للتفكير الإسلامي خلال عصر الانحطاط، بما يلقى من ضوء مبهر على تأثير الموروث الثقافي في بنية العقل العربي «المستقيل» المعاصر.

وننوه بأننا قصدنا - بوعي - الاقتصار على رحلة ابن بطوطة فقط في تقديم هذا العرض الموجز، بهدف تبيان أهمية معلوماتها من ناحية وتقديم رؤية مغربية خالصة توضح منظور المغرب إلى المشرق بما يكشف عن حقيقة التواصل الحضاري بين جناحي العالم الإسلامي برغم الضعف السياسي والعسكري والانهيار الاجتماعي والأخلاقي والتخلف الفكري الذي شكل بنية عصر الانحطاط.

وقد صنفنا معلومات ابن بطوطة حسب خطة موضوع البحث التي تعالجه على النحو التالي:

1 - سيادة الطرقية العالم الإسلامي إبان عصر ابن بطوطة.

2 - الجهود الرسمية وغير الرسمية في تأسيس الزوايا والخوانق.

3 - البناء التنظيمي للطرقية.

4 - البنية الفكرية للدراويش.

5 - سلبيات وإيجابيات الطرقية سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وأخلاقيا ودينيا وفكريا.

بخصوص المحور الأول، تثبت رحلة ابن بطوطة انتشار الزوايا والخوانق والتكايا والأربطة في سائر مدن العالم الإسلامي الشرقي التي زارها. فقد أشار إلى مواطنها ومواضعها في بلدان مصر والشام وشبه الجزيرة العربية وآسيا الصغرى وبلاد فارس وما وراء النهر وبلاد الهند وحتى الصين. هذا بالإضافة إلى بلاد المغرب والأندلس لقد كان يحل ضيفا على هذه الزوايا ويسمع من شيوخها ويعايش فقراءها.

ولا بأس من استعراض أهم هذه الزوايا.

ففي مصر، نزل بـزاوية العابـد أبي عبد الله المرشـدي بمنية بني مرشد قرب الاسكندرية(7). وبدميـاط حل بزاويـة الشيخ أبي قفل(8) وزاوية الشيخ جمال الدين الساوي شيخ طائفـة القلندرية الذين كان من عادتهم حلق لحاهم وحواجبهم(9). وفي تنيس نزل بـزاوية الشيخ شمس الدين القليوي وقضى بها عدة أيام(10).

أما زوايا القاهـرة المعروفة بالخوانق فقد ذكر أن كل طـائفة كانت تسكن زاويـة خـاصـة بها، وقـد التقى فيهـا بـالكثير من الـدراويش العجم(11). وهـذه الخوانق تختلف عن الأربطة التي غـالبـا ما تكـون خـارج المدن، منهـا الـرباط الكـائن بـديـر الطين الـواقع على طـريق الحج(12). وكانت معظم زوايا إخميم تخص الطريقة الشـاذلية(13). كما نزل بزاويـة الأفرام في قبرص ومر بزوايـا كثيرة في الأقصر وأثينا(14). كما أخبرنا بزوايا أخرى كثيرة نزل بها في طريق عودته من المشرق إلى المغرب.

وفي فلسطين نزل بخانقاة أبي عبد الله الغـرناطي الخاصة بطائفة الرفاعية، وقد صحب شيوخها ولبس خرقتهم(15).

أمـا أهم زوايـا الشـام، فتلك التي بنيت قـرب قبر الصحـابي أبي عبيـدة ابن الجراح(16)، وزاويـة ابـراهيمي بحصن الأكـراد(17). وفي

---

7) انظر : تحفـة النظار في غرائب الأمصار وعجـائب الأسفار، ص 42، بيروت، 1985.

8) نفسه ص 48.

9) نفسه ص 49.

10) نفسه ص 48.

11) نفسه ص 54.

12) نفسه ص 63.

13) نفسه ص 67.

14) نفسه ص 68، 69.

15) نفسه ص 78.

16) نفسه ص 80.

17) نفسه ص 84.

أنطاكيا عدد ابن بطوطة زوايا كثيرة(18). وفي مدينة صهيون نزل بزاوية أسست بجوار قبر العابد عيسى البدوي(19). وفي اللاذقية نزل بزاوية الصوفي الشهير إبراهيم بن أدهم(20)، ولاحظ أن مزاره صار سوقا موسمية(21). وعدد ابن بطوطة زوايا كثيرة بدمشق(22) ذكر أنها سميت خوانق كما هو الحال في مصر(23). وهذا راجع إلى خضوع الشام لحكم سلاطين المماليك في مصر، وأن تميزت معظم خوانق الشام بتخليدها أسماء مشاهير أقطاب الصوفية.

وفي الحجاز لاحظ ابن بطوطة أن زواياها سميت بالأربطة وأنها تقتصر على سكان الإقليم، بل أن معظم فقرائها كانوا من المجاورين الوافدين من أنحاء العالم الإسلامي خصوصا من المغرب والأندلس(24). من أهم هذه الرباطات رباط السدرة الذي يغص بمجاورين من مصر والشام على وجه الخصوص(25)، ورباط أبي الربيع الذي يتعيش فقراؤه من النذور(26)، ورباط كلاله الذي حظي بهبات عظيمة من سلاطين الهند(27).

أما بلاد اليمن فكان معظم زواياها للصوفية الزيدية، وقد اشتهرت بدراسة علم التوحيد(28).

أما زوايا ظفار فقد اشتهرت بمكانتها الهامة إذ كانت تجير اللائذين بها من عسف السلاطين(29).

---

18) نفسه ص 91.
19) نفسه ص 93.
20) نفسه ص 95.
21) نفسه ص 96 ـ 98.
22) نفس المصدر والصفحات.
23) نفسه ص 118.
24) نفسه ص 127.
25) نفسه ص 173.
26) نفس المصدر والصفحة.
27) نفسه ص 174.
28) نفسه ص 273.
29) نفسه ص 287.

وفي العراق وجدت زوايا خاصة بالشيعة وأخرى سنية. وقد امتازت الشيعية منها بوجود المدارس فضلا عن «حسن عمارتها»(30).

وقد أسس معظمها في منطقة النجف الأشرف وعرفت بثرائها ورسومها وطقوسها الخاصة، وقد قصدها المتشيعون من سائر أرجاء العالم الإسلامي(31).

أما التصوف السني فمن أهم طوائفه الرفاعية الذين كانت لهم زوايا في سائر مدن العراق(32) خصوصا في البصرة التي اشتهرت زواياها بإكرام أبناء السبيل(33).

وقد جمعت فارس بين الأربطة والزوايا، وقد انتشرت الأولى على ساحل الخليج. أما الزوايا فمن أشهرها ما أقيم في عبادان(34) وغيرها من مدن فارس. وقد أثنى ابن بطوطة على كرامات متصوفيها(35)، ولا غرو فبلاد الفرس هي موئل التصوف الإسلامي في نشأته الأولى ومنها انتشر في المشرق والمغرب.

أما آسيا الصغرى، فقد استعاضت نظام الزوايا بنظام آخر هو «نظام الأخية» الذي نرى أنه ذات أصول بيزنطية عريقة. هذا النظام الذي غمر البلاد بمدنها وقراها(36)، والذي عبر عن نظام الفتوة الإسلامي الذي يعزى إلى علي بن أبي طالب كمثل أعلى للفتيان في النجدة والفروسية وإغاثة الملهوف ومعاونة الغرباء. ولا غرو فقد كان رجاله من الشبان غير المتزوجين الذين أسسوا مراكز لهم ـ أشبه بالزوايا ـ وأثثوها بالفرش وزودوها بالخيول. وقد ارتبط هذا النظام أيضا بأصناف الحرف، فكان الفتيان يعملون نهارا ويشترون بأجورهم ما تحتاجه الزاوية من أثاث وطعام وسروج وغيرها مما

30) نفسه ص 198.
31) نفسه ص 199.
32) نفسه ص 205.
33) نفسه ص 208.
34) نفسه ص 210.
35) نفسه ص 221.
36) نفسه ص 314.

يحتاجه الوافدون الغرباء الذين وفروا لهم إقامة طيبة. وفضلا عن إقامة الأذكار والتلاوات الدينية كانوا مولعين بالرقص والغناء(37).

وقد قدم الفتيان لابن بطوطة مساعدات جلى، فكانوا يتنافسون على استضافته وإرشاده في تسفاراته عبر بلادهم، كما كانوا يقدمونه للحكام الذين بالغوا أيضا في إكرامه(38).

وقد وقف ابن بطوطة على رسوم وعادات وأنماط حياتهم(39) التي سنعرض لها في موضعها من الدراسة.

وما يعنينا في هذا المقام أن هذا النظام كان على صلة بالطرقية الصوفية وخصوصا الطريقة الرفاعية(40).

وفي آسيا الوسطى ظهرت تأثيرات التصوف الفارسي والطرقية العراقية خصوصا الطريقة الرفاعية. وقد امتازت زواياها بالاعتماد في تمويلها على هبات السكان من الخيل والبقر والغنم(41). كما اشتهرت بتخليد أسماء الفقهاء الأجلاء كالعلامة الزمخشري الذي دفن بخوارزم(42).

أما بلاد الهند، فقد كثرت زواياها خصوصا على امتداد الطرق التجارية «فلا يفتقر الفقير المار بها إلى حمل زاده في الطريق»(43).

ولما أوفد ابن بطوطة في سفارة من قبل أحد سلاطين دهلى إلى بلاد الصين، لاحظ أن الجالية الإسلامية بالصين كان لها مساجدها وزواياها التي اعتمدت في تمويلها على التجار(44).

---

37) نفسه ص 315.
38) نفسه ص 319.
39) نفسه ص 320.
40) نفسه ص 326.
41) نفسه ص 264.
42) نفسه ص 401.
43) نفسه ص 498.
44) نفسه ص 723.

تلك وغيرهـا نماذج دالة على انتشـار الطرقيـة الصوفيـة في سائر أقاليم الشرق الإسلامي، وصفها ابن بطوطة وقارن أحيانا بينها وبين مثيـلاتها في المغـرب والأنـدلس، تلك التـي كـان الجهـاد هـدفهـا الرئيـسي(45).

أمـا عن المحور الثـاني الخاص بـالجهود الـرسمية والشعبيـة في تأسيس الزوايا، فقـد قدم ابن بطوطة صورة واضحة وشـاملة في هذا الصدد.

إذ بين أن السلاطين قاموا بالدور الأساس في بناء الزوايا والإنفاق عليها. وعزى ذلك ـ في تقديرنا(46) ـ إلى عدة أسبـاب، منها أن معظم الحكام في هـذا العصر كانوا ينتمـون إلى عناصر بـدوية كان إسـلامها سطحيا، فاعتبروا المبالغة في تشييد المؤسسات الدينية تعبيرا عن نزعة التدين. ومنها أن أغلبهم تولى السلطنة قسرا، فحاولوا استرضاء رجال الدين لإكساب حكمهـم طابـع المشروعيـة. ومنها أن ظاهـرة الطرقية بجنوحهـا نحـو الغيبيـة والسلبيـة تشكـل تـيـارا غيـر معـارض للسلطـة، فعكفـوا على نـشره وترويجـه. ومنهـا أخـيرا اعتقـادهـم في كـرامات الأوليـاء وخـوارق الصـوفيـة فحاولـوا استرضاءهـم مـن قبـيـل التبـرك وذلـك بإنشـاء الـزوايـا ووقـف الحبـوس لتمـويلـها.

وقد قدم ابن بطوطة من النصوص ما يزكي هذا التفسير، إذ ذكر أن السلطـان محمد بن قـلاوون أكثـر من تشييـد الزوايـا بـالقاهـرة والأقاليم(47). وهـو تقليد أخـذ به السـلاطين السابقـون واللاحقـون. فالسلطان بيبرس الجاشنكير يعزى إليه إنشاء الخانقاة البيبرسية(48).

---

45) نفسه ص 761، 766.

46) عن مزيد من المعلـومات، راجع كتابنا: سوسيولوجـيا الفكـر الإسـلامي، جـ 3، القاهرة 1992.

47) تحفة النظار ص 95.

48) نفسه ص 129.

ولكسب ولاء رعاياه أسس السلطان محمد رباطا في الأراضي المقدسة بين الصفا والمروة(49). ولقد عول سلاطين المماليك في الهند على اتباع سياسة أقرانهم في مصر والشام(50).

وعلى غرار السلاطين أسست زوجاتهم خوانق وزوايا وأربطة «جعلن فيها الطعام للوارد والصدر»(51) تستوي في ذلك نساء سلاطين الهند وبلاد التركستان(52).

وبديهي أن يحذو الأمراء حذو سلاطينهم(53)، خصوصا في إيران حيث دأبوا على إقامة الرباطات «لخدمة المسافرين»(54). أما أمراء آسيا الصغرى فقد تنافسوا في تشييد الزوايا والمغالاة في تزيينها، حتى ليذكر ابن بطوطة أن الأمير فخر الدين أسس زاوية تعد «أحسن ما رأيت في تلك البلاد»، و«جعل النظر فيها لولده والاشراف لمن أقام بالزاوية من الفقراء»(55).

وعلى غرارهم فعلت زوجاتهم، إذ أن إحداهن أسست زاوية بخوارزم «فيها الطعام للوارد والصادر»(56).

كما أسس الولاة والقضاة خوانق وزوايا كثيرة، نذكر منهم ـ على سبيل المثال ـ أمير مدينة أصفهان المسمى خواجه كافي والمعروف بثرائه الذي أهله للانفاق «في عمارة الزوايا وإطعام أبناء السبيل»(57).

49) نفسه ص 162.
50) نفسه ص 585.
51) نفسه ص 573.
52) نفسه ص 232.
53) نفسه ص 84.
54) نفسه ص 222.
55) نفسه ص 348.
56) نفسه ص 404.
57) نفسه ص 222.

وقد تبارى الموسرون ـ وخصوصا من كبار التجار ـ في تأسيس الزوايا والإنفاق عليها من أموالهم، مثال ذلك أحد أثرياء مدينة ترمذ، والتاجر المعروف في فارس خواجه إسحق الذي أسس زاوية «يطعم فيها الوارد والصادر وينفق فيها على الفقراء»(58).

ونظرا لانتشار الطرقية في الغرب الإسلامي وانتشار طوائفها في الشرق، وجدت زوايا في الشرق أسسها مغاربة وأندلسيون. فالشيخ المغربي عبد الواحد المكناسي أسس زاوية بإحدى مدن الصعيد(59). كما أسس غيرهما زوايا بالشام وأربطة بالحجاز(60).

بل أن بعض اللصوص وقطاع الطرق ممن تابوا حاولوا التكفير عن جرائمهم بإنشاء الزوايا. ذكر ابن بطوطة أن أحد لصوص سجستان «كان له جماعة من فرسان الأعراب والأعاجم يقطع بهم الطريق، وكان يبنى الزوايا ويطعم الوارد والصادر». وقد أثر عن بعضهم الكرامات والأتيان بالخوارق بعد توبتهم(61).

هكذا كشف ابن بطوطة عن الجهود الرسمية وغير الرسمية في تأسيس الزوايا والأربطة وقدم صورة لا نجد لها نظيرا في المصادر الأخرى.

أما عن المحور الثالث الخاص بنظم الطرقية ورسومها وطقوسها، فالمعلومات غزيرة بصددها في المصادر. لكن ابن بطوطة قدم الجديد في رحلته نثبته على النحو التالي:

---

58) نفسه ص 631.
59) نفسه ص 69.
60) نفسه ص 82.
61) ذكر ابن بطوطة أن أحد اللصوص اعتاد أن يعاقر الخمر مع ستين من رفاقه الذين اتفقوا فيما بينهم أن تكون سهراتهم بالتناوب في منازلهم. فلما تاب وقدم رفاقه إلى داره ليلة نوبته جعل الخمر في قوارير. فلما أرادوا احتساء الخمر فتحوا إحدى الزجاجات فوجدوا ما بداخلها حلوا، وهكذا كان الحال مع بقية القوارير. فلما كلموا صاحب الدار في الأمر قال لهم إنه تاب وأقسم أن هذا لشراب هو كانوا يشربونه فيما تقدم. فتابوا جميعا وبنوا زاوية انقطعوا فيها للعبادة.
انظر : تحفة النظار ص 430، 431.

كشف ابن بطوطة عن مصادر تمويل الزوايا واعاشة الفقراء بها. ففضلا عن الهبات والنذور والأموال التي يتبرع بها الأفراد، وقف على مصدر هام هو الأوقاف والحبوس السلطانية سواء أكانت مزارع أو أسواق فضلا عن الهبات والعطايا والمنح السلطانية المالية والعينية. ومن هذه الهبات أن السلاطين «جعلوا للوارد إلى الزوايا كسوة كاملة ومائة درهم يوم قدومه وثلاثمائة درهم يوم سفره والنفقة أيام مقامه وهي الخبز واللحم والأرز المطبوخ بالسمن والحلواء». كما كشف ابن بطوطة عن الكثير من الطرق الصوفية الواردة إلى المشرق من المغرب وفرق بينها وبين الطرق ذات الأصل الفارسي. هذا بالإضافة إلى تسرب بعض الطرق العراقية إلى أسيا الصغرى. وأخيرا تمييزه بين الطرق الصوفية السنية والشيعية(62).

بالمثل قدم معلومات جد هامة عن ظاهرة «الأخية» التي انتشرت بأسيا الصغرى، موضحا حملاتها بالطرقية وأصناف الحرف عاقدا الصلة بينها وبين نظام الفتوة الذي عرفه الشرق الإسلامي والذي عرف في المغرب أيضا باسم «نظام الصقورة».

كما وصف ملابسهم وشعاراتهم وأسلحتهم وأبواقهم وطبولهم وحدد طقوسهم ورسوم نظامهم. هذا بالإضافة إلى مرابتهم وسلطات أمراء طوائفهم ومن يقوم على أمر زواياهم من الشيوخ والأئمة والمؤذنين والخدم والعبيد(63). كذلك بين كيفية إدارة الزوايا وتعيين الموظفين القائمين على الإنفاق والمشرفين على الخدم والطباخين والسقائين والفراشين(64). وعدد أسماء شيوخ طوائفهم ومدى سلطاتهم على الزوايا التابعة لهم(65). وأبان مكانتهم عند السلاطين والأمراء الذين غالبا ما اختاروا منهم حكاما على المدن(66). وأخيرا

---

62) نفسة ص 191.

63) نفسه ص 322.

64) نفسه ص 213.

65) نفسه ص 214.

66) نفسه ص 325.

كشف عن الصلة بينهم وبين شيوخ الصوفية التقليدية الذين كانوا ينتسبون إلى الطريقة الرفاعية(67).

بل تغلغل ابن بطوطة إلى طبيعة الحياة داخل زوايا الفتيان من إقامة الشعائر وقراءة الأوراد إلى الرقص والسماع. كذلك أوضح طقوس الجلوس في الزاوية حسب المراتب(68).

وأمدنا ابن بطوطة بمعلومات جد هامة وضافية عن نظام «المجاورة» بمكة وأفاض في الحديث عن خلوات المجاورين وطوائفهم بالحرم وتدارسهم أمور الدين(69).

كما ربط ابن بطوطة بين اختيار مواضع إقامة الزوايا وبين مشاهير الصحابة وأقطاب الصوفية الذين ينتمون إلى الإقليم(70).

وأخيرا أبان عن موقفه من الطرق الصوفية والفقراء. وهو موقف المحبذ المعجب حيث قال «لله درهم من طائفة ما أكرم نفوسهم وأشد إيثارهم وأعظم شفقتهم على الغريب وألطفهم بالوارد وأحبهم فيه وأجملهم احتفالا بأمره»(71).

وفيما يتعلق بمحور الكرامات وتعبيره عن البنية الفكرية للعصر، أفرد ابن بطوطة صفحات كثيرة عن الخوارق والكرامات والمعجزات المنسوبة إلى الأولياء موعزا إياها بوقائع عاينها أو أحداث وقعت له.

من هذه الوقائع ما رواه عن كرامات الشيخ خليفة «صاحب المكاشفات حيث آثر عنه أنه كان يغادر مجلسه بالاسكندرية ويتوجه لتناول اللبن والتمر في الديار المقدسة ثم يعود إلى المجلس...(72).

67) نفسه ص 326.

68) نفسه ص 315.

69) نفسه ص 172، 173.

70) نفسه ص 48.

71) نفسه ص 345.

72) نفسه ص 39.

وقد ذكر ابن بطوطة أنه حين التقى به أخبره الشيخ - دون سابق علم - بأنه سيسوح في العالم الإسلامي حتى يصل إلى الهند حيث سيلتقي بها بأحد الأولياء، وهو ما حدث بالفعل(73).

روى أيضا عن كرامة أحد الأولياء وكان بلالحية فعنفه القاضي «فزعق ورفع رأسه فإذا هو لحية سوداء عظيمة»(74).

وفي الشام روى كرامة صوفي اشتشعر أصحابه الجوع فأمرهم بالتوجه إلى مكان معين، فلما وصلوا إليه «وجدوا حمارا وحشيا ذبحوه وشووه وأكلوا»(75).

وفي نسابور التقى بشيخ آخر أخبره بأن خادمه سيلوذ بالهرب، وقد تحقق ذلك بالفعل حسب شهادة ابن بطوطة(76).

وفي الحجاز أساء أحد الأمراء معاملة الصوفية فأصيبت دوابه بمرض عضال، وحين اعتذر لهم «أراقت ما كان في أجوافها وبرئت مما أصابها»(77).

وفي أصفهان أبلغه أحد الصوفية أنه بلغ منيته في الدنيا ولن يبلغها في الآخرة إلا إذا تصوف، وقد تحقق ذلك بالفعل(78).

روى أيضا أن نفسه تاقت «لجبة» من نوع ثمين، وعلى التو دخل عليه صوفي فقير حقق بغيته(79).

كما ذكر أن حالكما ظالما اضطهد أحد الصوفية وسلط عليه كلابا متوحشه لنهشه، لكن الكلاب حين عاينته ولت أليفة(80).

---

73) نفسه ص 40.
74) نفسه ص 50.
75) نفسه ص 100.
76) نفسه ص 433.
77) نفسه ص 74.
78) نفسه ص 211.
79) نفسه ص 221.
80) نفسه ص 225.

وفي الهند روى عن صوفي أهداه «فرجية» وتنبأ بأن أحد الكفار سيسلبه إياها إبان رحلته، وتحقق كشفه لما وصل ابن بطوطة إلى بلاد الصين(81).

وفي شيراز نزل أحد الزوايا ودلوه أن معه مصحفا يرتل فيه القرآن، وعلى التو فاجأه صوفي بإلقاء مصحف بين يديه(82).

ولم تقتصر تلك الكرامات على الصوفية من السنة، بل انسحبت كذلك على صوفية الشيعة فأورد كيف كان المرضى يأتون من كل فج إلى قبر على ابن طالب في ليلة «المحيا» فيتعبدون نصف الليل، وينامون النصف الآخر ويستيقظون وقد برأت عللهم(83).

كما روى ابن بطوطة عن خوارق معروفة للصوفية كاقتحام النيران وشج الرؤوس وما شابه ذلك من أمور اشتهر بها الرفاعية(84). تلك الروايات وغيرها كثير رواها ابن بطوطة عن خوارق وكرامات الصوفية تميط اللثام عن ظاهرة هامة شهدها العالم الإسلامي إبان عصر الانحطاط بعد أن وئدت التيارات العقلانية وسادت الاتجاهات النصية والغيبية.

أما عن دور الطرقية في المجتمعات العربية الإسلامية سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وتعليميا وثقافيا، فقد أمدتنا رحلة ابن بطوطة بمعلومات جد هامة.

فعلى الصعيد السياسي أوضح ابن بطوطة مكانة الصوفية عند السلاطين الذين لم يدخروا وسعا في إرضائهم وتوقير شيوخهم. فالأمير سيف الدين يملك المملوكي كان يواظب على زيارة زاوية الشيخ أبي النجاة بمدينة فوه بمصر لنيل بركات شيخها أبي عبد الله

---

81) نفسه ص 701.
82) نفسه ص 236.
83) نفسه ص 199.
84) نفسه ص 205، 206.

المرشدي. ولم يتقاعس عن مجالسة الفقراء بها ومشاركتهم الطعام(85).

والأمير أبو نمي أمير مكة كان يحرص على استرضاء الصوفية ويغدق من ماله الخاص على المجاورين(86). وكان سلطان شيراز أبو إسحق يلجأ إلى مشايخ الصوفية للاسترشاد بهم في أمور المدينة ولم يجد غضاضة في البوح إليهم بمشكلاته الخاصة مع أفراد أسرته(87). ولا غرو فقد فوض إليهم الفصل في المنازعات بين العناصر المتصارعة في المدينة(88).

وفي اليمن اعتبرت الزوايا أماكن محرمة يلوذ بها خصوم السلاطين فلا يستطيعون النيل منهم(89).

لقد حرص السلاطين والأمراء أن يكون الصوفية في عيون مجالسهم وكانوا يبالغون في مد الأسمطة لمآكلهم. كما كان شيوخ الصوفية يستثمرون هذه المكانة كي ينفق السلاطين والأمراء على الزوايا وإكرام الوافدين من الغرباء إليها(90).

هذا فضلا عما قاموا به من تقديم النصائح والمواعظ للحكام، وكان أكثرهم يستجيبون ويذرفون الدموع بين أيديهم إظهارا للتوبة والتكفير عن الآثام(91). ووصل نفوذ الصوفية عند السلاطين إلى حد ردع الظلمة منهم، حتى ليذكر ابن بطوطة أن جماعة من الصوفية اقتحموا دار أحد الحكام وأقاموا عليه حد السكر(92).

وما كان هؤلاء الأولياء يستجيبون للهدايا والانعامات التي يغدقها الحكام عليهم مؤثرين حياة الزهد والنسك. بل منهم من رفض مقابلة

---

85) نفسه ص 44، 45.

86) نفسه ص 174.

87) نفسه ص 226.

88) نفسه ص 228.

89) نفسه ص 278.

90) نفسه ص 368.

91) نفسه ص 414.

92) نفسه ص 294.

هؤلاء الحكام في زواياهم وعزفوا عن مجرد الحديث معهم(93). بالمثل كانوا يرفضون المثول بين أيديهم في قصورهم ويؤثرون اللقاء في الزوايا(94).

ولا غرو، فقد تزلف السلاطين إليهم يطلبون الصفح والغفران ويسألونهم الدعاء(95). كذلك حرص بعض السلاطين الأتقياء على اتخاذ مبعوثين وسفراء من مشايخ الصوفية. بل أن ابن بطوطة نفسه حين تصوف ووهب ماله للفقراء، استدعاه سلطان دلهي وبعث إليه بالخلع والهدايا السنية(96). وعينه قاضيا ثم بعثه سفير إلى بلاد الصين(97).

هكذا شكل شيوخ الصوفية قوة روحية ومعنوية خففت من جور الحكام خلال عصور اتسمت بالظلم والطغيان.

أما عن الدور الجهادي للزوايا في الشرق الإسلامي، فلم يشر إليه ابن بطوطة قط على عكس ما أورده عن زوايا المغرب والأندلس(98). وأن كان ما أورد إشارات ضئيلة عن دورها في نشر الإسلام في المناطق الثغرية. فقد ذكر ـ على سبيل المثال ـ أن الشيخ الصوفي جلال الدين التبريزي أسلم على يديه أهل الجبال في الإقليم الذي بنى فيه زاويته(99).

وعلى الصعيد الاقتصادي أثبت ابن بطوطة دور الزوايا في تقديم الخدمات على طول الطرق التجارية «فلا يفتقر القادم إلى حمل زاد في الطريق»(100).

كما أوضح ابن بطوطة أمثلة ضافية عن الدور الاجتماعي للطرقية، حيث قدمت الزوايا مأوى للفقراء وملاذا للمنبوذين في عصر

93) نفسه ص 394.

94) نفسه ص 546.

95) نفسه ص 505.

96) نفسه ص 597.

97) نفسه ص 598.

98) نفسه ص 766.

99) نفسه ص 700.

100) نفسه ص 498.

اتسم بالقحط والمجاعات. هذا فضلا عن دورها في التواصل الاجتماعي والحضاري حيث كانت ملتقى للغرباء يأوون إليها من كل حرب وصوب. كذلك كانت عاملا هاما في إقرار الأمن خلال عصر غص باللصوصية وقطع الطرق(101).

ورحلة ابن بطوطة تقف شاهدا على ما قدمته الزوايا من دور اجتماعي وحضاري، حيث كانت الزوايا مستقرا لإقامته خلال تسفاراته، وحيث لاقى من العلماء والأولياء جموعا غفيرة في الزوايا التي حل بها.

وهذا يقود إلى الحديث عن دور ثقافي وتعليمي اضطلعت به بعض الزوايا كمهمة تعليم الصغار وتحفيظهم القرآن الكريم خصوصا من أبناء الفقراء واليتامى(102). ولا غرو فقد ألحقت المدارس ببعض الزوايا، حتى أن لفظ «مدرسة» قد ورد عند ابن بطوطة مرادفا للفظ «زاوية» في بعض الأقاليم التي زارها(103). وها يفسر لماذا كان بعض شيوخ الصوفية علماء وفقهاء في علوم الدين(104). ولماذا كانت بعض الزوايا منابر للحوار والجدل في علم الكلام، خصوصا تلك المنسوبة إلى الشيعة(105).

صفوة القول أن ظاهرة الطرقية برغم سلبياتها المعروفة التي أشرنا إليها سلفا، انطوت على بعض الإيجابيات، وهو ما كشفت عنه رحلة ابن بطوطة بامتياز.

---

101) نفسه ص 343.

102) نفسه ص 173.

103) نفسه ص 198.

104) نفسه ص 234.

105) نفسه ص 273.

الرحلة التجارية الأندلسية
من خلال كتب التراجم والطبقات

ذ. أحمد الطاهري

كلية الآداب ـ المحمدية

لا يخفى عن المهتمين بالدراسات الأندلسية الشغف والاهتمام الذي أولاه المصنفون للتراجم والطبقات بالأندلس، مما أسفر عن ثروة ضخمة، متنوعة وشاملة لمجالات مختلفة. ولقد بين ابن حزم منذ فترة مبكرة أن القول بـ«تقصير أهل الأندلس في تخليد أخبار علمائهم»(1) غير ذي معنى. ففضلا عن المصنفات العامة في «تاريخ الرجال»(2) وتراجم «علماء الأندلس»(3) و«وفياتهم»(4) ألفوا في «تاريخ

1) انظر : المقري : نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب: تح إحسان عباس: دار صادر : بيروت: 1986: ج3: 156 وذلك في رسالة فضل الأندلس التي كتبها ردا على أبي علي الحسن بن الربيب التميمي القيرواني.

2) ذكر الحميدي أن أبا عمر أحمد بن سعيد بن حزم الصدفي المنتجيلي صنف «في تاريخ الرجال كتابا كبيرا»: جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس: الدار المصرية للتأليف والترجمة: القاهرة 1966: 125، انظر كذلك الضبي بغية الملتمس: دار الكتاب العربي: القاهرة 1967: 281ـ82. كما صنف مطرف بن عيسى الغساني من أهل القرن الرابع تاريخا «في رجال الأندلس» انظر: ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة: تح محمد عبد الله عنان: ط2 : مكتبة الخانجي: القاهرة 1973: م1: 320.

3) لعل أشهرها كتاب أبي الوليد بن الفرضي الذائع الصيت. انظر كذلك عن طبقات علماء الأندلس، مصنفا لمحمد بن أحمد بن عامر السالمي، ورد لدى ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة: السفر 6: تح إحسان عباس: دار الثقافة: بيروت 1973: ط 1: 7ـ8.

4) نخص منها بالذكر تاريخ أبي سعيد بن يونس الشائع الذكر. انظر الضبي: المصدر السابق: 71 ـ 104.

الحكماء»(5) و«القضــاء»(6) و«الفقهــاء»(7) و«طبقـات الكتــاب»(8) و«المقرئين»(9) و«الرواة»(10) و«الأئمة والزهاد»(11) كما صنفــوا في «أخبار الشعراء»(12) و«مشاهير الموشحين بالأندلس».(13)

ومن المصنفين من اقتصر في تراجمه إمعانا في التخصص والتدقيق، على إحــدى المدن أو الكور الأنــدلسيــة. هكــذا أفردت الكتب لـــ«فقهاء طليطلة وقضاتها»(14) ولفقهاء البيرة وشعـرائها(15) وعلمائها(16)

5) انظر : القفطي : كتاب أخبار العلماء بأخبــار الحكماء : دار الآثار : بيروت : بدون تاريخ: 140.

6) فبصرف النظر عن كتــاب قضاة الأندلس الـذائع الصيت لأبي الحسن النباهي، يـذكر ابن سعيــد أن المؤرخ الأندلسي الشهير أبــا مروان بن حيــان قد صنف هــو الآخر في القضــاة كتابا. انظر : المغرب في حلى المغــرب، تح شوقي ضيف: دار المعارف: القاهرة 1978: ط 3 ج 1: 70 انظر كذلك ص 155.

7) نذكر على سبيل المثال كتاب أحمد بن محمد بن عبد البر في تاريخ «فقهاء الأندلس» انظر : الضبي: المصدر الســابق: 162، كما جمع الحسن بن محمـــد بن مفـــرج بن حماد بن الحسني المعافري المعروف بالقبشي من أهل قرطبة كتابا سماه «الاحتفال في تاريخ أعلام الـرجال في أخبــار الخلفــاء والقضاة والفقهــاء» انظر: ابن بشكـوال: كتــاب الصلة: الـدار المصرية للتأليف والترجمة : القاهرة : 1966: ق1: 136 ـ 37.

8) نخص منهــا «طبقات الكتاب بــالأندلس» لمحمـد بن موســى بن هشام النحــوي المعروف بالاقشتين، انظر الضبي: المصــدر السابق: 127 والحميدي : المصــدر السابق: 88 وكذلك «طبقات الكتــاب الأندلس» الذي صنفــه سكن بن سعيد الأديب الإخبــاري، انظر: الضبي: نفس المصدر السابق وكذلك الذيل والتكملة: السفر 4: تح إحسان عباس : 48.

9) ذكر الضبي في المصــدر السابق، عثمان بن سعيــد المقرىء المتــوفى سنة 444هـ بكونه قد «تصدر بالقراءات وألف فيها، وفي طبقات رجالها تواليف مشهورة كثيرة»: ص 412.

10) ذكــر ابن خير ضمن مؤلفــات أبي الوليــد بن الفــرضي كتاب «المشــابه في أسماء الـرواة وكناهم وأنسابهم» الفهرسة: تح كوديرا وخوليان ربيرا : الخانجي القاهرة 1963 : 218.

11) ذكــر ابن سعيد ان ابن بشكــوال قــد ألف كتــابا «في زهــاد الأنــدلس وائمتها». المصــدر السابق: ج1: 166.

12) نذكر ممن ألف في هــذا الموضوع محمد بن هشام بن عبد العزيــز المرواني الذي عاش في خــلافة عبـد الرحمن النــاصر، انظــر الضبي: المصدر الســابق: 139 وكذلــك الحميدي: المصدر السابق: 96.

13) الذيل والتكملة : السفر الخامس القسم الأول : 188.

14) ابن بشكوال : الصلة : الدار المصرية للتأليف والترجمة : القاهرة 1966: ق1 ص 70.

15) انظر : ابن الخطيب : المصدر السابق : م1: 320.

16) نفسه : م3 : 176 ـ 78.

كما تم التصنيف في «أخبار رية.. وفقهائها وشعرائها»(17) وبالمثل في «قضاة قرطبة»(18) و«فقهاء مالقة»(19) وعلمائها بل هناك من وضع المؤلفات الضابطة لأفراد قومه وعشيرته، يذكر ابن الخطيب من بينهم غرناطي منتسب في آل عامر بن صعصعة ألف في تاريخ قومه وقرابته(20) وصنف غيره في «تسمية أعيان الموالي بالأندلس».(21)

حقيقة أن القسم الأكبر من هذه الثروة قد عبثت به يد الدهر، وما زالت العديد من المصنفات مخطوطة لم تحظ بعد بما تستحقه من عناية النشر والتحقيق. مع ذلك، فبالمقارنة مع غيرها من المصادر، تشكل كتب التراجم ـ كميا على الأقل ـ القسم الأوفر ضمن المتداول في المكتبة الأندلسية(22) فضلا عن ذلك، فمن المتعارف عليه أن العديد من المصنفات الأندلسية العامة في الأدب والتاريخ ما هي في جوهرها وفي قسم هام من مضامينها إلا شكلا من أشكال التراجم. وتقدم ذخيرة ابن بسام وإحاطة ابن الخطيب ونفح الطيب للمقري الأمثلة الأكثر دلالة على ذلك. بصرف النظر عن العدد الهائل من التراجم الأندلسية المتناثرة في مصادر جد متنوعة، أو المبوبة ضمن محتويات عدد من كتب التراجم والطبقات العامة.(23)

ورغم التداول المكثف لهذا الصنف من المصادر في الدراسات الأندلسية المعاصرة، يبدو أن المادة الغزيرة والمتنوعة التي تحتويها لم

---

17) الحميدي : المصدر السابق : 169 انظر كذلك الضبي : المصدر السابق : 236.

18) نخص هنا بالذكر الكتاب الشهير بهذا العنوان لابن حارث الخشني.

19 نخص بالذكر كتاب ابن عسكر : فقهاء مالقة: مخطوط مكتبة محمد المنوني وتوجد منه نسخة أخرى بالمكتبة الحسنية بالرباط.

20) الإحاطة : م 1 : 164.

21) الضبي : المصدر السابق : 211.

22) نخص منها بالذكر تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي، وقضاة قرطبة للخشني وصلة ابن الأبار وحلته، والذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشي وقلائد ومطمح ابن خاقان ومغرب ابن سعيد المعتمدة بالأساس إلى جانب ترتيب المدارك والغنية للقاضي عياض في هذه الدراسة.

23) مثل كتاب أنباه الرواة على أنباء النحاة للقفطي وبغية الوعاظ في طبقات النحويين لجلال الدين السيوطي ووفيات الأعيان لابن خلكان وغيرها من التراجم الكبرى المعروفة.

تستغـل بعـد بما فيه الكفايـة. سـواء فيمـا يتعلـق بـالتأريخ للاتجاهـات الفكـريـة والمـذهبيـة(24) أو بمختلـف مظاهـر الحياة الاجتماعيـة والاقتصاديـة. ومـن خـلال قـراءة واسعـة في متونهـا، نـتسـاءل عمـا يمـكـن أن تلقيـه مـن أضـواء علـى إحـدى الـزوايا المظلـمـة مـن تاريـخ الأنـدلـس ويتعلـق الأمـر بالرحلـة التجاريـة.

من المتعارف عليـه أن الرحـلات التجاريـة بين العدوتين المغـربية والأندلسية مـا فتئت تزداد اتساعـا وكثافة، خصوصـا خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين. وذلك «لقرب المزار وكثرة السفار وترددهم إليهم وتكـررهم علينـا» على حـد تعبير ابن الـربيـب التميمي القيرواني(25) وتـزخر كتب التراجـم بمعلومـات فـائقة الأهميـة عن الـرحلـة مـن أجل التجـارة بـالأنـدلس، شملت تجارا من مـدن: القيروان(26) وتـونس (27) وتاهرت(28) ووهران(29) بإفـريقية والمغرب الأوسط، ومن نكور(30) والبصرة وطنجة(31) وسبتة(32)

---

24) واعتقد بأن هـذا الموضوع بحاجـة إلى مزيد من العنـاية إعتمادا على المصادر الأنـدلسية الأصلية، قصد الإحاطة بمختلف المكونـات الفكرية التي كان لها ولا شك أبلغ الأثر على مجريات الامـور، خصوصـا خلال القـرن الخامس الهجري. ولقـد خصصت البـاحثة الإسبانية مـاريا إسابيل فييرو من المجلس الأعلى للأبحـاث العلمية بمدريد كتـابا حول موضوع : الحركات الهرطقية بالأندلس.

25) انظر : المقري : المصدر السابق : ج 3 : 159.

26) انظر : ابن بشكوال : المصـدر السابق : ج 2 : 539 = 40، 541 ـ 42، 596 انظر كذلك القاضي عيـاض: ترتيب المدارك وتقريب المسـالك لمعرفـة أعلام مذهب مـالك: منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية : ج 8: 112 ـ 13.

27) ابن بشكوال : المصدر السابق : ج 2 : صفحات 553 و 612.

28) الضبي : المصدر السابق : 201.

29) ابن بشكوال : المصدر السابق: ج 2 : 298.

30) الحميدي : المصدر السابق : 267، ابن عبد الملك المراكشي : المصدر السابق س 8 : 213 ـ 14 انظر كذلك س 4 : 46، انظر كذلـك القاضي عياض : الغنية تح/مـاهر زهير جرار : دار الغرب الإسلامي: بيروت 1982 : 155 ـ 56.

31) القاضي عياض : ترتيب المدارك : ج 8 : 199.

32) نفسه ج 8 : 171 انظر كذلك صفحات 112 ـ 113.

وأصيلا(33) وبلاد نفيس(34) بالمغرب الأقصى. ولا غـرو، فالأندلس اشتهرت بكـونها قرارة كل فضل، ومنهل كل خير ومقصد كل طـرفة ومورد كل تحفة، وغاية آمال الراغبين ونهاية أماني الطالبين، إن بارت تجارة فإليها تجلب وإن كسدت بضاعة ففيها تنفق».(35)

فضلا عن هـذه العوامل الاقتصادية، واضطـرار العدويين «إلى أهل الأندلس لوجود بعض الأشياء عندهم وفقدها ببلاد المغرب»(36) كثيرا ما وقفت السلطة السياسية بالأنـدلس، لاستمرار تدفق هذه الرحلات، موقف التشجيع المطلق. تكشف عن ذلك عدة مؤشرات(37) نذكر منها على سبيل المثال، تـدخل المنصور بن أبي عامر شخصيـا في خصومة ونـزاع «فتاه الأكبر المعـروف بـالميورقي مع التـاجـر المغربي.. وهـو يومئذ. أكبر خدم المنصور إليه أمر داره وحرمه.. فأنصفه منه».(38)

ومن الملاحظ أن معظم هؤلاء التجار ـ إن لم يكن جلهم ـ من أهل القلم، منهم من «لزم التجارة»(39) رغم كونه من مشاهير فقهاء سبتة. ومنهم من «دخل القيروان طـالبـا وتـاجـرا»(40) وهنـاك من اهتم بالتدريس إلى جـانب اشتغاله «بالتجارة فطاف بـلاد المغرب والأندلس وأخذ عنه هناك الناس وسمعوا منه كثيرا»(41) فضلا عمن أسندت له خطة القضاء» وكان يشتغل بالفقه والتجارة»(42) ينطبق نفس الشيء

---

33) نفسه : ج 8 : 179 ـ 80.

34) ابن بشكوال : المرجع السابق : ج 2 : 581.

35) المقري : المرجع السابق : ج 3 : 156 ـ 157.

36) نفسه : ج 1 : 244.

37) فلما أعاد عبد الرحمن الناصر السيطرة على مـدينة نكور مثلا سنة 325هـ يقول موسى بن أبي العافية القـائم بدعوته بالمغـرب : «حملنا السيف على من استحق منهم، وأعفينا الرعية وأصحاب السلامة من التجـار». ابن حيان : المقتبس : تح شالميتا / كورينطي / صبح : المعهد الإسباني العربي للثقافة : مدريد 1979 : 414 انظر كذلك : ابن سعيد : المرجع السابق: ج 1 : 180 ـ 81، والمقري : المصدر السابق : ج 1 : 401 ـ 402.

38) المقري : المصدر السابق : ج 1 : 410.

39) القاضي عياض : ترتيب المدارك : ج 8 : 171.

40) نفسه ج 8 : 169 انظر كذلك صفحة 180.

41) نفسه : ج 8 : 113.

42) نفسه : ج 8 : 199.

على الأديب الشهير ابن الربيب التميمي القيرواني السالف الذكر، فهو الآخر «قدم الأندلس تاجرا سنة 416»(43) بالمثل كان محمد بن القاسم بن أبي جاخ القروي «من أهل العلم والرواية والعفاف والنفاذ في أمور التجارة والبصر بأنواعها» حسب رواية شيخ مؤرخي الأندلس أبو مروان بن حيان(44) ولعل في قول يحيى بن إبراهيم الجدالي مخاطبا أبا عمران الفاسي بـ«أننا في الصحراء منقطعين لا يصل إلينا إلا بعض التجار الجهال، حرفتهم الاشتغال بالبيع والشراء ولا علم عندهم»(45) ما يدل عن شذوذ واستثناء هذه الحالة عن قاعدة الارتباط الوثيق بين العلم والتجارة. على أي، ففي هذه الحقائق ما يكشف عن سر اهتمام كتب التراجم والطبقات بالرحلة التجارية التي غالبا ما قدمت كمعلومات عرضية في سياق التأريخ لأهل القلم.

ولم يكن رحلات التجار المشارقة إلى الأندلس أقل كثافة. تقدم كتب التراجم أسماء عدد من التجار المصريين الذين وفدوا عليها من الأسكندرية(46) ودمياط(47) وتنيس(48) وغيرها(49) من المدن والمناطق. كما تقاطرت الرحلات التجارية باستمرار من مدن الشام كحمص(50) وبيت المقدس(51) واطرابلس(52) ودمشق(53) ومن مدن الحجاز(54) فضلا عن رحلات التجار العراقيين من البصرة(55)

43) ابن بشكوال : المصدر السابق : ج 2 : 541.

44) انظر : نفسه : ج 2 : 540.

45) ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب : تح إحسان عباس : دار الثقافة : بيروت 1980 : ج 4 : 7.

46) المقري : المصدر السابق : ج 3 : 143.

47) ابن بشكوال : المرجع السابق : ج 2 : 579.

48) نفسه : ج 2 : 640.

49) نفسه : ج 2 صفحات : 279 ، 353 ـ 54، 622.

50 نفسه : ج 2 : 367.

51) نفسه : ج 2.

52) نفسه : ج 2 : 659.

53) نفسه : ج 2 : 446 انظر كذلك ج 1 : 305.

54) نفسه : ج 2 : 297.

55) نفسه : ج 2 : 598.

وبغداد(56) وحران(57) وغيرها(58) وتواترت المعلومات بخصوص التجار الوافدين من تستر(59) ونيسابور(60) والشاش وسمرقند(61) وخراسان.(62)

حقيقة أن معظم التراجم تكتفي بالإخبار عن الهدف التجاري للرحلة، مع ذلك، ففي بعض المؤشرات الإضافية ما يكشف عن طبيعة بعض السلع المتداولة. فمن التجار الوافدين من كان صوّافا(63) ومن كان جواهريا(64) أو بزازا(65) واشتغل العديد منهم بالتجر في «الياقوت النفيس»(66) كما اشتهروا بالثروة والغنى، فمنهم من «كان عنده آلاف من الأموال»(67) ومنهم من كان «عظيم اليسار»(68) ولعل في دأب الخلفاء الأمويين وملوك الطوائف بعدهم على الحواضر السلطانية(69) ما يؤكد الطابع الترفي لهذا الشكل من التجارة المرتبطة

---

56) نفسه : ج 2 : صفحات : 544، 599، 634.

57) نفسه : ج 2 : 599.

58 نفسه : ج 2 : 541 ـ 42.

59) نفسه : ج 2 : 660.

60) المقري : المرجع السابق : ج 3 : 67.

61) ابن بشكوال : المصدر السابق : ج 2 : 637.

62) نفسه : ج 1 : 111.

63) نفسه ج 2 : 353، انظر كذلك الضبي : المصدر السابق : 199.

64) المقري : المرجع السابق : ج 1 : 412 انظر كذلك ابن بشكوال : المرجع السابق ج 2 : 581.

65) الضبي : المصدر السابق : 199 و 201. انظر كذلك ابن بشكوال : المصدر السابق: ج 1 : 111، والجدير بالملاحظة أن كساء واحدا بالبزازين بقرطبة بلغ ثمنه في إمارة عبد الله الأموي، أربعة وعشرين دينارا ونصف دينار. انظر : الخشني : قضاة قرطبة : الدار المصرية للتأليف والترجمة : القاهرة : 1966: 95.

66) المقري : المصدر السابق : ج 1 : 401.

67) أبو حامد الغرناطي : تحفة الألباب : تح غابرييل فيران : باريس 1925 : 143.

68) ابن بشكوال : المصدر السابق : ج 2 : 637، انظر كذلك النباهي : تاريخ قضاة الأندلس: دار الآفاق الجديدة: بيروت 1980: 77، ويقدم الخشني مثالا نموذجيا عن مدى استفحال ثروات التجار انظر : المصدر السابق : 83.

69) انظر : ابن بسام : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة : تح إحسان عباس : الدار العربية للكتاب : ليبيا تونس : ق 4 م 1 : 85.

أساسا بحاجيات القصور السلطانية والمنى الارستقراطية، وبطلبات الفئات المحظوظة. مع ذلك، فباستقصاء ما تقدمه بقية المصادر العربية، التي تكشف عن مستويات أخرى بهذا الخصوص(70) لا سيما كتب المسالك والممالك الجغرافية(71) ما يدعو إلى التحفظ من تعميم هذا التصور على مجموع هذا النوع من النشاط التجاري.

ويتجلى من خلال كتب التراجم والطبقات المعتمدة، أن رحلات التجار الأندلسيين إلى الآفاق قد حظيت باهتمام أوفر. والمعلومات ضافية في عدد من المصادر بخصوص الموانىء والمراكز التجارية التي أقاموها منذ عهد مبكر بأكثر من منطقة(72) حتى اشتهروا في حوض البحر الأبيض المتوسط بكونهم «أخبر الناس به وحدوده وخلجانه لأنهم يسافرون فيه(73) وفضلا عن الرحلات القصيرة التي داومها البعض بداخل الأندلس مترددا بين حواضرها(74) شكلت العدوة المغربية مجالا لنشاط العديد من التجار الذين حملوا سلعهم إلى سبتة(75) التي اتخذها البعض معبرا إلى «مدينة سلا»(76) وإلى

70) فالتجارة البعيدة المدى في إطار الحضارة العربية ـ الإسلامية لم تكن ترفية بالأساس خصوصا خلال القرن الرابع الهجري، بل مرتبطة بالقطاعات المنتجة فلاحية وحرفية وبقطاع البناء والخدمات كذلك. انظر بخصوص الأندلس خلال القرن الرابع الهجري: أحمد الطاهري : عامة قرطبة في عصر الخلافة: منشورات عكاظ : الرباط : 1988 : الفصل المخصص للتجارة. ولقد ذكر ابن سعيد على سبيل المثال «جبل غمارة العالي الطول العريض... ومنه يحمل خشب الأرز الذي تنشأ منه الأساطيل، ويعرف في الأبنية الملوكية ويحمل إلى الآفاق»: كتاب الجغرافيا : تح/ إسماعيل العربي : المكتب التجاري بيروت : 1970: 139.

71) انظر بعض التفاصيل الهامة حول هذا الموضوع على سبيل المثال لا الحصر لدى : المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم : نشر دي خويه : ليدن 1906 : 239، انظر كذلك الاصطخري : المسالك والممالك: نشر دي خويه ليدن 1972 : 45 وكذلك ابن حوقل : صورة الأرض : بيروت 1979 : 109.

72) انظر : البكري : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب : دي سلان : باريس 1965 : صفحات 55، 65 ـ 66، 69 ـ 70، 85 ـ 86.

73) المقدسي : المصدر السابق : 15.

74) ابن بشكوال : المصدر السابق : ج 1 : 311.

75) القاضي عياض : الغنية : 181.

76) نفسه : 184.

غيرهـا من المدن المغـربيـة. في حين فضل أحـد الإشبيليين ممن كـان «محترفا بالتجارة والخياطة»(77) الاستقرار بـ«مدينة فـاس طويلا في بعـض خاناتها»(78) وبـالمثل أقـدم تاجـر بلنسي «من ذوي اليســار والجـدة، متحـرفـا بتجـارة يديـرهـا بقيساريـة سبتة بعـد نزوحه من بلـده»(79) على نقل مجمـل أمـوالـه ونشـاطه إلى هـذه المديـنة المغربيـة. ودأب غـيره على التجـوال والـرحلـة بيـن مختلـف حـواضر «بلاد إفريقيـة والأندلـس(80) وهناك مـن عمـق دائـرة نشاطـه في اتجـاه «طرابلـس.. (و)بـرقة»(81) في تخـوم المغـرب الأدنى.

كما شكل الجناح الشرقي لدار الإسلام مـركز استقطاب لعدد من التجار الأندلسيين الذين تقاطـروا على مختلف جهاته بغرض التجارة، من قرطبة(82) وطليطلة(83) وبلنسية(84) وغرناطة(85) وغيرها من المدن الأندلسية، بل وحتى من صغريات المراكز الحضرية(86) وفضلا عن الحجـاز (87) والعـراق(88) وبـلاد «الشـام (89) والأسكندريـة ومصر»(90) طالت هذه الرحلات التجـارية بلدانا أخرى كـ(«خراسان

---

77) ابن عبد الملك المراكشي : المصدر السابق : س 5 : ق 2 : 649.

78) نفسه : س 5 : ق 2 : 648.

79) نفسه س 6 : 341.

80) ابن بشكوال : المصدر السابق : ج 2 : 631، انظر كذلك ج 2 : 615.

81) ابن الفرضي : المصدر السابق : 55.

82) نفسه : 247، انظر كذلك ابن الأبـار : التكملة لكتاب الصلة : تحقيق السيـد عزت العطار الحسيني : القاهرة 1956 : 205.

83) ابن بشكوال : الصلة : ج 1 : 238 ـ 39.

84) عبد الملك المراكشي : المصدر السابق : س 6 : 282.

85) نفسه : س 6 : 484.

86) انظر ابن الفرضي : المصدر السابق : 54.

87) عبد الملك المراكشي : المصدر السابق : س 6 : 484.

88) ابن الفرضي : المصدر السابق : 247.

89) ابن بشكوال : المصدر السابق : ج 1 : 238 ـ 39.

90) عبد الملك المراكشي : المصدر السابق : س 6 ـ 484.

وأرض فارس»(91) بالإضافة لكرمان ونيسابور وجرجان(92) ولعل في هذا ما يفسر نعت المقدسي للأندلسيين بكونهم «يكثرون التجارة والتغرب».(93)

والجدير بالملاحظة أن الرحلات التجارية الأندلسية، تجاوزت هذه المناطق في اتجاه بلاد الهند بالشرق الأقصى. ذكر ابن الفرضي(94) أحدهم ممن «دخل أرض الهند تاجرا، وكان يقول خرجت منصرفا من أرض الهند وأنا أقرر أن معي قيمة ثلاثين ألف دينار» من السلع. وتحدث غيره عن أهمية مدينة سبتة كسوق كبرى لإعادة توزيع وتسويق بضائع الشرق الأقصى ببلاد المغرب والأندلس، إن لم يكن بمجموع الحوض الغربي للبحر المتوسط وباروبا الغربية(95) يمارس ذلك «التجار الأغنياء الذين يبتاعون المركب بما فيه من بضائع الهند وغيرها في صفقة واحدة»(96) وتقدم كتب الجغرافية(97) وغيرها من المصادر العربية(98) معلومات مفصلة عن مختلف البضائع التي تجلب من الهند إلى بلاد الأندلس. بالموازاة لذلك «يجلب إليهم من بلاد الأندلس الزئبق والكبريت الأحمر وثياب السندس الغالي الثمن «حسب رواية أبي عبد الله الزهري.(99)

---

91) ابن الفرضي : المصدر السابق : 54.

92) نفس المصدر والصفحة.

93) المقدسي : المصدر السابق : 236.

94) المصدر السابق : ق 2 : 68 انظر كذلك مزيدا من التفاصيل عن هذه الرحلة لدى ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل : تح محمد إبراهيم نصر / عبد الرحمن عميرة : دار الجيل : بيروت 1985 : ج 2 : 258.

93) انظر عن دور قرطبة خلال عصر الخلافة كمحور لإعادة توزيع مختلف أنواع السلع إلى إيطاليا وأروبا الغربية، أحمد الطاهري : المرجع السابق : الفصل المتعلق بالتجارة.

96) ابن سعيد : كتاب الجغرافيا : تح إسماعيل العربي : المكتب التجاري للطباعة والنشر : بيروت : 1970 : 139.

97) أبو عبد الله الزهري : كتاب الجغرافية : تح محمد حاج صادق : المركز الإسلامي للطباعة: الجزية: بدون تاريخ: 19 ـ 21.

98) انظر على سبيل المثال المعلومات الواردة بهذا الخصوص لدى : أبو حامد الغرناطي : المصدر السابق : 48 ـ 49.

99) المصدر السابق : 31.

ومما ساعد على تكثيف الرحلة التجارية إلى الهند من الأندلس، ما كان متوفرا بهذه البلاد من خدمات تجارية مختلفة، كشف عن بعض تفاصيلها ابن رضوان(100) في نص بالغ الدلالة. وكان الهنود إمعانا في تشجيع التجارة مع دار الإسلام «يحترمون التجار المسلمين غاية الاحترام ولا يؤخذ منهم أعشار في بيع وشراء ولا مكس»(101) وفي نص فريد للضبي(102) عن رحلة أحد الأندلسيين إلى الهند قبل الثلاثمائة للهجرة، قصد المداواة من ورم خبيث، ما يكشف عن تجاوز العلاقات بين الأندلس والهند شؤون التجارة إلى مستويات أعمق.

ولم تكن الصين أقل تشجيعا للتجارة والتجار. ففضلا عما عرف به أهلها من كونهم «يكرمون التجار»(103) فلقد اشتهرت في مختلف الآفاق بكونها آمن البلاد وأحسنها حالا للمسافر. فإن الإنسان يسافر منفردا يسير مسيرة تسعة أشهر ويكون معه الأموال الطائلة، فلا يخاف عليها»(104) ولم يكن بعدها عن الأندلس ليثني همم التجار عن مقارعة الأهوال ومجاهدة النفس قصد تحقيق أكبر الأرباح. يؤكد ذلك أبو حامد الغرناطي(105) فيما أورده عن «رجل من التجار ممن سافر إلى الصين في البحر وأقام بها مدة ووصل إلى بلده المغرب بأموال عظيمة».

وتحتفظ كتب التراجم بمعلومات فائقة الأهمية عن عدد من رحلات التجار الأندلسيين إلى بلاد الصين. منهم من «سافر الكثير برا وبحرا واخترق من الأندلس إلى بلاد الصين»(106) «وانتسب لذلك

100) الشهب اللامعة في السياسة النافعة : تحقيق علي سامي النشار : دار الثقافة البيضاء : 1984: 315.

101) أبو حامد الغرناطي : المصدر السابق : 50.

102) المصدر السابق : 127 ـ 28.

103) إسحاق بن الزيات : ذكر الأقاليم : تح فرانسيسكو كاستيلو : المجلس الأعلى للأبحاث العلمية: معهد ميلاس باليكروسا للتاريخ والعلوم العربية : برشلونة 1989 : 301.

104) ابن رضوان : المصدر السابق : 314.

105) المصدر السابق : 108.

106) ابن الآبار : الذيل والتكملة : السفر 4 : 16 ويقدم ياقوت الحموي مزيدا من التفاصيل عن هذه الرحلة، انظر : معجم البلدان : دار صادر : بيروت 1979: ج 1 491، وعن مزيد من المعلومات انظر كذلك: جمال الدين عبد الرحيم الأسنوي : طبقات الشافعية : تح : عبد الله الجبوري : دار العلوم للطباعة والنشر : المملكة العربية السعودية : الرياض 1981 : ج 1 : 250.

صينيا»(107) ولعل فيما ذكره الزهري(108) عن رحلة أحد أمهر النساجين الصينيين من بلاد التبت للعمل بمناسج المرية(109) ما يكشف ليس فقط عن كثافة العلاقات التجارية بين الصين والأندلس، بل كذلك عن عمق التأثير وأهمية التفاعل الحضاري بينهما.

ويقدم ابن عبد البر(110) وغيره من المصنفين(111) معلومات هامة عن عدد من المراكز والمدن ذات الأهمية التجارية بالصين «التي تنزلها مراكب التجار»(112) بما يكشف عن دور هذا النشاط الاقتصادي في تقريب هذه البلاد من معارف أهل القلم ببلاد المغرب والأندلس.

وعلى عكس البلدان والمناطق السابقة، يبدو أن إهمال كتب التراجم للرحلة الأندلسية إلى أوروبا الغربية يكاد يكون مطلقا. حقيقة أن هذه المنطقة ظلت منغلقة ومتخلفة عن مواكبة تطورات العصر، على الأقل إلى حدود القرن الخامس الهجري، مع ذلك، تمكنت التجارة الأندلسية من اختراق بنياتها وفتح شرايين التبادل مع العديد من بلدانها. وليس أدل على ذلك من تقاطر سفارات عدد من الممالك والإمارات المسيحية(113)

---

107) ياقوت الحموي : معجم البلدان : ج 1 : 461.

108) المصدر السابق : 64.

109) ولا غرو فلقد اشتهرت المرية بكثرة ما احتوته من المناسج، «قال بعضهم : كان بالمرية لنسج طرز الحرير ثمانمائة نول، وللحلل النفيسة والديباج الفاخر ألف نول، وللاسقلاطون كذلك، وللثياب الجرجانية كذلك، وللأصفهانية مثل ذلك، وللعتابي والمعاجر المدهشة والستور المكللة. «المقري : المصدر السابق ج 1 : 136.

110) القصد والأمم في التعريف بأصول أنساب العرب والعجم ومن أول من تكلم بالعربية من الأمم: تح إبراهيم الأبياري : دار الكتاب العربي : بيروت 1985: 59.

111) إسحاق بن الزيات : المصدر السابق : 301.

112) ابن عبد البر النمري : المصدر السابق : 59.

113) نخص منها بالذكر مملكة جليقية، انظر : المقتبس : قطعة الحجي : صفحات: 27، 36 ـ 64، 76 وقطعة صبح / شالميتا / كورينطي: ج 5: صفحات: 457 ـ 458، 468، ومملكة برشلونة انظر : نفسه : قطعة الحجي : صفحات 168 ـ 67، 182 ـ 83، وقطعة صبح / شالميتا / كورينطي : ج 5 : 454، 455، وغيرها من سفارات «رسل ملوك العجم» نفسه : قطعة الحجي : 138.

على قـرطبـة طلبا لــ«الصلح والألفـة»(114) فضــلا عن العـلاقـات الـدبلـومـاسيـة الشهيرة والسفـارات المتبـادلـة مع كبريـات البلـدان كبيزنطة(115) وأمبراطورية الفرنجة.(116)

ومن الملاحظ أن عـددا هامـا من التجار رافقـوا «رسول صــاحب جزيرة سردانية»(117) لدى نـزوله سفيرا على الخليفـة عبد الـرحمن الناصر «بضروب تجاراتهم النفيسة»(118) وبالمثل، فلما بعث صاحب بــرشلــونــة سفيره «إلى الحضرة .. سأل تأمين تجار أرضـــه على الاختلاف إلى الأندلس»(119) ويذكـر ابن حيان(120) في نص بـالغ الـدلالة «احتـلال تجار الملفيين بقرطبـة، أتوا الأنـدلس في البحر طلبـا للتجارة فيها». ممـا يكشف عن دور هذه الجهود الدبلومـاسية المكثفة في فتح آفاق رحبة بأوروبا أمام الرحلة التجارية الأندلسية.

وتقدم المصنفات التاريخية(121) وكتب الجغرافية(122) عددا من المؤشرات الـدالة عن كثـافـة الرحـلات التجـارية بين الأنـدلس والمدن الإيطالية ابتداء من سنة 330 هجرية. كما تكشف عن إحدى المسالك الهامة لتجارة «القصـدير والنحاس اللذان يجلبان من جـزيرة انكلطرة وجزيرة إرلندة»(123) ولا تعـوز المعلـومات بخصـوص الـرحـلات الأندلسية في اتجاه القطب الشمالي نحو البلاد الأسكندنافية إلى أقصى أروبا، التي قـال عنها بعض التجار: «النهار عنـدهم في الصيف طويل

114) المقتبس : ج 5 : 485.

115) انظر على سبيل المثال : المقتبس : قطعة الحجي : 71.

116) ذكر ابن عذاري المراكشي وصـول سفارة هوتو إلى قـرطبة سنة 342هـ، انظر المصدر السابق ج 2 : 218. ويذكر ابن حيان وفود سفارة ثانية سنة 363هـ : المقتبس : قطعة الحجي : 169.

117) المقتبس : قطعة صبح / كورينطي / شالميتا : ج 5 : 485.

118) نفس المصدر والصفحة.

119) نفس المصدر والصفحة.

120) نفسه : ج 5 : 478.

121 نفس المصدر والصفحة.

122) أبو عبد الله الزهري : المصدر السابق : 76 ـ 77.

123) ابن سعيد : كتاب الجغرافيا : المصدر السابق : 181.

جدا حتى أن الشمس عنهم مقدار أربعين يوما. في الشتاء ليلهم طويل جدا حتى تغيب الشمس عنهم مقدار أربعين يوما والظلمات قريبة منهم»(124) بصرف النظر عما هو متداول عن مسالك التجار الأندلسيين إلى روسيا(125) وبلاد البلغار.(126)

ينطبق نفس الشيء على الرحلة الأندلسية إلى بلاد السودان التي أهملتها كتب التراجم إهمالا يكاد يكون بهذا الخصوص كذلك مطلقا. ومن المعلوم أن المبادلات التجارية ما فتئت تزداد كثافة واتساعا بين المنطقتين، خصوصا خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين: برا عبر المسالك المغربية، وبحرا عبر «السوس الأقصى وهو آخر ما تبلغ إليه مراكب الأندلس»(127)ويكشف العذري(128) بهذا الصدد عن دور ميناء شاطبة الذي «يتجهز منه التجار بالأمتعة إلى غانة وبلاد السودان». والمعلومات ضافية عن دور الذهب(129) و«الخدم السود»(130) في جذب اهتمام التجار، ليس من الأندلس فحسب، بل من مختلف مناطق وحواضر دار الإسلام.

نخلص إلى أن صمت وإهمال كتب التراجم والطبقات للرحلة الأندلسية نحو أوروبا وبلاد السودان مرتبط من جهة باقتصار هذا النوع من التصنيف على التأريخ لأهل القلم. ومن جهة أخرى، بنوعية التجار المترددين على هذه المناطق، الذين اقتصر نشاطهم في الغالب على التجارة. ومن المعلوم أن هذه المناطق لا توفر المناخ المناسب ولا

---

124) أبو حامد الغرناطي : المصدر السابق : 239.

125) ابن خردادبه : المسالك والممالك: مطبعة بريل : الطبعة الثانية : نشر دي خويه : ليدن 1967 : 154، انظر كذلك البكري : جغرافية الأندلس وأوروبا من كتاب المسالك والممالك : تح عبد الرحمن الحجي : دار الإرشاد : بيروت : الطبعة الأولى : 1968 : 152 ـ 53.

126) أبو حامد الغرناطي : المصدر السابق : 118.

127) ابن عبد البر النمري : المصدر السابق : 35.

128) العذري : ترصيع الأخبار وتنويع الآثار : تحقيق عبد العزيز الاهواني : منشورات معهد الدراسات الإسلامية : مدريد : 1965 : 19.

129) انظر على سبيل المثال : أبو حامد الغرناطي : المصدر السابق : 41 ـ 42.

130) الأصطخري : المصدر السابق : 45.

المستوى اللائق، وتنعدم بها مراكز الإشعاع العلمي والثقافي القادرة على جذب العلماء والمثقفين من التجار. ولعل في قول يحيى بن إبراهيم الجدالي، السالف الذكر، بـ«أننا في الصحراء منقطعين لا يصل إلينا إلا بعض التجار الجهال، حرفتهم الاشتغال بالبيع والشراء ولا علم عندهم»(131) ما يؤكد صحة هذا التحليل.

ومن خلال التدقيق في المعلومات التي تقدمها التراجم الأندلسية، على اقتضابها، يمكن الكشف عن مختلف الشرائح المكونة لفئة التجار المترددين على الآفاق. ففي خلافة عبد الرحمن الناصر، اشتهر عدد من العرفاء المتخصصين في جلب المنسوجات الفاخرة والتحف النادرة والأسلحة ومواد البناء المختلفة، تلبية لحاجيات القصور السلطانية. نخص منهم بالذكر «العريف المعروف بالفلفاط»(132) وعبد الله بن يونس وحسن القرطبي وعلي بن جعفر الأسكندراني وربيع بن زيد الأسقف(133) وغيرهم. وبالمثل، كان خلفه الحكم المستنصر» يبعث.. إلى الأقطار رجالا من التجار ويرسل إليهم الأموال»(134) وقد بلغ من نفوذ وجاه بعضهم أن تجاوز مهامه التجارية للإسهام بفعالية في المخططات الأمنية للخلافة الأموية. ففي سنة 361هـ «ورد الخبر بقبض محمد بن سليمان التاجر المعروف بابن نقورة على الفاسق عبد الملك بن سميت المعروف بخنوص الآبق»(135) بسواحل إفريقية في العدوة المغربية، لكونه قد انحاز ثائرا لائذا إلى الدولة الفاطمية. استمرت بعدئذ ظاهرة توكيل التجار من طرف الملوك قصد تحريك أموالهم، سارية المفعول خلال عصر الطوائف. يكشف عن ذلك أحد التجار بقوله متحدثا عن ولي نعمته المعتمد بن عباد: «أمر خادما له فأعطاني ما أعيش من فائدته إلى الآن فإني انصرفت به إلى المرية،

---

131) ابن عذاري المصدر السابق : ج 4 : 7.

132) ابن حيان : المقتبس : ج 5 : 176.

133) انظر : ابن الخطيب : أعمال الأعلام : تحقيق بروفنصال : رباط الفتح : 1934، 43، ابن عذاري : المصدر السابق : ج 2 : 213، المقري : النفح : ج 1 : 568.

134) المقري : المصدر السابق : ج 1 : 386.

135) ابن حيان : المقتبس : قطعة الحجي : 86 ـ 87.

وكان يعجبني سكانها والتجارة بها، لكونها ميناء لمراكب التجار من مسلم وكافر، فتجرت فيها»(136) وهو ما أكده ابن بسام(137) فيما أورده عن «بعض وزراء إشبيلية قال: جهز عباد بعض التجار إلى صقيلية»، في مهمة تجارية.

وعلى غرار الخلفاء والملوك، دأب رجالات الدولة وأرباب الخطط على توكيل التجار في مهام بداخل الأندلس وكذا في الآفاق البعيدة. يذكر الخشني(138) أن قاضي الجماعة سليمان بن أسود كاشف أحد الثقاة ودله على باب التجر وحضه عليه.. ثم دعاه فأودعه خمسة آلاف دينار وقال له حركها واتجر بها» ولم يتردد الأمراء والخلفاء والملوك على التدخل في شؤون التجارة والتجار بالأغرام والمصادرة(139) أو بالحجر والحكر على بعض السلع(140) وهو السلوك الذي طالما أثار تحفظ المهتمين بآداب السياسة والأحكام السلطانية، الذين أفصحوا في أكثر من مناسبة عن مكامن خطورته على مجمل الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية.

وفضلا عن هؤلاء الوكلاء، تكشف كتب التراجم عن دور التجارة والتكسب في تقلد أعلى الخطط والمناصب. فالحبيب أحمد بن محمد بن زياد اللخمي على سبيل المثال كان فقيرا «في مبتدأ أمره لا مال له»(141) ثم غدا من كبار التجار، مما فسح له المجال للترقي لاحقا في حلبة الدواوين وتقلد خطة القضاء. وبالمثل، فعندما تجرد محمد بن يبقى بن زرب الذائع الصيت لتقلد منصب قضاء الجماعة للمنصور

136) المقري : المصدر السابق : ج 3 : 571.

137) المصدر السابق : ق 4 : م 2 : 610.

138) المصدر السابق: 102.

139) فلقد ورد في قضاة قرطبة للخشني أغرام ورثة أحد كبار التجار القرطبيين من طرف الأمير، فكان ذلك «سبب فقرهم» انظر : ص 84. ومن المتعارف عليه أن الخليفة الناصر والحاجب المنصور بن أبي عامر كانا يقاسمان عمالهم في متاجراتهم انظر : عامة قرطبة في عصر الخلافة: منشورات عكاظ 1989 : 128.

140) ذكر الأصطخري على سبيل المثال أن خلفاء بني أمية بالأندلس كانوا يحجرون على بيع وبر السمور انظر : المصدر السابق : 42.

141) الخشني : المصدر السابق : 107.

بن أبي عامر، «كشف عن مال عظيم صامت في صندوق وقال: ...وحظي من التجارة ما علمتم»(142) إزالة لما قد يثار من شبهات حول مصادر عظيم ثرواته. ويذكر الرشاطي(143) أن قاضي المرية المعروف بالشمنتاني «كان في شبيبته تاجرا ومسفرا». مع ذلك فالعديد هم التجار الذين تورعوا عن تقلد المناصب، وانقبضوا عن أهل الجاه ومصاحبة السلطان. ذكر ابن عبد الملك المراكشي(144) أحدهم ممن «اشتهر بالورع والصدق والصلاح والفضل والزهد التام». ومنهم من «كان شيخا عاقلا وقورا فاضلا شديد الانقباض عن مخالطة الناس».(145) رغم كونه «من ذوي اليسار والجدة»(146) وإمعانا في الزهد والورع لم يتردد أحد كبار البزازين عن «ترك التجارة وقسم ماله بين بنيه وأسهم الفقراء منه»(147) في حين زاوج غيره بين الاختلاف «إلى المشرق تاجرا»(148) وبين «الجهاد والرباط».(149)

حقيقة أن معظم التجار الذين كان يترددون على الآفاق البعيدة، اشتهروا كما سلف الذكر، بعظيم يسارهم، مع ذلك هناك من كان التعيش أقصى مبتغاه من الرحلة والاغتراب. ففضلا عمن كان «معاشه من التجارة(150) وعمن كان «يعيش من بضاعة له يديرها في تجارة»(151) محدودة الربح، يذكر ابن عبد الملك المراكشي(152) أحدهم ممن كان «يعيش من بضاعة له يديرها في تجارة كان شديد

142) النباهي : تاريخ قضاة الأندلس : منشورات دار الافاق : بيروت 1980 : 77.
143) أبو محمد الرشاطي وابن الخراط الإشبيلي : الأندلس في اقتباس الأنوار وفي اختصار اقتباس الانوار: تحقيق إيميليو مولينا / وبوش فيلا : مدريد 1990 : 86.
144) الذيل والتكملة : س 6 : 282.
145) نفس المصدر والقسم 341.
146) نفس المصدر والصفحة.
147) ابن الأبار : التكملة : 303.
148) نفسه : 305.
149) نفس المصدر والصفحة.
150) ابن بشكوال : المصدر السابق : ج 1 : 348.
151) ابن عبد الملك المراكشي : المصدر السابق : س 5 : ق 1 : 120.
152) نفس المصدر والقسم : 141.

الاحتياط فيها والتحرز» خوفا من الافتقار. ويؤكد ابن بشكوال في نص دال عن موقع هذه الشريحة الوسط، فوق مستوى باعة الأسواق من عوام التجار، ودون كبار التجار والولاء، إذ يقول متحدثا عن أحدهم: «كان معاشه من ثياب كان يبتاعها ببجانة ويقصرها ويحملها إلى قرطبة فتباع له ويبتاع من ثمنها ما يصلح ببجانة.(153)

وبصرف النظر عن قيمة ما تتضمنه التراجم الأندلسية من معلومات عن وضعية المسالك والطرق والمنازل البحرية والبرية(154) وأهميتها في تحقيق واستكمال ما تقدمه كتب المسالك والممالك الجغرافية بهذا الخصوص، فالجدير بالملاحظة أنها تقدم معلومات غاية في الأهمية، إن لم تكن أحيانا فريدة بخصوص التفاعل الحضاري بين الأمم والشعوب. فبالإضافة للإشارات المتعلقة بتميز «زي التجار»(155) عن غيرهم، والمعلومات المرتبطة بانتقال غراسة الزمان السفري»(156) من الشام إلى الأندلس، «والتين الدنقال»(157) الذي استجلبه يحيى الغزال من القسطنطينية، سلفت الإشارة إلى تبادل الرحلات الطبية بين الأندلس والهند، فضلا عن النص الهام الكاشف عن تبادل الخبرات بين الصين والأندلس في مجال الحرف النسيجية.

ومن جهة أخرى، تكشف الرحلة التجارية عن الدور الفعال الذي لعبه هذا النشاط على مستوى التواصل اللغوي، وهو مجال ما زال بحاجة إلى كثير من العناية من جانب البحث اللغوي المعاصر. فمن التجار من «ساح في الأرض ودخل بلاد العجم وغيرها من البلاد

153) ابن بشكوال : الصلة : ج 1 : 311.

154) انظر على سبيل المثال : الضبي : المصدر السابق : 82، 248، 350 ابن عبد الملك المراكشي المصدر السابق : س 1 : ق 2 : 433، 545 س 5 : ق 2 : 647.

156) ابن بسام : الذخيرة : ق 4 : م 1 : 88.

157) الخشني : المصدر السابق : 17.

157) أبو الخير الأندلسي : كتاب الفلاحة : نشر القاضي التهامي الناصري : فاس 1357هـ : 111.

البعيدة وكان يتكلم بالسنة شتى»(158) لم يقتصر دور التجار والرحلة التجارية على مد جسور التواصل بين الأمم، بل تجاوزه إلى تعميق تأثير الحضارة العربية الإسلامية لدى الأمم المجاورة، ومد إشعاعها بعيدا نحو هوامش العالم خلال العصر الوسيط(159) ولعل في تجرد بعض الفلاسفة الأندلسيين لاقراء وتعليم «الأمم بألسنتهم فنونهم التي يرغبون فيها وفي تعلمها»(160) عن بعض من ذلك البعد العالمي والإنساني الذي تمكنت الثقافة العربية الإسلامية من صياغة وترسيخ أسسه أيام العطاءات الكبرى خلال «العصر الوسيط الذهبي».

صفوة القول ـ أن الاستقصاء الواسع النطاق للتراجم الأندلسية المبثوثة في مصادرها الأصلية، والمتناثرة في مظانها المختلفة، كفيل بفتح نوافذ جديدة أمام البحث في التاريخ الاقتصادي الإسلامي «الوسيط»، وفي دور التجارة والتجار.

---

158) المقري : المصدر السابق : ج 2 : 243.

159) كما يستفاد من إحدى النصوص الهامة والبالغة المعنى، لجغرافي مجهول من أهل القرن الثالث، إذ قال متحدثا عن رحلات التجار المسلمين في المحيط الهندي، ونحو جزر الشرق الأقصى: «ثم تخطف المراكب إلى بحر هركند، فإذا جاوزوه صاروا إلى موضع يقال له لنجبالوس، لايفهمون لغة العرب ولا ما يعرفه التجار من اللغات..» وبقدر ما يكشف هذا النص على الدور الذي لعبته اللغة العربية كلغة للتواصل على الصعيد العالمي بقدر ما يؤكد على دور التجار في التواصل الحضاري بين الشعوب والأجناس المختلفة. كتاب أخبار الهند والصين: نشر سوفاجيه 1948.

160) المقري : النفح : ج 4 : 131.

التقييم الإداري لبلاد المغرب
في عصر الفاطميين
من خلال رحلة ابن حوقل

د. بوبة مجاني
جامعة قسنطينة

تعد سنة 296هـ / 909م، نهاية عهد تعدد السلطة ومذاهبها في بلاد المغرب، من سنية وخارجية. وبداية عهد أحادية السلطة ومذهبها وكذلك تحول بلاد المغرب من دار ولاية وإمارة إلى دار خلافة مع بقائه مستقلا عن الخلافة القائمة ببغداد. وأصبح الحاكم الأوحد لبلاد المغرب الخليفة الفاطمي - يحكم إقليما واسعا كثير المدن، ومتعدد الأمصار، وورث مجتمعا تختلف فيه المذاهب كما تختلف فيه الانتماءات القبلية، كما ورث هذا الحاكم نظم الدول التي أصبحت عواصمها دار ولاية تتبع دار خلافته بالمهدية وواجهت هذه السلطة الجديدة معارضة قوية لمذهبها وسياستها خاصة المالية، وحاولت أن توفر لنفسها الاستقرار بالقضاء على هذه المعارضة حتى تتمكن من تحقيق مشروعها السياسي، وهو إسقاط الخلافة السنية ببغداد المغتصبة لسلطتها الشرعية وإقامة خلافة شيعية. ولقد تعاملت مع هذا الوضع بأساليب مختلفة ومن بين أشكال هذا التعامل إدارة الأقاليم وهو موضوعنا في هذه الدراسة.

إن اهتمام المؤرخين بهذا الجانب بسيط بل وينعدم في بعض الأحيان، فلا يسجلون أحداثه إلا بقدر علاقته بالأحداث السياسية والعسكرية، أي عندما يتعلق الأمر بانتصار جيش وتنصيب حاكم، مما أعطى صورة مبتورة وقاتمة ليس فقط عن تاريخ الدولة الفاطمية

بل عن تاريخ كل الدول الإسلامية، وصور على أنه سلسلة من الحروب والفتن.

وإذا كان المؤرخون قد اهتموا بتسجيل الأحداث السياسية والعسكرية فإن كتب الرحلة سجلت لنا سير المجتمعات وتطورها، وأعطت لنا صورة صادقة عن حياة المجتمعات وتعامل السلطة معها والذي كانت وسيلته الإدارة. والرحلة إن كانت في أحد أهدافها هي المعرفة الجغرافية بذاتها، فأن الاهتمام بأخبار الأقاليم ومسالكها ومقدار جبايتها هو جزء من العمل الإداري.

والبحث في النظم الإدارية في بلاد المغرب من المواضيع التي يصعب دراستها وهذا لافتقادنا نوعا من المصادر يعتبر المرجعية الأساسية، وهو كتب النظم التي عرفت تنوعا وثراء كبيرين في بلاد المشرق فلقد دون العلماء وكبار موظفي الدولة الكثير عن الوزارة والكتابة والحجابة والبريد والنظم المالية. بينما في المغرب لم تحظ هذه الجوانب بالاهتمام، ولا يتعرض لها إلى عرضا، وحتى الدولة الفاطمية لم تعرف هذا النوع من المصادر إلا في مرحلتها المصرية. وربما تعود أسباب هذا الإهمال في الفترة السابقة لحكم الفاطميين كون بلاد المغرب كانت دار ولاية. أما في العصر الفاطمي فإن طبيعة الوجود الفاطمي وحكمه لبلاد المغرب والفترة الزمنية نفسها هي التي لم تسمح بظهور هذا النوع من الكتابات.

إن الذي أولى اهتماما لبعض جوانب هذه المواضيع هو كتب الرحلة والجغرافية كما ذكرنا في السابق كالتقسيمات الإدارية الإقليمية، غير أنها لا تتعرض لنظام سير هذه الإدارة، ولقد اخترنا لهذه الدراسة رحالة من القرن الرابع الهجري(10م) وهو أبو القاسم ابن حوقل النصيبي (ت حوالي 367هـ) الذي زار بلاد المغرب أيام حكم الفاطميين وترجع أسباب اختيارنا له إلى:

1 - إن ابن حوقل شيعي المذهب، فهو بذلك يعكس وجهة النظر الرسمية أو يمثل سياسية الدولة.

2 ـ إن ابن حوقل كتب بناء على مشاهدته وما عاينه بنفسه فيقول «فهذه صورة المغرب ومكان كل عمل ومدينة وموقعها من شمالها وجنوبها ومشرقها وغربها حسب ما أدت الاستطاعة إليه ووقفت بالمشاهدة والخبر الصحيح بالمفاوهة عليه»(1) لقد كان بالمغرب ابتداء من الثلاثيات من القرن الرابع الهجري في أيام خلافة المنصور(334 ـ 341هـ) فذكر عند وصفه لمدينة المهدية (...أدركتها سنة ست وثلاثين وملوكها كماة وجيوشها حماة...)(2) وفي سنة 340هـ / 951م كان بسجلماسة(3) وهذا بعد عودته من الأندلس التي دخلها في بداية سنة 337هـ. وظل بالمغرب حتى بعد رحيل الخليفة المعز لدين الله إلى القاهرة 362هـ / 972م فيقول عندما يتحدث عن قبيلة صنهاجة «...ومساطة آل يوسف بن زيري بن مناد خليفة آل عبيد الله أصحاب المغرب على المغرب، وبلكين يوسف بن زيري بن مناد هو صاحب المغرب يومنا هذا وملكه منذ شخوص أبي تميم عنه...»(4).

لقد اتخذ ابن حوقل من كتاب مسالك الممالك للاصطخري الذي ألفه بين سنتي 318 ـ 321هـ / 930 / 933م نموذجا له ووضع على غراره كتابه صورة الأرض، وكان اصطخري هو الذي طلب منه إصلاح ما جاء في كتابه، فأصلحه ونسبه إليه ثم وضع كتابه صورة الأرض فيقول: «فأصلحت منه غير شكل وعزوته إليه، ثم رأيت أن أنفرد بهذا الكتاب وإصلاحه وتصويره أجمعه وإيضاحه»(5) وإذا كان ابن حوقل قد أصلح بعض ما أفسده الاصطخري عند تصويره لبعض الأقاليم كمصر والمغرب(6)، فإنه اعتمد نفس التقسيم للعالم

1) صورة الأرض / 69.

2) نفسه / 72.

3) نفسه / 96.

4) نفسه / 101، 102. يذكر في فاتحة كتابة ص 10 أنه بدأ سفره من مدينة السلام ببغداد يوم الخميس لسبع خلون من شهر رمضان سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة.

5) صورة الأرض / 284.

6) يقول ص 284 «... ولقيت أبا إسحاق الفارسي وقد صور هذه الصورة لأرض السند فخلطها وصور فارس فجودها وكنت قد صورت أذربيجان التي في هذه الصفحة فاستحسنها والجزيرة فاستجادها، وأخرج التي بمصر فاسدة وللمغرب أكثرها خطأ وقال: «قد نظرت في مولدك وأثرك وأنا أسألك إصلاح كتابي هذا حيث ضللت...».

الإسلامي الذي وضعه الاصطخري فجعله عشرين إقليما مبتدأ بديار العرب لأن فيها الكعبة ومكة أم القرى وهي واسطة هذه الأقاليم...»(7) ويقول ابن حوقل في ذلك... وقد فصلت بلاد الإسلام إقليما واحدا لأن الكعبة فيها ومكة أم القرى، وهي واسطة هذه الأقاليم عندي...»(8) بل أن ابن حوقل ينقل عن الاصطخري حرفيا عندما يصف بعض الأقاليم كالسند وما وراء النهر وغيرهما، وأن كون الاصطخري رأس مدرسة المسالكيين جعل كل الذين جاءوا من بعده يتأثرون به وينقلون عنه.

غير أن الذي ميز ابن حوقل عن الاصطخري هو غزارة المعلومات عند وصفه لبلاد المغرب هذه المعلومات التي سجلها ابن حوقل في كتابه لا نجدها عند غيره من الرحالة في هذه الفترة، فلقد أمدنا بمعلومات قيمة عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية وكذلك التنظيمات المالية وبعض الاحصائيات. ووصف الطرق التجارية والمسالك. هذا بالإضافة إلى التنظيمات الإدارية. وجاءت معلوماته عن القسم الشرقي من المغرب أغزر وأوفر من باقي المناطق وربما يعود ذلك إلى بعد هذه المناطق عن مركز الدولة (مغرب أغزر وأوفر من باقي المناطق وربما يعود ذلك إلى بعد هذه المناطق عن مركز الدولة (مغرب أوسط وأقصى) والخروج المستمر عن سلطتها وكان اهتمامها بهذه المناطق إلا بالقدر الذي يضمن لها ممارسة النشاط التجاري بتوفير الأمن للقوافل التي تقصد بلاد السودان. كما أن هذا الاهتمام بالجزء الشرقي حيث مركز الدولة ومقرها هو بسبب ضمان الاستقرار. وابن حوقل سجل وعكس هذا الاهتمام.

لقد استعمل ابن حوقل عدة مصطلحات إدارية عند وصفه لأقاليم بلاد المغرب، وهذه المصطلحات هي: إقليم، كورة، رستاق، أعمال. ويصف الأقسام الإدارية بالأقاليم. وكلمة إقليم حسب ما جاء في معجم البلدان لياقوت الحموي تعني الناحية التي تشتمل على عدة

7) مسالك الممالك / 3، 4.

8) صورة الأرض / 16.

مدن وقرى. وسمي إقليما لأنه مقلوم من الأرض التي تتأخمه أي مقطوعا. ويقول أن هذا المصطلح يستعمل للدلالة على تقسيم المناطق تقسيما إداريا، فهو عند سكان الجزيرة والشام رستاق، وعند أهل اليمن مخلاف، وعند أهل الأندلس يطلق على كل قرية كبيرة جامعة(9) والإقليم عند ابن حوقل يشمل عدة مدن وقرى.

أما كلمة رستاق فتعني كل موضع فيه مزارع وقرى، ولا يقال ذلك للمدن كالبصرة وبغداد فهو عند الفرس بمنزلة السواد عند أهل بغداد(10) وكلمة كورة تعني كل صقع يشتمل على عدة قرى ولابد لتلك القرى من قصبة أو مدينة يجمع اسمها ذلك اسم الكورة(11) والإقليم الوحيد الذي يصفه ابن حوقل بالكورة هو تاهرت كما أنه يصف السوس الأقصى بالرستاق(12) أما مصطلح عمل فيعني السعاة الذين يأخذون الصدقات من أربابها(13) حسب ما جاء في الآية الكريمة: **﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها....﴾**(14). كما أنها تعني الذي يتولى أمور السلطان أو عملا من أعماله(15).

التقسيم الإداري حسب ما جاء في صورة الأرض لابن حوقل

لقد قسم ابن حوقل بلاد المغرب إلى عدة مقاطعات إدارية وسماها أقاليما(16) وهي: برقة، طرابلس، المهدية، جزيرة أبي شريك،

---

9) جـ 1 / 25، 26.

10) نفسه / 37، 38.

11) ياقوت الحموي : المصدر نفسه 91، 36، 37.

12) صورة الأرض / 90 ويقول : وعن يسار طريق فاس إلى سجلماسة إقليم أعمات وهو رستاق عظيم فيه مدينة كثيرة الخير والتجارة إلى سجلماسة...

13) ابن منظور : لسان العرب / مادة عمل، مجلد 2 / ذ ظ ظ.

14) سورة التوبة / 58.

15) ابن منظور نفس المصدر السابق، نفس المادة.

16) جعل المقدسي (أحسن التقاسيم) 4 المغرب إقليما وقسمه إلى سبعة كور هي: برقة إفريقية، تاهرت، سجلماسة، فاس، السوس الأقصى ثم جزيرة صقلية. وجعل لكل كورة قصبة، وحي عاصمة الإقليم. فهو بذلك يصنفها على أساس الوظيفة الإدارية.

صطفورة، بلاد نفـزاوة قمودة، بلاد الجريد، تاهـرت، طنجة أو فاس، سجلماسة، السوس الأقصى. وبذلك تكـون السلطة الفاطمية في عهده وحسب قوله تمتـد في (ما حاذى أرض افريقيـة إلى آخر أعمال طنجة عن مـرحلة إلى عشر مـراحل، فزائد ونـاقص فبلاد مسكـونة ومـدن متصلة الرساتيق والمزارع والضياع والمياه، والولاة والسلاطين والملوك والحكام والفقهاء وكل ذلك في جملة صـاحب المغرب وحوزته وقبضته أو في يـد خليفتـه)(17).

إقليم برقة :

لقد كان إقليم بـرقة قبل حكم الفاطمين لبلاد المغـرب تابعا لحاكم مصر، الطـولوني ثم الأخشيـدي وفي خلافـة عبيـد الله المهـدي بعث بجيش ليسترد هـذا الإقليم للسلطـة بالمغـرب. وتم لـه ذلك في سنـة 301هـ(18). وأصبح إقليما من أقاليمه الإداريـة. وإن كون هذا الإقليم هو الطريق الطبيعي لبلاد المشرق كان لزاما على الخليفة الفاطمي الذي يطمح لإقامة خـلافة شيعية في المشرق وإسقاط الخلافـة السنوية أن يسترده.

وتبدأ حدود هـذا الإقليم من مدينة برقة شرقا وتنتهي عنـد مدينة سرت غربا. أما جنوبـا فإنها تصل إلى مدينة ودان. ويتبعه إداريا كل من اجدابية وأوجلة بالإضافة إلى ودان. وكان على رأس كل مدينة من هـذه المدن عاملا يعـود في سلطتـه إلى صاحـب برقـة(19). ما عـدا ودان التي تعـود في سلطتهـا إلى عامـل سـرت(20). وعـلى عهـد الـدول المستقلـة (ق 2، 3هـ) التي زارهـا الـرحالـة اليعقـوبي جعـل حـدود هـذا الإقليم تمتد جنوبـا حـتى مـديـنـة زويلـة وفـزان(21).

17) ابن حوقل / 83 / 84.
18) الداعي إدريس القرشي : عيون الأخبار / 192.
19) ابن حوقل / 69، 70.
20) كتاب البلدان / 345.
21) نفسه / .

أما شمالا على الشريط الساحلي فإن مدينة تورغة على ست مراحل من عمل طرابلس هي حده الغربي(22).

ولقد كان لهذا الإقليم إدارته المالية، فوقوعه على الحدود مع مصر وبلاد السودان زاد من اهتمام السلطة به، فجعلوا به مراصد تدفع بها الضرائب على المتاجر الصادرة والواردة من بلاد السودان في اجدابية، وفي سرت تدفع الضرائب على المتاجر الصادرة والواردة من افريقية(23).

إقليم طرابلس :

إن الاصطخري الذي كتب عن المغرب وهو مقيم، في بداية القرن الرابع الهجري (318هـ، 321هـ) اعتبر طرابلس من عمل إفريقية(24) أما ابن حوقل الذي كتب بناء على مشاهداته، وفي فترة لاحقة لفترة الاصطخري، تحدث عن هذه التبعية في صيغة الماضي. فالاصطخري وصف وضعا إداريا كان سائدا يحتمل أن يكون أواخر أيام الأغالبة. وبداية الحكم الفاطمي(25). أما ابن حوقل فيصف وضعا آخر طرأ في عهد الدولة الفاطمية التي زارها في خلافة المنصور، وظل بها حتى بعد رحيل المعز إلى القاهرة في سنة 362هـ ففي هذه الفترة وبعد الاضطرابات التي عرفتها الدولة غيرت الحدود الإدارية لبعض الأقاليم حتى تسهل مراقبتها.

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى أن السلطة في المغرب أصبحت واحدة، وتحكم إقليما واسعا يمتد من برقة حتى سجلماسة. لهذا كان على السلطة الجديدة أن تعيد التقسيم لاعتبارات أمنية وسياسية واقتصادية واجتماعية.

---

22) نفسه.

23) ابن حوقل / 69، 81. ويذكر في ص 71 أن هذه الضرائب التي فرضت على ما يرد من إفريقية «خوف الحيلة الواقعة دون الأداء عنه بإفريقية...».

24) مسالك الممالك / 38.

25) ابن حوقل / 71. وجعل حدود إفريقية عندما كانت طرابلس عملا من أعمالها تبدأ من صبرة. أما اليعقوبي / 346، 347 فجعل هو الآخر طرابلس من عمل إفريقية.

أمـا حدود هـذا الإقليم فإنها تمتـد غربـا إلى مـدينة قـابس(26). وجنوبـا حسب رواية البكري إلى مـدينة الزويلـة وودان. لأن المنطقة المتـدة مـا بين طـرابلـس وودان سكنى لقبيلـة هـوارة(27). وإقليم طرابلس بحدوده السابقة وكما جاء عند اليعقوبي وابن حوقل(28) هو سكنى لقبيلة هوارة لهذا جعلها البكري من أراضي هذا الإقليم. ويتبعها من المـــدن في الشـــمال صـــبرة ولبـدة وقصري ابن كمـــود وابن مظكود(29).

إقليـم افريقيـة :

كان إقليم افريقيـة يشكل وحدة سياسية أيام حكم الأغـالبة تمتد حدوده من طرابلس شرقـا إلى طبنة بالزاب غربـا، حسب رواية الإمام سحنون(30). ويضـم داخله عدة أقاليم إدارية صغيرة كإقليم القيروان والزاب والجريـد وقمودة وغيرهـا من الأقاليـم الإدارية الصغيرة(31). وفي العهد الفـاطمي لم يعد هذا الإقليم يشكل وحدة سيـاسية تختلف عن بـاقي منـاطق المغرب، بل أصبح جـزءا من الـوحـدة السياسيـة الجديدة التي تبدأ حدودها من برقة شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا أي أصبح ولاية كباقي الولايات مثـل تاهرت وفاس وغيرها. والملاحظ أن هذا الإقليم الإداري ظل يحتفظ تقريبا بنفس التقسيم الإداري الداخلي

---

26) نفسه / 346.

27) المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب / 11، 12.

28) صورة الأرض / 71.

29) نفسه. ويذكر في نفس الصفحة أنه في الفترة التي زار فيها المغرب كان بصبرة التي تبعد على طرابلس بيوم ضريبـة على القوافل الخارجة من طرابلس إلى القيروان والقـادمة كذلك من القيروان إلى طـرابلس. ويقول أنـه لم يعـرف ولا سمع قبل ذلك عن هذه الضريبـة. وهذا يعني أنها فرضت في العهد الفاطمي.

30) الداودي : كتاب الأموال / 70. راجع حول التقسيمات الإدارية الإقليمية.
- فرحات الدشراوي.
F. Dechraoui, le califat fatimide au Maghreb p.p. 317-319.
وقد ركـز هو الآخر على إفريقيـة فقط، وهذا على ما جـاء في أحسن التقاسيم لمعرفة الأقاليم للمقدسي.

31) اليعقوبي : البلدان.

أيـام حكم الأغـالبة وربما يعـود هـذا الاهتمام الـذي أولته السلطـة الجديدة لهذا الإقليم لكونه مركزا وقاعدة لها.

كما أن حدوده تـوسعت وأصبح إقليم تاهرت من أعمال إفـريقية حسب رواية ابن حوقل(32). وهـذا الأسباب تتعلق بأمن السلطـة في المهدية والمنصورية. أمـا الأقسام الإدارية التي يتكون منها هي: إقليم القيروان التي كانت قاعدة افريقية وأصبحـت المهدية هي القاعدة أيام حكم الفاطميين وتتبعه كل من سوسة والمنستير(33). يشـترك مع هذا الإقليم في الحدود إقليم آخـر هـو إقليم جـزيرة أبي شريك والقـاعـدة منزل باشوا وتتبعـه مدينة تونس(34). ومن الأقاليم السـاحلية كذلك إقليم سطفورة الـذي يشمل ثلاث مدن هي أنبلونـة ومتيجة وبنزرت ومن القرى طبرقة ومرسى الخرز. أما مدينة بونة كان بها عامل قائم بنفسه ومعه عسكر لا يزول كالرابطة(35).

وما بين مدينة قابس والمهدية يوجد إقليم قمودة والذي يشـترك مع الجريد في حـدوده الجنوبيـة ومن مدنه نفـايض وكمونس الصـابون «وكانت هـذه المدن» قبل سنة ثلاثين في غـاية الكمال فأتى عليهـا أبو يزيد مخلد بن كيداد النكاري(36). والقاعدة أيـام حكم الفاطميين هي مدينة كمونس الصابون(37). وفي العهد الأغلبي كانت القـاعدة مدينة مذكورة التي خلفت سبيطلة قاعدة البيزنطيين(38).

وإلى الجنوب من هذا الإقليم بلاد نفزاوة التي تشـترك حدودها هي الأخـرى مع بـلاد الجريد من الشمال الغـرب. ويقع هـذا الإقليم على الطـريق الـــرابط بين افـريقيـة وسجلماسـة، ومن مـــدنـه سماطـة

32) صورة الأرض : / 93.

33) نفسه / 74، 75.

34) نفسه / 75. يقـول في ص 94 أن القيروان كانت «أعظم مـدينة بالمغرب وأكثـرها تجرا وأموالا وأحسنهـا منازلا وأسواقا وكـان فيها ديوان جميع المغرب وإليهـا تجبى أموالها وبها دار سلطانها...».

35) نفسه / 77.

36) ابن حوقل / 92.

37) المقدسي / 18.

38) اليعقوبي / 349.

وبشرى(39) التي كانت قاعدة الإقليم أيام بني الأغلب(40). أما إقليم الجريد فكانت القاعدة هي مدينة توزر ويضم كل من مدينة نفطة وقسطيلة والحمة وقفصة(41). يلي بلاد الجريد من الغرب إقليم الزاب الذي ظل يشكل هو الآخر إقليما إداريا مستقلا منذ عصر الولاة، وكانت قاعدته مدينة طبنة وكان يشمل بلاد كتامة والأوراس(42). وفي العصر الفاطمي غيرت السلطة القاعدة فاستحدثت في خلافة عبيد الله المهدي وعلى يد القائم مدينة المحمدية في سنة 315هـ (المسيلة). وعندما خرج جعفر بن حمدون في سنة 360هـ عن طاعة الإمام وأصبح يدين بالولاء للخليفة الأموي بقرطبة أصبحت أشير التي بنيت في سنة 324هـ القاعدة التي تحكم منها تاهرت وبلاد الزاب، حتى تسهل مراقبة السهوب والسيطرة عليها، والتي كانت تسكنها قبيلة زناتة. بل امتد حكم بلكين حتى تلمسان التي حاصرها حتى نزل أهلها على حكمه ونقلهم إلى أشير...(43).

ويبدو أن إقليم الزاب كان مقسما إلى أعمال إدارية أصغر، ففي عهد الخليفة المعز (341 / 362هـ) يقول القاضي النعمان «عين عاملا لناحية من نواحي الزاب»(44). كما أن مدن كتامة التي كانت تتبع الزاب كان عليها عمالا كميلة سطيف، بلزمة(45)، ويمكن أن نستنتج من ذلك أن التبعية الإدارية كان يراعي فيها الجانب الأمني بالإضافة إلى اعتبارات أخرى كالوحدة الجغرافية والعامل البشري وكذلك العامل المذهبي والسياسي.

---

39) ابن حوقل / 92.

40) اليعقوبي / 350.

41) ابن حوقل / 92.

42) اليعقبوبي / 350 وما بعدها.

43) ابن خلدون / العبر 11/318. وجعل أسباب الخلاف عدم تولية المعز له على بلاد المغرب انظر حـ 4/7/82. بينما صاحب كتاب مفاخر البربر جعل أسباب الصراع هي تطاول بلكين بن زيري بن مناد على زناتة التي تحت سلطة جعفر بن حمدون فتغير بذلك وحقد على الدولة الفاطمية ولحق سنة 360هـ بدعوة المروانية انظر ص 6، 7.

44) المجالس والمسايرات / 498 ـ 499.

45) القاضي النعمان : كتاب افتتاح الدعوة / 36 / 37.

إقليم تاهرت :

بعد سقوط الدولة الرستمية في سنة 296هـ/909هـ أصبحت أراضي هذه الدولة ولاية فاطمية، قاعدتها مدينة تاهرت. وابن حوقل الذي يسميها بكورة تاهرتيجعلها من افريقية ويقول إنها كانت في القديم مفردة العمل والاسم في الدواوين(46). والذي يوضح قول ابن حوقل هذا، ما جاء في كتاب الاصطخري عنها فهي عنده» من افريقية إلا أنها مفردة بالاسم والعمل في الدواوين(47). ويفهم من قول الاصطخري أنها تابعة للسلطة بافريقية غير أنها إداريا تشكل مقاطعة إدارية مستقلة أو ولاية. وهذا قبل أن تضم إلى عمل بلكين بن زيري بن مناد وعندما زارها ابن حوقل أثناء عودته من بلاد المغرب متخذا طريق الجنوب وجدها جزءا من عمله، ولم تعد إقليما قائما بذاته. وبذلك قال عنها أنها كانت في القديم مفردة العمل والاسم في الدواوين.

والملاحظ هنا أن تاهرت عندما زارها ابن حوقل لم تعد عراق المغرب(48) «بل تغيرت عما كانت عليه وأهلها وجميع من قاربها من البربر في وقتنا هذا فقراء بتواتر الفتن عليه ودوام القحط وكثرة القتل والموت...»(49) ويحتمل أن يكون هذا الوضع هو السبب الذي جعل ابن حوقل يصفها بالكورة.

وعند تأسيس المحمودية (المسيلة) على يد القائم سنة 315هـ، كان جناحي الدولة يغلي بالثورات خاصة الجناح الغربي، تاهرت وسجلماسة، ومما زاد من حدة هذه الاضطرابات اندلاع ثورة صاحب الحمار سنة 323هـ والصراعات التي كانت قائمة بين قبيلتي زناتة وصنهاجة في المنطقة التي أختيرت لتكون قاعدة متقدمة لرد كل خطر قادم من الغرب ومن طرف زناتة، وهي منطقة المسيلة غير أن دخول صنهاجة على يد قائدها زيري بن مناد في طاعة الخليفة الفاطمي أثناء ثورة صاحب الحمار، وبناء مدينة أشير سنة 324هـ غير كثيرا في

46) صورة الأرض / 93.

47) مسالك الممالك / 39.

48) اليعقوبي / 353.

49) ابن حوقل / 93.

ميزان القوى بحيث أصبح هو السد الـذي يمنع كل خطر زناتي قادم من هـذه الناحيـة، ثم أصبحت أشير هي قاعـدة هذا الإقليم في سنـة 360هـ بعد أن قتل زيري على يد زنـاتة وخرج جعفر بن حمدون كما ذكرنا في السابق عن طاعة الخليفة الفاطمي المهزوم وموالاته للأمويين في الأنـــدلس أصبح عملـه يشمـل كل من أشير وأعمالها وتـاهــرت وأعمالها والمسيلة وكل بلاد الزاب(50) بما فيها منطقـة الأوراس حيث وصلت سلطته حتى بـاغاية وأعمالها(51)، وغربا حق مـدينة تلسان كما ذكـرنا قبل ذلــك وكانــت كل هذه المنطــقـــة أراضـي لقبيلـــة زنـــاتـة الشـــديـدة العـــداء للفاطمـيـيـن والمدعومـــة مـن طـرف الأمويين بالأنـدلـس.

وهكـذا نرى أن العـامل الأمني لعب دورا كبيرا في تحديد الأقـاليم الإدارية إلى جانب العـامل البشري حيث اعبترت أراضي القبائل الكبرى أقاليم إدارية. وإقليم الزاب وتاهرت مثال لذلك.

إقليم فاس :

أصبح إقليم فـاس أو كما يسميـه ابن حوقل إقليـم طنجة ولايـة فاطميـة كغيره من مناطق المغرب غير أن تبعيتـه لم تكن دائمة لها إلا عنـدمـا تشن حملات عسكـرية عليـه بل ظل يحكم ويـدين بـالـولاء للأدارسة. وعنـدما زاره ابن حوقل كانت سلطتهم عليه ماتـزال قائمة فمزاجه وجبايته كانت لهم(52).

أما حدوده فكانت تمتد من وهران شرقا إلى المحيط الأصلسي غربا وفاس وأصـوارها جنوبـا ما عدا مـدينة سبتة فإنها كـانت ترجع في حكمهـا إلى الخليفـة الأموي بقـرطبـة بينما ظـاهـرها كـان للخليفـة الفاطمي(53)، أما قـاعدة هذا الإقليم هي مـدينة فاس» وهي جـانبان يليهما أميران مختلفـــان وبين أهل الجانبين الفتـن الـــدائمـــة والقتل

50) ابن خلدون / 6/ 11/ 316.

51) النويري : نهاية الأرب / 24/ 166.

52) صورة الأرض / 81.

53) ابن صديق / 79/ 80.

الذريع»(54). والمقدسي يقول عنها «بلدان قسم منها يحكمه الخليفة الفاطمي والآخر الخليفة الأموي(55).

هذه الحدود التي رسمها ابن حوقل وغيره من الرحالة(56) لإقليم فاس تجعل من ناكور عاصمة دولة آل صالح الحميريين جزءا من إقليم فاس وإن كان ينصب عليها عاملا كل ما عادت إلى سلطة الدولة بالمهدية ثم المنصورية كما أن المقدسي يجعل من طنجة ناحية تتبعها عدة مدن: مدركه آزقور تاجرا جرا البيضاء، غميرة والقاعدة مدينة ويليلي(57).

إقليم سجلماسة :

لقد كان ابن حوقل في سنة 340 هـ أيام ولاية المعتز المداري لها(58) وخروجها عن سلطة الخليفة بعد قتل أبي عبد الله الداعي وأخيه أبي العباس سنة 297هـ دفع بالخليفة المهدي أن يعالج هذا المشكل بتولية مدراري عليها وهذا دعما لنفوذه من جهة وللابقاء على الطرق التجارية المؤدية إلى بلاد السودان حيث الذهب والعبيد السود من جهة أخرى وهي مصدر الثراء في هذه الفترة تحت سلطته.

إقليم السوس الأقصى :

يسميه ابن حوقل إقليم أغمات وينعته بالرستاق ومن مدنه طرقلة وأغمات رماسة وايجلي ويقول اليعقوبي عن هذا الإقليم «له مدينة كثيرة الخير والتجارة(59) ويقصد مدينة أغمات وقاعدته أيام زيارة

---

54) نفسه / 84.

55) أحسن التقاسيم / 24 يقول في ص26 أن مستقر أمراء فاس من قبل الفاطميين بجبل زالاغ واسم ناحيتهم في فاس عدوة القروي والأخرى مدينة الأندلسي.

56) ابن حوقل / 79، المقدسي / 6.

57) انظر ص 8.

58) صورة الأرض / 90.

59) البلدان / 359، 360.

المقدسي له مدينة طرقلة»(60)، أما سكانه فكانوا مالكيين وشيعة(61).

وفي الأخير ومن خلال هذا العرض نستنتج أن التقسيم الإداري الذي ورثه الفاطميون عن الدول المستقلة إذا احتفظوا بجزء منه فأنهم غيروا في جزئه الآخر وذلك لاعتبارات أمنية. وجعلوا من مناطق القبائل المغربية الكبرى وحدات إدارية كالزاب مثلا، والملاحظ أن الدول السابقة للدولة الفاطمية راعت هذا الجانب فإقليم برقة مثلا كانت تسكنه قبيلة لواته وتنتهي حدود هذا الإقليم حيث تنتهي أراضي هذه القبيلة وتبدأ أراضي قبيلة أخرى هي قبيلة هوارة والتي تمثل أراضي إقليم طرابلس ومن الاعتبارات التي رويت في التقسيم الإداري، الوحدة الجغرافية للإقليم والوحدة السياسية بالإضافة إلى الاعتبارين الأوليين الأمني والبشري.

أما التغيرات التي طرأت على التنظيم الإداري الإقليمي في بلاد المغرب وفي العهد الفاطمي يمكن حصرها في التالي:

1 ـ أصبحت برقة ولاية مغربية فاطمية بعد أن كانت افشيدية.

2 ـ توسيع إقليم الزاب إداريا حيث أضيف له إقليم تاهرت وأشير وامتد حتى مدينة وهران وتلمسان.

3 ـ إلحاق بلد ناكور بطنجة.

4 ـ وهكذا نرى أن كتب الرحالة مصدرا أساسيا لدراسة التنظيمات الإدارية الإقليمية نظرا لما تقدمه من مادة مبنية على أساس المشاهدة. وهذا النوع من المصادر هو الذي ملأ الفراغ الذي تركته المصادر التاريخية التقليدية.

---

60) أحسن التقاسيم /8.

61) ابن حوقل /90.

بل كانت إفـرازا لظرفية اجتماعيـة ـ اقتصادية حتمت ظهـور القبائل الصنهـاجية على السـاحـة السيـاسية. كما تبين أن الـرحلـة لم تكن بغرض ديني صرف، بقدر ما توخـى منها صاحبها إيجاد سند ديني للقيـام بمشروع سيـاسي التقت مبادؤه مع مبـادئ أبي عمـران، وهي إقامة دولـة سنية مالكية في الغرب الإسـلامي تكون مهمتها محاصرة التيار الشيعي والحركـات البدعية وتـوحيد الغرب الإسـلامي وإنقاذ الخلافة الإسلامية.

قائمة المصادر والمراجع المعتمدة

1) الاصطخري أبو إسحاق ابراهيم بن محمد الفارسي المعروف بالكرخي: مسالك الممالك، بريل 1927.

2) البكري أبو عبيد الله بن عبد العزيز : كتاب المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، باريس 1965.

3) ابن حوقل أبو القاسم النصيبي : صورة الأرض، بيروت.

4) ابن خلدون عبد الرحمان : كتاب العبر، بيروت 1981.

5) الداودي أحمد بن نصر الدين : كتاب الأموال، الرباط 1988.

6) القرشي : الداعي ادريس عماد الدين : عيون الأخبار، القسم الخاص بالمغرب دار الغرب الإسلامي بيروت 1985.

7) مؤنس حسين : النظام الإداري والمالي لافريقية والمغرب خلال عصر الولاة مجلة كلية الآداب والتربية عدد 1، الكويت يونيو 1972.

8) مجهول : مفاخر البربر الرباط.

9) المقدسي محمد بن أحمد : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، القسم الخاص بالمغرب، نشر من طرف شارل بيلا : Charles pellat
تحت عنوان:
Description de l'occident musulman au IV = X Siecle. ALGER 1950.

10) ابن منظور : لسان العرب، دار لسان العرب بيروت.

11) النعمان القاضي بن محمد بن حيون المغربي : المجالس والمسايرات، تونس 1978.

12) النعمان القاضي بن محمد بن حيون المغربي : كتاب افتتاح الدعوة، تونس الجزائر 1986.

13) النويري أحمد بن عبد الوهاب شهاب الدين: نهاية الأرض في فنون الأدب ج 24 تحقيق د.حسين نصار القاهرة 1983.
وكذلك القسم الخاص بالدولة الفاطمية، تحقيق د.مصطفى أبو ضيف الدار البيضاء 1988.

14) ياقوت الحموي : شهاب الدين أبو عبد الله بن عبد الله الرومي البغدادي: معجم البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

15) اليعقوبي : ابن يعقوب بن وهب بن واضح : كتاب البلدان، ليدن 1886.

16) F. Dechraoui, le califat fatimide au Maghreb Tunis 1981

مساهمة كتب المسالك والرحلة في تأسيس معجم موحد للبلدان المغاربية

د. محمد حسن
جامعة تونس

إن وفـرة المصنفات في التراث العـربي الكـلاسيكي بـالمقارنـة مع الحضـارات القديمة لا تعني أن مـؤرخ هذه العصور قادر على حل كل المشكلات المطروحة في التـاريخ الاقتصادي والاجتماعي والعمراني، ما لم يعتمـد على علـوم مكملة مثل الاحـاثـة (الانتربـولوجيـا) والآثـار والألسنيـة والاجتماع. لكن هـذا الاتجاه بقي محتشما، ذلك أن تطعيم التـاريخ الوسيط بـالآثـار مثـلا لم يلق الحظوة التي نـالها في العصر القـديم، ومـمـا لـه مغـزاه في هـــذا الشأن أن خـارطـة المدن والمواقع الافريقيـة في العهد الرومـاني تكاد تكون مكتملـة، فيما ظل عدد كبير من المدن والمنـازل الوارد ذكـرها في كتب المسـالك والرحلـة مجهولـة الموقع والموضـع، حتى ليخيل للمرء أن التعمير والتمصير لم يكـونا ذا شـأن في هذه الحقبـة الطويلة من الـزمن، وأن الآثار كـانت حكرا على الفترة القديمة.

ومما زاد هذا الاعتقاد الخاطىء رسـوخا الخلط الذي تسرب عمدا للخرائط الطوبوغرافية والأثريـة للبلاد المغربية، التي رسمها جنرالات الاحتـلال الفـرنسي منذ قـرن من الـزمن، إذ دأبت هـذه الخرائط على وضع علامة (R. R)، بمعنى مآثـر رومانية في محلهـا وفي غير محلها، فالقصـور والأربطـة والمنشآت المائية العربيـة في العصر المبكر والمواني المحفورة داخل الأرض والمنازل والطرقات قد تنسب خطأ إلى حضارات

سابقـة للحقبة العربية الإسـلامية.(1) وبـالتـالي يتعين على البـاحثين المغاربة أن يأخذوا على عاتقهم تأسيس أطلس أثـري أكثر توازنا ودقة بعد أن اكتسح العمـران المعاصر العـديد من المواقع الأثـرية وذلك على ضـوء المكتشفات الجديـدة للمواقع العـربية الإسـلامية. وهـي عمليـة شائكـة تتداخل فيهـا مجالات معرفيـة مختلفة، وتنطلق من مقـارعة النص المصدري بالأثر، في سبيل تحديد المواقـع المجهولة، والإجابة عن بعض الأسئلـة المعلقة التي عجزت النصـوص عن فك رموزهـا: مثل مدى إسهام الحقبة الـوسيطة في التعمير والتمدين، وحقيقة التفسيرات الانقلابية للتاريخ التي تعتمـد الكوارث أساسا للتحولات الكبرى، مثل القـول أن خراب العمـران الحضري ناجم عن الانتشـار البدوي سنـة 443هـ / 1050م بإفريقية والمغرب، إلخ... واعتقادنا أن التاريخ المحلي هو الـركيزة الأسـاسية لإنشـاء موسـوعة مغـربية للمـدن والقبائل، ويتنـزل في هـذا المستوى دور كتب المسـالك والممالك والـرحلـة، التي تعتبر نقطة الانطلاق لهذا المشروع.

1) التعريف بكتب المسالك والرحلة :

اقترنت النهضة العلمية للبلاد العربيـة الإسلامية في العهد العباسي بتقدم علم الجغـرافيا واعتنـاء المؤلفين بأحوال الأقـاليم، ويعتبر كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبه من أقـدم المصنفات في هذا الشأن، ألفه سنة 232هـ / 846م، وفد استهلـه بمقدمة تدل على مـدى تقدم علم «الكـرتوغـرافيا» أو صـورة الأرض وقـتـذاك، أولها: «قـال أبـو القاسـم: صفـة الأرض أنها مـدورة كتدويـر الـكـرة مـوضوعـة في جـوف الـفـلـك كالمحـة فـي جـوف البيضـة والنسيـم حـول الأرض...».(2)

1) انظر: الأطلس الأثري للبلاد التونسية: Atlas Archéologique de la Tunisie ونذكر على سبيل المثال نسبة فسقيات الأغـالبة وعدد كبير من الرباطات إلى الفترة الرومانية.

2) ابن خرداذبه، المسالك والممالك، ليدن 1889، ص: 4.

وفي سنة 276هـ / 889م ألف أحد المقربين إلى البلاط العباسي، وهو أبو العباس أحمد اليعقوبي كتاب البلدان الذي اهتم بالمسالك والتقسيم الإداري للدولة العباسية والخراج والمعطيات التاريخية. وقد اعتبر اليعقوبي مجددا في مجال الجغرافية البشرية والسياسية لأنه كان أول جغرافي عربي **اعتمد الرحلة أساسا** لتقييد ملاحظاته، أثناء زياراته لارمينية وخراسان ومصر والمغرب والهند وهو في عنفوان شبابه. وبهذا كان شاهد عيان نقل الخصائص الحضارية لكل بلد، وكتب متحدثا عن المنهج المتبع في كتاب البلدان: «ثم أثبت كل ما يخبرني به من أثق بصدقه، وأستظهر بمسألة قوم بعد قوم، حتى سألت خلقا كثيرا وعالما من الناس في الموسم وغير الموسم، من أهل المشرق والمغرب، وكتبت أخبارهم، ورويت أحاديثهم... فلم أزل أكتب هذه الأخبار وأؤلف هذا الكتاب دهرا طويلا وأضيف كل خبر إلى بلده، وكل ما أسمع به من ثقات أهل الأمصار إلى ما تقدمت عندي معرفته».(3)

وبالتالي أصبح الاعتراب وشد الرحال أساسا للمعرفة الجغرافية ابتداء من القرن الثالث الهجري فضلا عن الأغراض الأخرى مثل العمل بديوان البريد والسفارات والدعوة المذهبية والحج، وبخاصة التجارة. قال ابن قتيبة في هذا الصدد: «الفقر في أوطاننا غربة، والمال في الغربة أوطان... اغتربوا لتكسبوا...».(4) فالسفر أضحى فرصة للاثراء السريع وتوسيع الأفكار، وقد جسدت صورة السندباد البحري التي برزت في عصر الازدهار التجاري في القرن الثالث الهجري. روح المغامرة بالدرجة الأولى.

وهكذا وصلت الجغرافيا البشرية إلى ذروتها في القرن الرابع الهجري مع صورة الأرض لأبي القاسم ابن حوقل وأحسن التقاسيم

3) اليعقوبي، كتاب البلدان، طبع ليدن، ص: 232.

4) اندريه ميكال، جغرافية الإسلام البشرية، دمشق 1983، الجزء الأول، القسم الأول، ص: 154/161.

في معرفة الأقاليم لمحمد بن أحمد المقدسي (335هـ 390 / 946 ـ 1000م).

فقد كان ابن حوقل رحالة جاب البلاد شرقا وغربا، كما برز ذلك في مقدمة الكتاب، الذي ألفه حوالي سنة 378هـ / 988م. قال في هذا الصدد: «وكان مما حضني على تأليفه وحثني على تصنيفه وجذبني إلى رسمه أني لم أزل في حال الصبوة شغفا بقراءة كتب المسالك... فلم أقرأ في المسالك كتابا مقنعا وما رأيت فيها رسما متبعا، فدعاني ذلك إلى تأليف هذا الكتاب، واستنطاقي فيه وجوها من القول والخطاب. وأعانني عليه تواصل السفر، وانزعاجي عن وطني مع ما سبق به القدر لاستيفاء الرزق والأثر والشهوة لبلوغ الوطر...».(5)

أما المقدسي، فإنه قال في بداية كتابه : «ثم أنه لم يبق شيء مما يلحق المسافرين إلا وقد أخذت منه نصيبا غير الكدية، وركوب الكبيرة. فقد تفقهت وتأدبت وتزهدت وتعبدت، وفقهت وأدبت، وخطبت على المنابر... وسحت في البراري وتهت في الصحاري وصدقت في الورع زمانا، وأكلت الحرام عيانا وصحبت عباد جبل لبنان، وخالطت حينا السلطان وملكت العبيد، وحملت على رأسي بالزنبيل، وأشرفت مرارا على الغرق، وقطع على قوافلنا الطرق...».(6)

واعتبارا لما توصل إليه علم الجغرافيا من تطور في القرن الرابع الهجري، فإن الجغرافيين المتأخرين قد نسجوا على منوالهم، فأبو عبيد البكري المتوفى سنة 487هـ لم يغادر مسقط رأسه وهي بلاد الأندلس، واعتمد في كتاب المسالك والممالك على عدة مصادر سابقة، أهمها كتاب مسالك افريقية لمحمد بن يوسف الوراق المتوفى سنة 263هـ / 973م. أما الشريف الإدريسي المتوفى سنة 560هـ فإنه اقتبس إلى حد ما من صورة الأرض لابن حوقل، في مؤلفه:

---

5) ابن حوقل صورة الأرض، بيروت، دار مكتبة الحياة، 1979، 10.

6) المقدسي، احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، دمشق 1970، ص: 80.

«نزهة المشتاق في اختراق الآفاق»، ونشير عرضا أن كتابه: «روض الفرج ونزهة المهج» نشر أخيرا مخطوطا بألمانيا.(7)

وفي الجملة فإن كتب المسالك والممالك التي اعتنت بالطرقات والتقسيمات الإدارية والجهوية والمدن والإسكان والعمارة والنشاط الاقتصادي الخ... تتميز في الغالب بالدقة العلمية، وقربها إلى الموضوعية، خاصة إذا ما قرناها بكتب الرحلة للفترة المتأخرة، التي تغلب عليها الانطباعية، والاهتمام بالجانب الثقافي.

فأبو عبد الله محمد العبدري، الذي بدأ رحلته سنة 688هـ / 1289م، أولى اهتمامه إلى الحالة العلمية بالأمصار، ومآثرها وأحيانا طبيعتها، لكنه قلما التفت إلى بقية المسالك والمدن التي لا توجد على طول الجادة الكبرى.

وينتمي إلى هذا الصنف من التآليف كل من الرحلات التالية :

- تاج المفرق في تحلية علماء المشرق لخالد البلوي (سافر إلى المشرق بين سنتي 737 - 740هـ).

- ملء العيبة لأبي عبد الله محمد بن رشيد السبتي (بدأ الرحلة سنة 721هـ / 1321م).

- رحلة أبي الحسن علي القلمادي الأندلسي (ابتدأ رحلته سنة 840هـ/ 1436م).

على أنه ثمة صنف آخر من كتب الرحلة المؤلفة بين القرنين السابع والتاسع، التي ركزت على الكارتوغرافيا والمواقعية والتوزيع القبلي والنشاط الاقتصادي، وهي تبدو أكثر إفادة من سابقاتها في مجال البلدان، وأهمها: - رحلة ابن جبير التي بدأها سنة 578هـ / 1182م.

- كتاب الجغرافيا لأبي الحسن علي بن سعيد (بدأ رحلته إلى الشرق سنة 638هـ / 1240م).

---

7) الإدريسي، نزهة المشتاق، نشر الحاج صادق، الجزائر 1983، ص: 44.
أنس المهج وروض الفرج، إصدار فؤاد سزكين، فرانكفورت 1984.

- رحلة أبي محمد عبد الله التجاني إلى جنوب افريقية سنة 706 - 708هـ.

- رحلة ابن بطوطة بين سنتي 749- 754هـ / 1349 - 1354م.

- رحلة ابن عبد الباسط، من مصر إلى المغرب سنة 765هـ / 1460م.

أما كتاب **وصف افريقيا** للحسن بن الوزان (بداية القرن العاشر) و**إفريقيا** «لمارمول كربخال» فإنهما قدما معلومات ضافية عن التمدن والديموغرافيا والحياة الاقتصادية في أواخر العصر الوسيط.(8)

وفي الجملة، فمهما اختلفت قيمة كتب الرحلة من فترة إلى أخرى، وداخل كل حقبة من صنف إلى آخر، فإن هذه المصنفات التي كان أصحابها شهود عيان تركت لنا لوحات خالدة وحية عن حالة العمران والمدن ومواضعها وأسمائها. ورغم الاستراطادات المطولة في الأدب والشعر - والتي لا تخلو من جمالية فنية - والمواقف الانطباعية لبعض الرحالة، فإن فائدتها تظل كبيرة، وخاصة في مجال معرفة أدق لمدننا المغربية، إذ هي بمثابة الشريط الحي الذي يروي قصة مدينة في زمن محدد.

- **على أن لهذه المصادر محدوديتها** : فقد اقتصرت في الغالب على ذكر البلدان الواقعة على طول المسالك الكبرى، غافلة عن المواقع الموجودة بينها، فإذا ما افترضنا أن هذه المسالك تكون مثلثا: أبج، وأن كل زاوية منه تمثل موقعا ورد ذكره في المصادر، فمن المحتمل أن بقية المواقع والمنازل الموجودة داخل هذا المثلث لا يرد ذكرها في كتب المسالك، رغم ما لها من أهمية. أما كتب الرحلة المتأخرة، فعادة ما يقتصر مؤلفوها على ذكر المواقع الموجودة على طول المسلك المتبع، وهو الجادة الكبرى، ولذا فإننا لا نجد اختلافا كبيرا بين

8) اعتمدنا الطبعات الأخيرة لكتب الرحلة المذكورة في النص.

المنـــازل التي أورد ذكـــرهـــا كل مـــن العبـــدري وخالـــد البلـــوي مثـــلا.(9)

وفي الجملة فإن كتب الـرحلة لا تعـدو أن تكون وجهـا معينا من الحقيقة، إذ كثيرا مـا تنزاح ملاحظـات الرحالـة، الشاهد عيـان، نحو المواقف الانطبـاعيـة، فيبـالـغ في ذم مـدن ومـدح أخـرى، مثلما فعل العبدري، في حديثه عن مدن افريقيـة. وفي حالات أخرى تأخذ مواقفه منحى إيديـولوجيـا، أو سياسيا نـاجما عن قناعـة شخصية مثل ابن حـوقل الـذي كـان متشيعا، أو عن ضغـوط خـارجيـة مثل الشريف الإدريسي، الذي ألف كتـابه بأمر مـن الملك النورماني روجـار الثاني، وخدمة لأغراضه التوسعيـة في السواحل الافريقية، وقد بث العيون في مختلف الارجاء لنقل أخبـارها إليه، أو كذلك الحسن بن الـوزان الذي كتب «وصف افريقيا» بطلب من البابا.(10)

ويزداد هذا الأمر تعقيدا عندما يعتمد الرحالة في تآليفهم على النقل من مصادر سابقة، فالمعلومات التي قدمها البكري حول مدن افريقية والمغرب استقاهـا غالبا من محمد بن يوسف بن الـوراق (المتوفى سنة 363هـ)، وقد ذكره في كتابه أكثر من 36 مرة، ولذا فإن هذه المادة لا تناسب القرن الخامس الهجري، بقدر ما تعني القرن الرابع. كما تأثر كتاب الاستبصـار بدوره بمسـالك البكري، أمـا الإدريسي فإنه اكتفى أحيانا بالنقل من ابن حوقل حرفيا.

وينزع الرحالة في وصفهم لعادات البلدان النائية وحياتهم اليومية إلى بعض مظـاهر العجيب والغـريب بها، فـالعجيب هو مـا يخرج عن

---

9) اتبع حل الـرحالـة في العصر الـوسيط المتأخـر مسلكا متشـابها، إن لم يكن نفســه، وهـو الطريق الـذي ينطلق من المغـرب الأقصى في اتجاه تلمســان، فبجاية - سطيف - قسنطيـنة - باجة - تونـس - طـرابلـس - الإسكندرية. انظر مثلا: العبدري، رحلة الرباط، 1968. خالد البلوي، تاج المفرق، تحقيق الحسن السائح، المحمديـة (المغرب)، بدون تاريخ ابن بطوطـة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، بيروت (دار الكتاب اللبناني).

10) أماري، المكتبة العربية الصقلية. ابن الـوزان، وصف إفريقيا، الرباط 1908، ج 1، ص: 1.

نطاق المعقول، مثل حكايات السندباد، الكرامات، وغيرها، أما الغريب فهو كل ما هو مألوف وممكن الوقوع في بلدان أخرى، لكنه غير معروف وعادي في بلاد المؤلف، من ذلك ما كان أورده الرحالة ابن بطوطة حول بلاد السودان مثلا.

قال متحدثا عن ملك مالي «دوغا» في احتفاله بيوم العيد : «وإذا كان يوم العيد وقد أتم دوغا لعبه، جاء الشعراء وقد دخل كل واحد منهم في جوف صورة مصنوعة من الريش، تشبه الشقشاف، وجعل لها رأس من الخشب له منقار أحمر، كأنه رأس الشقشاق، ويقفون بين يدي السلطان بتلك الهيئة المضحكة».(11)

2) كتب الرحلة والتواصل الطوبونومي ببلاد المغارب :

تمكننا المادة الوارد ذكرها في كتب الرحلة من تجاوز التاريخ السردي، وتناول المواضيع المرتبطة **بالبلاد والسكان**، الإنسان في علاقته الجدلية الحميمة مع موطنه، ومما يزيد هذه التآليف أهمية كونها تقدم نظرة مزدوجة، توفق بين المحلية الدقيقة وبين الشمولية للمجال العربي الإسلامي، مكرسة بذلك التقارب بين الأمم والشعوب، بانتقال الأفكار والمعرفة دون حدود ولا حواجز.

ومما له مغزاه أن كتب الرحلة تأتي شاهدا على التواصل الطوبونومي ببلاد المغرب عبر الزمان والمكان، ذلك أن عددا كبيرا من هذه الأسماء المعربة مشتق من أصول قديمة، لوبية - أما زيغية أو فينيقية أو اغريقية - لاتينية، فقرطاجة هي قرط حدشت الفينيقية، وأنطابلس برقة تعني بالاغريقية المدن الخمسة، الخ... كما أن هذا التواصل يبرز في وحدة الأسماء المواقعية في المجال المغربي، وهو ما

---

11) ابن بطوطة، «ن» «م» ص: 444. ويتضمن عنوان الكتاب نفسه عبارتي العجيب والقريب.

انظر أيضا: M. Arkoun, J. Le Goff. l'Etrange et le merveilleux dans l'Islam médiéval, Paris 1978.

يعني وحدة الحضارة، ويكفي أن نفتح أي كتاب من كتب المسالك والرحلة حتى نتأكد من ذلك، وتفسر هذه الأسماء المشتركة الموجودة بأقطار المغرب في بعض الحالات بانتمائها إلى نفس القبيلة، وفي حالات أخرى بوحدة اللسان واللغة.

ومثالا على الحالة الأولى، يمكن أن نذكر المواقع التالية : فقبيلة مكناس البترية كان مجالها في القرن الثاني هـ/ الثامن م، «على وادي ملوية من لدن أعلاه بسجلماسة إلى مصبه في البحر وما بين ذلك من نواحي تازا وتسول».(12) ثم زاد امتداد القبيلة وانتشارها، فذكرها اليعقوبي بناحية تلمسان ونقاوس بالحضنة وبسكرة بالزاب. وبعد أقل من قرنين من الزمن، كانت حسب البكري من القبائل المجاورة لوجدة وفاس.

كما سكن بطن منها جبل الونشريس، فيما أسس آخر مدينة تافرارت أثناء الحكم الصنهاجي، وأخذت اسم القبيلة فتسمت بمكناس أو مكناسة الزيتون حسب كتاب الاستبصار.(13) وخلاصة القول فإننا نتبين انتشار الاسم في أكثر من موقع، وتحوله من اسم لقبيلة إلى طوبونوميا لمدينة.

قبيلة أخرى انتشرت ببلاد المغرب، وتسمى بها أكثر من موقع: وهي مطماطة، فهم كما ذكر ابن خلدون «مفرقون في المواطن، فمنهم من نواحي فاس من قبلتها في جبل هنالك معروف بهم ما بين فاس وصفروي، ومنهم بجهات قابس والبلد المختط على العين الحامية من جهة غربها، منسوب إليهم، إلى لهذا العهد يقال حمة مطماطة».(14) وذكر اليعقوبي بني مطماطة بالمغرب الأوسط، غرب تاهرت بمدينة إيزرج وشمال غرب تلمسان. وقد ذكر البكري بالمغرب الأقصى مطماطة أمسكور، «بلد كبير على نهر ملوية هو منه في قبليه وهو بلد

---

12) ابن خلدون، تاريخ، دار الكتاب اللبناني، 1983، ج 6، ص: 265.

13) البكري، المسالك والملك، طبع دي سلان 1857، ص: 88، 117. الإدريسي، نزهة، طبعة ليدن، ص: 77، 85.

14) ابن خلدون، المصدر نفسه، ج 1، ص: 251 ـ 252.

كثير الزرع، سقي كله من نهر ملوية... وبها جامع وسق».(15) ويبدو أنه توجد بلدة بهذا الاسم، أي مطماطة، بين فاس وتازا وذلك فضلا عن بلدة مطماطة بالجنوب التونسي.(16)

والحقيقة أن أمثلة المواقع المشتقة من القبائل عديدة، ولا يمكن أن نستوفي ذكرها، فمليلة وهي بطن من هوارة أعطت اسمها لمدينة بالمغرب الأقصى، وأخرى، وهي مليلى، بالزاب(17) أما قبيلة يفرن الزناتية، فقد «كان منهم بافريقية وجبل أوراس والمغرب الأوسط بطون وشعوب... بنواحي تلمسان إلى جبل بني راشد المعروف بهم لهذا العهد».(18) كما انتشروا بالمغرب الأقصى، وكونوا دولابها، وقد ذكر كل من ابن حوقل وابن الوزان يفران بالمغرب الأقصى، وهي قصور في الأطلس الصغير ببلاد السوس، بها واحات من النخيل ومنجم للنحاس وكانت في علاقة تجارية مع بلاد السودان، كما توجد ثانية بهذا الاسم، أي يقرن، بجبل نفوسة، غرب مدينة طرابلس.(19)

ومن جهة ثانية، توجد أسماء لمواقع مشتركة في بلدان المغرب، لا تفسرها أصول قبلية واحدة، إنما هي ناجمة عن وحدة الجذور اللغوية واللسان الأمازيغي بأقطار المغرب، وهو ما يفسر تطابق عديد الأسماء المواقعية. في هذا المجال، كما تبينه لنا كتب الرحلة. وعلى سبيل المثال، لا الحصر، فابن حوقل والبكري ذكرا قرية أجر، بين القيروان والأربس، حاليا سيدي عمارة قرب الوسلاتية. ومازالت آثارها القديمة ماثلة للعيان وقد أجريت بها حفريات أثرية مؤكدة

---

15) اليعقوبي، «ن» «م» ص: 256. البكري، «ن» «م» ص: 145. انظر كذلك حول مطمطة، ص: 66، 75.

16) كذا في التقي العلوي، أصول المغاربة، النحث العلمي، عدد 33، الرباط 1982، ص: 90.

17) البكري «ن» «م» ص: 52 (مليلي) 89، 99، 152 (مليلة).

18) ابن خلدون، المصدر نفسه، ج 7، ص: 22 ـ 24.

19) ابن حوقل، المصدر نفسه. ابن الوزان، «ن» «م» ج 2، ص: 105 (يفرن)، 117 (إفران).

صحة الموقع (Aggar). أما صحة نطقها، فإننا تأكدنا منه من خلال ما أورده البكري في شأنها: «إذا جئت أجر فعجر، فإن فيه أسدا يفري وحجرا يبري وريحا تذري».(20)

كما ذكرت المصادر القديمة بلدا ثانيا بهذا الاسم : أجر ببلد الساحل أما الموقع الثالث فهو «أجر انْ ووشان»، يبعد عن سجلماسة نحو مرحلة، ومعنى الكلمة حسب البكري فدان الذيب، وبالتالي فإن معنى كلمة أجر: الحقول والبساتين وهو ما يفسر وجودها في أكثر من موقع.(21)

مثال ثان : تطاوين، هي مدينة تقع بجبل دمر جنوب شرقي افريقية، ذكرت لأول مرة في القرن الثاني هـ / الثامن م.(22) وقد ذكرت كتب المسالك والرحلة مدينة ثانية بهذا الاسم: تطاون عند الادريسي، تطاوان أو تيطاوان حسب البكري، وتقع بدورها على سفح جبل إيشفار، وعلى أسفل وادي مجكسة، ولعل هذا ما يفسر أن الكلمة تعني بالأمازيغية العينين.(23)

مثال آخر : أصل الكلمة س / و / س يطلق على أكثر من موقع ببلاد المغرب. فإلى جانب بلاد السوس بالمغرب الأقصى، توجد مدينة سوسة بافريقية، وقد تحدث عنها أغلب الرحالة، وبلدة ثانية يطلق عليها سوسة

---

20) ابن حوقل، «ن» «م» ص: 86. البكري، «ن» «م» ص: 54.

21) البكري، المسالك ص: 156. وحول أجر الموجودة بالساحل، راجع كتابنا: القبائل والأرياف المغربية في العصر الوسيط، تونس 1986، ص: 189 ـ 190.

22) كذا في الشماخي، كتاب السير، تحقيق ودراسة محمد حسن (نسخة مرقونة) ص: 45.

23) البكري، «ن» «م» ص: 106 ـ 108. الإدريسي، «ن» «م» ص: 170. ووردت في كتاب الاستقصاء تطاوين.

بـرقــة(24). ومن الأمثلة الأخـرى على هذا التطابق الطوبونـومي ببلاد المغـرب تامسلت شرق قلعــة بني حماد، وتموسلت قصر بجبل دمــر، دكمة أو دجمة: مــدينة بــالمغرب الأوسط شرق القلعــة، وأخرى بجبل نفوسة، جندوبة: قرية بجبل ودرنة على الساحل الليبي الخ...(25)

إن هــذه الأمثلــة وغيرها كثير تــأتي شاهــدا على مــدى التــواصل الطوبــونومــي ببلاد المغــرب، وعلى ضرورة معالجة القضيــة المعجمية للمواقع المذكورة على مستوى مغاربي، بتظافر جهود الباحثين والقيام بعمل مشترك، والتنسيق فيما بينهم.

وبديهي القول أن هــذا التواصل لا يخص المجال فقط، إنما يشمل كذلك الزمن، والأمثلة كثيرة على ذلك، ولنأخــذ مثالا على ذلك، مقاطعة المزاق، وهـي وسط افريقية، حيث نجد نحو نصف المواقع حافظت على أسمائها القديمة، وهـي على التوالي:

المواقع الإســلامية التي حــافظت على أسمائها القــديمة ووردت في كتب الرحلة :

1 ـ أهرقلية Horrca Caclia

2 ـ لمطة Leptis Minor

3 ـ سلقطة Sullectum

4 ـ مرسى قبودية Caput Vada

5 ـ رصفة Ruspac

6 ـ قصر يونفة Iunca

---

24) حول سوسة برقة، انظر البكري ص: 85، وهـي ما زالت مــوجودة إلى حد الآن. وحول ســوسة إفريقية، انظــر: حسن حسني عبد الوهــاب، ورقات، تونس 1981، ج 2، ص: 15 ـ 87. وفيما يخص بلاد السوس، انظــر مثلا: D. Jacques-Meunié, le Maroc Saharien des origines à 1670, Paris 1982 نوحي الــوافي، بــلاد الســوس الأقصى في العصر الــوسيط (ش. ك. ب) الجامعــة التونسية 1991.

25) البكري، «ن» «م» ص: 54 ـ 57 ـ 154. الشماخي، السير ص: 304 ـ 310 ـ 319 (تمولست)، ص: 19 (جندوبة).

7 ـ جزر قرقنة Cercina

8 ـ مجقة Muzuc

9 ـ أجر Aggar

10 ـ جلولا Conloulis

11 ـ سبيطلة Sufetula

12 ـ سبيبة Sufes

13 ـ قفصة Capsa

14 ـ تقيوس Thiges

15 ـ توزر Thusurés

16 ـ نفطة Aggarsel Nepte

17 ـ قصطيلية Castella

18 ـ قصر انشيلة Usulla

19 ـ طرة وتلمين Tworis Tamelline

20 ـ قابس Tacapae

ـ المواقع الإسلامية التي حافظت على أسمائها القديمة، وذكرت في بقية المصادر:

1 ـ جمة Gummi

2 ـ طينة Thenae

3 ـ قصر مجدونس Macomades Minores ?

4 ـ قصر لمسة Liniza Furni

5 ـ حيدرة Ammaedara

6 ـ تالة Thala

7 ـ مكثر Mactaris

8 ـ كسري Cusira

9 ـ تلابت Thélepte

10 ـ تبصة Thapsus

11 ـ هنشير الفراديز Aphradisium

12 ـ عين مدكر Mediccera

13 ـ جلمة Cilma

14 ـ هنشير مدد Mididi

وتمثل نسبة المواقع القديمة التي حافظت على أسمائها في العصر الوسيط، والبعض منها إلى حد الآن أقل من النصف (34 على 78 موقع قديم).

أما أسماء المواقع العربية التي ذكرها الجغرافيون العرب لأول مرة، فهي بدورها عديدة: القيروان / رقادة / القصر القديم / صبرة المنصورية / الرصافة / المنية / زرود / منزل كامل / المهدية / زويلة / عين الزيتونة / تاورفت / غافق / قصر رباح / طرفة / قلشانة / تماجر / ترنوط / الاخوان / قصر الزيت / فندق الريحان / فندق شكل / منستير عثمان / الدواميس / بني دعام / مجدول / جمونس الصابون / الهروية / فج الحمار / طراف / قيطون بياضة / بشرى / شماطة / الفهمين / طاجنة / مرماجنة / ويمكن أن نظيف إلى هذه القائمة أغلب القصور والرباطات التي ذكرها الادريسي في هذه الناحية(26) ـ وهو عدد بفوق العدد الأول للمدن القديمة، ويصل إلى أكثر من 36 موقعا جديدا. بمعنى أن عدد المواقع الوسيطة متعادل، أو ربما يفوق عدد المواقع القديمة، وهو ما يأتي شاهدا على النهضة العمرانية التي عرفتها بلاد المغرب عامة، ومنطقة المزاق على وجه الخصوص في الفترة الإسلامية المبكرة.

والحقيقة أن البحث في جذور الأسماء وتأصيلها ليس دائما بالأمر الهين، إذ تتداخل الأسماء المتشابهة وتكثر المقاربات، ويصعب الحسم في ظل غياب أدلة ثابتة. ولنأخذ مثالا على ذلك اسم المقاطعة التي ذكرناها سابقا، وهي المزاق.

لقد كانت تسمية بوزاقيوم (Byzacium) تطلق على مقاطعة ساحلية قاعدتها حضر موت (سوسة) وتمتد على مسافة نحو 250 كم، من

---

26) اعتمدنا في هذه الجداول على عديد المراجع والمصادر التي ذكرناها في مقال لنا لم ينشر، عنوانه:

Les Sites antiques de la Bysacène et les géographes Arabes (66 pages)

شمال سوسة إلى جنوب رأس قبودية، أي ما يوافق تقريبا بلاد الساحل. وأول من ذكر هذا المصطلح هو المؤرخ «بوليبوس» (202 ـ 120 ق.م) الذي تحدث عن البوزقيوم (Byzacium) و«البوساتيس» (Bussatis)، وقد حددهم شمال طينة (سفاقص). وتحدث سترابون (Strabon) عن شعب البوزاكي (Buzakii) في كتابه الذي ألفه بعيد سنة 24م. أما الجغرافي «بطوليموس» (أواسط القرن الثاني الميلادي) فإنه أورد مقاطعة «البوزاكيتيس» (Bazakitis Khora) جنوب مقاطعة قرطاجنة.

وفي الجملة فإن مجال البوزاقية القديم بقي محصورا في الشريط الساحلي التونسي، يتمدد تارة ويتقلص أخرى، إلى حد صدور قرار الامبراطور الروماني ديوكلسيان (Dioclétien) بين سنتي 294 ـ 305م في تكوين مقاطعة «البيزاسان» (Valeria Byzacena) الممتدة على مجال أوسع، من خليج الحمامات إلى قابس جنوبا، إلى بلاد الجريد في الجنوب الغربي، وتضم شمالا كامل بلاد السباسب إلى الحدود الجزائرية تقريبا، وباختصار وسط البلاد التونسية التي اتخذها «جرجير» مملكة مستقلة، قبيل قدوم العرب إلى افريقية.(27)

إن الأمر يبدو واضحا إلى حد هذا المستوى، لكن تعريب الاسم يطرح اشكالا، سيما أن المصادر الاتينية ذكرت موقعين يحملان تسمية متشابهة: مزق (Muzuc)، وكلاهما يقع على وادي نبهانة، في فحص القيروان شمالا: حاليا هنشير بشرى وهنشير خشوم.(28)

فهل أن تسمية المزاق التي وردت في شعر القيرواني عبد الرحمان بن زياد، من رجال القرن الثاني هـ / الثامن م ـ وهو التالي:

ذكرت القيروان فهاج شوقي / وأين القيروان من العراق.

مسيرة أشهر للعيس نصا / على الابل المضمرة العتاق.

---

27) نفس المقال المشار إليه. انظر أيضا: J. Desanges, Etendire et importance du Byzacim. In Cahiers de Tunisie, 4e tr. 1963, p: 7-22.

28) انظر: A. Mahjoug, de la fin de l'antiquité au haut moyen-âge, 110e congrés N des sociétés savantes 1985, p: 391-406.

بأن الله قد خلى سبيلي / وجـد بنا المسير إلى مزاق(29) ـ فهل أن تسمية المزاق هذه هي اشتقاق مـن البيزاسان، أم أنها تعريب «لمزك»، ولا تعني سـوى فحص القيروان، بعـد أن تفككت الهيـاكل الإداريـة القديمة واندثرت مقاطعة «البيزاسان» في العصر الإسلامي المبكر.(30)

3) في سبيـل تأسيـس معجميـة للمواقع :

تختلف هـذه المواقع في نـوعيتها، فمنهـا مـا هو محدد ومعـروف ومتبق إلى حد الآن، ومنها ما هو اطلال دارسة، وأخرى لم نتمكن من العثور عليها، وثالثة لم تذكرها مصادرنا وبقيت مغمورة الذكر إلى أن يسعفها الحظ لتتجلى للعيـان من جديد، على إثر اكتشـاف أثري. وفي كل الأحوال فإن معـرفة أدق لهذه المدن ومعـالمها يمكن أن تنطلق من المنهج التالي:

أولا : إعـداد ملف أولي للمـوقع الـوارد ذكـره في كتب المسـالك والرحلة : وتبدأ محاولة تحديده تقريبيـا انطلاقا من المادة الواردة في كتب الرحلـة، ومن الأحداثيـات الواضـحة فيهـا، فمنستير عثمان مثلا تبعـد مـرحلـة عن القيروان، ومـرحلتين عن تـونس، وهـي على طـول الطريق الـرابط بين المدينتين، المرحلة التي تختلف مسافتها بـاختلاف الطريق وصعوبته، تتجاوز في هذا المثال 40كم، وبالتالي فإنه يمكن أن نبحث عن أطلال هذه المدينة المطمـوسة في هذه النواحي.(31) وتساعد المفـاهيم ذات البعد المجـالي على تحديـد الموقع، إذ يقع التدرج حسبـه المقـدسي من المملكة إلى الإقليم، وهـو رقعة من الأرض تـابعة لسلطـة سياسيـة واحدة، ومركز كل إقليم مصر أو أكثـر، فالقيروان هي مصر لإقليم افـريقيـة. وينقسم الإقليـم إلى كـور (جمع لكـورة)، ونـواحي ورساتيق، وهذان المصطلحان الأخيران لا يـدخلان في البنية الشعاعية

---

29) أبو العرب، طبقات علماء إفريقية، بيروت، د. ت. ص: 313.

30) حول المزاق، انظر: حسن حسني عبد الوهاب، ورقات، ج 2، ص: 18.

31) البكري، «ن» «م» ص: 37، 55.

التي ذكرها المقدسي، فالناحية تتميز بخصوصية تجعلها أكثر أهمية من الكورة البسيطة، دون أن ترقى إلى مرتبة الإقليم. أما الرستاق فهو أقل حجما من الكورة، وعادة ما يتميز باحتوائه على عدة قرى. ومن الأمثلة على ذلك رستاق رصفة بساحل افريقية، قال المقدسي في شأنه: «رصفة رستاق اسم مدينته بنونش، تكون مثل الرملة، شربهم من آبار بها ثلاثمائة وستون معصرة للزيت بناؤهم مدر».(32) ورصفة بلد ذكر في العصر القديم (Ruspae) وقد حددها بعض الباحثين أخيرا قرب جبنيانة، وهو ما نستبعده لأن مدن الرستاق التي ذكرتها المصادر هي بنونش (حاليا ملولش) وباجة الزيت (حاليا وادي باجة) ورقة (سيدي حماد) وزبنة، بمعنى أن الرستاق لا يتجاوز المثلث الجم - سلقطة - ملولش، وأن جبنيانة لم تذكر ضمن مدن الرستاق، وبالتالي فإن هذا التحديد خاطىء، ونميل إلى صحة التحديد الذي اقترحه المؤرخون في بداية القرن، أي الصبية، وهي لا تعدو أن تكون القسم الثاني لكلمة روصبية، علما بأن الشطر الأول: ورد في أكثر من اسم مثل رفة و«روسبينا» و«روس يكاد». ومما يأتي شاهدا على قدم الموقع ما عثرنا عليه من قطع من الخزف الإسلامي في الموقع الممتد على مساحة كبيرة، وبقايا لمعاصر زيت وبخاصة نقيشة كتبت بالخط الكوفي المزهر، ترجع إلى نحو القرن الرابع الهجري.(33) ولكن قبل أن نصل إلى مرحلة الاستكشاف الأثري، يمكن أن نجمل الحديث عن المرحلة الأولى فنقول أنها تنطلق من أسماء المواقع الوارد ذكرها في كتب المسالك والرحلة.

ثم يتواصل في إطار هذه المرحلة إعداد الملف اعتمادا على بقية المصادر التاريخية، بما فيها المصادر القديمة، نظرا لتواصل الظاهرة

---

32) المقدسي، المصدر السابق، ص: 227. اندريه ميكال المرجع نفسه، ج 1، ص: 137.

33) حول رصفة، انظر: ابن رشيق، الأنموذج، ص: 123 - 139 - 351 - 353 - 381 - 487

Atlas Archiologique de la Tunisie, feuille de la Chebbre.

العمرانيــة والطوبــونوميــة القديمــة عبر العصور، كما تقع الاستعــانة بالخرائط الطــوبوغرافيــة والاثرية لمحــاولة تحديد المكــان، ومعلوم أن خرائط الأطلس الأثــري التونسي مثلا تــرجع إلى نهاية القــرن التاسع عشر، وقــد اعتمد جنــرالات الجيش الفــرنسي في إعدادهــا على الخرائط الطوبوغرافية ذات السلم: 1/50000. وأظافوا إليها ما سجلوه فيها من مواقع للآثــار، مع بعض الأمثلة والصــور للمعالــم. وتــولــى ثلاثــة مــن أعضاء اللجنــة التاريخية، (Babelon, R. Cagnat, Reinach) بإعداد النص النهائي. ورغم الاحترازات التي ذكرناهــا في المقدمة، فإن وسيلة العمل هذه ليس لنا ما يعوضها في الوقت الحاضر، ولا يمكن الاستغناء عنها، في تحديدنا للموقع الأثري، انطلاقــا من الطوبونوميا (أسماء الهناشير والبلدان والجبال وغيرها) والهيــدرونوميا (hydronomic)، بمعنى أسماء الأودية.

وفي هذا المجال فإن الهنشير هو مصطلــح ظهر لأول مرة في القرن السابع هـ / 13م، وكان يطلق على الأراضي الزراعيــة الخصبة الواقعة مكان أطــلال دارسة لمدن منقرضـــة وعلى سبيل المثال لا الحصر، فإن منستير عثمان المذكورة آنفا تركت مكانها منذ العصر الوسيط المتأخر إلى تسمية جديدة، بعــد أن انقرضت، وهــي هنشير المستير. وقد تمكنا من تحديد لمنزلين آخرين ورد ذكــرهما في رحلة التجاني: وهما منزل الفلاحين ومنــزل صلتان، وذلك انطلاقــا من هنشيرين يحملان نفس الاسم، ويقعان في المجال المحدد.(34)

ولا تقل الهيدرونوميا أهمية عن سابقتها، إذ كثيرا ما يندثر الموقع، ولا يترك ما يــدل على وجوده إلا في أسماء الــوادي القريب منــه، ومن النماذج على ذلك نأخــذ إحــدى باجــات افــريقيــة وهــي باجــة الــزيت بالساحل التونسي، التي اندثرت ابتداء من القرن الثاني عشر، ولم تبق إلا بعض رســومهــا وأطــلالها بهنشير الغــراب، على أن المؤرخ حسن حسني عبد الوهــاب اهتدى إلى موقعها، وقد تأكدنــا من ذلك، انطلاقا

34) البكري، المصــدر نفسه، ص: 37، 55. التجــاني، رحلــة، تــونـس 1981د ص: 22 ـ 23.

من اسم الواد الذي بقي يحمل الطوبونوميا القديمة: وهو واد باجة. وعثرنا بهذا الموقع على بقايا معاصر منزلية، وخزف إسلامي وتاج زيري، فضلا عن فسقية كبيرة مستطيلة الحجم قياسها: 40 × 30م، من النوع الأغلبي ـ الفاطمي، وتوجد بقايا ساقية تربط بينها وبين الوادي الصغير.(35)

وباختصار فإن المرحلة الأولى هي مرحلة تجميع المادة التاريخية والأثرية التي تسبق الدراسة الميدانية، والتحول على عين المكان إلى الموقع.

ثانيا : مرحلة التنقيب الأثري الميداني :

تنطلق عملية التحديد الميداني للموقع من النص الذي تقع معارضته بالأثر، وأول ما يتبادر إلى الذهن هو محاولة تحديد مجال الموقع، بواسطة اللقى الأثرية الموجودة به من خزفيات ونقود إسلامية ونقائش مكتوبة وقبريات إلخ. وتزداد أهمية الخزف في البحث عن المواقع الغائبة من الخريطة التي تحتاج إلى عملية التصوير الجوي، في بعض الأحيان لاستكشافها، وقد أبرزت هذه التقنية عديد المنشآت المائية العربية بجهة القيروان التي تظهر على الصورة في شكل بقع داكمة بعد نزول المطر.(36) وباعتبار أن أسماء المواقع وردت في الغالب محرفة في الخرائط الأجنبية فإن تحديدها وضبطها يحتاج إلى استجواب الأهالي القاطنين بالناحية من مزارعين وغيرهم، سيما إذا كان الأمر يخص موقعا أمازغيا، وقع تعريبه بشكل معين.

---

35) راجع: حسن حسني عبد الوهاب، ورقات، ج 3، ص: 424 ـ 431. وأعيد نشر هذا المقال في دائرة المعارف التونسية، بيت الحكمة، كراس 1، تونس 1990 ص: 70 ـ 71.

انظر أيضا: Atlas Archéologique de la Tunisie, feuille de Mahdia

36) Solignac, recherches sur les installations hydrauliques de Kairawan In Annales I.E.O.
Alger 1952, T,X, fig 3 (p: 25), fig 52 (p: 240) fig 67-68.

وتسـاعـد أطـلال المعـالم المتبقية بـالموقع على تحديـده فطـريقـة ترصيف الحجارة ونوعية الآجر وقياساته والسقوف والزخرفة وطرق التخطيط وأشكـال المداخل والدهـاليز والصحـون وغيرها تمكننـا من تحديد تقريبي للمعلم. كما تـدل ضخامة المعالم وأهميتهـا على نوعية الموقع. ولنأخـذ مثلا على ذلك مـدينة منـزل باشـو، كانت على العهـد الأغلبي مركـزا لجزيرة شريك (الوطن القبلي حاليـا)، وصفها البكري بما يلي: «هي مـدينة كبيرة آهلـة بها جامع وحمامـات وثلاث رحـاب وأسواق عامرة وبها قصر أحمد بن عيسى القائم على ابن الأغلب. ومن تونس إلى منزل باشـو هذا مرحلة..».(37) وأضـاف التجـاني في رحلته أن أعمدة جـامع مدينـة باشو وتيجـانها حملت بعد خـراب المدينة في نهاية القرن 6هـ/12م إلى مدينة تـونس، لإعادة استعمالها في تشييد جامع الموحدين بالقصبة سنة 630هـ/1233م.(38)

وتنطبق هذه الأوصاف انطباقا كليا على قرية الجديدة الحالية، كما تفطن إلى ذلك حسن حسني عبد الوهاب من قبل، فـالمنارة الأسطوانية للجـامع كثيرة الشبه بمنـارتي رباط سـوسة والمنستير، وتـرتفع عن سطح الأرض بنحـو 10 أمتـار، وكـانت قبل أن يزيلهـا الألمان أثنـاء الحرب الثانية مبنية بالآجـر الأحمر. ومما له مغزاه أن القصر المذكور في النص تبقى جزء كبير منه إلى حد الآن، وبالتالي فإن هذا الأثر يأتي شـاهـدا على صحـة تحديـد الموقع، هـذا فضـلا عن وجـود فسقيـة مستطيلـة من النـوع الأغلبي وعـدد كبير من الشقـاف الإسـلامي. وتساعد الخريطـة الأثرية على الاهتداء لهذا الموقع الـذي أطلقت عليه تسمية السوق الخالي.(39)

ومن الجديـر بـالملاحظـة أنـه لا يمكن أن نهمل في هـذه المرحلـة الجزئيات الصغيرة للمجال مثل المواجل والآبار، لتحديد الموقع، ولنأخذ المثال الذي تعرضنا له سابقا، وهو منستير عثمان، الذي وصفه كتاب

---

37) البكري، «ن» «م» ص: 45. عبد الوهاب، ورقات، ج 3، ص: 329 ـ 344.

38) التجاني، رحلة ص: 13.

39) انظر: ATlas Archéologique de la Tunisie. fe de Grombalia

المسالك والممالك بما يلي: «هي قريــة كبيرة بها آهلة بها جامع وفنادق كثيرة وأسواق وحمامــات وبير لا تنزف وقصر للأول مبني بــالصـخر والجير، وأرباب المنستير قــوم من قريش من ولــد الربيع بن سليمان، وهو اختطها عند دخوله إفريقية، وبها عرب وبربر وأفارق».(40)

انطـلاقا من النص والاستكشــاف الأثــري، تمكنا من جمع قــرائن عديدة تساعد على تحديد الموقع:

- ذكر الخرائط الأثرية لموقع هنشير المستير في الناحية المحددة.

- وجــود بقــايا الحصــن البيزنطي المذكــور في النــص، وخاصة بعض أبراجه المبنية بحجارة مصقولة كبيرة الحجم.

- أمــا البئر التــي ورد ذكرهــا في كتاب المسالــك، فقد صــح قول البكري فيها، وهي لم تنــزف حتى اليوم، وقد بقيت جابيتهــا القديمة قائمــة، تحيط بها دعائم نصف أسطوانيــة بنيت بحجارة الغشيم على منوال المنشــآت المائية الفاطمية. كما عثــرنا على عديد المنشــآت المائية الأخرى، البعض منها يعود إلى فترة الولاة.(41)

وبالتالي فإن هذه النماذج تأتي دليلا على مدى جدوى الاستكشاف الأثــري، وضرورة خــروج مؤرخ المدن من المنطلقــات التقليـديــة التي يعتمدها وهي النص المكتوب، لمعاينــة الأثر بنفسه، واستنطاق الأطلال وطوبوغرافية المكان لإعادة رسم لوحة عن المدينة، أو تصوير معركة، أو الحديث عن المســالك والــزراعة والتجــارة، وإنــه لمن غير الممكن أن يقوم المرء بدراسة أكادمية عن بلاد ما دون معرفة، ولو سطحية، لها.

وتحتاج مــرحلة الاستكشــاف الأثري إلى التــوثيق المتمثل في رسم أمثلة ومخططات للمعالم وتصويرها، وقراءة النقائش والقيام بوصف دقيق وشامل للموقع إلخ. وكثيرا مــا يعسر الأمر على الباحث ويحتاج

---

40) البكري «ن» «م» ص: 56.

41) انظر:

Solignac, op. cit. Alger 1953, TXI, pp: 64-70.
Cambusat, l'évolution des cités du Tell en Ifrkiya du VIIe au XIes. Alger (sans date), TII, p: 176-178.

الحسم في تاريخ المعلم مثلا إلى السبر الأثري، وإزاحة التراب عن الطبقات الأثرية المتناضدة في نقطة ما.

وفي الجملة فإن هذه المرحلة تنتهي بتجميع كل المعلومات الأثرية والتاريخية حول الموقع أو المعلم، تحظيرا لدراسته، وهو موضوع المرحلة الموالية.

ثالثا : الدراسة الأحادية للموقع :

تمثل هذه المرحلة حصاد العمل السابق، ولبنة من لبنات معجم البلدان المغاربية الذي نأمل أن يرى النور في المستقبل، مستعملا في ذلك الطرق العصرية مثل الحاسوب. وتتبع هذه الدراسة للموقع خطة معينة، تأخذ بعين الاعتبار الجوانب التاريخية المختلفة:

- دراسة موضع وموقع المدينة أو القرية، مكانها في شبكة الطرقات والمسالك.
- تناول التطور التاريخي للمدينة، مع محاولة تحقيب لأهم الأطوار التي مرت بها.
- وظائف المدينة وخاصياتها: تناول الجانب الاقتصادي ودراستها في علاقتها مع الريف. الجانب الإداري من مؤسسات ومعالم العسكري المتمثل في العمارة العسكرية ومختلف التحصينات من أسوار وخنادق وأبراج وقلاع ومنارات وحصون ومسالح وغيرها، أما الجانب الثقافي فهو يهتم بأهم العمارة الموجودة بها من مدارس ومساجد وزوايا، وبالتعريف بأعلام المدينة. كما يشمل هذا الباب السكان وتوزيعهم وعددهم وتنوعهم الأثني ولغاتهم وعاداتهم إلخ.

وهكذا تكتمل الصورة التي نطمح لرسمها لمدننا المغربية، ونتمكن من معرفة أدق لها، المطموسة منها والباقية، لكن هذا لا يتم دون عمل جماعي تتظافر فيه جهود مختصين عديدين من مؤرخين لمختلف العصور وأثاريين ولغويين.

وفي الأخير، فإن الظاهرة المدينية حضيت باهتمام الرحالة والجوالين العرب الذين قيدوا تجلياتها المختلفة وسبروا كنهها، بروح لا

تخلو من حب الاطـلاع والسعي لمعرفـة الغير أو الآخر، تارة بطـريقة علمية دقيقة، وأخرى بترك العنان إلى الأحـاسيس الجياشة والوجدان. وفي كل الأحـوال فإن هـؤلاء السفراء الجوالين تـركـوا أهلهم وذويهم، وأعرضـوا عن حياة الدعة والاستقـرار، مفضلين على ذلك الانتقال من بلد إلى آخـر، والتطلع إلى الأفق الـواسع والبعيد، والطـوق إلى اكتشاف المجهول، وتصويره لنا. وقد ساهموا بهذا في نقل الحقيقة عن الشعوب والبلدان، واختصار المسافات.

المحور الرابع

نماذج وأعلام من الرحالة المغاربة

رحلة عبد اللطيف البغدادي وآفاقها العلمية

د. صالح بن قربة
معهد الآثار ـ جامعة الجزائر

مخطط البحث :

1 ـ نشأة البغدادي وثقافته :

تمثل رحلة عبد اللطيف البغدادي العلمية سمة بارزة ونتاجا فكريا واضحا في الحركة العلمية التي سادت العالم الإسلامي خلال القرنين الثالث والسابع الهجريين. التاسع والثالث عشر الميلاديين.

وقبل أن نعرض لدوافع الرحلة وآفاقها العلمية، نرى من المفيد جدا أن نعرف بهذه الشخصية ذات المواهب المتعددة، لعل ذلك يساعد على فهم الكثير مما سنعرض له عند تحليلنا لموضوع الرحلة وأهميتها لتاريخ الحضارة الإسلامية عامة والمصرية بصفة خاصة.

عبد اللطيف البغدادي هو الشيخ الإمام الفاضل، العالم الطبيب، موفق الدين أبو حمد عبد اللطيف بن يوسف بن محمد بن علي بن أبي سعد الذي عرف باسم «ابن اللباد».

ولد في دار جده في درب الفالوذج ببغداد سنة 557هـ حيث نشأ وترعرع. في بيئة علمية تزخر بالعلم والعلماء. والمثقفين، كان والده موفق الدين مشتغلا بعلم الحديث بارعا في علوم القرآن والقراءات، مجيدا في المذهب والخلاف والأصوليين، وكان متطرفا من العلوم العقلية، كما كان عمه «سليمان» فقيها مجيدا(1).

---

1) ابن أبي أصبيعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء. (منشورات دار مكتبة الحياة) ـ بروت ـ 1965، ص. 682.

هكذا نشأ عبد اللطيف البغدادي في أسرة علمية، أخرجت علماء متفقهين في علوم الدين، فأقبل على الاعتراف من هذه العلوم. برغبة وجدية.

وقد صور هذه الجدية والرغبة في التحصيل بقوله: «تربيت في حجر الشيخ أبي النجيب لا أعرف اللعب واللهو، وأكثر زماني مصروف في سماع الحديث، وأخذت لي إجازات من شيوخ بغداد وخراسان والشام ومصر وقال لي والدي يوما قد سمعتك جميع عوالي بغداد وألحقتك في الرواية بالشيوخ المسان، وكنت في أثناء ذلك أتعلم الخط، وأتحفظ القرآن والفصيح، والمقامات وديوان المتنبي ونحو ذلك ومختصرا في الفقه ومختصرا في النحو(2).

مما سبق يتضح أن البغدادي تلقى تعليمه في البداية على يدي والده ثم انتقل إلى معلم الصبيان «الوجيه الواسطي» الذي كان يحضر حلقته بمسجد الظفرية من أول النهار إلى آخره، واستمر عنده إلي أن أظهر تفوق على أقرانه وبرزت قدرته وملكته على الحفظ، حمله والده إلى الشيخ كمال الدين فقرأ درسه وتفوق في الفهم والحفظ، وكانت هناك مجموعة من المؤلفات كان على البغدادي حفظها وفهمها.

وأول ما ابتدأت حفظت اللمع(3) في ثمانية أشهر، أسمع كل يوم شرح أكثرها مما يؤدي غيري وأنقلب إلي بيتي فأطالع شرح الثمانين، وشرح الشريف عمر بن حمزة وشرح ابن برهان وكل ما أجد من شروحها، وأشرحها لتلاميذ يختصون بي إلى أن صرت أتكلم على كل باب كراريس ولا ينفذ ما عندي، ثم حفظت أدب الكاتب لابن قتيبة(4) حفظا متقنا، أما النصف الأول ففي شهور، وأما تقويم اللسان ففي أربعة عشر يوما لأنه كان أربعة عشر كراسا ثم حفظت مشكل القرآن

2) ابن أصبيعة، المصدر السابق ص 683، 684.

3) كتاب في النحو، ألفه عثمان ابن جني الموصلي.

4) ابن قتيبة الدينوري (828 ـ 889) ولد في الكوفة وعاش وعلم في بغداد، وتولى القضاء في دينور، ألف «أدب الكاتب وعيون الأنباء».

له وغريب القرآن لـه، وكل ذلك في مدة يسيرة، ثم انتقلت إلى الإيضاح لأبي علي الفارسي(5)، فحفظته في شهور كثيرة.

ولازمت مطالعة شروحه وتتبعته التتبع التام حتى تبحرت فيه وجمعت ما قال الشراح. أما التكملة فحفظتها في أيام يسيرة كل يوم كراسا. وطالعت الكتب المبسوطة والمختصرات وأظبت على المقتضب للمبرد(5)، وكتاب ابن درستورية».

ـ شيوخه :

ودرس البغدادي على الكثير من مشاهير علماء وفقهاء مدينة بغداد مثل «جمال الدين بن فضلان». وللشيخ كمال الدين «مائة تصنيف وثلاثون تصنيفا أكثرها في النحو وبعضها في الفقه والأصوليين وفي التصوف والزهد وأتيت على أكثر تصانيف سماعا وقراءة وحفظا»(6).

وممن درس عليهم أيضا ولد أمين الدولة بن التلميذ الذي أخذ عنه الطب وصناعته وبالإضافة إلى الشيوخ السابقين، فقد التقى عبد اللطيف البغدادي بعبد الله بن نائلي، أحد علماء المغرب الذين رحلوا إلى المشرق بعد انتصار الموحدين على المرابطين، واستقر ببغداد.

«اجتمع إليه جماعة من الأكابر والأعيان، وحضره الرضي القزويني وشيخ الشيوخ، ابن سكينة، وكنت واحدا ممن حضره»، وقد أتعلم عليه الحساب والنحو، ورغبة في دراسة العلوم العقلية التي كان العالم المغربي، يهتم بها اهتماما خاصا لا سيما الكمياء التي كان البغدادي يكرهها الأمر الذي جعله ينصرف عنه. (يتهمه بمظهره العلي الخداع حيث يقول: «ورد إلى بغداد رجل مغربي جوال في زي التصوف به أبهة ولسن قبول الصورة، عليه مسحة الدين، وهيئة السياحة، ينعقل لصورته من رآه قبل أن يخبره ويعرف بابن نائلي، يزعم أنه من أولاد

5) هو أبو العباس. من أم عربية وتوفي في بغداد (826 ـ 888).

6) ابن أصبيعة ص.684.

الملثمة، خرج من المغرب لما استولى عليها عبد المؤمن فلما استقر ببغداد اجتمع إليه جماعة من الأكابر والأعيان وحضره الرضي القزويني وشيخ الشيوخ ابن سكينة، وكنت واحدا ممن حضره فأقر أني مقدمة حساب، ومقدمة ابن بابشاد في النحو وكان له طريق التعليم عجيب ومن يحضره يظن أنه متبحر وإنما كان متطرفا، ولكنه أمعن في كتب الكيمياء والطلسمات وما يجري مجراها، وأتى على كتب جابر»(7)، بأسرها وعلى كتب ابن وحشية، وكان يجلب القلوب بصورته ومنطقه وإبهامه فملأ قلبي شوقا إلى العلوم كلها، واجتمع بالإمام الناصر لدين الله وأعجبه»(8).

ـ منهجه التعليمي :

ويضيف البغدادي إلى ما سبق، فيقول موضحا منهجه في الإقبال على العلوم والمعارف: «وشمرت ذيل الجدو والاجتهاد، وهجرت النوم واللذات وأكببت على كتب الغزالي(9)، المقاصر والمعيار، والميزان ومحك النظر. ثم انتقلت إلى كتب ابن سيناء صغارها وكبارها، وحفظت كتاب النجاة، وكتبت الشفاء، وبحثت فيه، وحصلت كتاب التحصيل لبهمنيار تلميذ ابن سيناء وكتبت وحصلت كثيرا من كتب جابر بن حيان الصوفي، وابن وحشية وباشرت عمل الصنعة الباطلة وتجارب الضلال الفارغة وأقوى من أضلني ابن سيناء بكتابه في الصنعة الذي تمم به فلسفته التي لا تزداد بالتمام الا نقصا»(10).

ويبدو أن موفق عبد اللطيف البغدادي كانت له طموحات واسعة في سبيل الاستزادة والتحصيل، والاحتكاك أكثر بالعلماء في مختلف المدن الإسلامية، ولذلك لم يرق له البقاء في بغداد رغم كونها حاضرة

7) جابر بن حيان من علماء الكيمياء العرب عاش في الكوفة.

8) ابن أبي أصبيعة، ص.685.

9) هو أبي حامد محمد الغزالي (159 ـ 1111م) من أشهر مؤلفاته أيحاء علوم الدين والمنقذ من الضلال.

10) ابن أبي أصبيعة، المصدر نفسه ص.685.

الخلافة العباسية ومركز إشعاع كبير يستقطب العلماء والمثقفين من كل حذب وصوب بل نراه يصمم على مواصلة الرحلة العلمية نحو مدينة الموصل حيث يقول:

«ولما كان في سنة خمس وثمانين وخمسمائة، حيث لم يبق ببغداد من يأخذ بقلبي ويملأ عيني، ويحل ما يشكل علي، دخلت الموصل فلم أجد فيها بغيتي لكن وجدت الكمال بن يوسف جيدا في الرياضيات والفقه متطرفا من باقي أجراء الحكمة قد استغرق عقله ووقته حب الكيمياء وعملها حتى صار يستخف بكل ما عداها. واجتمع إلى جماعة كثيرة، وعرضت على مناصب فاخترت منها مدرسة ابن مهاجر المعلقة ودار الحديث التي تحتها. وأقمت بالموصل سنة في اشتغال دائم متواصل ليلا ليلا ونهارا. وزعم أهل الموصل أنهم لم يروا من أحد الشهاب السهر وردي المتفلسف، ويعتقدون أنه قد فاق الأولين والآخرين، وأن تصانيفه فوق تصانيف القدماء فهممت لقده ثم أدركني التوقيف فطلبت من ابن يونس شيئا من تصانيفه، وكان أيضا معتقدا فيها فوقعت على التلويحات، واللمحة، والمعارج فصادفت فيها ما يدل على جهل أهل الزمان، ووجدت لي تعاليق كثيرة لا أرتضيها هي خير من كلام هذا الأنوك(11) وفي أثناء كلامه يثبت حروفا مقطعة يوهم بها أمثاله أنها أسرار الهيئة»(12).

ـ البغدادي في الشام :

ويبدو أن السبب الرئيسي الذي دفع البغدادي إلى الانصراف عن مدينة الموصل أنه لم يجد من مشاهير العلماء من يستأثر بعقله واهتماماته العلمية المتعددة، لذلك نراه من جديد يواصل الرحلة في طلب العلم والرغبة في مناظرة العلماء وهذه الروح العلمية العالية جعلته يحرص على تدوين وقائع رحلته. لا سيما في بلاد الشام، حيث جمعته المصادفة مرة أخرى بالعالم المغربي الذي كشف زيف علمه

11) بمعنى الأحمق.

12) ابن أبي أصيبعة، ص.682.

وضعف حجته(13): ولما دخلت دمشق وجدت فيها من أعيان بغداد والبلاد ممن جمعهم الإحسان الصلاحي جمعا كثيرا، منهم: جمال الدين عبد اللطيف(14). ولد الشيخ أبي النجيب، وجماعة بقيت من بيت رئيس الرؤساء، وابن طلحة الكاتب وبيت ابن جهير وابن العطار المقتول الوزير وابن هبيرة الوزير واجتمعت بالكندي البغدادي النحوي وجرى بيننا مباحثات.

وكان شيخا بهيا ذكيا مثريا له جانب من السلطان، ولكنه معجبا بنفسه مؤذيا لجلسه، وجرت بيننا مباحثات فاظهرني الله تعالى عليه في مسائل كثيرة، ثم أني أهملت جانبه فكان يتأذى بإهمالي له أكثر مما يتأذى الناس منه.

وعملت بدمشق تصانيف جمة منها غريب الحديث الكبير، جمعت فيه غريب أبي عبيد القاسم بن سلام(15)، وغريب ابن قتيبة وغريب الخطابي وكنت ابتدأت به في الموصل، وعملت له مختصرا سميته المجرد، وعملت له كتاب الواضحة في اعراب الفاتحة نحو عشرين كراسا، وكتاب الألف واللام، وكتاب رب وكتابا في الذات والصفات الذاتية الجارية على ألسنة المتكلمين، وقصدت بهذه المسألة الرد على الكندي ووجدت بدمشق الشيخ عبد الله بن نائلي نازلا بالمئذنة الغربية وقد عكف عليه جماعة وتحزب الناس فيه حزبين له وعليه فكان الخطيب الدولعي عليه، وكان من الأعيان له منزله وناموس ثم خلط ابن نائلي على نفسه، فأعان عدوه عليه، وصار بتكلم في الكيمياء والفلسفة وكثر التشنيع عليه.

واجتمعت به فصار يسألني عن أعمال اعتقد أنها خسيسة نزرة فيعظمها ويحتفل بها ويكتبها مني وكاشفته فلم أجده كما كان في نفسي. فساء به ظني وبطريقة ثم باحثته في العلوم فوجدت عنده منها

---

13) د. بلبع، عبد اللطيف البغدادي، ص.175 ـ 176.

14) اشتهر باسم (ابن اللباد) وقد برز في الطب والفلسفة والتنجيم وعلم الكلام.

15) هو ابن الهروي ولد في هراة عام 770 هـ.

أطرافا نـزرة فقلت له يوما: «لو صرفت زمـانك الذي ضيعته في طلب الصنعة إلى بعض العلـوم الشرعية أو العقلية كنت اليوم فـريد عصرك مخدوعا طول عمرك» (16).

وهذا هو الكيميـاء لا ما تطلبه، ثم اعتبرت بحاله وانـزجرت بسوء مـاله والسعيـد من وعظ بغيره. فأقلعت ولكن لا كـل الاقلاع. ثم أنـه توجه إلي صلاح الـدين بظاهر عكا يشكو إليه الـدولعي وعاد مريضا وحمل إلى البيمارستان فمات به.

ثم أني تـوجهت لزيـارة القدس ثم إلى صـلاح الدين بظـاهر عكـا فاجتمعت ببهاء الدين بن شداد قـاضي العسكر يومئذ وكان قد اتصل بـه شهـرتي بـالموصل فـانبسط إلي وأقبل علي وقـال: «تجتمع بعماد الدين الكاتب فقمنـا إليه، وخيمته إلى خيمة بهاء الدين فـوجدته يكتب كتابا إلى الديوان العزيـز بقلم الثلث من غير مسودة. وقال: هذا كتاب إلى بلدكم، وذاكرني في مسائل من علم الكلام.

وتبين النصوص السـابقة تفـوق البغدادي على العـديد من العلماء الذين قابلهم أثناء إقامته في حاضرة الخلافة الأموية، ولم يفته الحديث عن إنتاجـه العلمي والمؤلفات التي أخرجهـا خلال تلك الفترة القصيرة التي قضاها هنـاك والتي لا تتجاوز السنتين(17)، وقد أشار كذلك إلى رغبته في زيـارة صلاح الـدين بعد استيـلاء الغرب على عكـا في شهر جمادى الآخر سنة 587هـ وقد استقبل كعادتـه بما يليق به وبمكانته العلمية، وأتيحت له فرصة لقاء رجـال الدولة كالقاضي الفاضل وبهاء الدين بن شـداد قاضي العسكر، وعماد الكاتب. وجـرى نقاش معه في العديـد من المسـائل العلمية والأمـور الدينية، فـأظهر كعـادته بـراعة وتفوقا: «...وذاكـرني في مسائل من علم الكلام، وقال: «قـوموا بنا إلى القاضي الفـاضل فدخلنـا عليه فـرأيت شيخا ضئيـلا كله رأس وقلب، وهو يكتب ويملي على اثنين، ووجهه وشفاه تلعب ألوان الحركات لقوة حرصه في إخراج الكلام، وكأنـه يكتب بجملة أعضائه وسألني القاضي

16) المصدر السابق ص.686 ـ 687.

17) د. محمد توفيق بلبع، عبد اللطيف البغدادي، ص174.

الفاضل عن قوله سبحانه وتعالى: **﴿حتى إذا جاؤها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها﴾**. وعن مسائل كثيرة ومع هـذا فلا يقطع الكتـابة والإملاء. وقال لي نـرجع إلى دمشق وتجري عليك الجريات فقلت أريد مصر. فقال: السلطان مشغول القلـب بأخذ الغرب عكا وقتل المسلمين بها. فقلت لابد لي من مصر فكتب لي ورقة صغـيرة إلى وكيله بهـا».

يبدو واضحا أنه رغم المغـريات المادية التي عرضت عليـه والمكانة المرموقة التي حظي بها في بلاط الأيوبيين في الشام، لم تقف حائلا أو تثنيه عن مواصلـة الرحلة إلى مصر، فلم يجد وزير صـلاح الدين بدا من الادعان لرغبته، فكتب إلى ابن سناء الملك نائبه بمصر يوصيه خيرا بالضيف الوافد عليه.

البغدادي في مصر :

ومما لا جدال فيـه أن هدف عبد اللطيف البغـدادي الأول من هذه الزيارة إلى مصر كان علميا بالـدرجة الأولى ويكمن في لقاء ثلاثة علماء القـاهـرة الذين ذاعت شهـرتهم في الآفـاق، ورغب في التعـرف عليهم والجلـوس إليهم والاستفـادة من علمهم(18)، رغم المدة الطـويلـة التي قطعهـا البغـدادي في الـدرس والقـراءة والتحصيل وفي مجال التأليف والتـدريس أيضا ممـا يؤكـد شدة تعلق البغـدادي بالعلم ورغبتـه في الاستزادة والاستفـادة حتى بعد أن أصبح مؤهلا للجلـوس للتدريس والتعليم وقد عبر البغـدادي عن الغرض من هذه الـزيارة وكشف عن طموحـه وتطلعاتـه إلى الجديد في ميـدان العلم في هـذه العبارة : «فلما دخلت القاهـرة جاءني وكيله وهـو ابن سناء الملك... فأنـزلني دارا قد أزيحت عللها، وجاءني بدنانير وغلة ثم مضى إلي أرباب الدولة وقال: هـذا ضيف القاضي الفـاضل فدرت الهدايـا والصلات من كل جـانب. وكان كل عشرة أيام أو نحوها تصل تـذكرة القاضي الفاضل إلى ديوان مصر بمهمات الـدولة وفيهـا فصل يـؤكد الـوصيـة في حقي. وأقمت بمسجد الحاجب لؤلؤ رحمه الله أقرىء.

---

18) د. محمد توفيق بلبع، المرجع السابق ص.174.

وكـان قصدي في مصر ثـلاثة أنفس يـاسين السيميائي والـرئيس موسى بن ميمـون اليهودي وأبو القاسم الشـارعي، وكلهم جاؤوني. أما ياسين فوجـدته محاليا كذابا، مشعبذا يشهد للشـاقاني بالكيمياء ويشهد لـه الشاقـاني بالكيميـاء. ويقول عنـه أنه يعمـل أعمالا يعجز مـوسى ابن عمـران عنها. وأنـه يحضر الـذهب المضروب حتى شـاء، وبأي مقدار شاء وبأي سكة شاء وأنه يجعل ماء النيل خيمة ويجلس فيه أصحـابه تحتهـا وكان ضعيف الحال. وجاءني مـوسى فوجـدته فاضـلا في الغاية قـد غلب عليه حب الـرياسة. وخـدمة أرباب الـدنيا وعمل كتـابا في الطب جمعه مـن الستة عشر لجالينوس ومـن خمسة كتب أخرى وشرط أن لا يغير فيه حرفا إلا أن يكون واو عطف أو فاء وصل.

وإنما ينقل فصولا لا يختـارها، وعمل كتـابا لليهـو دسماه كتاب الـدلالة، ولعن من يكتبـه بغير القلم العبراني ووقفت عليـه فـوجدتـه كتـاب سـوء يفسـد أصـول الشرائع والعقائـد بما يظـن أنـه يصلحهـا.

وكنت ذات يوم بالمسجد وعندي جمع كثير فدخل شيخ رث الثياب، نير الطلعة مقبـول الصورة فهابـه الجمع ورفعوه فـوقهم، وأخذت في إتمام كلامي فلما تصرم المجلس جاءني أمام المسجد وقال: أتعرف هذا الشيخ هذا أبو القاسم الشارعي فاعتنقته وقلت أياك أطلب فأخذته إلى منزلي وأكلنا الطعـام وتفاوضنا الحديث فوجـدته كما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين سيرته سيرة الحكماء العقلاء وكذا صورته وقد رضي من الدنيا ببرض(19) لا يتعلق منهـا شيء يشغلـه عن طلب الفضيلـة ثم لازمني فوجدته فيما بكتب القـدماء وكتب أبي نصر الفارابي ولم يكن لي اعتقاد في أحد من هؤلاء لأني كنت أظن أن الحكمة كلها حازها ابن سينا وحشاها كتبه وإذا تفاوضنا الحديث **أغلبه بقوة الجدل وفضل اللسن، ويغلبني بقـوة الحجة وظهـور المحجة** وأنا لا تلين قنـاتي لغمزه، ولا أحيـد عن جادة الهوى والتعصـب برمـزه فصار يحضرني

19) ابن أبي أصبيعة، ص.688 ـ (ببرض بمعنى القليل).

شيئا بعد شيء من كتب أبي نصر والاسكندر ثامسطيوس يونس نفاري(20).

ولا شك أن اتصال البغدادي بالرئيس موسى بن ميمون والاطلاع على مؤلفاته الطبية ودراستها وفهمها قد كان له أثاره الواضحة في زيادة حصيلة البغدادي العلمية وفي الصناعة الطبية، كل ذلك أهله لتدريس الطب والاشتغال بالتطبيب في البلاد التي زارها بعد ذلك(21).

والغريب في الأمر أن رحلات عبد اللطيف البغدادي لم تتوقف عند هذه الزيارة الأولى لمصر، بدليل النصوص التاريخية التي تذكر أنه غادرها بعد أربعة عشر شهرا تقريبا، فتوجه نحو بلاد الشام قصد لقاء البطل صلاح الدين الأيوبي للمرة الثانية، بعد أن أخبره أنه عقد صلحا مع الصليبيين في 20 شعبان من سنة 588هـ. فانتقل إلى مدينة القدس، حيث حظي بلقاء السلطان.

وكتب وصفا عن القدس أظهر فيه حرصه على تحصين المدينة وترميمها وتجهيز حاميتها بالعدة والعتاد لمواجهة أخطار الصليبيين الذين ما فتؤوا يهددونها.

وخلال هذه الزيارة حظي بحضور مجلس صلاح الدين وقال فيه بأنه كان «مجلسا حفلا بأهل العلم يتذاكرون في أصناف العلوم وهو يحسن الاستماع والمشاركة»، وذكر أنه أمر أن يخصص له ثلاثين دينارا كل شهر من ديوان المسجد الجامع بدمشق، واقتدى به أبناؤه به في هذه المكرمة ومنحوه بدورهم رواتب أخرى فكان مجموع ما كان يتحصل عليه مئة دينار شهريا(22).

ثم غادر البغدادي بيت المقدس إلى دمشق حيث أتخذ في مسجدها الجامع مجلسا لتعليم الناس واستمر يمارس هذه المهنة العلمية إلى أن

---

20) د. محمد توفيق بلبع، ص 174، 175.

21) عبد الرحمن بدوي، موقف الدين البغدادي حياته ومؤلفاته وفلسفته (نشر المجلس الأعلى لرعاية الفنون والأدب والعلوم الاجتماعية القاهرة 1963 ص.2717.

22) د. محمد بلع، نفس المرجع السابق ص.175 ـ 176.

قدم عليها السلطان صلاح الدين الذي عرض وتوفي بها في 27 من شهر صفر سنة 589هـ.

وكان لهذا الحدث أثره العميق في نفسية هذا الرحالة حيث عبر عنه في ـ كلمات تبين تأثره العميق وصدق عاطفته الجياشة فقال:

«ووجد الناس عليه شبيها بما يجدونه على الأنبياء وما رأيت ملكا حزن الناس بموته سواه لأنه كان محبوبا، يحبه البر والفاجر والمسلم والكافر».

ولكن البغدادي لم يطب له البقاء في دمشق، لا سيما بعد أن ظهر النزاع على السلطة والملك بين ورثه صلاح الدين من أولاده وأخواته، فانتهز فرصة حضور العزيز عثمان سلطان مصر بجيوشه للاستيلاء على ملك أخيه الأفضل نور الدين صاحب دمشق لسوء سيرته وعاد معه بعد أن تمت المصالحة بين الأخوين، ومن حسن الصدف أن ألم بالعزيز عثمان مرض فجأة.

ومن المحتمل جدا في هذه الظروف أن العزيز عثمان كان في أشد الحاجة إلى طبيب مثل البغدادي يرافقه في الطريق، وهكذا عاد الشيخ الطبيب إلى مصر في شهر شعبان سنة 589هـ، وهناك استقر بالقاهرة وكافأه السلطان الأيوبي وخصص له عطاء من بيت المال، وفي القاهرة حاضرة الفاطميين التقى البغدادي بأستاذه القديم أبو القاسم الشارعي وظل يلازمه حتى وفاته، واتخذ لنفسه مجلسا علميا في الأزهر الشريف حيث يليق بمكانته وشهرته التي اخترقت الآفاق، خصوصا وأن هذا المكان يوافق طموحه ورغبته الفياضة إلى العلم والعلماء، وقد دون كل ذلك فقال: «وأقمت مع الشيخ أبي القاسم يلازمني صباح مساء إلى أن قصى نحبه، وكانت سيرتي في هذه المدة أني أقرىء الناس بالجامع الأزهر من أول النهار إلى نحو الساعة الرابعة وسط النهار يأتي من يقرأ الطب وغيره وآخر النهار أرجع إلى الجامع فيقرأ قوم آخرون، وفي الليل اشتغل مع نفسي ولم أزل على ذلك إلى أن توفي الملك العزيز»(23).

---

23) الإفادة والاعتبار... ص.689.

وهكذا اضطر البغدادي إلى البقاء في مصر لعدة سنوات أخرى بعد وفاة الملك العـزيز إلى سنة 600هـ / 601هـ لارتباطـه بإنجاز بعض الأعمال وربما كـان السبب الذي شجعـه على البقـاء تعرض المنطقـة لحالة من الاضطـرابات وعدم الاستقـرار بسبب الحروب والصراعات التي نشبت بين السـلاطين والحكـام الـذين حـاول كل منهم اقتطـاع أملاك جاره أو توسيع رقعة دولته على حساب الآخرين(24).

ومن تتبعنا لسيرة عبد اللطيف البغدادي وتنقلاته عبر مدن الشرق الإسلامي لاحظنـا كيف أن هذا الـرحالـة كان يل الاستقـرار في مكان واحد مـدة طويلة، فرحـل إلى مصر في ركاب العزيز سلطـانها لما جاء لحصار الأفضل أخيه في مدينة دمشـق في حملة فاشلة، وعاد في مصر إلى مصاحبة الشارعي حتى توفي(25).

والملاحظ أيضا أن عبـد اللطيف كان حـريصا على تـدوين سيرته ونشاطـاته العلمية أينما حل وأقـام، يتضح ذلك فيما سجله عن فترة إقـامته بـالقاهرة حيث قال: «وكـان سيرتي في هذه المرة أني أقـرئ الناس بالأزهر(26) من أول النهار إلى نحو الساعة الرابعة. وسط النهار يأتي من يقرأ الطب وغيره، وآخر النهار أرجع إلى الجامع الأزهر فيقرأ قوم آخرون. وفي الليل أشتغل مع نفسي. ولم أزل على ذلك إلى أن توفي الملك العزيز، وكان شابا كـريما شجاعا كثير الحياء لا يحسن قول لا. وكـان مع حـداثـة سنـه وشرخ شبـابـه كـامـل العفـة عن الأمـوال والفروج»(27).

وطبقـا لما دونه ابن أبي أصيبعـة مـن أخبـار في كتـابه السـالف الـذكر، يكـون عبد اللطيـف البغـدادي قـد قرر السفـر وشد عصـا

24) د. بلبع... 177.

25) يقول هـذا الشأن : «وأقمت مع الشيخ أبي القـاسم يلازمني صبـاح مساء إلى أن قضى نحبه. ولما اشتـد مرضـه وكان ذات الجنب عـن نزلة مـن رأسه وأشرت عليـه بدواء...» عيون الأنباء... ص.689.

26) شيد الجامع الأزهر القائد الفاطمي جوهر الصقلي سنة 359هـ وأتمه بعد عامين أي سنة 361هـ / 972م.

27) ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق ص.689.

الترحال على الرغم مما حظي به من الرتب والجريات من أبناء صلاح الدين، ولعل الباعث على مغادرة مصر، هو الظروف السياسية التي أحاطت بها لا سيما عقب استيلاء السلطان الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب على الديار المصرية ومعظم بلاد الشام والمشرق، وتفرق أبناء صلاح الدين وانتزاع ملكهم.

- وفاته :

وفي خضم هذه الأحداث توجه هذا الرحالة إلى القدس وأقام بها مدة ودرس بالجامع الأقصى، ومنها إلى دمشق في سنة أربع وستمائة (604هـ)، ونزل بالمدرسة العزيزية بها وشرع في التدريس وهناك اشتهر بصناعة الطب وصنف فيها كتبا كثيرة.

وتنقل بعد ذلك بين حلب وبلاد الروم(28). إلى أن استقر به الحال في بغداد التي غاب عنها خمسا وأرعين سنة حيث وافته المنية سنة 629هـ(29).

- مؤلفاته :

من المفيد جدا ونحن بصدد دراسة نتائج رحلة البغدادي إلى مصر، أن نعطي صورة ولو مختصرة عن نشاطه الفكري وإنتاجه العلمي الذي شمل ميادين كثيرة لا سيما الطب والحديث والتفسير، وكانت نتيجة وثمرة أصيلة للرحلة والتنقل بين حواضر الشرق الإسلامي التي زخرت بالعلم والعلماء وصارت مراكز إشعاع علمي وفكري فقد وصل إلينا مجموعة من التآليف والمقالات والرسائل التي دلت على اتساع أفق ثقافة المؤلف وغزارة إنتاجه العلمي في علوم ذلك العصر.

28) أقام بها عدة أعوام في خدمة الملك علاء الدين داوود بن بهرام صاحب أزربجان، ابن أبي أصيبعة.... ص.691.

29) نفس المصدر... ص.691.

فتراوح إنتاجه بين الفقه والحديث واللغة والتفاسير مع ميل شديد إلى دراسة الطب والتشريح والأقر بدين، ومن غير شك فهي مرآة صادقة وصدى كبير لعلمه الذي ترك بصمات واضحة في كل مدينة أقام فيها أو مدرسة علم بها، ونعرف من مؤلفاته عشرات الكتب والمصنفات التي ذكرها ابن أبي أصبيعة في سفره «عيون الأنباء في طبقات الأطباء».

وليس المجال هنا، مجال استعراض هذا التراث بكامله،، فذلك يخرج عن الموضوع الذي حددنا لبحثنا، وإنما نشير فقط إلى بعض الأمثلة الرائعة.

ففي مجال الحديث وتفسير القرآن وضع مصنفات كبيرة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر، كتاب غريب الحديث (جمع فيه غريب أبي عبيد القاسم بن سلام، وغريب ابن قتيبة وغريب الخطابي) كتاب المجرر من غريب الحديث.

بالإضافة إلى مؤلفه (كتاب الواضحة في اعراب الفاتحة)، ومسألة في قوله تعالى: ﴿**إذا أخرج يده لم يكد يراها**﴾ وكتاب في الذات والصفات الذاتية الجارية على ألسنة المتكلمين.

أما بالنسبة لما أنجزه في النحو واللغة فنذكر : كتاب ذيل الفصيح وكتاب خمس مسائل نحوية، إضافة إلى مؤلفه: الحواشي علي كتاب الخصائص لابن جني.

وفي التاريخ له مقالتان هما : كتاب أخبار مصر الكبير وأخبار مصر الصغير. وترجمة كتاب «الافادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر» وقد فرغ من تأليفه بالبيت المقدس سنة 603هـ، هذا علاوة على كتاب تاريخ (تضمن سيرته ألفه لولده شرف الدين يوسف).

ويبدو أن كثرة تآليفه وغزارة إنتاجه كانت في الطب والعلوم المساعدة له، ونظرا لتنوع موضوعاتها فقد أرتيأينا إثباتها فيما يلي:

1 ـ شرح كتاب الفصول لأبقراط.

2 ـ شرح كتاب المعرفة للأبقراط.

3 ـ اختصار شرح جالينوس لكتب الأمراض الحادة لأبقراط.
4 ـ اختصار منافع الأعضاء لجالينوس.
5 ـ اختصار كتاب الحيوان لارسطاصاليس.
6 ـ اختصار كتاب الجنسين.
7 ـ كتاب في آلات التنفس وأفعالها وهي ست مقالات ـ مقالة في قسمة الحميات وما تقوم به كل واحد منها وكيفية تولدها.
8 ـ كتاب النخبة وهو خلاصة للأمراض الحادة.
9 ـ اختصار كتاب الحميات للاسرائيي.
10 ـ اختصار كتاب البول للاسرائيي.
11 ـ اختصار كتاب النبض للاسرائيي.
12 ـ مقالة في أحد عشر بابا في حقيقة الدواء والغذاء ومعرفة طبقاتها وكيفية تركيبها.
13 ـ مقالة في المبادىء لصناعة الطب.
14 ـ اختصار كتاب الأدوية المفردة لابن وافد.
15 ـ اختصار كتاب الأدوية المفردة لابن سمحون.
16 ـ كتاب كبر في الأدوية المفردة.
17 ـ مختصر الحميات.
18 ـ كتاب الكفاية في التشريح.
19 ـ كتاب الرد على ابن الخطيب في شرح بعض كلبيات القانون.
20 ـ مقالة في الرد على كتاب علي بن رضوان المصري في اختلاف جالينوس وارسطا طاليس.
21 ـ مقالة في الحواس.
22 ـ كتاب في ميزان الأدوية المركبة من جهة الكميات.
23 ـ كتاب النصيحتين للأطباء والحكماء.

تلك بعض العينات من مؤلفاته الكثيرة التي لا يتسع المجال لذكرها جميعا، لذلك نكتفي بالإحالة على ابن أبي أصيبيعة لمن أراد المزيد من الاطلاع على تصانيف عبد اللطيف البغدادي.

دوافع الرحلة وأهميتها :

لا وجه للشبه بين دوافع الرحالة المسلمين إلى الرحلة في الشرق الإسلامي في القرن السادس وبداية السابع الهجريين، وبين دوافع رحلة عبد اللطيف البغدادي إلى مصر. خرج هذا الرحالة إلى الرحلة «كطالب علم» وأستاذ قد أثر السفر والترحال لتعلم العلوم وحضور مجالس وحلقات الدرس مع أشهر علماء ذلك العصر، وكانت الرغبة تحدوه في هذا السبيل معنى ذلك أن سبب الرحلة المباشر هو إذن الرغبة الملحة الرامية إلى تحصيل المعارف العلمية وترتبط الرحلة كما ترتبط العلوم والمعارف في ذهن البغدادي.

ويظهر هذا الارتباط من كلام المؤلف نفسه حين يقول: «ولما كان في سنة خمس وثمانين وخمسمائة حيث لم يبق ببغداد من يأخذ بقلبي ويملأ عيني، ويحل ما يشكل علي دخلت الموصل فلم أجد فيها بغيتي لكن وجدت الكمال بن يونس(30) جيدا في الرياضيات والفقه متطرفا من باقي أجزاء الحكمة قد استغرق وقته حب الكيمياء وعملها حتى صار يستخف بكل ما عداها. واجتمع إلي جماعة كثيرة، وعرضت علي مناصب فاخترت منها مدرسة ابن مهاجر المعلقة ودار الحديث، وأقمت بالموصل صفة في اشتغال دائم متواصل ليلا نهارا»(31).

وفي فقرات تالية يؤكد البغدادي أن دواعي السفر من وإلى كانت دائما بسبب العلم والرغبة في جلب المعارف، والتعمق أكثر.

وفي القدس وعكا اجتمع بالقاضي الفاضل الذي سأله عن قوله تعالى: ﴿**إذا جاؤك وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها**﴾ أين جواب إذا. وأين جواب لو في قوله تعالى: ﴿**ولو أن قرآنا سيرت به الجبال**﴾ وعن مسائل كثيرة. وقال لي ترجع إلى دمشق وتجري عليك الجرايات

30) كان أحد علماء الحساب والفقه، ولد بالموصل وتعلم في المدرسة النظامية ببغداد وعلم في كمالية الموصل - ابن أبي أصبيعة هامش 1. ص.686.

31) ابن أبي أصبيعة، المصدر السابق. ص.686.

فقلت أريد مصر. فقال السلطان مشغول القلب يأخذ الفربح عكا وقتل المسلمين بها فقلت لابد لي من مصر...»(32).

وقد أبان البغدادي السبب من زيارة مصر : «وكان قصدي في مصر ثلاثة أنفس ياسين السيميائي والرئيس موسى بن ميمون اليهودي وأبو القاسم الشارعي». وكلهم علماء حازوا شهرة كبيرة.

وهكذا كان البغدادي دائم التنقل من مدينة إلى مدينة قصد الاستزادة من العلم والاطلاع على آراء العلماء مهما كانت مرابتهم «وكلما أمعنت في كتب القدماء أزدادت فيها رغبة وفي كتب ابن سينا زهادة وأطلعت على بطلان الكيمياء وعرفت حقيقة الحال في وضعها»(32).

وكانت وظيفة البغدادي في القاهرة هي تعليم الناس بالجامع الأزهر، ومن الفقرات السابقة يتضح بجلاء أن رحلة عبد اللطيف البغدادي إلى مصر إنما كانت تلبية للعلم والتعليم ونشر المعارف.

أما عن أهمية الرحلة فقد احتلت مكانة فريدة في تاريخ أدب الرحلات عند المسلمين، وتاريخ الكشوف العلمية.

التي حددت المسار العلمي الصحيح، وبواسطة تلك الكشوف استطاع علماء الإسلام بالدليل العلمي المبني على التجربة والقياس والفحوص الميدانية الدقيقة من تفنيد أقوال ونظريات علماء اليونان، والتي كانت حتى ذلك الحين بمثابة حقائق مسلم بها لا تقبل النقاش. ومن هذه الزاوية تظهر لنا بجلاء أهمية رحلة البغدادي التي كانت الحد الفاصل بين عهدين، وبداية لتطور جديد لا سيما في ميدان الطب وعلم وظائف الأعضاء (التشريح).

ومع أن القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي في المشرق كان بداية تدهور الحركة العلمية بسبب ما تعرض له من حروب الصليبيين وحملات المغول التي أخرت بالعلم والعلماء(33)، غير أنها لم

32) ابن أبي أصيبعة. ص.688.

33) قضت حملات المغول على المظاهر العلمية، فقد ألقوا بآلاف المخطوطات في نهر دجلة كما خربوا البلاد وقتلوا العباد.

تمنع من ظهور شخصيات علمية أمثال عبد اللطيف البغدادي، وابن النفيس. فقد رفع هذا الأخير لوا الثورة على الفكر القديم(34) ممثلة في علم التشريح.

ورغم أن ميدان الرحلة ومحور اهتمامها كان مصر، لكنها شملت في أخبارها بلاد الشام والعراق.

وهكذا صارت الرحلة من أهم المصادر عن تاريخ مصر في القرن السادس للهجرة ومن أول ما يعتمد عليه في وصف أحوالها العمرانية والاجتماعية والصحية والاقتصادية والأثرية.

وقد حرص الرحالة على أن يرسم صورة دقيقة لتلك المظاهر، وأن يصور عادات سكانها وتقاليدهم وحياتهم الاجتماعية تصويرا دقيقا قد لا نجده في مصدر آخر بهذه الكيفية.

موضوع الكتاب :

إن قصة كتاب «الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر» لموفق الدين عبد اللطيف البغدادي، ترجع أحداثها ووقائعها إلى الفترة التي قضاها بالقاهرة في كنف أبناء صلاح الدين الأيوبي معلما وطبيبا.

وخلال تلك الفترة وقع الغلاء العظيم والموت، وشاهد البغدادي ذلك الغلاء الفاحش والقحط والوباء والشدة العظمى التي ألمت بمصر فيما بين عامي 595 ـ 598هـ / 1189 ـ 1201م(35)، فكان لتلك الأحداث المؤلمة أثرها على نفسية الطبيب الرحالة فكانت الدافع المباشر الذي حرك همم المؤلف إلى تأليف هذا الكتاب ضمنه أشياء شاهدها أو سمعها ممن عاينها تذهل العقل على حد تعبير ابن أبي صبيعة(36). ويدل هذا على أن الكتاب كان متوفرا في القرن السابع الهجري، وأن

34) د. توفيق الطويل، لقطات علمية من تاريخ الطب العربي ص.271.

35) د. زكي محمد حسن، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ـ دار الرائد العربي ـ بيروت 1981. ص108.

36) عيون الأنباء في طبقات الأطباء ص.689.

ابن أبي أصبيعة يكـون قد أطلع على بعض نسخـه. والطبعة العـربية للكتـاب هـي التي نشرها.... في طبعـة جيـدة صدرت سنـة 1860م في مطبعة المجلة الجديدة بالقاهرة.

والكتاب في مجمـوعـة عبارة عن مقـالتين تحتـوي كل واحـدة على فصول.

المقالة الأولى ستة فصول عالجت موضوعات متنوعة منها:

الفصل الأول : في خواص مصر العامة.

الفصل الثاني : في خواص مصر النباتية.

الفصل الثالث : فيما تختص به من الحيوان.

الفصل الرابع : في اختصاص ما شوهد من آرثاها القديمة.

الفصل الخامس : فيما شوهد بها من غرائب الأبنية والسفن.

الفصل السادس : في غرائب أطعمتها.

أما المقالة الثانية فاشتملت على ثلاثة فصول.

الفصل الأول : في النيل وكيفية زياداته وإعطاء علل ذلك وقوانينه.

الفصل الثاني : في حوادث سنة خمس وتسعين وخمس ماية.

الفصل الثالث : في حوادث سنة ثمان وتسعين وخمس ماية.

يعتبر هـذا الكتاب أهم مـا وصل إلينـا من مـؤلفات عبـد اللطيف البغدادي، وفيه وصف رحلتـه إلى وادي النيل. وأصبحت هذه المرحلة اسما على علم، وقـد انصرف البـاحثـون والمؤرخـون إلى دراستهـا والتعريف بها، ونظرا لما تمتاز به على اختصارهـا ـ بدقة الوصف عن مختلف المظاهـر الاجتماعية والعمـرانية والاقتصـادية والتي تتجلى في خواص مصر العامة وما تنفرد به من النبات والحيوان، وما تزخر بها أرضها من الآثار المصرية القديمة، فقد ترجمت إلى اللغات الأجنبية.

يختلف كتاب «الإفـادة» عن مؤلفات الـرحلات السابقـة من أوجه عديدة فالمؤلف يتخذ من موضوع (رحلته) موقف الدارس الاجتماعي والطبيب الفاحص والخبير الأثري لا موقف الرحالة السائح.

ويقتصر في كتابه على وادي النيل، وتكمن أهميته في أنه أول مؤلف عـربي يميط اللثام عن مســائل طبيـة ترتبـط أساســا بعلم التشريح ويكشف بأسلوب ما للآثار من قيمة حضارية وتاريخية يجب الحفاظ عليها فهي تراث أمـة عدا الإشارات الواضحــة التي تخللت حديثه عن نهب الآثار والقبور بحثا عن الكنوز وهكذا استغرقت الآثار الفرعونية القسط الأكبر من اهتمام عبـد اللطيف البغـدادي أثناء إقــامتـه الأولى بمصر.

وخلاصة القول أن كتاب «الإفادة والاعتبـار...» يمثل مصدرا أثريا وتاريخيـا وعلميا يستحق الاهتمام من قبل البـاحثين لما يشتمل عليه من مادة علميـة يحتاج إليهـا عالم الآثار، وعـالم الاجتماع والاقتصاد والطبيب والمهندس والمؤرخ الخ...

وسوف نـركز دراستنـا على جانبين هــامين من رحلــة البغدادي، الجانب الأثري ثم الجانب العلمي المتمثل في المســائل الطبية التي أظهر فيها قـوة الملاحظة الحسيـة والتجربـة الميدانيـة، وربما يقـتضي منـا السيــاق الإشــارة إلى بعـــض الجـــوانب الأخـــرى ذات الاهتمـــام المشــترك.

ـ المنهج التحليلي :

نرى أن الـرحالــة عبد اللطيف البغـدادي قد نقل لنـا صورا حيـة وصــادقـة عــن المجتمع المصري وعن عــادات السكـان وتقــاليـدهم وأحــوالهم النفسية ومـآسيهم أثنــاء الشــدة العظمى في نهاية القــرن السادس الهجـري الثاني عشر الميـلادي، في فترة تعتبر بحق من أدق وأحـرج الفترات التي مـرت بها مصر، حيث كانت تمثـل قوة الجهـاد المقدس ضد الصليبين بزعامة صلاح الدين الأيوبي.

كان وصف البغدادي وتصويره الاجتماعي لتلك الأزمة الاقتصادية آنـذاك، إنما هو مســاهمة في نقل الخبر، وفي وصفـه لمختلف المظاهـر والخواص التي تختص بها مصر، تبرز القيمـة المنهجيـة للرحلـة. وفي دراستـه تلك، نجــد بأن البغـدادي كـان يعني في وصف مصر بست نواح:

خواص مصر العامة ـ خواصها النباتية والحيوانية ـ المشاهد الأثرية القديمة ـ غرائب الأبنية والسفن والأطعمة ـ فيضان النيل ـ حوادث 595 و598هـ

وتضم المشاهد، الأهرام والمقابر والمدافن وأبو الهول والأعمدة والأصوار، الهياكل البشرية وصور الموتى الخ...

أما غرائب الأبنية فتشمل البيوت والقصور والحمامات. هذا وإن لم يصف البغدادي كل ما ذكرنا. وفق هذه العناصر إلا أنه تعرض بعض الضواحي تارة وأهمل البعض الآخر تارة أخرى.

كما نجد في الرحلة عموما حركية، تظهر خاصة في مخالطة الناس ومسألتهم.

لقد استعدى انتباهي وأنا أطالع كتب الرحالة، أنه نادرا ما خلت كتابات هؤلاء الرحالة المسلمين عامة، والبغدادي على وجه الخصوص، من الإشارة إلى المسائل العلمية والطبية وما يرتبط من تقاليد وعادات.

وهذا ما يلمسه المتصفح لكتاب «الإفادة والاعتبار...» لموفق عبد اللطيف البغدادي الذي ضمنه وصف وادي النيل، حيث يقف بلا شك على المعلومات القيمة عن أحوال مصر العمرانية والاجتماعية والاقتصادية والأثرية والصحية في القرن السادس للهجرة.

تحدث البغدادي في كتابه السالف الذكر بأسلوب العالم القدير الذي يتحرى فيه الدقة والتمحيص في كل ما ينقله أو يصفه من مشاهداته، فقد أفادنا عن الخصائص العامة مصنفا نباتاتها وفواكهها وحيوانتها وآثارها العجيبة وهندسة أبنيتها(37).

ولكي نقف على المنهج الوصفي والتحليل الذي اتبعه في وصف مصر وما اشتملت عليه من عجائب وغرائب. فيما يلي نماذج مختصرة:

37) د. زكي محمد حسن، الرحالة المسلمون... ص.111.

2 ـ نماذج مختارة من الرحلة :

أ ـ هندسة الأبنية : «وأما أبنيتهم ففيها هندسة بارعة وترتيب في الغاية، حتى أنهم قلما يتركون مكانا غفلا خاليا عن مصلحة. ودورهم أتيح وغالب سكانهم في الأعالي ويجعلون منافذ منازلهم تلقاء الشمال والرياح الطيبة.

وقلما نجد منزلا إلا وتجد فيه بأذاهيج، وبأذاهيجاتهم كبار واسطة للريح عليها تسلط ويحكمونها غاية الأحكام حتى أنه يقوم على عمارة الواحد منها مائة دينار إلى خمسة مائة، وإن كانت بأذاهيجات المنازل الصغار يغرم على الواحد منها دينار وأسواقهم وشوارعهم واسعة وأبنيتهم شاهقة ويبنون بالحجر النحيت والطوب الأحمر وهو الآجر وشكل طوبهم على نصف طوب العراق.

ويحكمون قنوات المراحيض حتى أنه تخرب الدار والقناة قائمة ويحفرون الكنف إلى المعين فتعبر عليها برهة من الدهر طويلة ولا يفتقر إلى كسح وإذا أرادوا بناء ربع أو دار ملكية أو قيسارية استحضر المهندس وفوض إليه العمل فيعمد إلى العرصة وهي تل تراب أو نحوه فيقسمها في ذهنه ويرتبها بحسب ما يقترح عليه ثم يعمد إلى جزء جزء من تلك العرصة فيعمره ويكمله بحيث ينتفع به على انفراره ويسكن ثم يعمد إلى جزء آخر ولا يزال كذلك حتى تكمل الجملة بكمال الأجزاء من غير خلل ولا استدراك»(38).

ب ـ غرائب الأطعمة عند البغدادي :

ومن مصر أيضا نجد الرحالة المؤرخ الطبيب عبد اللطيف البغدادي يقدم لنا صورة دقيقة عما شاهده من غرائب الأطعمة فكتب يقول: «فمن ذلك النيدة وهي بمنزلة الخبيص حمراء إلى السواد وهي حلوة لا في الغاية وتتخذ من القمح بأن ينبت ثم يطبخ حتى يخرج نشأه وقوته في الماء. ثم يصفى ويطبخ ذلك الماء حتى يغلظ ثم يذر عليه الدقيق ويعقد ويرفع فيباع بسعر الخبز وهذه تسمى النيدة المعقودة

38) عبد اللطيف البغدادي، الإفادة والاعتبار... ص.52.

وهي أغلى من الأولى وأعلى ويختصون أيضا باستخراج دهن بزر الفجل والسلجم والخسش، ويستصبحون به ويعملون منه الصابون وصابونهم رطب أحمر وأصفر وبه شبهت الصابونية وإليه نسبت.

وأما أطبختهم فالحوامض منها والسوازج هي المعهودة أو قريبة من المعهودة.

وأما المحليات فغريبة وذلك أنهم يتخذون الدجاج بأصناف من الحلويات وسبيل ذلك أن تسلق الدجاج ثم ترمى في الجلاب ويلقى عليه بندق مدقوق أو فستق أو خشيخاش أو بزر دجلة أو ورد يطبخ حتى ينعقد ثم يتبل ويرفع وتسمى هذه الأطبخة بالفستقية والبندقية والخشخاشية والوردية.

أما الحلويات المتخذة من السكر فأصناف كثيرة يؤدي استقصاؤها إلى الخروج عن الغرض ويحوج إلى وضع كتاب مفرد.

....ومن غريب ما يتخذونه رغيف الصينية وصفته أن يؤخذ من الدقيق الحواري ثلاثون رطلا بالبغدادي ويعجن مع خمسة أرطال ونصف سيرجا عجن خبز الخشكان ثم يقسم بقسمين ويبسط أحدهما رغيفا في صينية نحاس قد اتخذت لذلك بسعة قطرها نحو أربعة أشبار ولها عرى وثيقة ثم يعي على الرغيف ثلاثة أخرفة مشوية محشوة الأجواف بلحم مدقوق ومقلو بالسيرج والفستق المهروس والأفاوية العطرة الحارة كالفلفل والزنجبيل والقرفة والمصطكي والكزبرة والكمون والهال والجوزة ونحن ذلك ويرش عليم ماء ورد قد ريف فيه مسك ثم يجعل على الخرفان...»(39).

جـ ـ مظاهر المجاعة :

ولم يفت البغدادي أن يلاحظ ما تركه القحط من آثار سلبية على حياة الناس بين سنتي 595 ـ 598هـ واصفا إياه بقوله: «ودخلت سنة

39) الإفادة والاعتبار... ص.55 ـ 56.

سبع (597هـ) مفترسة أسباب الحياة وقد يئس الناس من زيادة النيل وارتفعت الأسعار وانحطت البلاد وأشعر أهلها البلاء وهرجوا من خوف الجوع وانضوى أهل السواد والريف إلى أمهات البلاد وانجلى كثير منهم إلى الشام والمغرب والحجاز واليمن وتفرقوا في البلاد...

واشتد بهم الجوع ووقع فيهم الموت وعند نزول الشمس.

الهواء ووقع المرض والموتان واشتد بالفقراء الجوع حتى أكلوا الميتات والجيف والكلاب والبعر والأرواث ثم تعدوا ذلك إلى أن أكلوا أصغار بني آدم فكثيرا ما يعثر عليهم ومعهم صغار مشويون أو مطبوخون، فيأمر صاحب الشرطة بإحراق الفاعل لذلك والآكل»(40).

هذه صورة صادقة عن أثر الجوع والوباء وتصيد الناس في مصر، وانصرافهم إلى الضلالة والانحراف. إلى أن يقول: «ولو أخذنا نقص كل ما نرى ونسمع لوقعنا في التهمة أو في الهذر. وجميع ماحكيناه مما شاهدناه لم نتقصده ولا تتبعنا فطانه وإنما هو شيء صادفناه اتفاقا بل كثيرا ما كانت أفر من رؤيته لبشاعة منظره»(41).

«ومما شاع أيضا نبش، القبور وأكل الموتى وبيع لحمهم»(42).

د ـ آثار مصر كما يراها البغدادي :

ولم يكن البغدادي سائحا عابرا، بل كان يبحث ويتفهم(43) فنراه مثلا يتحدث عن آثار مصر القديمة محددا أياها بقوله: «أما ما يوجد بمصر من الآثار القديمة فشيء لم أر ولم أسمع بمثله في مثلها فاقتصر على أعجب ما شاهدته.

فمن ذلك الأهرام وقد أكثر الناس من ذكرها ووصفها ومساحتها وهي كثيرة العدد جدا كلها بين الجيرة وعلى سميت مصر القديمة وتمتد في نحو مسافة يومين وفي بوصير منها شيء كثير وبعضها كبار

---

40) الإفادة والاعتبار... ص.62.

41) نفس المصدر... ص.65.

42) نفسه ص.65.

43) د. زكي محمد حسن، المرجع السابق ص.114.

وبعضها صغار، وبعضها طين ولين وأكثرها حجر وبعضها مدرج وأكثرها مخروط آملس...».

وهو خلال الوصف يشير إلى عبقرية المصريين وعلومهم وخبرتهم الدقيقة في هندسة البناء واتقانه، وقدرتهم العجيبة في تحدي عواقل الطبيعة كالرياح والحرارة:

«وقد سلك في بناية الأهرام طريق عجيب من الشكل والاتقان ولذلك صبرت على ممر الزمان بل على ممرها صبر الزمان، فإنك إذا تبحرتها وجدت الأذهان الشريفة قد استهلكت فيها والعقول الصافية قد أفرغت عليها مجهودها والأنفس النيرة فقد أفاضت عليها أشرف ما عندها لها والملكات الهندسية قد أخرجتها إلى الفعل مثلا حتى غاية إمكانها حتى أنها تكاد تحدث عن قومها وتخبرهم بحالهم وتنطق عن علومهم وأذهانهم وتترجم عن سيرهم وأخبارهم وذلك أن وضعها على شكل مخروط يبتدىء من قاعدة مربعة وينتهي إلى نقطة.

ومن خواص الشكل المخروط أن مركز ثقله في وسطه وهو يتساند على نفسه ويتواقع على ذاته ويتحامل بعضه على بعض فليس له جهة أخرى خارجة عنه يتساقط عليها. ومن عجيب وضعه أنه شكل مربع قد قوبل بزوايا مهاب الرياح الأربع فإن الريح تنكسر سورتها عند مصادفتها الزاوية، وليست كذلك عندما تلقى السطح. ولم يفت البغدادي ذكر أهمية شكل مساحة الهرمين وأبعاد كل منهما: «ولنرجع إلى ذكر الهرمين العظمين فإن المساح ذكروا أن قاعدة كل منهما أربع مائة ذراع وذلك كله بالذراع السوداء.

وينقطع المخروط في أعلاه عند سطح مساحته عشرا ذراع في مثلها، وأما الذي شاهدته من حالهما فإن راميا كان ملعنا رمى سهما في قطر أحدهما وفي سمكه فسقط السهم دون نصف المسافة»(44).

44) الإفادة... ص.36 ـ 37 ـ 38.

«وخبرنا أن في القرية المجاورة لها قوما قد اعتادوا ارتقاء الهرم بلا كلفة فاستدعينا رجلا منهم ورضخنا له بشيء فجعل يصعد فيها كما يرقى أحدنا في الدرج بل أسرع ورقى بنعليه وأتوابه وكانت سابقة كنت أمرته إنه إذا استوى على سطحه قاسه بعمامته فلما نزل زرعنا من عمامته مقدار ما كان قاس فكان إحدى عشر ذراعا بذراع اليد ورأيت بعض أرباب القياس قال ارتفاع عمودها ثلثمائة ذراع ونحو سبعة عشر ذراعا يحيط به أربعة سطوح مثلثات الأضلاع طول كل ضلع منها أربعة مئة ذراع وستون ذرعا.

وأرى هذا القياس خطأ ولو جعل العمود أربع مائة ذراع لصح قياسه، وأن ساعدت المقادير توليت قياسه بنفسي» (45).

وأشار البغدادي إلى المغارات الموجودة على ضفة النيل الشرقية جنوبي القاهرة فقال: «وبإزاء الأهرام من الضفة الشرقية مغاير كثيرة العدد كبيرة المقدار عميقة الأغوار متداخلة وفيها ما هو ذو طبقات ثلاث وتسمى المدينة حتى لعل الفارس يدخلها برمحه ويتخللها يوما أجمع ولا ينهبها لكثرتها وسعتها وبعدها المدينة ويظهر من حالها أنها مقاطع حجارة الصوان الأحمر فيقال أنها بالقلزم وبأسوان.

والوصف يحوي عددا لابأس به من مصطلحات البناء والعمارة، مما يمكن الاستفادة منه في عمل ثبت بالمصطلحات الفنية.

وعند هذه الأهرام آثار أبنية جبارة ومغاير كثيرة متقنة وقلما ترى من ذلك شيئا إلا وترى عليه كتابات بهذا القلم المجهول» (46).

وشاهد عبد اللطيف أيضا آبا الهول وأعجب بتناسب وجهه ودقة صنعه فقال: «وعند هذه الأهرام بأكثر من غلوة صورة رأس وعنق بارزة من الأرض في غاية العظم يسميه الناس أبا الهول.

---

45) الإفادة... ص.38.

46) الإفادة... ص.40 ـ يعني بعبارة «القلم المجهول» الكتابة الهيروغليفية.

ويزعمون أن جثته مدفونة تحت الأرض ويقتضي المقياس أن تكون جثته بالنسبة إلى رأسه سبعين ذراعا وفي وجهه حمرة ودهان أحمر يلمع عليه ونق الطراءة وهو حسن الصورة مقبولها عليه مسحة بهاء وجمال كأنه يضحك، تبسما، وسألني بعض الفضلاء ما أعجب ما رأيت، فقلت تناسب وجه أبي الهول»(47).

والمتأمل في أوصاف عبد اللطيف البغدادي لآثار مصر القديمة يحس إحساسا صادقا أنه يقرأ لعالم الآثار، المتمرس بدراستها حيث استعمل الحسن الأثري الذي قد لا نجده عند غيره من الرحالة المسلمين الذين زاروا البلاد ونقلوا لنا بعض المظاهر والعادات دون تحليلها. وهنا تبدو براعة التحليل الدقيق في كل ما شاهده وعاينه. وقد ندهش أكثر عندما نقرأ لهذا الرحالة رأيا صائبا في قيمة الآثار ودورها كمصادر مادية في دراسة تاريخ وحضارة الأمم التي أنجزتها كما يتضح من هذه العبارة التي قال فيها بهذا الخصوص: «ومازالت الملوك تراعي بقاء هذه الآثار وتمنع من العبث فيها والعبث بها وإن كانوا أعداء لأربابها. وكانوا يفعلون ذلك لمصالح منها لتبقى تاريخا يتنبه بها على الأحقاب. ومنها أنها تكون شاهدة للكتب المنزلة فالقرآن العظيم ذكرها وذكر أهلها ففي رؤيتها خير الخبر وتصديق الأثر، ومنها أنها مذكرة بالصبر ومنبهة على المال. ومنها أنها تدل على شيء من أحوال من سلف وسيرتهم وتوافر علومهم وصفاء فكرهم وغير ذلك وهذا كله مما تشتاق النفس إلى معرفته وتؤثر الاطلاع عليه»(48).

وإضافة إلى رأيه في الآثار فقد ذكر أن الناس في زمانه كانوا يخربون الآثار ويكسرون الأصنام، ويدخلون إلى المقابر بحثا عن الكنوز وسعيا وراء الذهب المدفون مع الموتى.

ولم يخط الدكتور زكي محمد حسن عندما قال : «والحق أن ما كتبه البغدادي عن المقابر الأثرية وما يوجد فيها لا يختلف كثيرا عما وصلت إليه الحفائر العلمية في العصر الحاضر... بل أن الفصل

---

47) نفس المصدر ص.40.

48) الإفادة... ص.47 ـ 48.

الطـويل الـذي عرض فيـه لآثـار مصـر فيه مـن دقـة الـوصف وشـدة الاعجـاب ما يبـدو كأنـه بقلـم عالـم مـن علماء الآثـار المحدثـين»(49).

نكتفي بالنماذج السابقة من أوصـاف رحلة البغدادي العلمية التي طبق فيها المنهج الـوصفي التحليلي في مشاهداته ومعاينتـه من الأمور بأرض مصر، خلال المدة التي قضاها هنـاك سائحا ومتجولا ودارسا ومحللا لكل المظاهر العامة من العادات والتقاليد التي أدهشته وأعجب بها. والبغدادي في كل ذلك لم يكن كغيره من الرحـالة ينقل ما يراه أو يسمع به فحسب، إنما كان كالعالم الدارس تستوقفه الظاهرة فيتأملها ويستقرؤهـا مع الملاحظة الحسية التي قادتـه في كثير من الأحيان إلى كشف بعض الأمـور والظـواهـر الصحيـة والطبيـة التي تتصل بعلم التشريح أو علم وظائف الأعضاء، وهو الجانب العلمي الهام في الرحلة والـذي سنحـاول فيما يلي تبيانـه حسب مـا ورد في «الإفـادة والاعتبار...».

هـ ـ البغدادي وعلم التشريح :

يقول الرحالة الطبيب تحت هذا العنـوان : «ومن عجب ما شاهدنا أن جماعـة ممن ينتـابني في الطب وصلـوا إلى كتـاب التشريح فكـان يعسر أفهـامهم وفهمهـم بقصور القـول عن العـيان فأخـذنا أن بالمقس تلا فيه رمم كثيرة فخرجنا إليه فـرأينا تلا من رمم له مسافة طويلـة يكاد يكـون ترابـه أقل من الموتى بـه تحـدس ما يظهـر فهم للعيـان بعشريـن ألفـا فصاعـدا وهم على طبقـات في قـرب العهـد وبعـده.

فشاهدنـا من شكل العظام ومفاصلها وكيفية اتصـالها وتناسبها وأوضاعها مـا أفدنا علما لا نستفيده من الكتب. أمـا أنها سكتت عنها أو لا يفي لفظهـا بالـدلالـة عليـه ما شـاهـدناه مخالفـا لما قيل فيهـا والحسن أقوى دليـلا من السمع، فإن جالينوس وإن كان في الـدرجة

49) د. زكي محمد حسن، الرحالة المسلمون... ص.112.

من التحـــري والتحفظ فيما يبـاشره ويحكيـــه فإن الحسن أصـــدق منه»(50).

يشير عبد اللطيف البغـدادي في العبارة السابقة إلى جماعة من أطباء ذلك العصر درسوا علـم التشريح نظريا كما ورد في كتـاب «التشريح» لجالينوس «GALINUS» فصعب عليهم فهمه من النـاحية العملية، وذلك لانعدام المشاهدة العينية والممارسة التطبيقية.

ولعل ظاهـرة جهل أطبـاء عصره بحقيقـة علم التشريح من جهـة ورغبته الصادقـة كطبيب يحاول فهم زعم أقوال جالينوس ونظـرياته التي استبدت بإعجـاب أطباء العرب وتقديرهم مـن جهة أخرى، ربما كانت هي الدافع المباشر الذي قاده إلى الميدان وزيارة هذا التل الضخم الذي يضم رمم كثيرة مـن العظـام والمفاصل التي تعـد بالآلاف وهي في نفس الوقت بمثابة متـحف الإنسان».

ثم يـواصل البغدادي شرح أدلتـه المادية، كما تـراءت له من هـذه الأكـوام، التي كذبت وفنـدت زعم جـالينوس القـائل: «بأن عظم الفك الأسفل يتكون من عظمين وبمفصل وثيق عن الحنك».

وفي هذا المعنى يقول موضحا خطأ جالينوس ومن تبعه من أطباء العرب: «ثم بعد ذلك يتحيل لقوله مخرج أن أمكن فمن ذلك عظم الفك الأسفل فإن الكل قـد أطبقوا(51) على أنـــه عظمان بمفصـل وثيق عن الحنك وقولنا الكل إنما نعني به هاهنا جالينوس وحده فإنه هو الذي باشر التشريح بنفسه وجعله دأبـه ونصب عليه وصنف فيه عدة كتب معظمها موجود لدينا والباقي لم يخرج إلى لسان العرب.

والذي شـاهدنـاه مـن حال **هذا العضـو أنه عظم واحـد وليس مفصل** ولا درز أصلا واعتبرنـاه ما شـاء الله مـن المرات في أشخاص كثيرة تزيـد على ألفي جمجمة بأصنـاف من الاعتبارات **فلم نجده إلا عظما واحدا** من كل وجـه ثم أننا **استعنا بجماعـة مفترقة اعتبره**

(50) الإفادة والاعتبار... ص.73 ـ 74.

(51) أطبقوا بمعنى أجمعوا.

بحضرتنا وفي غيبتنا فلم يـزيدوا على ما شاهدوه منـه وحكيناه وكذلك في أشياء أخـرى غير هذه وليت مكنتنـا المقادير بـالمساعـدة ووضعنا مقالة في ذلك تحكى في ما شاهدنـاه وما علمنا من كتب جالينوس، ثم أني اعتبرت هذا العظم أيضـا بمدافن بـوصير القديمـة المقدم ذكـرها فوجـدته على ما حكيت ليس فيـه مفصل ولا درز، ومن شأن الدروز الخفية والمفاصل الـوثيقة إذا تقادم عليها الزمان تظهـر وتتفرق وهذا **الفك الأسفل** لا يوجد في جميع أحواله إلا **قطعة واحدة.**

وأما العجز مع العجب ذكر جـالينوس أنه مـؤلف من ستة أعظم ووجدته **أنا عظما واحـدا** واعتبرته بكل وجـه من الاعتبار فوجـدته عظما واحدا ثم أني اعتبرته في جثة أخرىٰ فوجدته ستة أعظم كما قال جالينوس وكذلك وجدته في سائر الجثث على ما قال إلا في جثتين فقط فإني وجدته فيهما عظما واحدا وهو في الجميع موثق المفاصل ولست واثقا بذلك كما أنا واثق باتخاذ عظم الفك الأسفل»(52).

آفاق الرحلة ونتائجها :

فتحت رحلـة عبد اللطيف البغـدادي إلى مصر، رغم المدة القصيرة التي عالجتهـا، في نهاية القـرن السـادس الهجـري ـ الثـاني عشـر الميلادي، آفاقا جـديدة في البحث ودراسة التراث العلمي والفني، وذلك لما تضمنته من المعلومات والأنباء القيمة عن جوانب كثيرة من المجتمع المصري، تاريخيـا وحضاريا لفتت أنظـار الباحثين والمشتغلين في حقل الآثار والتـاريخ والاجتماع والاقتصاد، فضلا عن المهتمين بالـدراسات الطبية وعلم التشريح.

والرحلة التي أودعها عبد اللطيف البغدادي كتابه المعنون: «الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر»، اكتست أهميـة كبيرة بين مصـادر ومـراجع تـاريخ مصر. ومن غير شك فإن المعلومـات القيمة والأوصـاف الدقيقـة التي أتى عليها في هـذا الكتاب جعلته يحتل مكانة معتبرة بين كتب الرحالة المسلمين. ومهما يكن شيء

52) الإفادة والاعتبار... ص.74.

فإن رحلة البغدادي، كشفت عن حقائق كثيرة في تاريخ مصر، يمكن استخلاصها في النقاط التالية:

1 ـ حاول الطبيب الرحالة أثناء مشاهداته وفحوصه التشريحية التي أجراها على مجموعة ضخمة من الهياكل البشرية أن يتوصل إلى معرفة حقيقة ظاهرتين تشريحيتين هما:

ـ هل عظم الفك الأسفل مكون من عظمين أم عظم واحد.؟

ـ هل العجز نفسه يتكون من ستة أعظم أم عظم واحد.؟

وفعلا أثبتت بعد تكرار فحوصه والاستعانة بغيره من العلماء الذين أجمعوا على صدق مشاهداته وصحة نظريته(53) وهي «أن الفك الأسفل لا يوجد في جميع أحواله إلا قطعة واحدة».

وبذلك فند نظرية جالينوس القائلة : «بأن الفك الأسفل عظمان بمفصل وثيق عند الحنك». ولكن االأمر يختلف مع «العجز» فرغم الفحوص التي قام بها البغدادي فإنه لم يثبت عدم صحة نظرية جالينوس التي ترى أن العجز يتكون من ستة أعظم بل نجده مترددا حيث يقول: «وكذلك وجدته في سائر الجثث على ما قال إلا في جثتين فقط... عظما واحدا وهو في الجميع موثق المفاصل ولست واثقا بذلك كما أنا واثق باتخاذ عظم الفك الأسفل».

2 ـ حرص البغدادي على استخلاص حقائقه من مشاهداته وحدها.

3 ـ حرص الرحالة على إظهار عبقرية بناية الأهرام كما تتراءى في أسلوب البناء والقدرة العجيبة على تحدي المحيط.

4 ـ أكدت ملاحظاته لقدرته الفائقة على فهم البعد الهندسي في بناء الأهرام كما يتجلى في قوله: «وذلك أن الأذهان تقصر عن مقدار ما يحتاج إليه في ذلك من علم الهندسة واجتماع الهمة وتوفر العزيمة ومصابرة العمل والتمكن من الآلات والتفرغ للأعمال والعلم بمعرفة أعضاء الحيوان...».

---

53) د. توفيق الطويل، خصائص التفكير العلمي... ص.1100.

مصادر ومراجع البحث

1 ـ **موفق الدين عبد اللطيف البغدادي :**

ـ الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر. مطبعة المجلة الجديدة القاهرة 1860م.

2 ـ **ابن أبي أصبيعة :**

ـ عيون الأنباء في طبقات الأطباء.

ـ تحقيق د. ترار رضا ـ منشورات دار مكتبة الحياة بيروت ـ لبنان 1965م. ص. 683 1 696.

3 ـ **أحمد أبو سعيد :**

ـ أدب الرحلات.

ـ منشورات الشرق الجديد ـ ط 1 بيروت 1961 ص. 140 ـ 142.

4 ـ **د. توفيق بلبع :**

ـ عبد اللطيف البغدادي أضواء جديدة على سيرته ومنهجه التاريخي.

ـ مقال نشر في مجلة عالم الفكر مجلد 16 ـ عدد 3 ـ الكويت 1985.
ص 169 ـ 202.

5 ـ **د. حسين محمد فهيم :**

ـ أدب الرحلات، الكويت 1989.

6 ـ **د. زكي محمد حسن :**

ـ الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، القاهرة. دار الرائد العربي.

ـ بيروت 1981 م.

7 ـ **توفيق الطويل :**
ـ خصائص التفكير العلمي بين تراث العرب وتراث الغربيين
ـ عالم الفكر ـ المجلد الثالث ـ العدد 4. الكويت 1973م. ص 1091 ـ 1128.

8 ـ **توفيق الطويل :**
ـ لقطـات علمية من تاريخ الطـب العـربي. عالـم الفكـر، المجلد الخامس ـ العدد 1 الكويت 1974م ص. 245 ـ 288.

9 ـ **نقولا زيادة :**
ـ لقطـات علمية مـن تاريـخ الطـب العـربي. عالم الفكـر، المجلد الخامس ـ العدد 1 الكويت 1974م ص. 245 ـ 288.

10 ـ **عبد الرحمن بدوي :**
ـ موفق الـدين البغدادي حياته ومؤلفـاته وفلسفته (نشر المجلس الأعلى لرعاية الفنون والأداب والعلوم الاجتماعية). القاهرة 1963.

الرحلة العلمية :

التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا نموذجا

ذ.لمليح سعيد

كلية الآداب ـ مكناس

يقول ابن خلدون : «الرحلة لابد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال».(1)

فالرحلة سبيل لاكتساب العلم والمعرفة في المراكز العلمية المختلفة وأداة تواصل حضاري بمفهومه الواسع.

والجدير بالذكر أن الرحلة عرفت تطورا مهما إبان العصر المريني (668ـ86هـ) / (1269 ـ 1465م). ونذكر من هذه الرحلات : رحلة ابن رشيد السبتي ورحلة العبدري ورحلة ابن بطوطة ورحلة ابن قنفذ القسطنطيني ورحلة ابن خلدون(2) المسماة «بالتعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا»، وهي موضوع هذا العرض.

قبل الشروع في الحديث عن هذه الرحلة لا بأس من طرح بعض الأسئلة:

---

1) مقدمة ابن خلدون، دار القلم بيروت 1978هـ/ ص 541.

2) اسم صاحب الرحلة هو: عبد الرحمان بن محمد بن محمد بن عبد الرحمان بن خلدون الحضرمي المالكي المولود بتونس في غرة شهر رمضان من سنة 732هـ/1332م. وأصل بيت بني خلدون من إشبيلية انتقلوا إلى تونس في أواسط المائة السابعة عندما اشتد الضغط المسيحي بالأندلس واضطر الكثير من الأسر إلى الهجرة خارج وطنهم، التعريف ص 3.

- لماذا وقع الاختيار على هذه الرحلة بالذات؟

هذا ما سيحاول هذا العرض الإجابة عنه.

- ثم لماذا كانت هذه الرحلة في مرحلتها الأولى في اتجاه الغرب وليس في اتجاه الشرق.

إن الإجابة عن هذا التساؤل تستوجب الإلمام بالأحوال الثقافية والفكرية في المشرق والمغرب.

من المعلوم أن العالم الإسلامي كان يزخر بعواصم علمية مهمة تمثلها في الشرق بغداد وبخارى وسمرقند ونيسابور ودمشق والقاهرة، وفي المغرب تونس وتلمسان وفاس وقرطبة وغرناطة... إلخ.

غير أن هذه المراكز تعرضت لنكسة خطيرة في أواسط القرن السابع الهجري (13م).

ففي الشرق سقطت القواعد العلمية ضحية الغزو المغولي الكاسح. وفي المغرب كانت بقايا الحروب الصليبية في مدها متجهة نحو مصر ثم تونس فيما بعد، وفي الأندلس ازداد الضغط المسيحي وأخذت المراكز الإسلامية تسقط الواحدة تلو الأخرى، الشيء الذي جعل رجال الفكر يغادرونها اضطرارا إلى أماكن مختلفة، وخصوصا منها مدن المغرب كفاس وتلمسان وتونس، وكانت أسرة ابن خلدون ضمن هؤلاء المهاجرين.

وفي ظل هذه المشاكل استطاع المغرب تحت حكم دولة بني مرين الصاعدة الإسهام بجد في المحافظة على ما تبقى من المعارف والسير بها إلى الإمام بفضل الجهود التي بذلتها على جميع الأصعدة.

فقد اتخذوا مدينة فاس عاصمة لهم، وأسسوا بها مجموعة من المدارس العلمية لفائدة رجال العلم والطلبة ووفروا لهم الإنفاق الكافي، واعتنوا بجوامع المدينة وخصوصا منها جامع القرويين، وشجعوا رجال العلم الذين تقاطروا على العاصمة العلمية من كل الآفاق.

وكانت لهذه التدابير الحسنة أثرها الإيجابي في الرفع من المستوى العلمي لهذه المدينة وغدت من أهم المراكز العلمية في المشرق والمغرب.

وكان ابن خلدون المتعطش للعلم والمعرفة ضمن الطلبة الذين تمنوا الحضور إلى هذه المدينة للنهل من ينابيعها الفياضة. فكيف تمت رحلة ابن خلدون إلى فاس؟

فبينما كان صاحب الرحلة منكبا على دراسة العلم في بلاده، وفد على القطر التونسي السلطان أبو الحسن المريني في إطار عمله الرامي إلى توحيد أقطار المغرب الإسلامي على غرار ماقام به الموحدون، وكان ضمن وفد السلطان عدد كبير من فطاحل العلماء الذين «جمعهم من سائر بلاده.(3) وقد استغل ابن خلدون حضور هذا الوفد العلمي الرفيع المستوى لتدعيم رصيده الفكري والثقافي، وهذا ما عبر عنه قائلا: «وكان يلزمهم شهود مجلسه فكنت أنتاب هذا المجلس».(4)

ومن علماء هذا المجلس على سبيل المثال لا الحصر، أبو عبد الله محمد بن سليمان السطي شيخ الفتيا في المغرب، وأبو محمد بن عبد المهيمن الحضرمي إمام المحدثين والنحاة في المغرب، ومحمد الآبلي شيخ العلوم العقلية. وقد ذكر صاحب الرحلة أنه حظي منذ صغره بإعجاب أساتذته ونال إجازاتهم.(5)

ويستفاد من ترجمة شيوخ ابن خلدون أن إثنين من بينهما على الأقل كان لهما أكبر الآثر في ثقافته النقلية والعقلية.

ويتعلق الأمر بمحمد عبد المهيمن الحضرمي ومحمد الآبلي السابق ذكرهما.

غير أنه حدث ما لم يكن في الحسبان، فبينما كان صاحب التعريف يستمتع بدروس أساتذته وقعت في تونس أحداث جسام اضطرته إلى مقاطعة دروسه.

فمن جهة انتشر الطاعون في البلاد سنة 749هـ/1349م وقضى على أبويه وعلى كثير من شيوخه.(6)

3) ابن مرزوق، المسند الصحيح الحسن تحقيق ماريا خيسوس بيغيرا الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1401م/1981م، ص 260.

4) التعريف، ص (21 ـ 22)

5) انظر ترجمة أساتذة ابن خلدون في «التعريف» من ص 17 إلى ص 57.

6) م.ن ص 57.

ومن جهة أخرى هاجر العلماء الذين نجوا من الوباء مع السلطان أبي الحسن المريني الذي انهزم أمام الأعراب بالقرب من القيروان.(7)

ولم يتأخر من العلماء إلا شيخ العلوم العقلية أبو عبد الله محمد الآبلي الذي تأثر به صاحبنا أيما تأثر. وهكذا لزم شيخه وعكف على القراءة عليه ثلاث سنوات.(8)

غير أن استدعاء أبي عنان للآبلي وغيره من العلماء إلى عاصمة ملكه جعل ابن خلدون ينقطع عن الدراسة ويرغب في اللحاق بشيوخه.(9) لكن الاصطرابات التي عرفها المغرب آنذاك اضطرته إلى التريث ريثما تتلاءم الظروف.

وبعد رحلة طويلة مليئة بالحوادث والمغامرات وصل ابن خلدون إلى مدينة فاس. وعن لقائه بالسلطان المريني أبي عنان يقول: «لما عاد السلطان أبو عنان إلى فاس (من المغرب الأوسط) وجمع أهل العلم للتحليق بمجلسه، وجرى ذكري عنده، وهو ينتقي طلبة العلم للمذاكرة في ذلك المجلس، كتب إلى الحاجب يستقدمني، ونظمني في مجلسه العلمي».(10)

هذا المجلس الذي ضم فطاحل علماء عصره، وما زال السلطان يدنيه ويقربه إليه لما وسم فيه من عبقرية فذة، حتى عينه ضمن كتابه وموقعيه وذلك سنة 756هـ (1356م)

وقد أتيح لابن خلدون وهو بفاس أن يعاود الدرس والتحصيل على العلماء الذين نزحوا إليها من جميع أقطار المغرب والأندلس، كما كان يختلف إلى مكتبات هذه المدينة التي كانت آنذاك من أغنى المكتبات الإسلامية، فارتقت بذلك معارفه واتسع إطلاعه.

وهكذا أتيحت له الفرصة لإشباع رغباته الحقيقية ومطامحه الأصيلة. وحصل من الإفادة من أساتذته «على البغية»(10) كما يقول.

---

7) م.ن ص 28.

8) م.ن ص 57.

9) م.ن ص 61 ـ 62.

10) م.ن ص 61.

ولم يفت صاحب التعريف أن يترجم لأساتذته ترجمة وافية في تعريفه حتى يخال للدارس أن الرحلة هي نوع من الفهرسة.(11) فيذكر منهم على سبيل المثال المقرئ محمد بن الصفار، وقاضي الجماعة محمد المقري، وفارس المعقول والمنقول محمد بن أحمد الشريفي الحسني التلمساني.(12)

هكذا ظل ابن خلدون في عاصمة بني مرين مشتغلا بتحصيل العلم والوظائف الديوانية حوالي ثماني سنوات (756-764هـ).

غير أن التقلبات السريعة التي عرفها بلاط فاس جعلت صاحب الرحلة يلتحق بالأندلس سنة 764هـ.

ورغم أنه لم يذكر لنا شيئا عن برنامجه الفكري والثقافي في غرناطة إلا أنه لا يستبعد استفادته من مقامه في ذلك المركز العلمي الرفيع الذي تراكمت فيه الثقافة والفكر الأندلسي عبر الأجيال. والدليل على ذلك أن ابن الخطيب ذكر أن ابن خلدون لخص كثيرا من كتب ابن رشد وألف للسلطان الغرناطي تقييدا في المنطق.(13)

وفي سنة 766هـ تكدر الجو بينه وبين الوزير ابن الخطيب، فاضطر إلى التوجه نحو بجاية حيث عينه أميرها حاجبا لدى بلاطه وخطيبا ومدرسا في جامع القصبة.(14)

وهكذا جمع ابن خلدون في هذه الفترة بين أرقى مناصب الدولة وأرقى مناصب العلم وسنحت له فرصة لإشباع مطامحه العلمية والسياسية.

غير أن مقتل أمير بجاية كان له وقع شديد في نفسية ابن خلدون حيث أصبح يتملص من تقليد المناصب السياسية مفضلا الانكباب على القراءة والتدريس والتأليف.(15)

---

11) انظر ترجمة أساتذته في التعريف من ص 17 إلى ص 68. م.ن ص 61 ـ 64.

12) عبد الرحمان بدري، مؤلفات ابن خلدون، الدار العربية للكتاب ص 33 ـ 83.

13) التعريف، ص (106 ـ 107).

14)م.ن. ص (111 ـ 112).

15) انظر تفاصيل هذه الأحداث في التعريف ص (107 ـ 243).

لكن هل سيسمح له حكام المنطقة بالتفرغ للعلم والتحصيل ونجمه أصبح لا معا في المجال العلمي والسياسي والتدبير؟

فهذا السلطـان أو ذاك كان في حـاجة إلى استشـارته وهـذا الأمير أصبح يخشى مكايده، لهذا وجهت إليه الأنظار في كل مكان حل به.

هـذا ما وقـع فعلا فبينما عـزم على التفـرغ للدراسـة، اضطـربت الأحوال السيـاسية في بـلاد المغرب وجرفتـه الظروف إليهـا فتعرض لمحن كثيرة.(16)

فبعد مقتـل أمير بجايـة سنة 767هـ عـرض عليه أبـو حمو أمير تلمسان وظيفة الحجابة فتملص منها وبعث أخاه يحيى نائبا عنه وقد عبر عن السبب الذي دعاه إلى هذا التملـص قائلا: «متفاديا عن تجشم أهوالها (أي الـوظيفة) بما كنت نـزعت عن غـواية الرتـب، وطال علي إغفال العلم فأعرضت عن الخوض في أحـوال الملوك وبعثت الهمة على المطالعة والتدريس».(17)

هكـذا التجأ إلى ربـاط أبي مدين بـالعبـاد ونـزل بجواره منقطعـا للعبادة وتدريس العلم.(18)

وفي سنــة 674هــ استـدعـاه السلطــان المريني عبـد العـزيـز (768ـ774هـ) إلى فـاس ليستأنس بمشورتـه.(19) وفي هـذه المدينـة أتيحت له فرصـة أخرى للاستفادة من المجـالس العلمية ومن خزائن الكتب «عاكفا على قراءة العلم وتدريسه».(20) إلى سنة 776هـ عندما اضطر مرة أخرى إلى شد الرحلة إلى الأندلس.

وفي خضم هذه الأحـداث اغتيل صديقه لسـان الدين ابن الخطيب سنة 776هـ وكـان لهذا المصاب، أثر سيء في نفسيـة صاحب الـرحلة فقصد من جديد رباط أبي مدين للتعبد وتحصيل العلم.(21) ثم قرر

16) التعريف ص (111 ـ 112).

17) م.ن ص 144.

18) م.ن ص (232 ـ 233).

19) م.ن ص 240.

20) م.ن ص 245.

21) م.ن ص 245 ـ 246.

أخيرا الإلتجاء إلى قلعة بني سلامة في المغرب الأوسط للتفرغ للتأمل والتأليف وهذا ماعبر عنه قائلا: أقمت بها (أي في القلعة) أربعة أعوام متخليا عن الشواغل كلها، وشرعت في تآليف هذا الكتاب (أي كتاب العبر) وأنا مقيم بها وأكملت المقدمة منه على ذلك النحو الغريب الذي اهتديت إليه في تلك الخلوة فسالت فيها شآبيب الكلام والمعاني على الفكر، حتى امتخضت زبدتها وتألفت نتائجها».(22)

نستخلص من هذا النص تركيز ابن خلدون على المجهود الفكري الذي بذله في تأليف المقدمة التي تعتبر بحق زبدة عمله على الإطلاق. ولما وصل في عمله إلى أخبار العرب والبربر وزناتة كان في حاجة ماسة إلى الكتب والدواوين التي لاتوجد إلا في المراكز العلمية الكبرى وذلك لإتمام عمله العلمي وتنقيحه وتصحيحه.(23)

وهكذا اضطر إلى مغادرة القلعة متوجها نحو تونس التي وصلها سنة 760هـ.

وفي هذه المدينة ـ كما كانت عادته في كل مكان حل به ـ اشتغل بالتدريس والمطالعة والتأليف، فالتف حوله طلبة العلم «يطلبون الإفادة».(24)

وفي هذا السياق قام بتنقيح وتهذيب كتابه مضيفا إليه فصولا جديدة وذلك بتشجيع من السلطان الحفصي أبي العباس (772ـ796) حيث رفع نسخة منه إلى خزانته فتقبلها بقبول حسن.(25)

الواقع أن المقام لم يطب بصاحب الرحلة في تونس لعدة أسباب أهمها:

ـ كثرة السعايات به نظرا للمكانة التي حظي بها لدى السلطان لقوة شخصيته واتساع علمه.(26)

---

22) م.ن ص 246.
23) م.ن ص 249.
24) م.ن ص 249.
25) م.ن ص 261.
26) م.ن ص 263.

ـ الحرج الذي شعر به لكون السلطان الحفصي يكرهه على القيام ببعض المهام السياسية التي سئمها والتي كانت تصده على الاشتغال بالعلم.(27)

ـ رغبته الشديدة في زيارة الأماكن المقدسة والمراكز العلمية في المشرق وذلك لإتمام مشروعه العلمي الطموح.(28)

كانت الرحلة إذن هذه المرة في اتجاه الشرق بعد أن كانت في اتجاه الغرب وذلك ليساهم في التواصل الحضاري بين جناحي العروبة والإسلام. ومن حقنا أن نتساءل؟

فهل ستوفر له أقطار شرق العالم الإسلامي ما لم توفره له أقطار غربه من هدوء واطمئنان؟

سافر ابن خلدون نحو الإسكندرية التي وصلها يوم عيد الفطر من سنة 784هـ ثم قصد القاهرة التي كان يطمح في زيارتها منذ مقامه في فاس. فقد سأل عنها أبا عبد الله المقري وهو راجع من الديار المقدسة فأجابه قائلا: «من لم يرها لم يعرف عز الإسلام».(29)

وكانت هذه المدينة يومئذ عاصمة العلم والعرفان في المشرق بعد سقوط بغداد في يد المغول والتتر وذلك بفضل تشجيع سلاطين المماليك للحركة الفكرية، شأنهم في ذلك شأن سلاطين بني مرين، وقد أعجب صاحب الرحلة بهذه المدينة التي ـ كما يقول ابن خلدون ـ «كانت حضرة الدنيا وبستان العالم ومحشر الأمم وإيوان الإسلام وكرسي الملك. تزهر الخوانك والمدارس بآفاقه وتضئ البذور والكواكب من علمائه».(30)

وقد وجد في القاهرة الرعاية التي يستحقها خصوصا وأن صيته ذاع في المشرق والمغرب على السواء وما لبث أن التف حوله الطلبة

27) م.ن ص 262 ـ 263.

28) م.ن ص 265.

29) م.ن ص 264.

30) م.ن ص 268.

والمثقفـون ينهلون مـن علمه فجلس لتـدريس الحديث والفقـه المالكي بالجامع الأزهر.(31)

هـذا وقـد تخرج على يده عـدد كبير من العلماء نـذكـر منهم على سبيل المثال المؤرخ المشـهور تقي الدين المقـريزي والعلامة الحافظ ابن حجـر العسقـلاني اللـذان أشـادا بمنطقـه وغـزارة علمـه وبـلاغـة عباراته.(32)

بعد ذلك اتصل بالسلطان المملـوكي الظاهر برقوق (794ـ806هـ) الذي عينه شيخا لتدريس الفقـه المالكي بالمدرسة القمحية. وقد حضر مجلسه العلمي الأول في ذلك العهد جمهرة من العلماء والأمراء أرسلهم السلطان لشهوده تنويها بذكره وعناية منه. فألقى فيهم خطابا طويلا أبان فيـه عن سعة علمه وفصاحـة لسانه وحسن أدائه وقـدرته على التأثير وفي ذلك يقول: «انفض المجلـس وقد شيعتني العيون بـالتجلة والوقار وتناجت النفوس بالأهلية للمناصب»(33)

وفي سنة 786هـ عين قاضيا للمالكية وقام بمهمته أحسن قيام لا تأخذه في الحق لومة لائم.(34)

غير أن صرامته في إظهار الحق وإبطال الباطل كانت سببا في إثارة السخط عليه من كل ناحية، لذا كثـر حساده ومنافسوه. وصـادف أن أصابتـه في ذلك الحين نكبة كبيرة هـي غرق زوجتـه وأولاده وضياع أمواله فكان ذلك سببا في تخليه عن منصب القضاء سنة 787هـ.(35)

وهكذا تفرغ ـ كعادته ـ لخدمـة الفكر والثقافة «عاكفا على تدريس العلم أو قـراءة كتـاب، أو إعمال قلـم في تـدوين أو تأليف».(36) كما أشار إلى ذلك في تعريفه.

---

31) د. عبـد الـواحـد وافي، عبقريـات ابن خلـدون، دار عـالم الكتب للطبع والنشر القـاهـرة 1373هـ/1973م، ص 75.

32) م.ن ص 312.

33) م.ن ص 273 ص 28.

34) م.ن ص 279.

35) م.ن ص 279.

36) م.ن ص 280.

وقـد دامت هـذه العمليـة حوالي أربعـة عشر سنـة (787-801هـ) قضاها في تدريس العلم في مدارس القاهرة وزواياها وفي مطالعة الكتب وفي إتمام تأليف كتاب العبر وتنقيحه وتهذيبه.(37)

ومـوازاة لذلك قـام بعـدة أنشطة تـدخل في إطـار ربط العلاقـات الثقافيـة والفكرية بين المغرب والمشرق الإسـلاميين. ففي سنة 789هـ أدى فريضـة الحج وفي الديار المقـدسة اتصل بوفـد الحجيج المغربي وتسلم رسالتين مطولتين إحداهما من وزير ابن الأحمر(38) عبد الله بن زمرك(39) والأخرى من قـاضي الجماعة بغرناطـة أبو الحسن علي بن الحسن البني.(40)

وتتضمن الرسالتان معلومات هامة عن الحالة السياسية والفكرية في المغرب وملتمسا يطلبـان فيه منه إرسال مـاجد من الكتب المصرية إلى المغرب، ويسألانـه عما إذا توصل بالكتب التي أرسلت إليـه، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن ابن خلـدون كان دومـا على اتصال وثيق بما يجري في بلاده.(41)

وبفضل هذه المراسـلات وهذه الاتصالات، فإنـه استطاع أن ينقح للمرة الثانية ويتمم كتاب العبر ومقدمته طيلة مقامه في بلاد الكنانة.

ولم يفت صاحب الرحلة استغلال وجوده في مصر لزيارة فلسطين سنة 801-802هـ واصفا مـا شاهده فيها وصفـا دقيقا ينضوي على حقائق تاريخية وأثرية قيمة.(42)

الـواقع أن ابن خلـدون الحريص على استيقاء المعلـومـات من أي مصدر والمولع بالفضول الفكـري والسياسي والمتعطش إلى الإطلاع على

---

37) م.ن ص (304 ـ 344).

38) هو محمد الخامس الغني بالله بن يوسف (763 ـ 793هـ).

39) حملها إليه الفقيه الأديب أبو القاسم بن محمد بن أبي إسحاق إبراهيم الساحلي المعروف بالطويجن، التعريف ص (282 ـ 298).

40) م.ن ص والصفحة،

41) كتاب العبر ج 6 ص 396.

42) التعريف، ص (386 ـ 387).

أحوال الأمم عن كثب، لم يترك أية فرصة تمر ـ ولو كانت محفوفة بالمخاطر ـ إلا واستغلها.

ففي ستة 803هـ هاجم تيمورلنك بلاد الشام، فأسرع السلطان المملوكي الناصر فرج (801ـ808هـ) لصد الغارة، واستدعى ابن خلدون، ضمن مجموعة من العلماء والقضاة للالتحاق بالوفد المتوجه نحو الشام ليستأنس بمشورته. غير أن السلطان اضطر أن ينسحب إلى مصر لإخماد ثورة ضده.(43)

وفي ظل ظروف حرجة انتدب ابن خلدون للتوسط لأقرانه من العلماء لدى تيمورلنك، وقد أعجب هذا الأخير بالعالم المغربي ودار بين الطرفين حوار طويل حول قضايا سياسية وتاريخية وجغرافية. وعلى إثر هذا الحوار طلب تيمورلنك من ابن خلدون أن يؤلف له مؤلفا وصفيا لبلاد المغرب فاستجاب ابن خلدون لطلبه.(44)

ومن جهة أخرى نجحت الوساطة التي قام بها ابن خلدون فأعطي الأمان للقضاة والعلماء وسمح له بمغادرة معسكر تيمورلنك والعودة إلى مصر متزودا بمعلومات نفيسة عن تاريخ المغول والتتر كان في أشد الحاجة إليها ليضيفها إلى مؤلفه القيم.(45)

هذا وقد قضى ابن خلدون ما تبقى من عمره (803ـ808) موزعا بين مناصب التدريس والقضاء فضلا عن التأليف إلى أن توفي سنة 828هـ/1406م.

بعد استعراض أهم مراحل الرحلة العلمية الخلدونية على الدارس أن يتساءل عن ثمار جهود هذه الرحلة الطويلة في المجال الفكري والثقافي. هذه الرحلة التي دامت أزيد من نصف قرن (753ـ808هـ).

---

43) م.ن ص 422.

44) التعريف، ص (411 ـ 412).

45) عن لقاء ابن خلدون لتيمورلنك وما ترتب عن ذلك من أحداث انظر كتاب التعريف من ص 406 إلى ص 425 وكذا البحث القيم للدكتور عبد الهادي التازي في أعمال ندوة ابن خلدون ص 379 ـ 384) منشورات كلية الآداب الرباط 1973.

فقد رأينا أنه قام برحلة علمية وسياسية شملت كلا من تونس وقسنطينة وبجاية وتلمسان وفاس وغرناطة كما زار خلالها حواضر البادية في بسكرة وقلعة بني سلامة قبل أن ينتهي به المطاف في مصر حيث زار الإسكندرية واستقر أخيرا في القاهرة قاعدة المماليك، وقد استغل وجوده هناك لتأدية فريضة الحج وزيارة الأماكن المقدسة في كل من الحجاز وفلسطين كما أتيح له مكرها أن يقابل تيمورلنك .

وخلال هذه الرحلة تقلب ـ كما هو معروف ـ في عدة مناصب علمية وسياسية وإدارية مخصصا جل وقته للتدريس والتحصيل والتأليف وهو الأمر الذي كانت تسمح به ظروف العمل في بطانة الحكام الذين كانوا يعيشون وسط العلماء، أضف إلى ذلك أنه عاش في وقت كثرت فيه الأزمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وتعرف على كثير من طبائع القبائل المختلفة، وعرفت حياته سلسلة طويلة من حوادث الفشل والنجاح، لهذا فكر أن ينظر لهذه الحوادث ويكتب تاريخا شموليا لعصره وللعصور السالفة.

وكانت ثمار هذه الجهود المضنية والتجارب المكثفة هائلة جدا على صعيد التنظير والتأليف والتأريخ.

ويمكن تقسيم هذا التراث إلى قسمين : قسم ألفه قبل اعتزاله في قلعة بني سلامة، والقسم الآخر صنفه في القلعة وتونس والقاهرة.

يشمل القسم الأول مؤلفات في الفقه والتصوف والحساب والمنطق والفلسفة.

أما القسم الثاني وهو الأهم فإنه يتألف من كتاب العبر ومقدمته فضلا عن التعريف بصاحب الكتاب ورحلته غربا وشرقا وهو آخر ما ألفه ابن خلدون بحيث وصل فيه إلى شهر ذي القعدة من سنة 807هـ/1405م(46) أي قبل وفاته بقليل.

علما بأن تأليف المقدمة وكتاب العبر تم على ثلاثة مراحل.

46) التعريف، ص 430 وهي آخر صفحة في كتاب التعريف.

- تمت المرحلة الأولى في قلعة بني سلامة (776ـ780هـ) حيث ألف المقدمة «قبل التنقيح والتصحيح» وجزءا من كتاب العبر الذي وصل فيه إلى أخبار العرب والبربر وزناتة.

وتمت المرحلة الثانية في تونس (780ـ784هـ) أضاف خلالها ابن خلدون لما كتبه في القلعة إضافات وتنقيحات ورغم ذلك فإن هذه النسخة لا تمثل سوى نصف النسخة المكتوبة في مصر.(47)

- أما المرحلة الثالثة (784ـ808هـ) والتي دامت حوالي أربعا وعشرين سنة فهي التي أنهى فيها ابن خلدون بالتنقيح والتهذيب والإضافة كتاب العبر ومقدمته وختم عمله بكتاب «التعريف بصاحب الكتاب ورحلته غربا وشرقا».

ومن المعلوم أن الباحثين المحدثين كرسو لدراسة مؤلفات ابن خلدون وخصوصا منها المقدمة عدة أبحاث هذه المقدمة التي تتجلى فيها بحق عبقرية العلامة ابن خلدون لما تتضمنه من نظريات فذة في التاريخ والاجتماع والسياسة والاقتصاد.

خلاصة القول إن رحلة ابن خلدون العلمية تكتسي أهمية خاصة، وتتميز عن معظم الرحلات الأخرى بما أنتجته من تراث فكري وثقافي أبان عن أهميته القصوى عبر الأجيال.

47) انظر عبد الرحمان بدوي، مؤلفات ابن خلدون ص 71 ـ 74 وملخص مداخلة الأستاذ مبارك رجالة في أعمال ندوة ابن خلدون، (161 ـ 162.)

السفير محمد بن عثمان المكناسي وبعثته الدبلوماسية إلى نابولي

سنة 1782م / أواسط شعبان سنة 1196هـ

CLELIA SARNELLI CERQUA
Istituto Universitario Orientale Napoli
د. كليليا سارنلي تشركوا
المعهد الجامعي للدرسات الشرقية
بمدينة نابولي (إيطاليا)

أود قبل كل شيء أن أعبر عن سروري لوجودي اليوم بينكم وعن امتناني لجميع المشرفين على تنظيم هذه الندوة العلمية وتحقيقها. كما أريد أن أوجه شكري العميق إلى السيد الدكتور إدريس أو عويشة عميد الكلية لتفضله بدعوتي للاشتراك في الندوة التي أتاحت لي الفرصة للعودة إلى المغرب وللالتقاء بالزملاء والطلبة الأعزاء.

إن هذه الفرصة عزيزة علي حيث أحمل إليكم تحية المعهد الجامعي للدراسات الشرقية بمدينة نابولي الذي أتشرف بالانتساب إليه وبأن أترجم عن الاهتمام العظيم الذي يوليه معهدنا لدراسة اللغة العربية والعالم العربي وحضارته.

وعندما أردت أن أختار موضوعا لمحاضرتي هذه فكرت في أن أقدم لكم شخصية عظيمة وهو السفير محمد بن عثمان المكناسي الذي عاش في نهاية القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر الميلادي (الحادي عشر والثاني عشر الهجري) وأتكلم كذلك عن مؤلفه «البدر السافر» الذي لم ينشر حتى الآن إلا الجزء المتعلق ذكرياته الخاصة عن زيارته لبالرمو بجزيرة صقلية وهذا الجزء قام بتحقيقه ونشره الدبلوماسي

والبحاثة المغربي المشهور الدكتور عبد الهادي التازي تحت عنوان «صقلية في مذكرات السفير ابن عثمان». الرباط سنة 1978).

وقد قامت بترجمة هذا الجزء إلى اللغة الإيطالية وبالتعليق عليه الزميلة الدكتورة إدالجيادي سيومني Adalgisa de Simonc من جامعة بالرمو سنة 1979 تحت عنوان Laluna risplcndente ومعناه لبدر السافر.

وفي سنة 1989 وبمناسبة انعقاد مؤتمر حول تاريخ المسلمين في جنوب إيطاليا، المؤتمر الذي عقد في كاسيرتا Caserta، مدينة بالقرب من نابولي، كتبت إلى الدكتور التازي وطلبت منه تزويدي بنسخ من أوراق مخطوط «البدر السافر» المتعلقة بمذكرات السفير المكناسي عن زيارته وبعثته في مدينة نابولي.

وتفضل الدكتور التازي مشكورا بتزويدي بتلك النسخ مما سهل إمكانية اشتراكي في ذلك المؤتمر حيث ألقيت كلمة عن زيارة السفير المكناسي إلى نابولي وكاسيرتا وعن بعثته الدبلوماسية الناجحة.

ويرجع اختياري لنفس الموضوع في ندوتكم هذه لسببين أولهما أن السفير ابن عثمان المكناسي كان أصله من هذه المدينة الجميلة المضيافية وثانيهما أن حياته مرتبطة إلى حدما بمدينتي نابولي لأنه وصل إليها في سنة 1782 (شعبان 1196) وأقام بها وبكاسيرتا مدة في ضيافة الملك البربرني فردناندو الرابع.

وأقتصر في حديثي لكم هذا اليوم على تقديم موجز لما احتوته أوراق المخطوط المتعلقة بفترة إقامة السفير في مدينة نابولي وعددها مئة وثلاث عشرة ورقة.

لقد سبق لمحمد بن عثمان أن كان واليا على مدينة طنجة في السنوات العشرين الأخيرة من القرن الثامن عشر الميلادي (1100هـ ـ الثاني عشر). وقد قام بنشاطات كثيرة لحساب السلطان العلوي محمد بن عبد الله (1757 ـ 1790) ومن أهم تلك النشاطات الإفراج عن الأسرى المسلمين ومبادلتهم بالأسرى المسيحيين ولهذا الغرض توجه إلى مدريد في اسبانيا سنة 1779 ـ 1780 وانتهت المباحثات في بلاط الملك كارلو الثالث باتفاقية وعملية تبادل الأسرى. وكان السلطان

مقتنعا بأن تلك الإتفاقية ربما كانت ستشمل الملك فرديناندو الرابع ملك نابولي وابن الملك كارلو الثالث، ولكن في الواقع إن هذا الأخير (فرديناندو الرابع) رفض الانضمام كطرف ثالث في المعاهدة التي عقدها والده، مفضلا الانتظار والتعامل مباشرة مع المغرب.

وقد حدث في ذلك الوقت أن قامت سفينة نابولينانية بعملية نهب لسفينة مغربية كانت متوجهة إلى طرابلس وكان السلطان يعتبر نفسه في حالة سلام مع الملك فرديناندو الرابع لذلك احتج لدى البلاد في مدريد راجيا تدخل وشفاعة الوالد - وأخيرا وافق فرديناندو الرابع على الانضمام إلى الاتفاقية المذكورة وذلك سنة 1781. ولذلك قرر السلطان إرسال سفيره إلى نابولي لغرض إعادة بناء علاقات طيبة وللتفاوض حول التعويضات عن السفينة التي نهبت.

ووقع الاختيار على نفس السفير الذي كان قد وقع الاتفاقية سنة 1780 زي محمد بن عثمان المكناسي.

وهكذا نراه يغادر المغرب في شهر نونبر سنة 1781 (أواخر سنة 1195هـ) على رأس وفد يتكون من أربعة أعضاء وتوجه أولا إلى جزيرة مالطة ثم واصل سفره إلى مدينة نابولي حيث وصلها في شهر أغسطس 1782 (أواسط شعبان 1196) وقد استقبله بكل حفاوة وتكريم الملك وزوجته النمساوية ماريا كارولينا Maria Carolina d'Austria.

وفور وصوله إلى الميناء استقبله نائب عن الملك حضر ليبلغه الترحيب ويعلمه بأنه أعفي هو وأصحابه من القوانين السارية المفعول آنذاك والتي تلزم كل داخل أو زائر أن يقضي فترة أربعين يوما قبل أن يدخل إلى المدينة للتأكد من خلوه من الأمراض السارية والفتاكة وكان السبب في إعفائهم من القانون المذكور (الكرنطينة) هو لهفة الأسرة لمقابلتهم وبأسرع وقت ممكن حيث لم يسبق لهم أبدا استضافة سفير مسلم.

وعلى رصيف الميناء احتشدت جماهير غفيرة من أهالي مدينة نابولي أقبلت للتمتع بذلك المشهد الذي قلما يحدث - وكان بانتظار الضيف عربات (أكداش والكدش تعريب اللفظ الإسبانيcoche أي العربة التي تجرها الخيول) وعدد كبير من الفرسان يرتدون الملابس العسكرية التي كانت في غاية الأناقة حتى أن السفير وصفها في مذكراته بأنها «مبالغة في التعظيم».

لقد كان عدد الجمهور الذي أسرع لاستقباله كبيرا لدرجة أن العربات الملكية التي تحمل الضيوف وجدت صعوبة بالغة في مسيرتها وقد حاول الفرسان بسيوفهم المستلة من أغمادها وبجهود مضنية أن يفتحوا منفذا كي تستطيع العربات الملكية مواصلة سيرها. فاصطحب السفير من الميناء إلى الدار التي أعدت لاستقباله وإقامته.

وهنا حري بنا أن نذكر أن السفير كان يصف بدقة متناهية التفاصيل الكثيرة الخاصة بالأماكن والمعالم التي سنحت له الفرصة بزيارتها خلال فترة إقامته في نابولي ولكنه لم يكن يذكر في مذكراته الأسماء كما أنه لم يزودنا بمعلومات عن الشخصيات التي قابلها ولكن بفضل الوثائق التي تم العثور عليها في دار المحفوظات بنابولي وبعد بحث طويل في كتب التاريخ تمكنت من التوصل إلى تشخيص ومعرفة أماكن عديدة وكذلك شخصيات كثيرة كان قد قابلها.

وهكذا فإن بإمكاني أن أقول وبكل دقة أن القصر الذي استضاف السفير هو قصر الأمير Mirelli diteora ميريلي دي تيوورا) يقع في حي جميل وعلى القرب من شاطىء البحر.

وقد شاهد الضيوف عند وصولهم إلى قصر الأمير di Teora فصيلا آخر من الجنود كانوا في حالة استعداد احتراما لهم وقد أبلغ بعض ممثلي الملك السفير بأن يعتبر نفسه وكأنه في بلده.

وبعد أن قام الضيوف بتفقد الغرف التي أعدت لاستقبالهم شاهدوا ستة من أسرى المسلمين يحملون ثلاثة أطباق كبيرة من الفواكه والحلويات من مختلف الأصناف أرسلت كهدية من الملك.

حينئذ رجا السفير أن يقدم له الأسرى الذي حملوا الأطباق كهدية وقد قبل الطلب وهكذا أصبح هؤلاء هم الستة الأوائل الذين تم تحريرهم.

وكان هناك أيضا طبيب قد أرسل ليلازم الضيوف ليلا ونهار ويكون تحت تصرفهم.

وعقب ذلك وصل إلى القصر أحد الوزراء لزيارة الدبلوماسي (وهو وزير الدولة Don Giuseppe Beccadelli de Bologna دون جيوزيبه بيكاديلي دي بولونيا) فقام السفير بتقديم أوراق اعتماده (الكتاب المولوي) التي ترجمت إلى اللغة الإيطالية ثم عرضت على الملك فحدد اليوم التالي كموعد للمقابلة الرسمية.

وفي اليوم التالي توجه السفير إلى البلاط حيث استقبله الملك أولا ثم بعد ذلك الملكة وقد حضرت شخصيات كثيرة في القصر.

اجتاز السفير صالونات عديدة قبل وصوله إلى الصالون الذي كان الملك فيه واقفا بانتظاره، وقد وصف السفير الملك بأنه طويل القامة أبيض اللون أزرق العينين أصهب الشعر وعمره إحدى وثلاثين سنة تقريبا.

وبعد أن قبل السفير أوراق الاعتماد (كما يقضي الغرف حينذاك) قام بتسليمها إلى الملك فاستلمها هذا الأخير بكلتي يديه دليلا على الاحترام.

وبعد ذلك استقبل من قبل الملكة وبكل لطف فقالت له إنها ستكون بمنتهى السعادة لو تمكنت من مساعدته ـ عند ذلك شكرها السفير ودعا لله أن يحمي تلك الملكة التي استقبلته بشكل رائع يفوق التصور.

تبع ذلك وصف لمدينة نابولي فكتب السفير إنها مدينة كبيرة عظيمة بهية زاهية، مدينة لم تشهد مثلها عيون الناظر.

وكانت طبقة النبلاء تتنافس في تنظيم حفلات الاستقبال ومطاردة الفرسان للثعالب لاصطيادها وألعاب مسلية مختلفة إكراما للضيف الجليل. وفي خلال فترة الثلاثة أشهر التي قضاها في مدينة نابولي دعي من قبل العوائل النبيلة ومن قبل الملك في أحيان كثيرة وقد تمكن الدبلوماسي من زيارة أماكن ومراكز ذات أهمية كبرى.

وفي إحدى الأمسيات توجه إلى ناد كبير مخصص للأكابر والأعيان حيث استقبله الأعضاء بكل حفاوة وترحيب وقد بقي مندهشا لرؤية الرجال والنساء يستمتعون معا بسماع الموسيقى ويرقصون بكل حرية.

وقد دعاه الملك لنزهة في منتزه مستطيل الشكل على ساحل البحر توجد فيه مقصورة للفرقة الموسيقية ودار ان فيهما أنواع المأكولات والمشروبات حيث يجتمع فيه الناس للانبساط والارتياح.

وكان المنتزه المذكور بدون أدنى شك هو منتزه البلدية Villa comunale في وقتنا الحاضر، وكان يطلق عليه حينذاك اسم الحديقة الملكية Villa reale وقد صممها المهندس الكبير كارلو ڤانڤيتيلي Carlo Vanvitelli بمساعدة المشرف على الحدائق الملكية فيليتشي أباتي Felice Abbate وقد فتحت الحديقة للجمهور عام 1781 أي قبل فترة قليلة من وصول السفير.

وفي أمسية أخرى دعي السفير إلى مسرح وقد أعجب به كثيرا ووصفه بدقة وهذا المسرح سان كارلو San Carlo واحد من أشهر المسارح الإيطالية افتتح في يوم 4 نونبر 1737 بمناسبة عيد ميلاد الملك كارلو الثالث.

وقد توجه يوما لزيارة أحد البنوك ودهش عندما رأى الجواهر والمصوغات الذهبية والفضية والأحجار الكريمة تودع كرهون وأكثر ما

أثـار دهشته هـو إمكانيـة رهن الشراشف والملايات والأغطيـة وحتى الملابس واستـلاف القروض مقـابلهـا. والكـلام هنا هـو عن مصرف الرهون الذي أسس سنة 1539 ويعتبر النواة الأولى لبنك نابولي Banco di Napoli وهو مصرف مشهـور جدا في الـوقت الحاضر ولا يـزال فيه حاليـا قسم خاص يمكن أن تـودع فيه المواد المختلفة مقـابل استلاف النقود.

وكما يفعل جميع زوار مدينـة نابولي توجـه السفير أيضا إلى قمة بركـان الفيسوف Vesuvio وإلى حفريـات مدينـة بومبـي (في المخطوط بنبياني) Pompei المدينة التي دفنت تحت الـرماد والحمم البركانيـة عند ثورة البركان سنة 79 ميلاديا ودهش السفير لكل تلك الآثار والشواهد التي تشهد بعظمة تلك الحضارة الراقية.

والجـديـر بالذكـر أن في مـدينـة Pompei وبفضل أعـمال الحفـريـات التـي أجـريـت في فتـرات مختلفـة يمكـن أن نـرى وأن نتصور كيف كـانت هيئـة وشكل المدينـة القـديمـة وكـيـف كان يعيـش سكـانها: بيـوت، متاجـر، محـلات لبيـع الطعـام الجاهـز والنبيـذ.

وقد تم استخراج أشياء كثيرة كشواهد على المستوى الراقي للحياة في ذلك الـوقت بينما نر بأن الحضـارات القديمة الأخـرى احتفظت في الغالب بكل ما يتعلق بالمعابـد والقصور الملكية فقط.

بدأت التنقيبات في Pompei سنة 1748 والسفير ابن عثمان لم يكتف بالزيارة ولكنه اهتم أيضا بأعمال ترميم الملتقطات الأثرية وحفظها.

ولـو أردنا أن نسجل كل مـا شـاهده السفير في قـائمة فستكـون طويلة جـدا لكثرة ما رآه في نابولي وضـواحيها: دار لتعويم المراكب في البحر ومصنع للبارود ودير للراهبـات (في المخطوط نجد كلمة منخات وهي تعريب اللفظ الإيطالي monache) اللواتي كن يقضين بقية أعمارهن في الأدير ولا يخرجن منهـا أبدا وقـد أهدين إلى السفير أكثـر من مرة حلويات من صنع أيديهن تكريما له. ولم أتمكن من معرفة الدير الذي زاره لوجود أكثر من 37 ديرا في المدينة في ذلك الوقت ولو كان السفير

ترك لنـا وصفا للحلويات التي أهـديت له لكان بإمكاني معـرفة اسم الديـر الذي كـان قد رآه لأن وفقـا للتقاليـد اختص وأشهر كـل دير بصنف معين من الحلويات.

كما أنه زار مأوى كبيرا لا يزال موجودا ليـومنا هذا عرف كفندق الفقراء، أسسه الملك كارلو الثالث أيام ما كان ملكا في نابولي (1735 ـ 1759) ويصفه السفير قـائلا بأنها دار كبيرة فيها ثـلاث آلاف حجرة معينة للفقراء والمسـاكين وخصوصا لليتامى وقد عين أقـواما يبحثون عنهم في الأزقة ويأتون بهم إلى هذه الدار وبها يتعلمون جميع الحرف والصنائع.

وكان من ضمن الأشخـاص الذين قـابلهم في نـابولي ذلك الـراهب الـذي كـان يقـوم بفتح أوراق البردى الملفـوفـة التي عثـر عليهـا في إيركلانو Ercolano وهي مدينة أخـرى كانت قد دفنت بالـرماد والحمم البركانية وتقع بالقرب من نـابولي ـ وقد كتبت على تلك الأوراق أعمال مشهورة باللغـتين اللاتينية والإغـريقية وكان قـد تم العثور على تلك الأوراق الملفوفـة بفضل التنقيـبات التـي أجريت سنـة 1752. وكان هناك صعـوبة في فتحها وذلك لتعرضهـا للـنار من جانب وللرطـوبة من جانب آخر وبعـد محـاولات عـديـدة لفتحها دعى لزيـارة نابولي القس أنطـونيو بيـادجو Antonio Piaggio الـذي وصلهـا سنـة 1753 واخـترع جهـازا استطـاع بواسطتـه أن يفتـح الكثيـر مـن تلك الأوراق. وقـد قابلـه السفيـر وشاهـد الجهـاز ووصفـه بالخـارق العجـيـب وأضـاف بأنـه لا يمكـن إدراك عمـل هـذا الجهـاز إلا بمشـاهدتـه.

ويصف السفير أيضـا القصر الملكي في مـدينـة Caseta التي زارها ونزل في القصر في ضيـافة الملك. وقد وصف القصر بأنـه من عجائب الدنيا وغرائبها في ضخامـة البنيان ولطافـة الفـن، فيه سبعة طـوابـق وأربعة أفنيـة وخمس شقق و 123 صالون. وكـان القـصر مشهـورا لطـرازه المعماري الجميل وللكنوز التي يحتـويها والتي لاتقدر بثمـن وكـذلـك للحديقـة الـواسعـة الجميلـة والـشلالات الاصطنـاعيـة

الموجودة فيها وللطريق المستقيم الذي كان يربط القصر بنابولي.

وقبل أن أختتم الحديث يجدر بي أن أذكر أن بعثة السفير كانت لها نتائج إيجابية وفعلا فقد تم التوصل إلى معاهدة سلام سنة 1192هـ الموافق الثامن عشر أكتوبر سنة 1782م.

ونص تلك المعاهد باللغة العربية موجود في دار المحفوظات بنابولي وقد وقعت من قبل السفير ومن قبل وزير الدولة Don Giuseppe Beccadelli di Bologna.

وقد نشر الأستاذ الدكتور جوثاني يانيتوني Giovanni Jannettone نص المعاهدة باللغة الإيطالية وهذا في سنة 1967 كما نشره باللغتين العربية والإيطالية الأستاذ الدكتور ماريانواريبس بالو Mariano Arribas Palan سنة 1968.

وقد حصل السفير أيضا على مبلغ ضخم قدره 2568 دوكاتي (Ducati) تعويضا عن السفينة التي نهبت وإضافة إلى ذلك تم تسليم عدد كبير من الأسرى المسلمين الذي كانوا يعيشون في نابولي.

وقد وجدت في دار المحفوظات رسالة باللغة العربية من سلطان المغرب إلى ملك نابولي مؤرخة سنة 1198هـ / 1783م مرفقة بترجمة تضمنت بعض الأخطاء، وفي هذه الرسالة يشكر السلطان الملك فرديناندو الرابع لمعاهدة السلام ولدفع التعويضات عن السفينة التي نهبت كما شكره على الهدايا التي أرسلها له وأخبره بأنه يحتفظ له ولوالده كارلو الثالث بمكانة خاصة في قلبه وأنه يرجو من الملك أن يعلمه بأية حاجة يرغبها.

ونفهم من كل ما ذكرته في هذا الملخص لزيارة السفير ابن عثمان لنابولي الأهمية الكبيرة لهذا المخطوط الذي يعطينا صورة حية عن نابولي في القرن الثامن عشر وعن المجتمع في ذلك الوقت كما يزودنا بتفاصيل وخصوصيات عديدة لا يمكن العثور عليها في كتب التاريخ أو الوقائع الرسمية.

الكاتب شخصية عجيبة ذو اهتمامات مختلفة وعقلية متفتحة يقيم كل ما يراه وكل منا يقابله ويصفه ببساطة الأسلوب المفعم، بالحيوية والبارق بالحذاقة والذكاء، دون أن يقع في المبالغة والابتعاد عن الواقع، كما تبين لي ذلك من الأبحاث التي قمت بها ومن مراجعة المصادر التاريخية ومقارنتها بملاحظات السفير التفصيلية.

وسأكون في غاية السعادة إذا كان بالإمكان الاشتراك في تحقيق هذا المخطوط ونشره بالتعليق عليه ـ على الأقل بالجزء المتعلق بنابولي ـ حيث أن هـذا المؤلف أبرز إلى الوجود العلاقات الطيبة التي كانت موجودة منذ ذلك الوقت بين المغرب وبين بلادي، تلك العلاقات التي كإيطالية مولعة بتاريخ العالم العربي الإسلامي وحضارته أتمنى أن تسير دائما نحو التوطيد والتوثيق وهذا بفضل معرفة متبادلة أكثر تعمقا وأوسع نطاقا وتعاون مثمر بين شعبينا في جميع المجالات.

صورة العثمانيين في كتابات بعض الرحالة المغاربة

ذ. قدور بوزياني
كلية الآداب ـ مكناس

يطمح موضوع هذا العرض مقاربة ملامح الصورة التي رسمتها بعض الرحلات المغربية الحديثة للعثمانيين، كسلطنة إسلامية، أفلحت في اكتساب ولاء معظم البلاد العربية(1)، ووصلت بنفوذها إلى التخوم الشرقية للبلاد المغربية(2). وقد اخترنا لرصد معالم هذه الصورة نموذجين محددين هما رحلة «ماء الموائد»(3) لصاحبها أبي سالم العياشي ثم رحلة الزياني «الترجمانة الكبرى»(4).

1) عن التوسع العثماني بالعالم العربي، يراجع:
محمد فريد بك: تاريخ الدولة العلية العثمانية. تحقيق إحسان حقى دار النفائس. بيروت 1986.
نيفولاي إيفانوف: الفتح العثماني للأقطار العربية (1516 ـ 1574). ترجمة يوسف عطا الله بيروت 1988.
عبد الكريم رافق: العرب والعثمانيون (1516 ـ 1916) دمشق 1974.

2) يراجع: عزيز سامح الترا: الاتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية. ترجمة محمود علي عامر بيروت 1989.
قدور بوزياني: المغرب وباشوية الجزائر (1650 ـ 1727) رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا، إشراف: لحسن اغزادي فاس 1988 (مرقونة).

3) أبي سالم العياشي: الرحلة العياشية (ماء الموائد) جزءين. نشرها: محمد حجي (مصورة بالأوفسيط) دار المغرب الرباط 1977.

4) أبي القاسم الزياني: الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا. ت: عبد الكريم الفيلالي نشر وزارة الأنباء غشت 1967/1387.

وطبعا، فإن كثافة مضامين هذين النموذجين وامتدادهما الزمني الواسع فضلا عن ضيق الحيز الزمني المخصص لإلقاء هذه المداخلة، عوامل تدفعنا إلى مجرد الإسهام في التعريف بهتين الرحلتين وتسليط الضوء حول ما تزخران به من أفكار ومواقف وأحكام خاصة بالسلطنة العثمانية وبعض الولايات العربية التابعة لها، كما تروم هذه المداخلة توضيح الفوارق الفاصلة بين هذين التأليفين ونوعية القضايا والانشغالات التي نالت اهتمام كل رحلة منهما على حدة، وذلك بالقدر الذي يسمح بمقارنتهما، وأخذ فكرة عن تمظهرات انفتاح الفكر المغربي إزاء غيره من البلاد العربية الإسلامية، وكذا عن بعض الجوانب المرتبطة بصيرورة علاقات المغرب بالعثمانيين.

فبالنسبة للنقطة الأولى من هذا العرض، فهي تتناول بعضا مما تضمنته رحلة أبي سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي من انطباعات وآراء خاصة بالسلطنة العثمانية، وما أتت عليه من مشاهدات ومعارف تخص ما اهتم به هذا الفقيه السني المالكي من ولايات عربية إسلامية خاضعة لآل عثمان. ونشير بدءا إلى أن العياشي هو بمثابة علم من أعلام الثقافة والفكر في القرن السابع عشر الميلادي / الحادي عشر الهجري، وهو سليل بيت صوفي، وأحد من قام على خدمة الزاوية العياشية بالأطلس الكبير، فقد انتقل رفقة الركب السجلماسي إلى المشرق في رحلات ثلاث، استهدفت التبرك بزيارة الحرمين الشريفين وأداء مناسك الحج، وتحصيل ما يتيحه ذلك من فوائد دينية واتصالات طرقية وعلمية(5). بدت واضحة من خلال تفحصنا لهذه الرحلة التي تقع في جزءين.

وقد شكلت المناطق التي دخلها العياشي منذ انطلاق الركب من سجلماسة وانتقاله عبر المسالك والواحات الصحراوية للمغربين الأوسط والأدنى فطرابلس وبرقة ومصر ومنها إلى الحجاز ثم انتقال

---

5) عن ذلك يراجع:

عبد القادر زمامة: مع أبي سالم العياشي في رحلته إلى المشرق.

مجلة المناهل ع: 25 دجنبر 1982 وكذلك ع: 27 يوليوز 1983.

العياشي إلى الشام وزيارته للقـدس والخليل، مجال اهتمام هذه الرحلة وما رصدته من صور ناطقة وتـوصيفات متنوعة تعكس جوانب عدة من تاريخ هـذه الأمصار. وتترجم ما راكمه العيـاشي من تجارب وما حصل عليه من فـوائد مختلفة ناهيك عما يستشف من مضمـون هذا التأليف من مواقف وأفكار تنـزع الغطاء عن المعايير التي تحكمت فيما دونه، وتفيـد في التقرب نسبيـا من الإطـار العام الـذي يؤطـر رؤيته للعثمانيين ولبعض الإيالات العربية المنضوية تحت لوائهم.

على أية حـال، ليس من هدف هذا العرض ولا في مكنتـه استيعاب مجمل ما احتوته هذه الرحلة / المعلمة من قضايا وأخبار تهم البلدان والأقوام التي زارها العيـاشي، وبالتالي نكتفي بالإشـارة إلى ما يطبعها من ثراء معـرفي وما تتسم بـه من تنوع وشمـولية فيما تعـرضه من جوانب اجتماعية واقتصادية وسياسية، ونضيف بأنها تجسيد صادق لثقـافـة العصر وبعض قسماته في المغـرب والمشرق الإسـلاميين. كما نؤكد على طغيان المؤثرات الدينية والسلفية والعلمية فيما دونه العياشي من معلـومات، ومـا أظهره من اهتمام مفـرط بأهل الصلاح وأربـاب الزوايا والعلماء والحجاج(6)، ولا تخلو الرحلـة من ثناء ومديح في حق المهتمين بأمـور الديـن والمتمسكين بمبادئ الشريعـة الإسـلامية ومـا يقترن بذلك من عدل وجهاد وعمران.

وانطلاقـا من هذه المرجعية المحددة لفكـر العياشي، يمكن أن نتبين مواقفه من آل عثمان وغيرهم من القـائمين على أمور العالم الإسلامي. فقد اختلف عـن غيره من المفكرين المغـاربة. وخلت رحلته مـن كل ما من شأنه أن يفيد الاعتزاز أو لفخر بـاستقلال المغرب وعدم خضوعه للسلـطنـة العثمـانـيـة(7). فـبـاستـثـنـاء كلـمـة

6) حسين محمد فهيم: أدب الرحلات. عالم المعرفة. ع: 138 الكويت يونيو 1989 ص: 127.

7) نقصـد تحديدا التمكـروني الذي انتقل إلى القسطنطينيـة في وفادة دبلـوماسيـة سعديـة، وضمن رحلته التي صـادفت عهد أحمد المنصـور الذهبي، الكثير من الآراء والمواقف التي تعكس هذا الاعتـزاز بل التأكيد على الطابع الاغتصـابي للملك العثماني والترويج لفضائل حكم الأشراف السعديين وأحقيتهم في زعامة العالم الإسلامي.
عن ذلك تراجع: النفحة المسكية في السفارة التركية. خ. ع. د 795.

«مـغـربـنـا»(8) وما يعرضه بشأن أمير سجلماسة الشريف(9) وبعض المقارنات التي يقيمها بين أحوال المغرب وغيره من البلاد العربية الإسلامية، لا يظهر العياشي أي تنقيص أو عداوة في حق الملك العثماني والقائمين عليه. بل على العكس من ذلك تطالعنا الرحلة عبر مراحلها المختلفة ببعض أخبار بني عثمان وما لهم من أفضال في حق الإسلام والمسلمين. فقد اقترن ذكره لسلاطينهم باسم «ملوك البرين والبحريين»(10)، وأثنى على ما بذلوه من اهتمام بأمور الجهاد وأمن الرعايا وما ميز عهود بعضهم من إنجازات عسكرية وغزوات مشهودة(11)، كما لا يجادل العياشي في مشروعية خدمتهم للحرمين الشريفين بل يورد ما يعكس إعجابه بهذا اللقب الشريف «... ليس في تلك الأوصاف أحسن ولا أجمل ولا أكمل من قولهم فيه (يعني سلطان الترك) خادم الحرمين الشريفين فأكرم بها نسبه»(12).

يضاف إلى ما سبق، أن العياشي لا يستكنف من الإشارة إلى مفاخر آل عثمان وما كان يلازم انتصاراتهم «ونكايتهم في أعداء الدين» من

---

8) العياشي: ماء الموائد ج: I ص: 5.

9) المقصود بأمير سجلماسة الشريف المولى محمد بن الشريف الذي سجلت عدة مصادر مغربية ما بذله من جهود في سبيل تقوية نفوذ الإمارة العلوية وما عرف عنه من حرص في سبيل توسيع نفوذه وتطلع متواصل لإعادة وحدة البلاد المغربية وتوفير شروط استقرارها.
- العياشي: ماء الموائد ج: I ص: 20/19/17 وكذلك ص: 32.
- أبو القاسم الزياني: البستان الظريف في دولة أولاد مولاي الشريف. مخطوط.خ. ع. د 1577 ورقة: 10/13.
- الكردودي أحمد بن محمد: الدر المنضد الفاخر فيما لأبناء مولانا علي الشريف من المحاسن والمفاخر. مخطوط. خ. ع. د 1584 ورقة: 100.
- محمد بن شريفة: ملامح من شخصية المولى محمد الأول. دعوة الحق ع: 258 غشت 1986.

10) جاء ذلك في وصف العياشي لمراسيم خطبة الجمعة بالمدينة المنورة «... ثم بعد الدعاء لملك الترك موصوفا بكونه ملك البرين والبحرين والشامين والعراقين..». ماء الموائد ج: 1 ص: 309 ـ 310.

11) انظر على سبيل المثال ما تضمنته الرحلة عن بعض من هذه الإنجازات والغزوات: العياشي: ماء الموائد ج: I ص: 66 ـ 67 وكذا ج: II: 19 وص: 363.

12) ماء الموائد ج: I ص: 309.

أفراح وبشائر في الأملاك الإسلامية التابعة لهم. يقول في هذا الصدد أنه «وصل إلى القاهرة قبل خروجنا منها بأيام بريد من الخاقان الأعظم ملك القسطنطينية يأمر بتزيين القاهرة سبعة أيام بلياليها سرورا بفتح مدينة عظيمة(*) من مداين النصارى... فلما وقع هذا الفتح العظيم كتب إلى جميع بلاد الإسلام التي في إيالته بخبر الفتح ويأمرهم بالزينة وإظهار السرور. فزينت الأسواق والطرقات وتعطل البيع والشراء...»(13).

ويتكرر نفس المشهد عند دخول العياشي إلى طرابلس حيث يذكر: «... وجاء ونحن هناك مركب معهم كتاب من الخاقان الأعظم يأمر فيه بالزينة التي جاء خبرها ونحن بمصر فزينت طرابلس سبعة أيام بلياليها... وأكثروا من الأعاجيب من تماثيل وتصاوير. وتعطل على الحجاج بسبب هذه الزينة جل أسبابهم من بيع وشراء وزاد ذلك في أمد عطلتهم طولا...»(14).

وتكثر ضمن ثنايا هذا التأليف أوصاف التقدير والإعجاب بسلاطين آل عثمان وغيرهم من الوزراء والولاة والعمال. فقد تحدث عما للسلطان سليم الأول من فتوحات بالممالك الشامية والمصرية والحجازية وغيرها، ووصفه «بأصالة الرأي وثقابة الذهن وجودة التدبير»(15). كما لم يفته الاهتمام ببعض غزواتهم وما كانوا عليه من شهامة وعناية بالجهاد والحج ونصرة المستصرخين. يقول العياشي: «... وسمعت من غير واحد أن مولاي عبد المالك صاحب

---

* لعل ما يقصده العياشي بهذه المدينة وما كان من فتحها على يد العثمانيين هي مدينة كريت إحدى جزر البحر المتوسط الشرقي. وقد اقتحمها الأتراك في سنة 1669. وكان انتزاعها من يد البنادقة فرصة ذهبية مكنت آل عثمان من التحكم في الكثير من القلاع والحصون والجزر المتناثرة في شرق البحر المتوسط. عن ذلك يراجع: محمد فريد بك: مصدر سباق ص: 298.

كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ت: أمين فارس ومنير البعلبكي دار العلم للملايين بيروت ط: 8. 1979 ص: 518.

13) العياشي: ماء الموائد ج: II ص: 360.

14) العياشي: ماء الموائد ج: II ص: 381 ـ 382.

15) ماء الموائد ج: I ص: 363.

الغزوة الكبرى(*) كان حاضرا مع الترك في دخول تونس لما جاءهم مستصرخا على ابن أخيه محمد الشيخ وأبلى فيها بلاءا حسنا وبعد ذلك أمدوه بالعساكر لما ظهر لهم من شهامته إلى أن كان من أمره مع ولد أخيه ما كان...»(16).

وبالمقابل لا نعدم بعض العداء والذم لسلوكيات بعض عساكر الترك وما نسب لهم العياشي من مظالم وجور، وما اتصفوا به من أعجمية وتترية «وأكل لمال السلطان في غير شيء» كما جاء على لسانه(17). ويلاحظ أن هذه النبرة العدائية قد شملت الأعراب أيضا. فقد أدان العياشي أعراب بعض الجهات. ووصف عرب الجبل الأخضر مثلا «... عرب هذا الجبل من أشد العرب كفرا ونفاقا لا يعلمون حدود ما أنزل الله على رسوله ليس عندهم من الدين إلا اسمه لا حرفة لهم بعد تنمية مواشيهم إلا النهب والغارة...»(18).

وندد بعرب السلالة القاطنين بين مطروح والإسكندرية وبدى مرتاحا لما حصل لهم على يد الأتراك. يقول العياشي في هذا الشأن: «... بل عرب السلالة كلهم لا خير فيهم... ومن ذلك الوقت لم تقم لعرب السلالة قائمة ببركة الرسول ﷺ وسلط الله عليهم الترك يطردونهم كل مطرد وقتلوا منهم مقتلة عظيمة مرارا متعددة وهم الآن يهابون الركب...»(19). وجاءت أوصافه لأعراب جهات أخرى مقرونة بالتلصص والصعلكة والتعرض «لوفد الله ولوفد رسوله» يعني الحجاج(20).

---

*) المقصود «بالغزوة الكبرى» معركة وادي المخازن الشهيرة. عن هذه المعركة وما اقترن بها من تطورات في علاقة المولى عبد المالك بالأتراك، يراجع: أبي فارس عبد العزيز الفشتالي: مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا تحقيق عبد الكريم كريم. الرباط 1972.

16) ماء الموائد ج: I ص: 66.

17) يستشف ذلك من وصف العياشي لمجتمع المدينة المنورة، حيث ذكر أن «بها طائفة كبيرة من عسكر الترك زاعمين أنهم معدون لحراستها وفي الحقيقة إنما يأكلون مال السلطان في غير شيء فلا يغيثون ملهوفا ولا يردعون ظالما».
ماء الموائد ج: I ص: 302/303.

18) نفس المصدر ج: I ص: 106.

19) نفس المصدر ج: I ص: 118 ـ 119.

20) نفس المصدر ج: I ص: 119.

ومن جهة أخرى، تطفو عبر أشواط الرحلة أوصاف الاطراء والتشريف في حق بعض الأمراء الأتراك وحامياتهم العسكرية(21) وكذا بعض العرب(22) مع التنويه بما يقومون به من أعمال بر وجهاد وتكريم لمحامل الحج بل وقد أظهر ارتياحه لوجود الأتراك بشمال إفريقيا وغيرها من الجهات الواقعة على طريق الحج. وذكر ما يفيد أن ذلك الوجود هو بمثابة قضاء من الله وانتقام من أولئك الأعراب الذين كانوا يتجرأون على اعتراض الحجاج أو يسعون إلى خراب العمران(23).

وبجانب هذه الملامح المذكورة، فقد عبر العياشي عن سعادته لما لمسه من عناية المشرقي بعمارة المساجد وبيوت الله ولم يخف امتعاضه وتأسفه عن تقصير المغاربة في هذا الجانب وعدم امتثالهم. في نظره، «لتعظيم شعائر الله» بل يربط بين ذلك التقصير وبين ما كان عليه المغرب آنذاك من فتن ووهن وعدم استقرار. يقول العياشي في هذا الصدد: «... ولم يزل أهل المشرق إلى الآن لهم فضل اعتناء ببناء المساجد والخانقات ويبالغون في تعظيمها ويتأنقون في ذلك ويبادرون إلى إصلاح ما أوهى منها، وأما أهل مغربنا فلا تكاد ترى في مدائنهم مسجدا عظيما قد أحدث بل ولا مهدما قد جدد أو واهيا قد أصلح بل لو سقط شيء من أكبر مساجدهم فأحسن أحوالهم فيه إن كان مبنيا برخام أن يعاد بآجر وجص فإن كان مجصصا أن يعاد بطين بحيث تجد المسجد كأنه مرقعة فقير فيه من كل لون رقعة وإلى الله المشتكى وما أرى ما حل بمغربنا من الوهن إلا سبب أمثال هذا من تعظيم شعائر الله ولو في الأمور الظاهرة فضلا عن الباطنة وقد قيل إذا أراد الله خلاء بلد بدأ ببيته ثم يتبعه ما سواه وإذا أراد عمارته فكذلك»(24).

---

21) عن ذلك راجع: الجزء الأول من الرحلة. ص: 55 ـ 63 ـ 64 ـ 88 ـ 89 ـ 102 ـ 103 ـ 150 ـ 154. وكذلك الجزء الثاني ص: 349.

22) يلمس ذلك الود بوضوح في أحاديث العياشي عن أهالي طرابلس وبلاد سرت وابن غازي وغيرهم... ج: I ص: 86/89، 102 إلى 106.

23) العياشي: ماء الموائد ج: I ص: 119.

24) العياشي: ماء الموائد ج: I ص: 156.

ويكشف هذا النص وغيره مما احتوته الرحلة عن عمق التفاعل الحضاري والفكري بين المغرب وغيره من البلاد العربية الإسلامية، كما يعكس قناعة العياشي بوحدة «دار الإسلام السنية» وعدم تقيده أو تعبيره عن أية نزعة إقليمية أو مذهبية ضيقة. فقد تحدث بما يفيد التكامل والانفتاح بين المذهب المالكي والمذهب الحنفي(25): وطغت عبر أشواط رحلته هذه معالم الزهد وامتداح من يسعى «لإظهار الحق والقول به»(26) والاعتزاز بمن يتمسك بمبادئ الإسلام ويعمل من أجل تحقيق العدالة الشرعية وما تستلزمه تلك العدالة من ورع وعدل وتفان في خدمة المسلمين وضمان أمنهم وطمأنينتهم. واحتوت الرحلة أيضا انتقادات محددة لبعض جوانب الحياة الاجتماعية في البلاد المشرقية ولما اعتبره العياشي أوجه قصور في ممارسات بعض الشيوخ والفقهاء(27) وثغرات في الأحكام الإدارية والشرعية بهذه البلدان. فقد ذكر مثلا «إن المناصب الشرعية كلها في البلاد المشرقية حجازا ومصرا وشاما من إمامة وخطابة وآذان وإقامة وقضاء وفتوى وشهادة بل ووقيد المساجد إنما تنال بالشراء من الولاة فإذا مات صاحب خطة أو عزل دفع الراغب فيها مالا للولاة فيولونه مكانه على أي حال كان من صلاحيته. لذلك أم لا فعظم الخطب على المسلمين والإسلام»(28).

وإذ يصعب الإلمام بكل تفاصيل الصورة التي عكستها رحلة العياشي. نؤكد مجددا على الحضور القوي للمؤثرات السلفية والعلمية في أحاديث الرحلة وانحياز صاحبها إلى صف من يسعى إلى العمران والعدل والجهاد وتحامله على من له يد في الخراب والجور وأهمال

25) يستشف ذلك مما ذكره العياشي إثر مثوله بالرملة بين يدي إمام الحنفية خير الدين الزماني: «جلست عنده عامة يومي والفتاوي ترد عليه من أقطار الشام فيجيب عنها بلا أجر وله ملكة وقوة عارضة في مذهب أبي حنيفة ومما أخبرني به أن عند علماء الحنفية إذا لم يوجد حكم الفرع منصوصا عليه عندهم ووجد حكم ذلك الفرع في مذهب مالك فإنه يحبب العمل به عندهم لأن أصول الأمامين متقاربة...».
ماء الموائد. ج: II ص: 311 ـ 312.

26) العياشي: ماء الموائد ج: I ص: 288/289.

27) العياشي: ماء الموائد ج: I ص: 295/296.

28) العياشي: ماء الموائد ج: I ص: 288.

شعائر الله ومستلزمات عقيدته السمحاء. وقد تحددت مواقف العياشي إزاء من أتى على وصفهم بناءا على هذه المرجعية. ومن جانب آخر، لا تفيدنا الرحلة كثيرا بخصوص ما عاصرته من أحداث وتحديدا تلك التي تتعلق بمستجدات السلطنة العثمانية وتوابعها من البلدان العربية وكذا ما طرأ من تحولات نوعية في مسار العلاقات المغربية التركية الجزائرية. فرغم ما عرضته من حديث ودي في شأن شريف سجلماسة وتحديد دقيق لمجالات نفوذ إمارته الناشئة، يتجاهل العياشي ما شهدته هذه المرحلة من احتكاكات عسكرية واتصالات دبلوماسية بين المولى محمد بن الشريف وبين أتراك الجزائر(29)، بل أن الرحلة لا تلتفت إلى أهم حدث عرفته علائق الطرفين والمتمثل أساسا في التوصل إلى تسوية سياسية تقضي «بتحديد الحدود» بينهما. وتعهد الشريف العلوي باحترام وادي تافنا كحد طبيعي فاصل بين إيالة الجزائر العثمانية والإمارة العلوية الصاعدة(30). وربما يفيد هنا التجاهل في اتأكيد ميولات العياشي الوحدوية وتبرير ما عكسه من تفاعل وانفتاح إزاء السلطنة العثمانية والولايات العربية التابعة لها مما يخالف في الكثير من جوانبه محتويات رحلة أبي الحسن التمكروتي(31).

أما النقطة الثانية من هذا العرض، فتتمحور حول رحلة أبي القاسم الزياني «الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا». ونقف بشكل عام ومركز عند أبرز الخاصيات التي تطبع مضمون هذه الرحلة، وما غصت به من أخبار وأحكام خاصة بالسلطنة العثمانية وبعض توابعها من البلدان العربية. فقد حفلت بمعلومات وعناصر

---

29) عن ذلك تراجع رسالة صاحب هذا العرض:
المغرب وباشوية الجزائر. (مرجع سابق) ص: 118 ـ 122.

30) للمزيد من الإيضاح. انظر:
رسائل مخطوطة ضمن مجموع خ. م رقم 10898 ورقة: 35/40.
الضعيف الرباطي: تاريخ الدولة السعيدة. ت: أحمد العماري. الرباط 1986. ص: 20 ـ 30.

31) أبي الحسن التمكروتي: النفحة المسكية في السفارة التركية. ص: 70 ـ 75.

حضارية متنوعة تهم البلدان والشعوب التي تناولها الزياني الأمر الذي يضفي عليها طابع الموسوعية والشمولية. كما أن معاصرتها لمرحلة متميزة من تاريخ آل عثمان وما سجله من معطيات وأحداث عن علاقات المغرب بالباب العالي فضلا عن المهام الدبلوماسية التي تكلف به الزياني وما عرف عنه من كثرة ترحال وتردد وإقبال على الوجهاء من رجال السياسة والعلم والدين في المغرب والمشرق الإسلاميين، مميزات واضحة في متون هذا التأليف، وترجمة صادقة لما له من قيمة مصدرية، ولأهم المنطلقات والتوجهات التي حكمت رؤية هذا الرحالة الدبلوماسي المغربي لما يعالجه من قضايا وما يطلقه من أحكام وتقييمات في شأن العثمانيين وبعض أتباعهم.

فبالنسبة للعثمانيين، نشير، بإيجاز، إلى أن الزياني الذي انتقل إلى القسطنطينية سفيرا من لدن السلطان العلوي محمد الثالث إلى السلطان العثماني عبد الحميد الأول(32)، قد عبر بوضوح عن مواقف وذو تقدير في حق السلطنة العثمانية، وذكر عبر صفحات رحلته وأشواطها المختلفة بما لسلاطينها من سعي لأفعال البر وما هم عليه من محبة لأهل الخير والدين، كما تناول ما قاموا به من جهاد وما ميزهم من خدمة ورعاية للحرمين الشريفين. ووصف الأتراك بـ «أنهم أناس لطاف خصوصا أهل الدول وأهل المناصب والتجار والقضاة والعلماء والشهود..»(33) وزخرت الرحلة بمواقف تكريم وإعجاب إزاء العديد من المعالم التاريخية والحضارية العثمانية، وجاء على لسانه مثلا أن «من شاهد هذه الاصطنبول فقد شاهد العالم كله»(34) وذلك كدليل على قناعة الزياني بضخامة ملك لعثمانيين وروعة عاصمتهم. وتضمنت الرحلة أيضا أخبار هامة ودقيقة عن صلات الود والتضامن القائمة آنذاك بين المغرب والعثمانيين، وما

32) يصف الزياني السلطان عبد الحميد الأول بأنه كان «من الصالحين ساعيا في أفعال البر محبا لأهل الخير والدين....» الترجمانة الكبرى. ص: 121.

33) الزياني: الترجمانة الكبرى. ص: 172.

34) الزياني: الترجمانة الكبرى. ص: 133.

اقترن بتلك الصفحة المشرقة من مساعدات مادية وعسكرية وما ميزها من انفتاح وتعاون بين الجانبين(35). ويظهر أن خطاب الزياني ضمن هذا الجانب قد تمثل بدون مواربة ميولات السلطة المركزية المغربية في تلك الفترة وما اتسمت به توجهات المولى محمد بن عبد الله من تآزر وانشغال بنصرة الإسلام ودعم العثمانيين. كما اهتم الزياني بانشغالات العثمانيين العسكرية وما صادفوه في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي من نكسات ومحن وما هم عليه من تراجع وتقهقر على لجبهتين الأوربية والإسلامية معا. فهم حسب قوله: «... لا يتصرفون إلا فيما جاورهم من بلاد الروم إلى الاصطنبول والممالك البحرية وممالك العرب إلى بغداد لا غير... ولم يزل أمر هذه الدولة العثمانية يضعف وهي في مرض من الأيام... وحتى هذه الممالك التي تحت حكمهم ببلاد العرب لا ينتفعون منها بشيء ولا يجبى لهم منها مال كالجزائر وتونس ومصر والشام وحلب والجزيرة وبغداد، أمراؤهم يأخذون خراجها ولا يحصل لهم منها إلا الدعاء على المنابر ورسمهم على الدنانير...» (36).

وتزدحم ضمن ثنايا هذه الرحلة مواقف التكريم والاطراء إزاء عدة وزراء وولاة وغيرهم من القائمين على أمور السلطنة في المركز وفي بعض الولايات العربية التي دخلها الزياني، وقد اقترنت تلك المواقف غالبا بما كان يحظى به هذا الرحالة من ترحاب ومهاداة وتكريم من جانب هؤلاء وغيرهم ممن أتت الرحلة على ذكرهم عبر أشواطها المختلفة(37). كما تتخلل هذه الرحلة بعض مواقف النفور من سلوك عساكر الترك ولوما لممارسات الجور والقهر التي ميزت بعضهم. فقد

35) لعل النص الآتي خير شاهد على بعض جوانب هذه الصفحة المشرقة. يقول الزياني: «إن أمير المؤمنين (محمد بن عبد الله) كان كثيرا ما يوجه الهدايا للاصطنبول للسلطان مصطفى بن أحمد العثماني. ولأخيه بعده عبد الحميد بن أحمد وكان يوجه بها مع أخصائه من أعيان دولته. واتصلت بينه وبين ملوك بني عثمان مودة كثيرة...» الترجمانة.. ص: 82.

36) الزياني: الترجمانة الكرى. ص: 355/356.

37) الزياني: الترجمانة الكبرى. ص: 152 ـ 167 ـ 188 ـ 280 ـ 378.

ذكر مثلا أن مدينة بسكرة في إيالة الجزائر هي «... من أحسن المدن لكثرة مرافقها وخصبها وتوسطها بين التل والصحراء وبها مساجد معتبرة البناء وأهلها تحت قهر الترك ومذلة العرب»(38).

وتورد الرحلة أيضا إشارات خجولة لبغض الأتراك لجنس العرب(39) وتشنيعا بظاهرة «بيع المناصب» المستشرية في بلاد المشرق، وذكر أن انعدام هذه الظاهرة بالمغرب هي «إحدى المسائل التي فضل بها المغرب المشرق...»(40) كما عرض بما كان عليه القضاة في الشرق من ارتشاء وعدم عدل بكيفية تكاد أن تكون مشابهة لما سبق أن تتبعناه مع الرحالة العياشي، يقول الزياني: «فقد عمت البلوى في هذه الدولة العثمانية في القسطنطينية وبلاد الترك كلها ومصر والشام والعراق وخراسان وما وراء النهر. وباعوا (يعني القضاة) آخرتهم بدنياهم... فليس للوعظ فيهم عمل ولا تأثير. فإنها (أي الرشوة) عندهم جباية من أصول ويسمونها بالمحصول، فتجد القاضي يناضل على قبضه ويصول من غير ارتياء ولا حشمة ولا استحياء... كأنه حق واجب...»(41) ولم يفت الزياني الاهتمام بالحركة الوهابية وما حققته من إنجازات عسكرية وسياسية ومذهبية بجزيرة العرب «فالوهابي هو صاحب الأمر بجزيرة العرب»(42) مع التشديد على فساد هذا المذهب والارتياح لما أحرزه محمد علي من نجاح ضد الوهابيين وأتباعهم. وقد علق على ذلك بأن ظهور محمد علي الأرنؤوطي مصداق لقوله ﷺ أن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر(43). ويخالف هذا الموقف ما يورده الزياني في شأن حمودة باشا الذي يثني على ملكه في تونس، ويصفه بالاستقامة والعدل في الجند والرعايا. يقول في هذا الصدد: «ولا زال كرسيهم بها بين خلفائهم من الأتراك أمرائها

38) الزيانين: الترجمانة الكبرى. ص: 149 وكذلك ص: 83.

39) الزياني: الترجمانة الكبرى. ص: 357.

40) الزياني: الترجمانة الكبرى. ص: 232.

41) الترجمانة الكبرى. ص: 279.

42) الزياني: نفس المصدر. ص: 355.

43) نفسه. ص: 357.

ودولتهم مستقيمة مبسوطة العدل في الجند والرعايا وهم أحسن ملوك الأقاليم العربية والعجمية وفقهم الله وأطال أيامهم»(44).

وطبعا، تحتوي الرحلة تمجيدا ظاهرا لحكم الأشراف العلويين بالمغرب. وأوصاف مسهبة في حق سلاطينهم وما يتصفون به من حسن تدبير وعناية بالتضامن والعدل ومحبة أهل العلم ونصرة الإسلام. فقد أشار الزياني إلى ما كان عليه المولى محمد بن عبد الله من ولع «بأفعال الخير وادخار ثوابها للآخرة، وكان ينفق الأموال التي لا تسمح نفس ملك بإنفاقها ابتغاء مرضاة الله وثوابه»(45). وأشاد بفضائل المولى سليمان الدينية والدنيوية. وذكر أنه «لولا أن الله تدارك أهل الإسلام بوجود هذا الإمام العالم العادل الكامل لأكل القوي الضعيف ودعا الدين داعي التبديل والتحريف...»(46) ولا تخلو الرحلة من أوصاف ذميمة في حق بعض العرب (كعرب أنكاد...) وكذا من يسميهم الزياني بإجلاف البربر وأهل الجبال وصعاليك البربر. وجاء على لسانه «نحن من صعاليك البربر الذين لا يميزون بين الطيب والخبيث»(47).

وفي الختام، يحسن بنا أن ننهي هذا العرض بالتنصيص على الخلاصات التالية:

* إن أية محاولة لاستجماع عناصر الصورة التي رسمتها عامة الكتابات المغربية للعثمانيين لا يمكن أن تعزل عن إطار أشمل تعكسه مجموع الإنتاجات الفكرية العربية الإسلامية ومواقف أصحابها من تاريخ السلطنة العثمانية، مع التنبيه إلى بعض الخصوصية التي تطبع التآليف المغربية بحكم انتمائها إلى قطر عربي إسلامي غير تابع لسلطان آل عثمان وما استتبع تلك الوضعية من أحداث ووقائع في علاقات الطرفين. فضلا عما خلفته من آثار ظاهرة أو مستترة ضمن توجهات ومتضمنات هذه الكتابات.

---

44) الزياني: الترجمانة. ص: 167.

45) الزياني: الترجمانة. ص: 131.

46) الزياني: نفس المصدر. ص: 55/56.

47) الزياني: الترجمانة الكبرى. ص: 105.

* لا يجادل المرء في أهمية ونوعية ما تكتنزه الرحلات المغربية الحديثة، ومنها رحلتي العياشي والزياني، من أفكار ومشاهدات وآراء خاصة بالعثمانيين وما زخرت به من توصيفات وصورتهم جوانب عدة من تاريخ وحضارة الولايات العربية التابعة للباب العالي.

* بصرف النظر عما يلاحظ على هتين الرحلتين (رحلة العياشي ورحلة الزياني) من نقائص في الشكل والمضمون. يمكن اعتمادهما للتأريخ للفكر العربي الإسلامي في المغرب والمشرق الإسلاميين. وبالتالي تبين الآفاق الدينية والمرجعية السلفية التي كانت تؤطر ذلك الفكر وتطغى على منتوجاته المعرفية في مختلف أجناسها وأشكالها.

* تسمح مطالعة النموذجين المختارين في هذه المداخلة بالتأكيد على الاختلافات الحاصلة ضمن توجهات ومنطلقات كل واحد منهما. ومع ذلك يلاحظ تقاربهما في تناول أخبار العثمانيين بالمديح والإعجاب في أكثر من موضع والإشادة بخدمتهم للحرمين الشريفين بل العزوف عن إشارة مسألة الشرعية بالنسبة للملك العثماني.

* يعاب على هذين النموذجين وغيرهما من الكتابات العربية الإسلامية التي اهتمت بتاريخ العثمانيين عدم وعي مؤلفيها وعدم إحساسهم بعلامات التراجع والتقهقر التي ميزت تاريخ «دار الإسلام» في مقابل «دار الحرب»، بل وقد غاب عن هذه الكتابات ما بدى من عجز وشيخوخة في تاريخ السلطنة العثمانية منذ العقود الأخيرة من القرن السادس عشر الميلادي وطيلة القرون اللاحقة. فبالنسبة لهؤلاء يظل سلطان العثمانيين تجسيدا «لملك البرين والبحرين» ورمزا لعظمة الإسلام ونكاية في أعداء الدين. ولا يرى الزياني على سبيل المثال في الاتصالات التي كانت تقوم بين سلاطين المغرب وسلاطين آل عثمان عن طريق الأساطيل الفرنسية والإسبانية والإنجليزية إلا ما يؤكد، حسب زعمه، «غلبة المسلمين ونكايتهم في أعداء الدين وإرغامهم لأنوف طواغيت الكفر»(48). مع أن الحقيقة غير ذلك.

---

48) يقول الزياني ما نصه: «إن مراده (أي السلطان محمد بن عبد الله) من توجيه المال على يد طواغيت الكفر النكاية لهم والإرغام لا نوفهم» الترجمانة الكبرى. ص: 131.

* أمـا الملحـوظـة الأخيرة، فتـؤكـد على صعـوبـة الجزم بمـدى موضوعية وشمولية مثل هذه الكتـابات، وكذا ما يصادفه الباحث من عناء في الفصل بين ما هو ذاتي وبين ما هـو موضوعي في متضمنات هذه التـآليف. وإذا كانـت هذه الملحوظـة تكاد تستـوعب مجمل كتب الـرحلات، فإننـا سنقتصر على النموذجين المختـارين في هذا العـرض قصد وضع اليد على بعض هفواتهما. فقـد ردد العياشي ومعه الزياني خدمة العثمانيين للحرمين الشريفين وأطنبا في وصف تفانيهم في رعاية أمـور الحج، ولكن في المقابل لا يفيـد أن شيئـا بخصوص السـلاطين الذين امتثلـوا لهذه الخدمة عبر زيارة الأمـاكن المقدسـة وأداء مناسك الحج أو العمرة. وفي هذا السياق لا نعلم إلا عن تنقل بعض السلاطين الأتراك إلى المشرق لـدواعي عسكريـة محضة (السلطـان سليم الأول، سليمان القانـوني وكذا مراد الـربع) كما لا نعرف أن أحد هـؤلاء قد تجشم عناء زيـارة الحرمين الشريفين أو استيفاء أحد أركـان الإسلام الخمسة(49). وتزداد الحيرة إذا مـا علمنا أن هـذه الخدمة قـد شكلت مصـدرا مـن مصـادر مشروعيـة السلطـان العثماني على المستـوى الإسلامـي والمسيحي، وازدادت أهميته باتسـاع المخاطـر التي واجهت العثمانيين، وبازدياد وتيرة الانحطـاط وتعاظم مواطن الخلل في جسـم «الرجل المريض».

49) الجميل سيار: العثمانيون وتكوين العرب الحديث. ط. I بيروت 1989. ص: 44.

المحور الخامس

الرحلات الدينية

خبايا رحلة يحيى بن إبراهيم الجدالي
إلى الحج (حوالي 427هـ)

د. إبراهيم القادري بوتشيش
كلية الآداب ـ مكناس

يهتم الملف الذي نزمع فتحه في هذه الدراسة، بتفكيك مكونات الصلة بين الرحلات الحجية والدعوات السياسية وقيام الدول، وذلك من خلال نموذج رحلة يحيى بن إبراهيم الجدالي للديار المقدسة حوالي سنة 427هـ ونعتقد أن الكشف عن خبايا تلك الرحلة وعلاقتها بالمشروع السياسي، رهين بقراءة خلفياتها وأبعادها انطلاقا من التساؤلات التالية: هل كانت رحلة يحيى بن إبراهيم الجدالي إلى الحج ذات بعد ديني صرف، أم أنها كانت وليدة خطة سياسية محكمة أفرزها واقع معين وظرفية خاصة؟ وما هو سر لقائه ـ أثناء تلك الرحلة ـ بأبي عمران الفاسي قطب المالكية بالغرب الإسلامي؟

لسوء حظ الباحثين، تتكتم المصادر التاريخية عن الإجابة على هذه التساؤلات، وتقتصر على ذكر خبر حج الزعيم الجدالي باقتضاب شديد، وتصوره كحدث عفوي أو فكرة عارضة عنت له، دون ربطها بنسيج خطة مسبقة.

وأمام غياب نصوص واضحة وصريحة، اختلف الدارسون المحدثون في تحديد أبعاد الرحلة وأهدافها. فمنهم اعتبرها تتويجا للنهضة التي حققتها قبائل صنهاجة الجنوب بعد نجاحها في تشكيل حلف صنهاجي ثالث، وسيطرتها النهائية على مسالك التجارة

الصحراوية في بداية القرن الخامس الهجري (11م)(1)، بينما اختزلها البعض في مجرد محاولة لبعث الإسلام الذي ظل سطحيا في أوساط تلك القبائل حتى حدود المائة الرابعة(2). أما عن لقاء صاحب الرحلة بأبي عمران الفاسي، فمن الباحثين(3) من اعتبره مجرد صدفة جادت بها الأقدار، في حين فسر البعض لقاء الرجلين تفسيرا شعوبيا إثنيا فذهب إلى القول أن سبب توقف الزعيم الصنهاجي بالقيروان ولقائه بأبي عمران يكمن في تواجد القبائل الصنهاجية بهذه المدينة(4)، بينما لم يكلف البعض نفسه عناء التفسير والتحليل، فاعتبر اللقاء مجرد رحلة علمية غير مرتبطة بأي خطة أو شبكة من العلاقات المتداخلة(5).

ومن إنصاف الحقيقة والموضوعية، أن بعض الدراسات(6) فطنت إلى وجود خطة حددت أهداف الرحلة الحجية ومكان اللقاء بين الرجلين، غير أنها لم تعالجها في إطارها الشمولي، ولم ترصد تموجات تلك الشبكة من العلاقات غير المكشوفة.

من هذه الفرضية، أي وجود صلة بين الرحلة المذكورة والدعوة لإقامة دولة سنية مالكية في الغرب الإسلامي وفق خطة محكمة ومنسقة، سننطلق في هذه الدراسة. ومما يشفع لنا في صحة هذا المنطلق نص ورد في إحدى كتب الأنساب، وهو «بيوتات فاس الكبرى»

---

1) عنان: دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي. القاهرة 1969 (ط 2) دار الكتاب العربي للطباعة والنشر. ص: 301.

2) LAROUI: Histoire du Maghreb: Essai de synthèse. Paris 1975 T_1 p: 146

3) ابن عثمان المراكشي، الجامعة اليوسفية بمراكش في تسعمائة سنة، الرباط 1937 ـ المطبعة الاقتصادية ص: 17.

4) Cuoq: L'histoire de l'Islamisation de l'Afrique de l'Ouest dés origines à la fin du 16e siècle. Ed. Paris (S.D.E.). p: 32.

5) محمد الفاسي: عبد الله بن ياسين وانتشار الإسلام بإفريقيا. المجلة الإسلامية عدد 12 سنة 1982 ص: 29.

6) انظر: صباح الشيخلي: حقائق جديدة عن الحركة المرابطية. مجلة المؤرخ العربي عدد 27 سنة 1986.

لمؤلفه ابن الأحمر (عاش في القرن 8هـ)(7)، وهو نص من الأهمية بمكان، إذ أنه يميط اللثام عن خبايا تلك الرحلة الحجية، ويكشف عن كثير من دوافعها، بل يذهب باجتهاداتنا إلى حد التأكيد، خصوصا أن نتائج تلك الاجتهادات لها ما يزكيها من الطروحات الخلدونية كما سنؤكد بعد قليل.

ونعتقد أن القبض على خيط الحقيقة يتطلب الوقوف على ظرفية رحلة يحيى بن إبراهيم وتشريحها للخروج بتصور سليم يكشف النقاب عن خباياها وما ورائياتها. ويخيل إلينا أن تحليل التحولات التي حدثت في بداية القرن 5هـ أي قبيل الرحلة، قمين بالإجابة عن تلك التساؤلات والدفع بالفرضية إلى الأمام. فما هي أهم تلك التحولات على الصعيد الاجتماعي والاقتصادي والمذهبي في المغرب؟

1) علاقة رحلة يحيى بن إبراهيم بطموح القوى الهامشية في إنقاذ الخلافة الإسلامية :

تشكل بداية القرن 5هـ (11م) بحق منعرجا هاما لا في الخريطة المغربية فحسب، بل في ميزان القوى العالمية آنذاك. ولعل من أبرز تلك التحولات وأكثرها وقعا على تغيير موازين القوى، ما شهدته بداية هذا القرن من تحولات على المستوى الديموغرافي البشري، إذ حدثت هجرات عالمية واسعة، وتحركات قبلية وعسكرية أحدثت تبدلات وتغيرات عميقة في هذه الفترة بالذات.

ففي المشرق الإسلامي بدأت هجرة السلاجقة من المناطق النائية والسهوب المقفرة بتركستان نحو بغداد(8)، بينما حدثت في المغرب تحركات واسعة للمجموعات الصنهاجية الجنوبية من الصحراء نحو

7) نشره الأستاذ عبد الوهاب بن منصور بالمطبعة الملكية ـ الرباط 1972 (دار المنصور).

8) ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي. المطبعة الوهبية. ج 1، ص: 384.

الواحات والسهول المغربية. كما شهدت إفريقية بدورها هجرة بني هلال الوافدين من صعيد مصر(9).

ولم يشذ الغرب المسيحي عن ذات القاعدة، فالأزمة التي عرفها النظام الفيودالي في القرن 11م وجهت أنظار أمراء الإقطاع للقيام بهجرات واسعة وتحركات عسكرية نحو بلاد المشرق الإسلامي.

ولم تكن هذه الهجرات بريئة البتة، بل عبرت عن تطلع روادها للتغيير، فالخلافة الإسلامية صارت نهبا لكل القوى المغامرة، وأصبح الضعف ينخرها بسبب فقدان سيطرتها على شرايين الملاحة البحرية وانفلات دور الوساطة التجارية من يدها(10).

ولم يكن الغرب الإسلامي في وضع يحسد عليه. ولا غرو فقد تعثرت فيه المحاولات الوحدوية، إذ فشلت التجربة الوحدوية الأموية بالأندلس، كما آلت محاولة الفاطميين إلى نفس المآل، فآثروا الانسحاب نحو مصر. وبذلك أصبحت المنطقة نهبا للقوى القبلية المتناحرة، حتى أن بعض الدارسين نعتوا هذه الحقبة بـ «عصر الفوضى السياسية»(11).

مقابل ذلك كان الغرب المسيحي يشهد تحولات معاكسة. ولا غرو فقد بدأت فيه إرهاصات النهضة البورجوازية تعرف بذورها الأولى، وأخذت الممالك النصرانية تجنح نحو الوحدة والاندماج السياسي، وبدأ وعي شعوبها يستيقظ. ودعمت هذه النهضة السياسية بإنعاش الحركة التجارية(12)، فغدت أساطيل جمهوريات إيطاليا تجوب البحر

---

9) الباجي المسعودي: الخلاصة النقية في أمراء إفريقية. تونس 1323هـ ص: 47 ـ 48.

10) محمود إسماعيل: الإقطاع في العالم الإسلامي من منتصف القرن الخامس إلى أوائل القرن العاشر الهجري بين الجدل النظري والواقع التاريخي. حوليات كلية الآداب ـ جامعة الكويت الحولية رقم 11 سنة 1410 ـ 1411هـ. ص: 36.

11) Coissac de Chaurebiere: Histoire du Maroc. Paris 1931; p: 157.

12) محمود إسماعيل: مقالات في الفكر والتاريخ. البيضاء 1979. دار الثقافة ص: 31.

المتوسط طولا وعرضا على حساب الأساطيل الإسلامية(13)، حتى تمكنت من أخذ زمام الوساطة التجارية بين الشرق والغرب، ومن ثم بدأت تحلم باحتلال أراضي «دار الإسلام».

بديهي أن تؤثر هذه «الصحوة المسيحية» على مسار تطور العالم الإسلامي الذي كان عليه أن يتصدى للمشروعات الصليبية التوسعية ويسترد دور الوساطة التجارية في البحر المتوسط. غير أن فشل البويهيين والفاطميين في القيام بهذه المهمة جعل الدور ينتقل من القلب إلى الأطراف الهامشية ليصبح من نصيب القوى «الطرفدارية» الضاربة في أطراف «دار الإسلام». فلم تكن الهجرات التي أشرنا إليها آنفا سوى تجل لهذا الطموح الذي مثله السلاجقة في الشرق، وصنهاجة الجنوب في المغرب. ومعلوم أن يحيى بن إبراهيم كان أحد زعماء هذه القبائل الصنهاجية التي كان يحدوها الأمل في القيام بدور القوى المنقذة للعالم الإسلامي.

غير أن القيام بهذا الدور الإنقاذي كان يستلزم مرجعية دينية، وهو ما أكده ابن خلدون في نظرياته، وهنا يكمن سر رحلة يحيى بن إبراهيم التي توخى منها إيجاد سند ديني يرتكز عليه لتحقيق الطموحات التي راودته. لكن أين كان مقصده بالذات؟ وأين كان يعول على إيجاد هذا السند الديني؟ وهل ثمة من النصوص ما يؤكد ذلك؟

سنترك الإجابة إلى حينها، ونواصل تحليلنا لظرفية هذه الرحلة الحجية.

2) علاقة رحلة يحيى بن إبراهيم بتحولات الطرق التجارية :

أصبحت تجارة القوافل الصحراوية تكتسي بعدا هاما في النظام الاقتصاديّ الدولي منذ القرن 3هـ. غير أن تحولا هاما لحق بخط سيرها في بداية القرن 5هـ سيكون له الأثر الأكبر في تفوق صنهاجة الجنوب.

---

13) حسن محمود: قيام دولة المرابطين. القاهرة 1957. ص: 240.

لقد انطمس الطريق التجاري الرابط بين غانة ومصر بسبب العواصف الرملية التي اجتاحته، مما جعل القوافل مضطرة لتغيير خط عبورها لتسلك الطريق الساحلي المار بديار صنهاجة الجنوب عبر سجلماسة(14).

ولا تعوزنا الأدلة لتفسير هذا التحول: من ذلك قرار أحمد بن طولون (863 ـ 883 م) بإغلاق مسالك الصحراء الشرقية(15)، ناهيك عن الاجتياح الهلالي الذي خرب الطرق التجارية وأشاع الذعر والرعب وانعدام الأمن(16)، حتى أن ابن الخطيب(17)، اعتبر هذا الحدث من «مصائب الإسلام».

وعلى كل حال، فإن النشاط الاقتصادي الصحراوي أصبح يتركز ابتداء من القرن 5هـ في إفريقيا الغربية التي أصبحت منذئذ «منطقة نافعة» على حد تعبير أحد الدارسين(18). وكانت صنهاجة الجنوب أكبر مستفيد من هذا التحول إذ أصبحت سيدة الطرق الصحراوية دون منازع(19)، فتدهور الطرق التجارية بإفريقية جعل الأهمية تنتقل نحو الطريق التجاري المار بديار القبائل الصنهاجية(20) التي أصبحت تملك مفتاح الطريق نحو السودان(21).

---

14) حركات: المغرب عبر التاريخ. البيضاء 1965 دار السلمي ج 1، ص: 237.

15) ناعمي: الصحراء من خلال بلاد تكنة: تاريخ العلاقات التجارية والسياسية. الرباط 1988 ص: 42.

16) الدباغ: معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان. طبعة مصر 1978 ج: 3، ص: 252.

17) أعمال الأعلام ـــ تحقيق أحمد مختار العبادي ومحمد بن إبراهيم الكتاني. البيضاء 1964 دار الكتاب ج 3، ص: 77.

18) Histoire du Maroc. Casa 1946. T1. p: 213.

19) Les touaregs au pays du Cid: Les invasions Almoravides en Espagne du 11e au 12e siècle - Paris 1946 - p: 68.

20) الوزان: وصف إفريقيا ـ الرباط 1980 (الترجمة العربية) ج 1، ص: 198.

21) حسن محمود: الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا. طبعة 1986 (ط 3) دار الفكر العربي ص: 204.

وبفضل إحكامها تنظيم حركة القوافل التجارية، كانت هذه القبائل الصنهاجية قد حصلت على فـائض جعلها تتطلع إلى الانتقال من دور الوســاطة إلى السطـرة النهائيـة على الطرق التجاريـة، فشكلت الحلف الصنهـاجي الأول، وعـدمته بسيطـرتها على غـانـة، واستيلائهـا على أودغشت المحطة الرئيسية لتموين القوافل التجارية القادمة من الشرق نحو بلاد السودان.

وإذا كـان تفكك هذا الحلف قـد سمح لغـانة بـاسترداد أودغشت حوالي 306هـ فإن صنهاجة التي أدركت ما ينجم عن تفكك حلفها من خسائر، سرعـان ما عادت إلى إحياء الحلف بـزعامة محمـد بن تيفات اللمطي بـدليل أن ابن حـوقل الذي زار المنطقـة آنـذاك وصف قوتـه وصلابته. وبذلك عادت صنهاجة الجنوب إلى فرض هيمنتها من جديد على أودغشت، وبالتالي على الطرق التجارية(22). غير أن وفاة محمد بن تيفات المذكور أسفر عن انفراط الحلف الصنهاجي الثاني. لكن زعامة صنهاجة آلت بعد ذلك إلى يحيى بن إبراهيم الجدالي الذي أعاد تشكيل الحلف الصنهاجي للمرة الثالثة مدفـوعا بالرغبة في الهيمنة على تجارة العبور(23)، ومستفيدا بـالتحولات التي طرأت على الطرق التجـارية في بداية القرن الخامس الهجري، وبـذلك توفرت الشروط المادية للنهضة الصنهـاجية الثـالثة التي تحققت في العقـدين الأولين من هذا القـرن، فاستغلت ظروف انهيار العالم الإسلامي لتنتج مشروعا سياسيا كان في حاجـــة إلى سنـد شـــرعي، ومـن ثـــم نعتقد أن حج يحيى بـــن إبراهيم جـاء تتـويجـا لهـذه النهضة الاقتصاديـة، وبحثا عـن سنـد ديني لمشروع ذو بعـــد سيـــاســـي مرتكـــز على قاعـــدة مـــاديـــة صلبـة.

---

22) عبد الرحمن زكي: الإسلام والمسلمون في غـرب إفريقيا. مطبعة يوسف (د. ذ. م) ص: 21.

23) نفسه ص: 22، 23.

3) علاقة رحلة يحيى بن إبراهيم بظاهرة المد السني :

من الثابت أن القرن 5هـ شهد صراعا ضاريا بين المذهبين السني بفرعيه الأشعري والمالكي من جهة، والشيعي من جهة أخرى. ولعبت القوى الهامشية «الطرفدارية» أدورا حاسمة في هذا الصراع إذ جند السلاجقة أنفسهم لنصرة المذهب الأشعري في الشرق، بينما قامت صنهاجة الجنوب بنصرة المذهب المالكي في الغرب، ومحاصرة التيار الشيعي المتربص به.

وعندما أخذ السلاجقة بناصية الحكم، وأنعشوا حركة التجارة في المدن(24)، بدأ التيار السني ينتشر مع خط رحلة التجار. وفي الوقت ذاته، لم يتورعوا عن استخدام القوة العسكرية لتثبيت دعائمه(25).

إلى جانب هاتين الوسيلتين، اعتمد السلاجقة على أسلوب جديد لنشر مذهبهم ومحاصرة المذهب الشيعي. ويتجلى ذلك في إنشاء المدارس النظامية التي وصفت بأنها «جند لا ترد سهامها بالأسحار»(26). وتم تأسيسها في أهم المدن حسب توزيع جغرافي محكم حتى تؤدي غاياتها وتحقق الأهداف المتوخاة منها(27).

وأسفر تأسيس هذه المدارس عن انتصار بين للمذهب السني وتكوين أطر كلفت بتدريس ونشر العقيدة الأشعرية.

---

24) محمود إدريس: تاريخ العراق والمشرق الإسلامي خلال العصر السلجوقي الأول. القاهرة 1985. نهضة الشرق. ص: 194، 195.

25) السيوطي: تاريخ الخلفاء. بغداد 1987. ويذكر في عدة مواضع العمليات العسكرية التي قام بها السلاجقة لتحقيق هذا الغرض. انظر في هذا الصدد ص: 418، 419، 424، 425، 427.

26) ابن إبراهيم المراكشي: الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام. فاس 1936. ج 1، ص: 108.

27) بدوي: التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني في المشرق الإسلامي من القرن 5 الهجري حتى سقوط بغداد. القاهرة 1988 (ط 2) دار الوفاء للطباعة والنشر. ص: 180.

وبذلــــك كسب جــولتـــه الأخيــرة في صـــراعـــه مع المذهـــب الشيعــي(28).

غير أن أهم نتيجة تمخضت عن إنشاء هذه المدارس تجلت في توافد المغاربة والأندلسيين عليها، وتشبعهم بالتيار السني والعودة لنشره في المغرب والأندلس خلال نفس الحقبة(29).

أما في إفريقية، فبعد المحنـة العسيرة التي ألمت بفقهاء المالكية إبان حكم العبيديين(30)، عرفت بـداية القرن 5هـ انتصـارا بينـا للمذهـب السني إذ صارت القيروان قلعة للمالكية في الغـرب الإسلامي، وللأمر مغزاه في الدلالة على تسربه إلى كافة أقطار إفريقيا الشمالية، خاصة إذا علمنا أن القيروان تعد مركزا اقتصاديا هاما ونقطة استقطاب للحجاج المغاربة.

في ضوء هذه المعطيات ـ انتشار المذهب السني في المشرق والقيروان ـ يمكن فهـم حقيقة الرحلـة التي قام بها يحيى بن إبـراهيم إلى الحج ولقـاءه بأبي عمـران الفـاسي، وهـو لقـاء يمكن من خـلال المعطيـات السالفة الذكر إعطاء الـدليل على أنه لم يكن مجرد فكرة عارضة عنت للزعيـم الجدالي بقدر مـا كان لقاءاً استهـدف وضع خطـــة لمشـروع سنـــي في الغـرب الإســلامي، وإقـامـة دولـــة تعمـل على ترسيـــخ جذوره.

إن حج يحيى بن إبراهيم يعد في الواقع خطوة سعى بها إلى تدعيم النهضة التي حققها الحلف الصنهاجي الثالث، ومحاولة جادة لتتويج هـذه النهضـة بمشروع سيـاسي بعيـد المدى سينتهي بتأسيس دولـة المرابطين. ولاشك أن الـــزعيم الجدالي لاحظ أن كل مـــؤسسي الـدول استنـدوا على دعوة دينيـة كإدريس بن عبد اللـه وعبيد اللـه الشيعي

28) نفسه ص: 208.

29) انظر على سبيل المثـال لقاء أبي بكر بن العـربي بالغزالي وتتلمذه على يـديه وإدخـال كتب الأشعريـة إلى المغرب والأنـدلس. ويتجلى ذلك من خلال مـا أورده ابن العربي في رحلته: «ترتيب الرحلة في الترتيب للملة».

30) محمود إسماعيل: مغربيات. فاس 1977 ص: 76 وما بعدها.

وجل قادة الـدويلات الخارجية(31). ومعلوم أن ابـن خلدون(32) تنبه لهذه الحقيقة الثـابتة فلاحظ بحق أثـر الدعـوة الدينية في لـمّ شتات العصبية والتمهيد للمطالبة بالدولة. لكن ما هو دليلنا على ذلك؟

باستقراء الـرواية المتداولة في المصادر التـاريخية حول حج يحيى بن إبراهيم ولقـائه في القيروان بأبي عمران الفاسي رغم اختـلافها(33)، يتضح أن هذا الأخير هـو الذي بـادر إلى دعوة الـزعيم الجدالي للقيام بحركة إصلاحية(34)، وأن يحيى الـذي كـان يبحث بـدوره عن سنـد ديني لم يتـوان عن الاستجابـة لذلك والتماس من يسـاعده في القيـام بهذه المهمة، وهو ما يفهم من قول البكري(35): «فسأله أبو عمران عن بلده وسيرته ومـا ينتحلون من المذاهب، فلم يجد عنده علما بشيء، إلا أنه كان حريصا على التعلم، صحيـح النية واليقين فقال له: ما يمنعكم من تعلم الشرع على وجهه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر».

مثل هذه الرواية تكشف عن مرام بعيدة الغور. ذلك أن فكرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الواردة فيهـا تحمل مغزى سياسيا عميقا، فقد اتخذته جميع الحركات السياسية مبـدءا وغاية. ولا يخامرنا شك

---

31) حسين مؤنس: معالم تاريخ المغـرب والأندلس. القاهرة 1980 (ط 1). ص: 160.

32) المقدمة. تحقيق عبد الواحد وافي. طبعة 1952. مطبعة لجنة البيان العربي. ج 2، ص: 467.

33) اختلفت المصادر في تحديد سنة هـذا اللقاء، كما أنها اختلفت أحيانا في اسم يحيى بن إبـراهيم إذ يذكـره النويـري تحت إسم «الجوهر». انظـر: نهاية الأرب في فنـون الأدب. تحقيق حسين نصـار. القاهـرة 1983 ج 24، ص: 253. وقـد أخطأ صـاحب الحلل الموشيـة حين جعل سنـة حج يحيى بن إبراهيم هي عام 440هـ. انظر مؤلف مجهول: الحلل الموشية تحقيق سهيل زكار وزمامة. البيضاء 1978 ص: 19.

34) ابن عذاري: البيان المغرب. تحقيق بروفنسال وس. كولان. بيروت 1980 ج 4، ص: 7. وانظر كذلك مؤلف مجهول: الحلل ص: 19.

35) المغـرب في ذكر بـلاد إفريقيـة والمغرب. نشره دي سـلان. الجزائر 1911 ص: 165.

في أن هذه الأهداف السياسية بدأت في المغرب الأقصى عندما كان أبو عمـران مقيما بفـــاس ينـاهض أوكـار الاتجاهـــات البدعيـــة والظلم والطغيان، ويدعو إلى توحيـد المغـرب تحـــت سلطـة سياسيـة مالكية سنيـة.

وإذا كانت المصادر لا تشير إلى نشاط الرجل في فاس(36)، فإن ابن الأحمر(37) يزودنا بنص على جـانب عظيم من الأهمية يميط اللثام عن عدة حقائق، منها أن أبا عمران الفاسي كان من أقطاب المعارضة الذين نـاهضوا الفـوضى السيـاســة المستشرية في فـاس وغيرهـا من المدن المغربية، والسيـاسة الجبائية المجحفة التي نهجها أمـراء زناتة، والظلم الاجتماعي الذي مارسوه، وأنه أخـرج من فاس نتيجة موقفه المتصلب تجاههم. كما أن هذه الـرواية لا تصـور أبا عمـران رجلا غـريبا عن يحيى بن إبراهيم والوفد الذي صاحبه إلى الحج إذ تؤكد أنهم قصدوه للتبرك به لما حـازه من سمعة طيبـة اكتسبها من مـواقفه في مقـاومة الظلم، وجعلت الناس يحترمونه ويضعونه في مرتبة الأولياء. ويكشف النص أيضـا أن هذا اللقـاء أسفـر عن مخطط بين أبي عمران الفـاسي ويحيى بن عمر يقضي بمقاومة الدويـلات الزناتية وتغيير الأوضاع في المغرب. وكل هذه المؤشرات تقيم الدليل على أن رحلة يحيى بن إبراهيم إلى الحج ولقـاءه بأبي عمـران لم يجر بمحض الصدفـة، وإنما ســار وفـــق خطـة محكمـــة لإنشـــاء دولـة مالكيـة سنيـة تـوحد الغـرب الإسلامي.

ولا سبيل إلى الشك في صحة هذه الرواية لأنها تتماشى مع سياق الأحداث. ذلك أن التبرك بالعلماء والصالحين كـان عادة وسنة حميدة في ذلك العصر. فأبو عمـران إلى جانب علمه وعلو كعبـه، عرف بتقواه

---

36) من الغريب أن القاضي عياض اعتبر أبا عمران قيروانيا، ولم يشر إلى نشاطه في فاس قبل لقائه بيحيى بن إبراهيم. ومن الـذين أشاروا إلى أصله الفاسي دون ذكـر نشاطـه المعـارض لأمـراء زناتـة انظـر: ابن أبي زرع: الأنيس المطرب. الرباط 1973 ص: 122 ـ ابن فرحون: الديباج المذهب ص: 344.

37) بيوتات فاس الكبرى ص: 27 ـ 28.

وورعه حتى سمي «بالشيخ الولي»(38). وإذا كان الناس يتبركون بتلميذه وجاج بن زلو كما تؤكد ذلك النصوص(39)، فالمنطق التاريخي يفرض أن يتبركوا بأستاذه في المقام الأول.

كما لا يمكن الشك في صحة خبر إخراج أبي عمران الفاسي من فاس، وبالتالي لا نساير رأي بعض الباحثين(40) الذين غاب عنهم النص الآنف الذكر فرأوا في رحلته إلى القيروان مجرد رحلة لطلب العلم أو مجرد قرار اتخذه بمحض رغبته(41) بل إن الرجل أرغم على ذلك إرغاما لموقفه المعارض لأمراء زناتة «ونهيه لهم عما أحدثوه من البدع والمظالم والمغارم وأخذ أموال الناس بغير حق»(42). ناهيك عن أن هجرة العلماء بسبب هذه الوضعية كانت مسألة شائعة(43).

وبالمثل لم يكن اختيار أبي عمران مدينة القيروان مستقرا له بعد نفيه من فاس صدفة، بل لكونها كانت تمثل مركزا تجاريا هاما صالحا للدعوة بفضل تقاطر التجار عليها، فضلا عن كونها توجد في طريق الحجاج المغاربة(44)، وهو ما يؤكد أن أبا عمران كان متمرسا بأمور الدعوة.

وعلى الرغم من أن ابن الأحمر لم يذكر شيئا في هذا النص عن الحديث الذي دار في القيروان بين أبي عمران ويحيى بن إبراهيم، إلا

38) ابن أبي دينار: كتاب المؤنس في أخبار إفريقية وتونس. طبعة تونس 1286هـ (ط 1) ص: 101.

39) الناصري: الاستقصاء. البيضاء 1954. ج 2، ص: 70.

40) ابن عثمان المراكشي: م. س ص: 17.

41) محمد الفاسي: عبد الله بن ياسين وانتشار الإسلام بإفريقيا. المجلة الإسلامية. عدد 12 سنة 1982 ص: 29.

42) ابن الأحمر: م. س ص: 28.

43) الحميدي: جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس. القاهرة 1966 ص: 110. ترجمة أبو محمد النحاس.

44) النشار: مقدمة كتاب «الإشارة في تدبير الإمارة» لأبي بكر المرادي. البيضاء 1981. دار الثقافة ص: 10.

أنه سجل نتيجة هذا الحديث، والـذي يمكن من خلاله أن نستنتج أنه دار حول الفوضى السيـاسية التي عمت المغرب والأندلـس، وإمكانية توظيف صنهاجة اللثام للإطـاحة بالأمراء الزناتيين(45). غير أنه كـان لابد من دعـوة دينية تهيئ الأذهان لهذا المشروع الضخم، لـذلك بادر أبو عمران إلى البحث عن الرجل المناسب الذي يؤيد الدعوة ويسير بها إلى الأمام وهو وجاج بن زلو اللمطـي. ولا يستبعد أن يكون اتفاق قد تم بين الرجلين، ومن ثم يراودنا الشك حول صحة الرواية التي تذكر أن أبا عمـــران طلب من تلامذتـه مرافقة الـزعيم الصنهاجي فلم يجد من يستجيـــب لرغبتـــه لأنهـــم استوحشـــوا الصحـــراء وشظـــف عيشهـــا(46).

فرغم أن جميع المصادر تجمع على هذه الرواية، فإننا نرى أن ذلك لا يتناسب مع المكانة التي يكنهـا هؤلاء لشيخهم، ولا يتلاءم البتة مع ما عرف عن فقهاء المالكيـة من روح التضحية التي وصلت إلى درجة الاستشهاد(47).

والتفسير السوي في نظرنا هو أن شيخ القيروان قصد عمدا اختيار وجاج بن زلو لأنه تلميذه المغربي الذي كان على اطلاع واسع بالأحوال السياسية في عين المكـان ومتشبعا بفكره ومبادئه، وصـاحب مدرسة سنية مـالكية هي «دار المرابطين» بنفيـس أو ملكوس(48)، ناهيك عن كونـه أحد أقطاب المذهب المالكي في المغرب، وممن درسـوا على يد ابن أبـي زيـد القيـــرواني، وتـتـلـمـذوا علـى أعـلام المـذهـــب في

45) الشيخلي: م. س ص: 90. أما المرحـوم عبد الله كنون فيتحفظ حـول هذا الحكم. انظر مقاله: أبـو عمران الفاسي. مجلة الثقافة المغربيـة يناير فبراير 1970 ص: 56.

46) كل المصادر تشير إلى هذه الرواية وتجمع عليها. انظر على سبيل المثال: ابن أبي دينار: م. س ص: 102.

47) انظر تفاصيل هذه الاستشهادات عند محمود إسماعيل: مغربيات ص: 77.

48) البكري: م. س ص: 165 ويجعلها في ملكـوس، بينما يجعلها ابن أبي زرع في نفيس: انظر: م. س ص: 123.

الشرق(49)، فضلا عن أنه كان يعد من «كبار علماء البربر»(50).

كل هذه الأوصاف والمزايا تدل على أن الحديث بين يحيى بن إبراهيم وأبي عمران الفاسي خلال لقائهما قد دار حول هذه الشخصية المؤهلة لإنجاح مشروعها، فتم الاتفاق عليه لتنفيذ الخطة.

ولا نستبعد كذلك أن يحيى بن إبراهيم تعرف أثناء قيامه بمناسك الحج على مختلف المذاهب، وأنه التقى بالدعاة المالكيين، وأصبح يستأنس بأساليب الدعوة، لذلك أبى عند رجوعه إلا أن يلتقي ثانية بأبي عمران لإمداده برجال الدعوة.

وثمة قرينة أخرى تضاف للبرهنة على وجود خطة محكمة بينه وبين أبي عمران الفاسي لإقامة دولة سنية تحاصر المذهب الشيعي في الغرب. وحسبنا أن التيار الشيعي كان قد تسرب إلى بلاد السودان منذ القرن الثالث(51) ومن ثم رأى أبو عمران بفكره الثاقب أن بإمكان صنهاجة الجنوب أن تتصدى لخطر التشيع في هذه المنطقة. لذلك بمجرد ما أخبره يحيى بن إبراهيم بأحوال أهله وقومه طلب منه على الفور تطبيق مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فكانت رحلته الحجية هي اللحظة التي دقت فيها بداية تنفيذ هذا المشروع الديني في الظاهر، السياسي في العمق.

من حصاد هذا التحليل يستنتج الباحث أن رحلة يحيى بن إبراهيم الجدالي سنة 427هـ ولقاءه خلالها بأبي عمران الفاسي لم تكن عفوية،

---

49) المتيجي: رسالة في تحقيق اتجاه قبلة الصلاة (مخطوط خ. ع. بالرباط) ورقة 77 ظهر و78 وجه.

50) مؤلف مجهول: مفاخر البربر. تحقيق بروفنسال. الرباط 1934 ص: 69.

51) عند مازار ابن بطوطة السودان في القرن 8هـ كان المذهب الشيعي لا يزال موجودا به. للمزيد من التفصيل انظر: CUOQ: op. cit p: 46-47

الأهداف السياسية
لرحلة ابن تومرت إلى المشرق

ذ. أحمد المحمودي
كلية الآداب ـ مكناس

لا أحد يجادل أن محمد بن تومرت قام برحلة إلى المشرق الإسلامي في بداية القرن السادس الهجري(1). وهذه الرحلة تعد من أهم الرحلات التي قام بها رحالة المغرب الإسلامي في العصر الوسيط. وللأسف فابن تومرت لم يكتب رحلته رغم أنه كان فقيها وعالما معنى هذا أن أهداف ومراحل هذه الرحلة تبقى غامضة رغم الاهتمام الكبير الذي أولته المصادر التاريخية والدراسات الحديثة لها والتي لم تذكر شيئا ذا قيمة يشفي الغليل ويميط اللثام عن المغزى العميق الذي كانت تحمله. وقبل الشروع في الحديث عن الأهداف السياسية لهذه الرحلة لابد من ذكر بعض مميزاتها والتي سنلخصها في النقط التالية:

1 ـ إن رحلة ابن تومرت إلى المشرق كانت تحمل بين طياتها بذرة التغيير التي سترعرع وستعصف بحكم المرابطين وتفضي إلى قيام الدولة الموحدية التي تعتبر من أهم الدول التي عرفها التاريخ الإسلامي.

2 ـ تعبر هذه الرحلة عن تحدي أبناء الفئات الشعبية الفقيرة للحواجز والصعوبات التي تعترضهم للقيام برحلات إلى المشرق من

1) يكاد يحصل الاتفاق بين المؤرخين على أن تاريخ رحلة ابن تومرت كان ما بين سنة 499هـ و501هـ.

أجل طلب العلم خصوصا أن الطلاب لم يكونوا يتمتعون بامتيازات معينة أثناء تنقلاتهم كالإعفاء من ضريبة المرور مثلا(2).

3 ـ استخدم ابن تومرت في رحلته عملية «التجسس» والاستخبار كوسيلة للوصول إلى بغيته ووظفها بدقة وتبصر حيث تعكس مدى قوة ذكائه وفطنته. فحين لقي ابن تومرت عبد الله الونشريسي بقرية وانشريس كان هذا الأخير فقيها ووضيحا في لغة العرب وأهل المغرب طلب منه ابن تومرت أن يخفي ما عنده من العلم والمعرفة ويظهر للناس بمظهر البلادة والجهل قصد تمييز المنافقين من الموحدين(3).

لقد كان المشرق بالنسبة لأهل المغرب عامة محط آمال الراغبين في العلم والمتنفس الذي وجد فيه الطلاب بغيتهم للتبحر في دروب العلم والمعرفة قصد الحصول على الشهرة العلمية، وقل من علماء المغرب المشهورين من لم يشد الرحال إلى المشرق لتحصيل العلم(4). فالمشرق في تلك الفترة كان يعرف بعواصمه العلمية، كدمشق، بغداد، القاهرة والاسكندرية، التي كانت تضم جلة العلماء والفقهاء(5)، الذي برز كل واحد منهم في علم من العلوم الإنسانية(6).

والجدير بالذكر أن الرحلة إلى هذه الديار شكلت بالنسبة للمغاربة محطة مهمة في بناء الشخصية العلمية واكتساب الهيبة والاحترام نظرا لأن المغرب يومئذ كان غارقا في التقليد والجهل بأصول الحوار

---

2) اسكاين الحسين : جوانب من تاريخ التعليم في العصر الوسيط من القرن 7 هـ 13م إلى 9هـ 15م رسالة جامعية وقونة، الرباط 1987/88 ص : 136 و28.

3) ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج 5 ص : 48.

4) عبد المجيد النجار : المهدي بن تومرت، حياته وآراؤه وثورته الفكرية والاجتماعية وأثره بالمغرب دار الغرب الإسلامي، بيروت 1983 ص : 63.

5) ابن خلدون : العبر... منشورات دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت 1968. الجزء السادس ص : 465.

6) عبد المجيد النجار، م. س ص : 104.

والمناظرة(7). وتحكي لنا المصادر المختلفة كيف وقف فقهاء البلاط المرابطي حين ناظرهم ابن تومرت في مراكش فانكشف عجزهم للحاضرين، يقول المراكشي في هذا الصدد «وجد [ابن تومرت] جوا خاليا وألفى قوما صياما عن جميع العلوم خلا علم الفروع»(8). وهذا ما دفع عددا كبيرا من طلاب العلم المغاربة إلى الحرص على القيام بالرحلة إلى المشرق قصد كسب الشهرة العلمية:

لا غرو أن ابن تومرت كانت تراوده فكرة الرحيل إلى المشرق لطلب العلم من منابعه الأصلية وخاصة أنه نشأ محبا للعلم وشغوفا به(9)، وشفيعنا في ذلك عنوان كتابه «أعز ما يطلب وأفضل ما يكتسب... العلم الذي جعله الله سبب الهداية إلى كل خير». إلا أن السؤال الذي حير جل الباحثين والمهتمين بتاريخ الدولة الموحدية هو هل كانت رحلة محمد بن تومرت إلى المشرق رحلة سياسية أمر رحلة علمية؟

للإجابة على هذا السؤال سنحاول أن نتجاوز الآراء الجاهزة وذلك بمقارنة النصوص بعضها ببعض لكي تتلاءم مع الظرفية التي ظهرت فيها الحركة الموحدية وطرح تساؤلات كلما قلت المادة وتضاربت المعلومات الواردة في النصوص.

لا يخامرنا شك في أن الأهداف السياسية لرحلة ابن تومرت قد بدأت قبل رحليه إلى المشرق خلافا لماذهب إليه بعض الدارسين(10). وقد انفرد ابن القطان عن باقي المؤرخين بنص على جانب عظيم من

---

7) الفرد بل : الفرق الإسلامية في الشمال الافريقي من الفتح العربي حتى اليوم، ترجمه عن الفرنسية عبد الرحمان بدوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1981 ص: 245 و277.

8) أبو بكر الصنهاجي (البيذق) : أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، دار المنصور للطباعة، الرباط 1977 ص:27 ـ عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تقديم الدكتور ممدوح حقي، الطبعة السابعة، الدار البيضاء 1978.

9) ابن خلدون : العبر. م. س. ص. 465.

10) مثل الفردبل : م.س. ص : 251 ـ مراجع عقيلة الفناي : قيام دولة الموحدين، منشورات جامعة قاريوس، بنغازي، 1988 ص: 129 ـ لفي بروفنسال: الإسلام في المغرب والأندلس، ترجمة عبد العزيز سالم ومحمد=

الأهمية يورد فيه مبايعة المصامدة لابن تومرت بيعة سر(11)، معنى هذا أن الشروط المادية والعصبية قد توفرت لمصمودة للعب دورها التاريخي وتحقيق وحدة سياسية، لكن حسب النسق الخلدوني يبقى شرط الدعوة الدينية ضروريا وهو ما تعكسه رحلة ابن تومرت من أجل كسب شرعية ثورتهم ضد الصنهاجيين. وقد أكد العلامة ابن خلدون أن فكرة التغيير السياسي وإنشاء دولة في المغرب عند ابن تومرت لم تكن وليدة ظروف العودة بل كانت تختمر في ذهنه خلال لقاءاته مع أعيان قومه قبل رحليه إلى المشرق، يقول ابن خلدون: «وأفاد [يعني ابن تومرت] علما واسعا وكان يحدث نفسه بالدولة لقومه على يده لما كان الكهان والحزاء يتحينون دولة يومئذ بالمغرب»(12). ونجد أيضا مصداقا لذلك في بعض الأبيات الشعرية أوردها عماد الأصفهاني قال: «ذكر ابن بشرون أنشدني محمد بن محمد بن محمد النثري لابن تومرت أبياتا قالها قبل قيامه بالمغرب وهي:

إني وفي النفس أشياء مخبأة
لأبسن لها درعا وجلبابا
كيما أطهر دين الله من دنس
وأوجب الفضل للسادات إيجابا

= صلاح الدين حلمي، دار النهضة، القاهرة 1956 ص: 271 ـ محمد كمال شبانة: الدولة الموحدية وتأملات في تاريخها، مجلة البحث العلمي، عدد 20 ـ 21، الرباط 1972 ص: 151.

11) يقول ابن القطان في كتابه: «نظم الجمان في أخبار الزمان، تحقيق محمد علي مكي» ص: 62 «كان عام واحد وخمسمائة عاهده فيها أهل التحقيق من العارفين به، رضي الله عنه تعالى ـ وبايعوه بيعة سر».

12) ابن خلدون : العبر، م.س ص : 465 ـ الحسين بولقطيب: المصامدة وقيام دولة الموحدين (500 ـ 558هـ) (1106 ـ 1162م)، رسالة جامعية، فاس ص: 267.

تــالله لــو ظفــرت كفي بمطلبهـــا

ما كنت عن ضرب أعنــاق الورى آبى(13)

انطلاقا من مغزى هذه النصوص تأكد أن ابن تومرت كان يخفي في ذهنـه مشروعـا خطيرا كان يحرص على عـدم إظهـاره لأول وهلـة خـوفـا من إقبـاره في المهـد من طـرف المرابطين ولاشك أن بعض الادعاءات المشكـوك في صحتها التي أوردتها المصـادر الموحديـة مثل لقائه بـالغزالي وعثوره على كتاب الجفـر وبعض الكرامات كإقـامته في البحر أكثر من نصف يوم بعـدما أن ألقاه أهل السفينة ولم يصبه أي مكروه، تدل على ذلك(14). ومن أجل الحفاظ على سرية هدفه ركز عمله في الأول على النهي عن المنكر والأمـر بالمعروف، هذا المبـدأ الذي يعتبر القناة المشروعـة لكل الوعاظ والخطبـاء في أحاديثهم(15)، وقد اعتمدته جميع الحركات السياسية مبدءا وغاية(16)، ولا يستطيع رجال السلطة منع الفقهاء بالقيام بهذا الواجب مما فتح المجال لبعضـهم بنشر آرائهم وتبليغ دعوتهم(17). وهذا ما دفع بعض الباحثين إلى الاعتقاد أن فكرة التغيير عند ابن تومـرت لم تظهر إلا بعد عودتـه من المشرق لأنه كان يبدو كفقيه لا كسياسي غير أننا نعرف أن ابن تومرت كان يفهم جيدا أن إصلاح الـوضع الديني هـو في حد ذاتـه إصلاح للـوضع السياسي

---

13) عماد الاصفهاني : فـريدة القصر وجـريدة العصر، تحقيق الأستـاذين عمر الدسوقي وعلي عبد العظيـم، دار النهضة، مصر، بدون تاريخ، الجزء الأول ص: 195.

14) ابن خلكان : وفيات، م.س، ص : 48 ـ عبد الواحد المراكشي : المعجب، م.س ص: 264.

15) أبو حامد الغزالي : إحياء علوم الدين، ج 2 ص : 307.

16) ابراهيم القـادري بوتشيش : الحياة الاجتماعية في المغرب والأنـدلس خلال عصر المرابطـين أطـروحـة الدولـة، مـرقونة، مكناس 1990/1991، ج 1، ص: 87.

17) زنيبر محمد : الخلفية الاجتماعية، الثقافية لحركة محمد المهدي بن تومرت، مجلة المناهل العدد 24، يوليوز 1982، السنة التاسعة ص:130.

نظرا للارتباط الحاصل بينهما(18). مصداق ذلك أن أول عمل قام به ابن تومرت هو كسر بنية الفقهاء التي كانت تمثل الدعامة الأساسية التي تقوم عليها الحياة السياسية المرابطية(19).

بالإضافة إلى هذه النصوص التي عبرت بكل وضوح عن المغزى السياسي لرحلة ابن تومرت فإن الواقع الاجتماعي المحلي الذي كانت تعيشه منطقة سوس في كنف الدولة المرابطية ساهم بشكل إيجابي في زرع فكرة التغيير في ذهن ابن تومرت قبل رحليه إلى المشرق، فعلى المستوى المذهبي، كانت التناقضات المذهبية ضاربة أطنابها على قدم وساق في منطقة سوس، وفي هذا الصدد يقول ابن حوقل: «فأهل سوس فرقتان مالكون أهل سنة وموسويون شيعة يقطعون على موسى بن جعفر من أصحاب علي بن ورصند والغالب على الجميع الجفاء والغلظة وقلة الطبع والمالكيون من فظاظ الحشوية وبينهم القتال المتصل والدماء الدائمة ولهم بالبلد مسجد جامع تصلي فيه الفرقتان فرادى عشر صلوات، وإذا صلت فرقة تلتها أخرى بعشر آذانات وعشر إقامات»(20).

ويأتي بعد ابن حوقل، ابن حزم حيث يشير إلى الوجود الشيعي ببلاد المصامدة فيقول: «ومنهم طائفة تسمى البجلية نسبوا إلى الحسن بن علي بن ورصند، كان من أهل نفطة من علم قفصة وقسطيلية من كور افريقية، ثم نهض هذا الكافر إلى السوس من أقاصي بلاد المصامدة فأضلهم أمير السوس أحمد بن ادريس بن يحيى بن ادريس بن عبد الله بن الحسين بن علي بن أبي طالب فهم هناك كثير سكان في ربض مدينة السوس معلنون بكفرهم وصلاتهم خلاف صلاة المسلمين»(21). كما يتفق البكري مع ابن حزم في نفس

---

18) الحسين بولقطيب : م. س ص : 265.

19) زنيبر محمد : م. س ص : 131.

20) ابن حوقل : كتاب صورة الأرض، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، لبنان 1971، ص: 90.

21) ابن حزم : الفصل في الملل والنحل، مطبعة الحلبي، القاهرة سنة 1968، ص: 23.

المعلومات التي أوردها في هذا النص، غير أنه يحدد زمن دخول البجلي إلى السوس قبيل دخول أبي عبد الله الشيعي افريقية ويذكر أن صاحب السوس كان حمزة بن جعفر من بني عبد الله بن ادريس إلا أنه لم يشر إلى فتح بلاد المصامدة على يد المرابطين(22). وإلى جانب الحضور الشيعي والمالكي في بلاد المصامدة فالمصادر تذكر أيضا الحضور الاعتزالي فابن حوقل في وصفه لأحوال البربر القاطنين في السوس يشير أن «في كثير منهم الشراية والتدين القوي... وفي بعضهم الاعتزال والعلم»(23). لقد استمر وجود هذه المذاهب أو بعضها في بلاد المصامدة والسوس رغم الغزوة التي نظمها المرابطون ضد هذه المنطقة سنة 450هـ(24). وقد أورد الإدريسي الذي كان معاصرا لنهاية المرابطين وبداية الموحدين نصا يوضح فيه حقيقة هذا الواقع، يقول: «وأهل السوس فرقتان: فأهل مدينة تارودانت يتمذهبون بمذهب المالكية وهم حشوية، وأهل بلد تيويوين يقولون بمذهب موسى بن جعفر وبينهم أبدا القتال وسفك الدماء وطلب الثأر»(25) والواضح من خلال هذه النصوص أن الصراع العقدي بين المصامدة كان قويا وقد تفطن محمد بن تومرت إلى هذه الوضعية قبل رحليه إلى المشرق وأظن أنه وضع في ذهنه فكرة التخفيف من غلواء هذه المنافسات وذلك بوضع عقيدة توفيقية(26)، لإرضاء كل الأطراف المتصارعة حتى لا يكون لاستمرار هذه الصراعات وقع سلبي على عملية بناء الدولة الجديدة

22) البكري : المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، تحقيق دي سلان، ط. الجزائر 1857 ص : 160 ـ 161.

23) ابن حوقل : م. س ص : 99.

24) عصمت عبد اللطيف دندش : المهدي بن تومرت والباطنية في أضواء جديدة على المرابطين، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى 1991، ص : 13.

25) الشريف الادريسي : نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، دار عالم الكتب، بيروت، الطبعة I 1989، الجزء الأول ص : 228.

26) محمد اسماعيل عبد الرزاق : مذهب ابن تومرت من الوحدة الإيديولوجية إلى التوحيد السياسي، ضمن كتاب فكرة التاريخ بين الإسلام والماركسية، مكتبة مابولي، القاهرة 1988، ص: 119 ـ 120.

خصوصا أن ابن تومرت كان يعتقد أن التفرقة فتنة، يقول: «وأما أصول الفتن في الافتراق وعدم الاجتماع»(27) أما على المستوى الاجتماعي فقد كانت عملية الثأر والانتقام تسود القبائل المصمودية وهو الأمر الذي كان يعقوق إمكانية التفاهم والتماسك(28). وقد عبرت النصوص التاريخية عن هذا التشرذم حيث وصف عبد الله بن ياسين قبائل المصامدة بعد عودته من الأندلس في اتجاه الصحراء بقوله: «يغيرون بعضهم على بعض يغنمون الأموال، ويقتلون الرجال ويسبون الحريم...»(29). كما أورد الادريسي نصا يبين حدة هذا التنافس حينما كان بصدد الحديث عن أهل تيويوين «...وبينهم أبدا القتال والفتنة وسفك الدماء»(30). فهذه النصوص ما هي إلا مرآة تعكس حقيقة التوتر الذي كانت تعيشه القبائل المصمودية. ومن أجل هذا يظهر أن ابن تومرت فكر في جمع شتات هذه القبائل التي كانت لا ترضى الخضوع لأي عنصر خارج عن إطارها القبلي، والارتقاء بهم إلى جو يسوده التآخي والوحدة قصد خلق جبهة قوية ضد المرابطين، ولعل طرح فكرة الإمامة والعصمة وغرسهما في نفوس المصامدة خير دليل على خوف ابن تومرت من اشتعال نار الفتنة حول الحكم بين القبائل المصمودية عند قيام الدولة الجديدة، ولاشك أن اختياره لعبد المومن بن علي خليفة له رغم أنه ينتمي إلى قبيلة كَومية وهي ليست من قبائل المصامدة يميط اللثام عن خطورة هذه النعرات والشوكات القبلية التي تنبه لها ابن تومرت قبل رحيله إلى المشرق ووضعها ضمن النقط الأساسية في مخططه السياسي.

27) محمد بن تومرت : أعز ما يطلب، تحقيق عمار الطالبي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1985 ص: 5 ـ 6.

28) الحسين بولقطيب : م. س. ص: 186.

29) ابن عذاري : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان 1980، ج 4 ص : 10.

30) الإدريسي : م. س ص : 228.

وإذا ما ألقينا نظـرة عن الأوضاع الاقتصادية بخدهـا قد ساهمت بدور في غـاية من الأهمية في زرع فكرة التغيير في ذهن ابن تـومرت. وهكذا فإن إقـامة دولة مركـزية ذات هياكل منظمة وقـوية سعت إلى مراقبة كل النشـاطات الاقتصادية الدينيـة والاجتماعية التي أثرت على حياة قبائل المصامدة في جبال درن وجعلتهم في طائفة اقتصادية(31). ومن أجل تضييق الخناق على المصامدة أقـام المرابطون مدينة مراكش لمراقبة تحركـاتهم التي كانـت تشكل خطرا على أمن وسـلامة الـدولة المرابطية. وقـد تفطن صاحب الاستبصـار إلى هذه الفكرة فـالمدينة في نظره «إنما بناها واضعهـا ليملك منها جبل درن لكثرة من يعمره»(32). فـالمصـامدة كـانـوا يعتبرون الصنهـاجيين غـزاة جدد، وقـد اشتهـر المصامدة بالدفاع عن موطنهم ولم يستقيموا للمرابطين إلا بعد حروب طـويلة كما يـؤكـد ذلك القاضي عيـاض «واستقـامت للمرابطين بـلاد الصحراء بجملتها وما وراءها من بلاد المصامدة والقبلة والسوس بعد حروب كثيرة»(33) وقـد أورد ابن خلدون نصـا يوضح فيـه تدهـور علاقـة المصامدة بالمرابطين، يقـول: «...ولهم مع لمثونة ملـوك المغرب حروب وفتن سـائر أيامهم حتى كان اجتماعهم على المهـدي وقيامهم بدعوته»(34).

ولا شك أن الوصية التي وجهها يوسف بن تاشفين لابنه علي خير دليل على حدة التـوتر بين المصامدة والصنهاجيين، يـوصيه «ألا يهيج أهل جبل درن ومن ورائه من المصـــامـدة...»(35). فـلا غرو أن هـذه الضـائقة الاقتصـادية والأوضـاع المزرية التي كـانت تعيشها قبـائل

31) الحسين بولقطيب : م. س ص : 108.

32) مؤلف مجهول : كتاب الاستبصـار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد البيضاء، 1985 ص : 209.

33) القاضي عياض : ترتيب المدارك، تحقيق سعيد أعراب 1983 ص : 82.

34) ابن خلدون : العبر، م. س، ج 6 ص : 463.

35) مؤلـف مجهول : الحلل الموشية في الأخبـار المراكشية، تقحيق سـهيـل زكار وعبد القادر زمامة، البيضاء 1979، ص: 82 ـ 83.

المصامدة تحت حكم المرابطين أثرت في نفسية ابن تومرت ورسخت في ذهنه فكرة التغيير والانتقام من المرابطين. بالإضافة إلى ما سبق، فإن دعوة ابن تومرت من المشرق مرورا بالمغربين الأدنى والأوسط وما صاحبته من لقاءات واتصالات تكشف النقاب عن النوايا السياسية لابن تومرت. ففي أمليل وهي قرية صغيرة قرب أكرسيف سأل عن اسم المكان وقال لعبد المومن: «اعقل على هذا المكان لابد لك أن تركز عليه إن شاء الله»(36). ويذكر لنا البيدق أنه لما أكرمهم أحد الرجال في البطحاء الموجودة بين شلف وتلمسان في المغرب الأوسط كتب ابن تومرت لذلك الرجل حرزا وقال له: «يا شيخ أمسك هذا عندك فإن مت يكون بنيك فإنه خير لك ولعقبك حتى يصل إلى هذا الموضع ملك وعسكر فادفع البراءة (الرسالة) من يديك ليد الملك ولا تعطها أحدا غيره فقال له نعم»(37).

نستشف من خلال هذه النصوص أن محمد بن تومرت كان متفائلا لمصير مخططه السياسي وأن الجيوش الموحدية ستصل إلى هذه المحطات التي مر بها. كما لا نستبعد أن يكون لابن تومرت دعاة في المغرب قبل رحيله إلى المشرق ويتضح ذلك من خلال ما ذكره البيدق عن وصول مبعوثين من تنمل إلى محمد بن تومرت وهو في ملالة التي أقام بها شهورا ولم يتحرك منها إلا بعد قدوم شخصين ولقائهما مع ابن تومرت، فقرر فجأة التوجه إلى بلاد المغرب الأقصى في مساء نفس اليوم، يقول البيدق: «فلما كان يوم من الأيام أقبل رجلان يريدان المشرق: أهم أحدهما عبد الله بن عبد العزيز والآخر عبد الصمد بن عبد الحليم فقال لهما الإمام رضي الله عنه من أين أقبلتما أيها الرجلان؟ قالا من بلاد المغرب، ولما وصلا بقيا باهتين، فقال لهما الإمام رضي الله عنه مالكما لا تتكلمان؟ فقالا له نحن ما نفهم العربية بلسانهما، وقالا له يافقيه، وصلنا من درن من تنمل فسألهما في قولهما ودعا لهما وسارا فلما أمسا المساء قال لنا: عولوا

36) البيدق : م.س ص : 22.
37) نفسه : ص : 19.

على السـير نحـو المغـرب إن شـاء اللـه ولا حـول ولا قـوة إلا باللـه»(38).

خلاصة القول يبـدو مما سبق أن بذرة التغيير كانت مـوجودة في ذهن ابن تومرت قبل رحيلـه إلى المشرق وقد سخر العشر سنوات من الـرحلة لتطعيم تلك البـذرة لكي تكبر وتنمـو وفي طـريق عودتـه إلى المغـرب استعمل جميع القنـوات الإعـلاميـة الممكنـة [المسـاجـد، التجمعات...] لتبليغ خطابه الذي يهدف إلى بناء مجتمـع جديد بزعامة القبائل المصموديـة التي كانت تنتظر بفارغ مـن الصـبر حبلا ينظمها ويوحـدها ويطهـرها من جميع الاحقاد التي كـانت سببا في تفـرقتها وشتات شملهـا وانصافهـا من ظلم الملثمين. وقد تحقق لابن تـومرت ذلك الحلم غير أن القدر لم يساعفه حتى يقف على ثمرة ما قدمته يداه حيث فاجأته المنية.

38) نفسه : ص : 17.

رحلات الأندلسيين نحو المشرق
مقياس الاستيعاب المعرفي
والأصالة الثقافية بالأندلس

ذ. عبد اللطيف مومن

كلية الآداب ـ مكناس

هل يمكن القول بأن تطور الإنسان مرتبط بترحله من مكان لآخر؟ وهل نستطيع الجزم بأنه لولا تنقل الإنسان بين مختلف الأصقاع لتغير تاريخ العالم؟ إنهما تساؤلان يلحان على أذهاننا ونحن نرصد العوامل والمؤثرات التي تحث الإنسان على الارتحال أو الهجرة من مصر إلى غيره، وما من شك أن معرفة الآخر، واستكشاف العالم المحيط بنا تشكل أبرز عوامل هذا التنقل، بيد أن حب المغامرة وراء المجهول، أو تحقيق أهداف مادية أو مثالية يظلان دافعين حاضرين في أغلب ما نقوم به من رحلات «ولكنها (أي هذه الرحلات) تكون ـ في الحالتين ـ استجابة مباشرة لحوافر ودوافع محدودة تدعو بكل الإلحاح للحركة والانتقال من مكان إلى مكان آخر. بمعنى أن من شأن دوافع معينة أن تدعو الإنسان: الفرد أو الجماعة دعوة صريحة وملحة، لكي يخترق حاجز المسافة، ولكي يتحمل مشقة السفر ومتاعب الاغتراب وصولا إلى غاية مباشرة أو تحقيقا لهدف معين».(1)

1) هذه القولة للدكتور صلاح الدين الشامي وقد وردت في مقال نشر بمجلة عالم الفكر الكويتية بعنوان «الرحلة العربية في المحيط الهندي ودورها في خدمة المعرفة» ص 13 ـ شتاء 1983.

ولعل هذه الرحلات تشقي الإنسان وتغير من أنماط حياته وتفكيره وإنتاجه، إلا أن هذه ظاهرة طبيعية مميزة له، فالحركة رمز للتحرر بمفهوميه الوجودي أو الطبيعي، والالتزام بمكان قار رمز للجمود المادي والعقلي. إن الترحل شقاء ولكنه شقاء في طياته نعم، وهذا ما يبدو جليا في قول باشكال: «السبب الوحيد لشقاء الإنسان هو أنه لا يعرف كيف يستقر هادئا في حجرته».(2)

وبتأمل تاريخ العالم العربي والإسلامي نجد أن الأندلسيين كانوا أكثر تنقلا وترحلا من سائر العرب والمسلمين، وكانت أغلب رحلاتهم تيمم وجهها شطر المشرق والأماكن الإسلامية المقدسة. إذ على الرغم من وقوع بلادهم في أقصى الغرب الإسلامي إلا أنهم كانوا يتجشمون كل وعرفي البر أوالبحر قصد زيارة مهد الدين والفاتحين الأول، والحق أن الدارس المتأمل في تاريخ الأندلس العربية الإسلامية يلفت نظره بشدة هذه الظاهرة المميزة لأهل الأندلس طيلة الوجود العربي الإسلامي بها، وإذا ما حاولنا رصد أهم الدوافع والبواعث التي حثت الأندلسيين على سلوك هذا النهج أمكننا القول إنها تتجلى فيما يلي:

1) إن وقوع الأندلس في أقصى الغرب الإسلامي شكل باعثا قويا للأندلسيين قصد الترحل نحو المشرق حتى يؤكدوا أنهم عرب مشارقة ـ رغم تعدد عناصر المجتمع الأندلسي كما هو معهود ـ وإن نأت بهم الديار منأى بعيدا. ذلك أن الغربة تدفع الإنسان ـ كثيرا ـ إلى محاولة تحدي عقبات الزمان والمكان قصد التأكيد على الانتماء نحو المهد الأول له. فالأندلسيون «من بعدهم عن الحجاز ومنابت أصولهم في الشرق استمدوا مدح الرسول ﷺ والحنين إلى طيبة وسبقوا المشرقيين إليه».(3)

2) إن الذهاب إلى الأماكن المقدسة بالحجاز وفلسطين وأداء مناسك الحج، وزيارة مهد العربية والعروبة، والنهل من منابع العلم المشرقية

---

2) عن مقال للدكتور أحمد أبو زيد ص 3 ورد في المجلة أعلاه.

3) «الحياة الاجتماعية في الأندلس وأثرها في الأدب العربي وفي الأدب الأندلسي» لمحمد سعيد الدغلي ص 6.

مثل أبرز دافع كان يحث الأندلسيين على النزوح نحو المشرق بصفة مستديمة، ولذلك «كان الشوق إلى الرحلة مثيرا لفن من الترسل طريف، إذ كانت رحلات الأندلسيين تحملهم في الغالب إلى الديار المقدسة»(4) وخير مثال على ذلك أبو الحسن محمد بن أحمد المعروف بابن جبير [تـ 614هـ] الذي غادر الأندلس أول مرة قصد أداء فريضة الحج إلا أنه توسع في رحلته فزار أقطار المشرق بل وقام برحلتين أخريين.(5)

وتعد رحلاته الثلاث هاته من أجمل ما كتب في أدب الرحلة العربي قديما، ذلك أنه سجل انطباعاته خلالها مما كان له أثر في ظهور أدب الرحلات بالأندلس،(6) ويجدر القول إنه استعمل «طريقة اليوميات» وكتبها بأسلوب أدبي بارع ينم عن موهبة أدبية أصيلة.(7) وكذا الشأن بالنسبة لأبي محمد العبدري [المولود سنة 519هـ] صاحب «الرحلة المغربية» الذي أخذ طريق البر إلى مكة وعاد منها إلى الأسكندرية فالمغرب حتى بلغ ساحل المحيط.(8) ويتميز أسلوبه بكونه متكلفا يحرص خلاله على الغوص بحثا عن المعاني.(9) وهكذا لم تفتر حركة التواصل بين المشرق والأندلس «فأهالي الأندلس يرحلون إلى الشرق حجاجا أو طلاب علم، وأهالي الشرق العربي يرحلون إلى الأندلس في طلب الحظوة والجاه».(10)

3) ومما شجع الأندلسيين على كثرة الترحل نحو المشرق هو انعدام ـ آنذاك ـ ما يصطلح على تسميته بالحدود السياسية في عصرنا

4) تاريخ الأدب الأندلسي : عصر الطوائف والمرابطين، للدكتور إحسان عباس ص 306.

5) انظر عنه «المغرب في حلى المغرب» لابن سعيد المغربي : 2/384.

6) «مقالا حول هذا للدكتور سوادي عبد محمد نشر بمجلة عالم الفكر الكويتية ص 307 ـ صيف 1982 والمقال بعنوان «تأثر الفكر الأندلس بالحركة العلمية في المشرق الإسلامي.

7) انظر حوله : «تاريخ الفكر الأندلسي» لإنخيل بالنثيا ـ ترجمة الدكتور حسين مؤنس ص 316 ـ 318.

8) انظر حول رحلته «الرحلة المغربية» التي حققها المرحوم محمد الفاسي.

9) انظر حول هذا «تاريخ الفكر الأندلسي» المشار إليه في الإحالة رقم 7 ص 318 ثم «نفح الطيب» للمقري: 2/422 ـ 423 تحقيق الشيخ البقاعي.

10) كتاب محمد سعيد الدغلي المشار إليه في الإحالة رقم 3 ص 76.

هذا، وتوافر وسائل المواصلات البرية والبحرية وتنظيمها الدقيق رغم ما كان يحدق بها من أهوال ومخاطر حتى ليظهر أن تواصل المشارقة مع المغاربة والأندلسيين وقتذاك كان أشد كثافة مما هو عليه الآن، ولعل هذا ما قصده الدكتور عبد الحليم عويس حين قال: «وقد ساعد على نجاح هذه الظاهرة أن حركة الانتقال كانت مباحة بين العواصم الإسلامية على هيئة بحوث علمية، وتسابق في الحصول على إجازات العلماء والشعراء، وفي اقتناء الكتب الكبيرة والنادرة».(11)

4) أما الباعث الرابع الذي كان يحث الأندلسيين على النزوح نحو المشرق فهو شعورهم بما يمكن تسميته بـ«عقدة النقص» أمام المشارقة ـ خاصة في العصور الأولى ـ لأن هؤلاء أصل وإليهم المنتهى والمرجع بينما يعد الأوائل أنفسهم فرعا حتى إن ابن بسام ـ وهو المعتد بالشخصية الأندلسية ـ ليتحسر على هذا الشعور الكامن في أعماق الأندلسيين رغم أن لهم فكرا ثاقبا وإبداعا أصيلا وهذا واضح في قوله: «إلا أن أهل هذا الأفق (يقصد الأندلس) أبوا إلا متابعة أهل المشرق يرجعون إلى أخبارهم المعتادة رجوع الحديث إلى قتادة، حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب، أو طن بأقصى الشام والعراق ذباب لجثوا على هذا صنما وتلوا ذلك كتابا محكما، وأخبارهم الباهرة، وأشعارهم السائرة مرمى القصية، ومَنَاخُ الرذية، لايَعْمُر بها جَنان ولا خَلَد، ولا يُصرَّف فيها لسان ولا يد»(12) وهكذا كان الأندلسيون الوافدون على المشرق للتزود من علمه يأخذون بأقوال أساتذتهم المشارقة لأن أولئك الشيوخ كانوا ينظرون إلى أهل بلد الأندلس باحتقار عظيم ويرون أنهم جهلاء أجلاف.(13) ومن ذلك أن جعفر بن أبي علي القالي [كان حيا خلال عصر المنصور بن أبي عامر] ذهب إلى بغداد موطن آبائه فلقي من أهلها كل تجهم وسوء خلق حتى إن أحدهم قال له «ياهذا، بئس ما عوضتنا عما نقله أبوك من بلدنا إلى

11) ابن حزم وجهوده في البحث التاريخي والحضاري ص 35.

12) الذخيرة ق 1 م 1 ص 12.

13) انظر «تاريخ الفكر الأندلسي المشار إليه في الإحالة رقم 9 ص 196.

المغرب (يقصد الأندلس): حمل عنا علما وأدبا، وجئتنا بجهل وسوء أدب»(14) ومعنى هذا أن المشارقة كانوا يعاملون الأندلسيين والمغاربة معاملة نابعة مما يمكن أن يسمى بـ«عقدة الاستعلاء». ولعل هذا التقديس للتراث المشرقي والتهافت على الارتواء من منابعه مرده أن المشارقة - كما كان ينظر إليهم أهل الأندلس - أحاطوا بحديث الرسول ﷺ وما رُوي عنه.(15)

5) أما الباعث الأخير فيتجلى في اعتقاد الأندلسيين بأنهم لن يفيدوا علما ولا فكرا من مسيحيي الأندلس أهلها الأصليين لكونهم - حسب اعتقادهم - أهل جهل وجهالة وليسوا أهل علم وحضارة، وهذا مادعاهم إلى الترحل باتجاه المشرق طلبا للمعرفة المثل، ولذلك نرى الدكتور شوقي ضيف يقول: «ومهما يكن فإن عرب الأندلس لم يفيدوا شيئا واضحا في حياتهم العلمية عن طريق الأندلس نفسها بل جل ما أفادوه أتاهم من المشرق إذ نقلوا الثروة العلمية المشرقية إلى بلادهم بكل ما فيها من فقه ودين ولغة ونحو وفلسفة وطب...»(16) ورغم أن الدكتور أحمد مختار العبادي حاول أن يثبت العكس(17) إلا أن واقع التاريخ الأندلسي يؤكد ما أشير إليه آنفا.

ومهما يكن من تحفظ أو اعتراض فإن تاريخ الأندلس العربية خير شاهد على ما تم رصده والتنويه عليه يشفع له توافر عدة دلائل وحجج تقوي حدوث هذه الظاهرة وتجعلها أهم وسيلة للتواصل بين المشارقة والأندلسيين.

ويبدو أن أبرز هذه الدلائل يتمثل فيما هو آت :

1) تحدث جل كتب الأدب والتاريخ والتراجم الأندلسية عن أعلام وطنها الذين نزحوا نحو المشرق لتحقيق مأرب ما واعتبار ذلك مزية هي بمثابة حلية لهم، وهكذا نجد أن ابن الفرضي (تـ 403م) صاحب

14) انظر «المغرب في حلى المغرب» لابن سعيد المغربي : 1/ 208 - 209.

15) انظر «مقال الدكتور سوادي عبد محمد المشار إليه في الإحالة رقم 6 ص 292..

16) الفن ومذاهبه في النثر العربي ص 317.

17) انظر مقالا له بعنوان «الإسلام في أرض الأندلس : أثر البيئة الأوربية» نشره بمجلة الفكر صيف 1979 ص 59.

«تاريـخ علماء الأندلس» والحميـــدي (تــ 488هــ) صاحــب «جـذوة المقتبس» وابن بســام (تــ542هــ) صــاحب «الذخيرة» وابـن بشكوال (تــ578هــ) صــاحب «كتاب الصلة» وابن الأبــار (تــ658هــ) صاحب «التكملـة لكتــاب الصلة» وابـن سعيد المغـربي (تـــ685هــ) صاحب «المغرب في حلى المغـرب» وابن عبد الملـك المراكشي (تــ703هــ) صاحب «الذيل والتكملة» وابن الخطيب تــ776هــ) صاحب «الإحاطة» وضعوا تــراجم كثيرة لأنـدلسيين رحلـوا نحـو المشرق، بل إن الحميـدي وابن سعيـد نفسيهما خير نموذج لهؤلاء النــازحين حيث عــاشا شطـرا من حياتهما بالأندلس وأنفقا الشطر الثاني بالمشرق، وكان هؤلاء العائدون من المشرق يلقون كل حظوة ويحصلون على المنزلة الرفيعة، فهذا بقي بن مخلد (تــ276هــ) الذي لقي بالمشرق مائتين وأربعة وثمانين شيخا، وألف تآليف لم يؤلف مثلهــا في الإسلام، وكانت له خــاصة من الإمام ابن حنبل يعود إلى الأنـدلس حاملا معه مصــنًّــف ابن أبي شيبة في الحديث فيعجب بــه الأمير محمد بن عبـد الرحمن [238هــ ـ 273هــ] ويقول لخازن كتبــه: «هذا الكتاب لا تستغني خــزانتنا عنه، فــانظر في نسخه لنا» (238هــ ـ 273هــ) ويقــول لبقي: «انشـــر علمك، وارو ما عندك...»(18) وبلـغ حظه من العلـم أن كون مذهبا خاصا به ولم يتبع مذهــب المالكيين ولا الشــافعيين(19) وقد قــال ابن حزم عنه إنــه كان متميزاً لا يقلد أحدا»(20) وهذا أبو مروان عبد الملك بن حبيب الإلبيري (تــ239هــ) فقيه الأندلس يعــود من المشرق بعلم جم، فيجل قدره عند الأمير عبد الرحمن الأوسـط (206هــ ـ 238هــ) فيعرض عليه منصب «قاضي الجماعة رغم أنه امتنع عن تقلده.(21) أما أبو الوليد الباجي ـ معــاصر ابن حــزم ـ فقـد عــاد إلى الأندلس وهــو يفيض علما وأدبــا

18) انظـر عنــه «تــاريخ علماء الأنــدلس» لابن الفـرضي : 1/ 91/ 93 رقــم 283 ثم «النفــح»: 3/ 272ـ273.

19) انظر «شيوخ العصر في الأندلس للدكتور حسين مؤنس ص 45 ـ 46.

20) انظر «نفح الطيب» 3/ 274.

21) انظر «تــاريخ علماء الأندلس» : 1/ 269 ـ 272 رقم 816 ثم «المغـرب في حلى المغرب»: 2/ 96.

وشعرا(22) بعد ثلاث عشرة سنة أنفقها في تحصيل العلم مع الفقر والتعفف.(23) وقد يصير الأندلسي العائد من «الرحلة المشرقية» منارة علم فتكون له حلقة تستقطب طلاب المعرفة من كل صوب. ومن نماذج ذلك أن القاضي أبا بكر محمد بن السليم رحل إلى الحجاز ومصر وسمع عن علمائهما وعاد إلى الأندلس فاشتغل بالزهد والعبادة والعلم(24)، كما أسند إليه منصب قاضي الجماعة بعد وفاة منذر بن سعيد البلوطي (تـ355هـ)(25) خاصة وأنه جمع إلى الرواية الواسعة جودة استنباط الفقه والفتيا والحذق في الفرائض والحساب، والتصرف في البلاغة والشعر، والافتنان في العلوم.(26) ولم يكن مشاهير علماء الأندلس يرون حرجا في الأخذ عن هؤلاء العائدين لأنهم في رأيهم نهلوا العلم من معينه، ومن أمثلة ذلك أن محدثا اسمه أحمد بن دلهاث بن قطبة العذري رحل إلى المشرق وسمع من الهروي صحيح البخاري عدة مرات، وسمع من محدثي المشرق ثم عاد إلى الأندلس فأخذ عنه علماؤها ومن أبرزهم: أبو عمر بن عبد البر وابن حزم.(27) وقد جرت عادة أمراء الأندلس وخلفائها أن يحيطوا العالم الأندلسي العائد من المشرق بكل تجلة وتكريم ويسندوا إليه المناصب السامية. ومن نماذج ذلك أن الفرج بن كنانة (ق3هـ) الذي كان من الفقهاء المعدودين بالأندلس في صدور القضاة قدم من رحلته فاستخلصه الأمير الحكم بن هشام (180ـ206هـ) وولاه منصب قاضي الجماعة بقرطبة.(28) وحينما عاد أبو عمر ابن عبد البر (تـ 463هـ) من رحلته نحو المشرق(29) حظي بمكانة ممتازة حيث «حصل على اعتراف واسع

22) انظر «نفح الطيب» 2/ 772.

23) انظر عنه «الذخيرة» ق.2.م1 ص 94 وما بعدها ثم «النفح» 2/ 281.

24) انظر «ترتيب المدارك» للقاضي عياض : 6/ 282.

25) انظر «المغرب» 1/ 214.

26) انظر «ترتيب المدارك» 6/ 286.

27) انظر «كتاب الصلة» لابن بشكوال : 1/ 66ـ67 رقم 141.

28) انظر «تاريخ قضاة الأندلس» للنباهي ص 53.

29) انظر «المغرب» 2/ 407 ـ 408.

النطاق بصفته عالما بارزا».(30) أما ابن الرومية العالم النباتي المشهور (ت637هـ) فقد استوعب علما غزيرا أثناء تطوافه بأقطار المشرق «وعاين الكثير مما ليس بالمغرب (أي الأندلس) فصار واحد عصره فردا لا يجاريه فيه أحد بإجماع من أهل ذلك الشأن»(31) ولم تعرف الأندلس عبر تاريخها الطويل عالما نباتيا في مثل علمه.

وقد يندهش الأندلسيون حينما يعود إليهم بعض أبناء وطنهم الذين كانوا ينتقصونهم فيفاجأون بأنهم صاروا على شاكلة أخرى. ومن ذلك أن أندلسيا واسمه أبو محمد عبد الله بن خليفة القرطبي المصري (ت496هـ) «كان رحل إلى مصر واسمه خامل، وسماؤه عاطل، فلم يلبث أن طرأ على الأندلس وقد نشأ خلقا جديدا، وجرى إلى النباهة طلقا بعيدا فتهادته الدول، وانتهت إليه التفاصيل والجمل».(32) كما أن أندلسيا آخر هو بشر بن حبيب المعروف بـ«دحون» (توفي أوائل ق3هـ)(33) رحل إلى المشرق وحج، وروى الحديث «وجاء إلى الأندلس في صورة أخرى، وذكر ابن حيان أنه قدم الأندلس بعلم كثير وكان يتحلق في الجامع».(34)

ومن الدلائل الأخرى أن الأندلسي الذي كان يقبع في عقر داره بالأندلس ولا يرحل نحو المشرق يعد ذلك منقصة عظيمة في حقه، وهذا واضح في قول أحمد أمين «وبلغ من إقبالهم على ذلك أن كان الشخص يعاب بأنه لم يرحل نحو الشرق»(35) حتى إن ابن حزم وهو أشهر فقيه ومفكر أنبتته الأندلس كان خصومه يغمزونه بهذه النقيصة إلا أنه تحداهم وسفه أحلامهم بل وتحدى كل ما يأتي من الشرق كله إجمالا وتفصيلا، ولعل بيته الشعري الآتي خير شاهد على هذا الاعتقاد (من المتقارب) :

---

30) جوانب من الواقع الأندلسي في القرن الخامس الهجري: للدكتور امحمد بنعبود ص 172.

31) العبارة لابن عبد الملك المراكشي نقلا عن «الإحاطة» لابن الخطيب 1/207ـ209.

32) انظر «المغرب» 1/128ـ129.

33) انظر «النفح» 3/258.

34) انظر «المغرب» 1/62ـ63.

35) ظهر الإسلام 3/24.

وياجوهر الصين سحقا فقد غنيت بياقوتة الأندلس(36)

وفي هذا السياق نحتج بدليل آخر وهو كثرة المترحلين نحو المشرق طيلة مراحل الحكم العربي الإسلامي بالأندلس وما بعدها، حتى إن المقري ـ مدون التراث الأندلسي ـ وقف نصف المجلد الثاني والمجلد الثالث(37) من مصنفة «النفح» على الترجمة للأندلسيين الراحلين نحو المشرق، وقد تنبه هو نفسه إلى هذه الظاهرة الاجتماعية في حياة الأندلسيين فقال: «اعلم ـ جعلني الله تعالى وإياك ممن له للمذهب الحق انتخال ـ أن حصر أهل الارتحال (يقصد نحو المشرق) لا يمكن بوجه ولا بحال، ولا يعلم ذلك على الإحاطة إلا علام الغيوب الشديد المحال».(38)

ومن أشهر الأندلسيين المترحلين صوب المشرق أبو عمر عبد الله بن رشيد الونشريسي صاحب «المعيار المغرب» الذي تجول في أنحاء المغرب ومصر والشام سنة 673هـ ودون مشاهداته في كتاب سماه «رحلة» وهو يتحدث فيه عمن لقيه من أصحاب الدين ومجالس العالم،(39) وكذلك عيسى بن دينار الطليطلي (تـ212هـ) عالم الأندلس الذي قيل عنه إنه كان أفقه من يحيى بن يحيى الليثي إذ نراه بعد عودته من المشرق يتصدر للفتيا ويتزعم المالكيين، كما كان على طريقة عالية من الزهد والعبادة، ويقال إنه صلى الصبح أربعين سنة بوضوء العتمة.(40) ومن ألمعهم كذلك العالم الفقيه القاضي أبو الوليد بن الفرضي صاحب «تاريخ علماء الأندلس» (تـ403هـ) الذي رغبه أهل مصر في الإقامة بين ظهرانيهم فقال: «من المروءة النزاع إلى الوطن»(41) ويحيى بن يحيى الليثي (تـ234هـ) الذي سمع من مالك بن أنس وسفيان بن عيينة والليث بن سعد... وكان مالك يسمه عاقل

36) انظر «رسائل ابن حزم» 1/42 تحقيق د. إحسان عباس.

37) تحقيق الأستاذ يوسف الشيخ محمد البقاعي.

38) «النفح» 2/217.

39) انظر «تاريخ الفكر الأندلسي» لبالنثيا ص 318.

40) انظر «المغرب» 2/24.

41) انظر «الذخيرة» ق 1 م 2/614ـ616 ثم «المغرب» 1/103/104.

الأندلس،(42) ومنهم كذلك ابن رشيد البستي (ت721هـ) صاحب الرحلة المشهورة بـ(ملء العيبة» وكان قد حج وتوسع في علم القراءات بالمشرق.(43)

ولئن شفت رحلات الأندلسيين نحو المشرق غليلهم من العلم والمعرفة، وأداء فريضة الحج، وزيارة مهد الدين واللغة والفاتحين الأول، وجعلت أقدارهم جليلة في نظر مواطنيهم فإنها عملت على إحداث ترابط متواصل بين المشرق والأندلس رغم بعد الشقة بينهما، ومن شأن هذا الواقع الاجتماعي أن يعمل على تقوية شعور الأندلسيين بأصلهم العربي الإسلامي رغم كونهم محاطين بأمم أعجمية، وهكذا «كان تيار هذه الرحلة مطردا يحمل من يرحلون من الأندلس إلى المشرق للعلم، ومن يرحلون من المشرق إلى الأندلس بالعلم»(44) وليس معنى هذا أن المشارقة قبعوا في ديارهم ولم يطرقوا أبواب الأندلس بل إن وفودهم كانت تترى عليها تباعا حتى صارت الأندلس والمشرق «أشبه برقعة واحدة يسير فيها النمل ذهابا وجيئة، وتتقابل النمال فتتسار، علماء يضيق بهم المشرق من الفاقة فيرحلون إلى الغرب (يقصد الأندلس) وعلماء من الغرب يعوزهم العلم فيرحلون إلى المشرق»(45) وليس أدل على هذا من أن عبد الرحمن الأوسط أرسل القاضي عباس بن ناصح للمشرق كي يجلب له الكتب النافعة،(46) بيد أن هذه الرحلات من الأندلس وإليها كانت «لها منفعة ومضرة، فمنفعتها أنها نشرت العلم ما شاء أن ينتشر، وكونت علماء نابغين، ووسعت الثقافة بين الشعب الأندلسي، ولكن مضرتها أنها صبت العلم الأندلسي في قالب يشبه القالب الشرقي» وذلك على حد قول أحمد أمين.(47)

---

42) انظر «المغرب» 1/163 ثم «النفح» 2/221.

43) انظر «الإحاطة» 3/135 وما بعدها.

44) تاريخ الأدب العربي في الأندلس : للدكتور عبد العزيز عتيق ص 151.

45) ظهر الإسلام : لأحمد أمين : 3/25.

46) انظر «تاريخ علماء الأندلس» 1/245 ثم «المغرب» 1/45 ثم «النفح» 1/336.

47) ظهر الإسلام 3/26.

ويبدو أن أهم ما حققته هاته الرحلات الأندلسية نحو المشرق يتمثل في كونها عملت على نقل الذاكرة المعرفية المشرقية عامة إلى أهل الأندلس وجعلتهم يعتزون بانتمائهم للعروبة والإسلام رغم أن الموقع الجغرافي حكم عليهم بالإقصاء والمنتأى ولذلك لم تلغ شخصيتهم بين أبناء هذا الموطن الجديد، وشكل ذلك قوة معنوية ساعدتهم على أن يقاوموا الحقد الإسباني الصليبي حتى في أحلك فترات حياتهم. وإن المتصفح لكتب التراجم الأندلسية التي تحدثت عن هذه الرحلات «يستشف مدى الأثر الذي تركه المشرق في الأندلس، ويتبين مدى الصلة التي كانت تربط بينهما وإن كانا في الإدارة والسياسة في بعد واختلاف».(48)

ويمكن التحدث عن هذا التأثير المشرقي في الأندلسيين الآيبين إلى بلادهم وفق التنظيم التالي:

1) أشهر الأندلسيين الذين نقلوا ما يتعلق بالعلوم الدينية:

ومن أبرزهم أبو حفص عمر الهوزني (تـ460هـ) الذي رحل إلى مصر ومكة وروى في طريقه كتاب الترمذي وصحيح البخاري وعنه أخذه أهل الأندلس والمغرب(49) أما أبو عمر وعثمان بن سعيد الداني (تـ444هـ) فقد رحل إلى المشرق سنة 397هـ وسمع من شيوخه وعلمائه آنذاك وعاد إلى الأندلس وهو عالم بالقراءات وروايات القرآن وتفسيره ومعانيه وطرقه وإعرابه، وكانت له معرفة بالحديث وطرقه وأسماء رجاله.(59) ومن الأندلسيين الذين التقوا بالإمام مالك رضي الله عنه: أبو بكر محمد بن بشير المعافري (تـ398هـ) (كان قاضيا للحكم بن هشام) حيث جالسه وسمع منه وطلب العلم بمصر ثم عاد إلى الأندلس.(51) وهذا أبو عبد الله محمد ابن عبد السلام القرطبي

48) تاريخ النقد الأدبي في الأندلس للدكتور محمد رضوان الداية ص 52.

49) انظر «الذخيرة» ق 2 م 1 ص 81 وما بعدها ثم «المغرب» 1/239 ثم «النفح» 2/301 ثم 3/384.

50) انظر «النفح» 2/340.

51) انظر «المغرب» 1/144 ثم «تاريخ قضاة الأندلس» للنباهي ص 47.ـ 53 ثم «النفح» 2/352.

(تـ286هـ) يرحل نحـو المشرق (قبل سنة 240هـ) ويسمع بالبصرة ويلقى أبا حاتم السجستاني ثم يعود إلى الأندلس مصطحبا معه علما كثيرا من الحديث واللغـة والشعـر(52) بينما نجـد أحمد بـن محمـد المعـروف بـالطلمنكي يـرحـل إلى المشرق ويسمع عن جلـة علمائه ثم ينصرف إلى الأندلـس بعلم كثير، وقد كـان أحد الأئمة في علـم القرآن العظيم، قراءته وإعرابه، وأحكامه وناسخه، ومنسوخه ومعانيه».(53)

2) أشهر الأندلسيين الذين نقلوا ما يتعلق بعلوم اللغة :

ومن أبرزهم : القـاضي أبو عبد الله محمد بن المنـاصف القرطبي (تـ620هـ) الـذي اشتهـر بـاستيعابـه علـوم الـدين واللغـة والسرة النبوية،(54) ويقـول عنـه ابن حيان بـأنه: «كـان من آدب النـاس في زمانه، وأقومهم على لسان العرب، وأحفظهم للغة، وأعلمهم بالشعر... رحل إلى المشرق، وحج ودخل بغـداد، وروى عن الأكابـر، ثم عاد إلى الأندلس»(55) أما محمد بن أبي علاقة (ق4هـ) فقد رحل إلى المشرق ولقي جماعة مـن أهل العلم فأخذ عن أبي بكـر الأنباري والـزجاجي والأخفش وغيرهم، وسمع من هذا الأخير «الكامل» للمبرد، وكان الحكم المستنصر يقول: «لم يصح كتاب «الكامل» عندنا من رواية إلا من قبل ابن أبي علاقة»(56) في حين أن محمـد بن سـلام بن ثعلبـة الخشني (تـ286هـ) ذهب إلى المشرق وعاد بكتب جـديدة معظمهـا في الحديث واللغة ودواوين الجاهلية، كما أخـذ بالبصرة رواية الأصمعي.(57) أما القـاضي منذر بن سعيـد البلـوطي فقـد سمع بالمشرق كتـاب «العين» للخليل وسمع شيـوخـا كثيرين وعاد إلى الأنـدلس وهـو يفيض علما ومعرفة(58) وهكذا نرى أن هـؤلاء العلماء المؤدبين قد عملوا على نقل

52) انظر «النفح» 3/ 5.

53) انظر «الصلة» 1/ 44ـ45 رقم 92.

54) انظر «المغرب» 1/ 106.

55) نقلا عن المغرب 1/ 114.

56) «النفح» 2/ 353ـ354.

57) انظر «تاريخ علماء الأندلس» 2/ 14 ثم «جذوة المقتبس» للحميدي رقم 100.

58) انظر «تاريخ قضاة الأندلس» للنباهي ص 84.

التراث اللغوي المشرقي إلى الأندلس حتى تبقى وفية لاتجاهاته ومدارسه تأكيدا منها على انتمائها نحو المشرق، وهذا ما قصده الدكتور حكمت علي الألوسي حين قال: «وممن اهتم بنقل التراث المشرق إلى الأندلس خلال هذين القرنين (يقصد الثاني والثالث الهجريين) طائفة من المؤدبين رحل معظمهم إلى المشرق فاستوعبوا الكثير مما فيه من العلوم والآداب ثم عادوا ليدرسوا ما حصلوا عليه في جامع قرطبة».(59)

3) شعراء وأدباء نقلوا آثارا أدبية وشعرية مشهورة:

ومن أبرزهم الشاعر مؤمن بن سعيد (تـ267هـ) الذي يقول ابن حيان عنه «إنه فحل شعراء قرطبة... ورحل إلى المشرق فلقي أبا تمام الطلابي، وروى عنه شعره، وكان يقرأ عليه بالأندلس».(60) ويحدثنا المقري أن أبا اليسر إبراهيم بن أحمد الشيباني (تـ298هـ) نزح من الأندلس إلى المشرق ولقي أبا تمام وروى شعره(61) أما أبو عمران موسى بن سعادة (تـ514هـ) فقد حدث عنه كتابا «أدب الكاتب «لابن قتيبة» و«الفصيح» لثعلب،(62) بينما نجد أبا علي الحسن بن علي الأنصاري البطليوسي (كان حيا سنة 566هـ) يرحل إلى المشرق ويسمع الصحيحين من المحدثين الثقات هناك كما سمع من أبي القاسم الحريري مقاماته الخمسين ببستانه.(63) والحق أن الأندلسيين أعجبوا بقي المقامات الذي صادف هوى في أنفسهم وانسجم مع أذواقهم فتهافتوا على الرحيل نحو المشرق قصد سماعها

---

59) فصول في الأدب الأندلسي خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين ص 59.

60) انظر «يتيمة الدهر» 1/371 ثم «المغرب» 1/132ـ133.

61) انظر عنه «النفح» 3/130ـ135 ثم «تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة للدكتور إحسان عباس ص 37 ثم الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط الخلافة للدكتور أحمد هيكل ص 124 ثم «أبو تمام وأبو الطيب في أدب المغاربة» للدكتور محمد بنشريفة ص 10.

62) انظر «النفح» 2/424.

63) انظر «النفح» 3/263ـ264.

من منشئيها شفاها.(64) ومن أشهر هؤلاء الأندلسيين العائدين من «الرحلة المشرقية محمد بن عبد الله الغازي القرطبي (تـ296هـ) الذي أدخل الأشعار المشروحة كلها رواية إلى الأندلس،(65) ويذكر ياقوت الحموي أن أبا خلف سلام بن زيد الأندلسي رحل إلى المشرق وجالس الجاحظ مدة تفوق العشرين سنة ثم عاد إلى الأندلس.(66) ولا شك أن هؤلاء العائدين قد أثروا في الحياة الثقافية الأندلسية وطبعوها بطوابع مشرقية، كما أثروها بما حملوه من نفيس الكتب وجليل العلم والمعرفة، وإلى هذا يشير الدكتور أحمد هيكل حينما يقول: «... من أهم العوامل التي دفعت الأندلس إلى الخطو نحو حياتها الثقافية، رجوع أول فوج من الأندلسين الدارسين في المشرق، فقد كان هؤلاء بمثابة أعضاء البعثات الذين يتعلمون خارج بلادهم، ثم يعودون ليشيعوا ما تعلموا بين أهليهم وفي أرجاء وطنهم».(67)

وهكذا ننتهي من هذه الرحلة في أعماق الشخصية الأندلسية باستنتاج منطقي وهو أن المعيار الذي كان الأندلسيون يقومون به مدى علم العالم أو إبداع الأديب هو ترحله صوب الشرق وتتلمذه على شيوخه وأدبائه وإجازتهم إياه لأنه بذلك يحصل على صك اعتراف بأنه عالم الأندلس المبجل أو أديبها المبدع أو مفكرها الألمعي...

64) انظر ملامح التجديد في النثر الأندلسي خلال القرن الخامس الهجري» للدكتور مصطفى محمد أحمد علي السيوفي ص 279.

65) انظر «تاريخ علماء الأندلس» 2/22 رقم 1152 ثم «عصر سيادة قرطبة» للدكتور إحسان عباس ص 35.

66) انظر «معجم الأدباء» 6/75/76.

67) الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة ص 75.

الرحلة عند المحدثين ودورها في توثيق السنة

ذ. محمد صقلي حسيني
كلية الآداب - مكناس

• نظرة تاريخية عن الرحلة في طلب الحديث :

لعل الدارس لأسانيد الحديث النبوي تسترعي انتباهه ظاهرة اختلاف مواطن الرواة نقلة المتون، وتباين البلدان التي ينتسبون إليها بحيث يجد في إسناد الحديث الواحد مثلا: المغربي يروي عن الشامي، عن العراقي، عن المصري، عن الخراساني عن الحجازي.

ولا شك أن هذه الظاهرة تعبر عن صورة فريدة للتواصل الحضاري الذي حدث بين أقطار العالم الإسلامي.

وما هذا التواصل في حقيقته إلا أثر طبيعي للرحلة في طلب الحديث، فبفضلها تم ربط الوشائج والصلات بين سائر بيئات البلاد الإسلامية.

وقد بدأت الرحلة الخاصة بطلب الحديث في وقت مبكر يرجع إلى عهد الصحابة، وذكرت المصادر التي وصلتنا خبر رحلتين اثنتين بشيء من التفصيل يعود تاريخهما إلى هذه الفترة:

- الأولى: رحلة جابر بن عبد الله الأنصاري(1) من الحجاز إلى الشام.

1) صحابي من المكثرين عن النبي ﷺ، توفي سنة 78هـ. انظر ترجمته في الإصابة لابن حجر 222/1.

قال البخاري في كتـاب العلم من صحيحه في باب الخروج في طلب العلم: ورحل جابر بن عبد اللـه مسيرة شهر إلى عبد الله بن أنيس في حديث واحد.(2)

وذكـر البخاري هـذا الخبر مفصـلا في كتـابه «الأدب المفـرد»،(3) بسنده إلى جابر بن عبد الله، قال: بلغني حديث عن رجل من أصحاب النبي ﷺ، فابتعت بعيرا، فشددت إليه رحلي شهرا حتى قدمت الشام، فإذا عبد الله بن أنيس،(4) فبعثت أن جابرا بالبـاب، فرجع الرسول، فقال: جابـر ابن عبد الله؟ فقلت: نعم، فخرج فـاعتنقني، قلت: حديث بلغني لم أسمعه خشيت أن أمـوت أو تموت، قال: سمعت النبي ﷺ، يقول: «يحشر الله العباد ـ أو الناس ـ عراة، غرلا، بهما... الحديث».

ـ والثانية: رحلة أبي أيوب الأنصاري(5) من الحجاز إلى مصر.

قال الحافظ أبو بكـر الحميدي في مسنده.(6) «خرج أبو أيوب إلى عقبة بن عامر(7) وهو بمصر يسألـه عـن حديث لم يبق أحـد سمعه من رسول اللـه ﷺ غيره وغير عقبة، فلما قدم أتى منـزل مسلمة بن مخلد الأنصاري.(8) وهـو أمير مصر. فأخبر به، فعجـل فخرج إليـه فعانقه، ثم قـال: ما جاء بـك ياأبا أيوب؟ فقـال: حديـث سمعتـه من رسول اللـه ﷺ لم يبق أحد سمعـه من رسـول الله ﷺ غيري وغير

---

2) انظر صحيح البخاري بهامش فتح الباري 1/173.

3) ص: 287، وانظر أيضـا الجامع لأخلاق الراوي وآداب السـامع للخطيب البغدادي 2/225، وجامع بيان العلم وفضله. لابن عبد البر 1/111، ومجمع الزوائد للهيثمي 1/138.

4) صحابي من الأنصار، وقيل: اسمه عبد الله بن أنيسة، أو ابن أبي أنيسة واختلف في نسبه فقيل: هـو الأسلمي، وقيل: الجهني. انظـر ترجمتـه في تجريـد أسماء الصحـابة للـذهبي 1/298، والإصابة لابن حجر 5/131.

5) هو خـالد بن زيـد النجاري المدني، صحابي من السـابقين إلى الإسلام، تـوفي سنة 52هـ، انظر ترجمته في الإصابة 2/89 ـ 90.

6) ج 1/189 ـ 190، حـديث رقم 384، وانظر أيضـا معرفـة علوم الحديث للحـاكم ص: 8، والرحلة في طلب الحديث للخطيب البغدادي ص: 118.

7) صحابي مشهـور، كان عـالما بالفـرائض والفقه، وهـو أحد من جمع القـرآن، توفي في أول خلافة معاوية، وكان أميرا له على مصر قبل مسلمة بن مخلد انظر الإصابة 4/250 ـ 251.

8) له صحبة، ولي مصر لمعـاوية سنة 47هـ، توفي بالإسكندرية سنة 62هـ، انظر سير أعلام النبلاء 3/424.

عقبة فابعث من يدلني على منزله، قال: فبعث معه من يدله على منزل عقبة، فأخبر عقبة فعجل فخرج إليه فعانقه، وقال: ما جاء بك ياأبا أيوب!؟ فقال: حديث سمعته من رسول الله ﷺ لم يبق أحد سمعه غيري وغيرك في ستر المؤمن، قال عقبة: نعم سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من ستر مؤمنا في الدنيا على خزية ستره الله يوم القيامة».

فقال له أبو أيوب: صدقت، ثم انصرف أبو أيوب إلى راحلته فركبها راجعا إلى المدينة، فما أدركته جائزة مسلمة بن مخلد إلا بعريش مصر».

ومما يلاحظ من الروايتين معا أن الرحلة كانت من أجل حديث واحد بعينه وربما كانت هذه أولى بالإشارة إليها في المصادر من الرحلة في طلب مجموعة من الأحاديث. مما قد نتصور معه نطاقا أوسع للرحلة في عهد الصحابة.

كما يلاحظ أن صاحب الرحلة الأولى وهو جابر بن عبد الله لم يسمع الحديث من النبي ﷺ وإنما سمعه يروى بالمدينة بالواسطة عن أحد الصحابة بالشام - وهو عبد الله بن أنيس - عن النبي ﷺ، فرحل إليه ليتأكد مباشرة من مصدر الخبر.

أما صاحب الرحلة الثانية وهو أبو أيوب الأنصاري فإنه سمع الحديث من النبي ﷺ بمعية عقبة بن عامر، وبعد وفاة النبي ﷺ لم يبق أحد سمعه سواهما فخاف أن يتفرد بروايته وحده مما جعله يرحل إلى الراوي الآخر ليستوثق منه احتياطا لدينه وحفظا لسنة نبيه.

وإن خبر الرحلتين يرد دعوى عدم توثيق السنة قبل التدوين.

أما في عصر التابعين فيبدو أن الرحلات في طلب الحديث عرفت نشاطا أكبر وإقبالا أكثر، ومن الطبيعي أن تنمو وتزدهر لتفرق الصحابة في الأمصار بعد وفاة النبي ﷺ واحتياج التابعين إلى علمهم لكونهم المبلغين عن الرسول عليه السلام، المشاهدين لأحواله، الناقلين لآثاره ولكثرة الدواعي إليها عند ظهور الوضع من أجل تتبع أحوال الرجال والتثبت من الأخبار.

ومن أعلام التابعين الذين ثبت أنهم رحلوا في طلب الحديث خاصة، وأثرت عن بعضهم أقوال تدل على ذلك:

- علقمة بن قيس النخعي(9) (تـ 62هـ) وابن أخيه الأسود بن يزيد(10) (تـ 75هـ)، كانا يرحلان من الكوفة.(11) إلى المدينة لسماع الحديث من عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

- زر بن حبيش (تـ 82هـ)، رحل من الكوفة إلى المدينة إلى الصحابة لسؤالهم عن أحواله عليه السلام وسننه.(12)

- عبيد الله بن عدي بن الخيار النوفلي(13) (تـ 90هـ)، رحل من الحجاز إلى علي بن أبي طالب بالعراق لسؤاله عن حديث واحد.(14)

- أبو العالية رفيع بن مهران الرياحي البصري(15) (تـ 93هـ) وهو القائل: «كنا نسمع الرواية عن أصحاب رسول الله ﷺ بالبصرة، فلم نرض حتى ركبنا إلى المدينة فسمعناها من أفواههم».(16)

- سعيد بن المسيب(17) (تـ 94هـ) وكان يرحل إلى الأمصار في طلب حديث واحد. وهو القائل: «إن كنت لأسير الليالي والأيام في طلب الحديث الواحد».(18)

---

9) ترجمته في سير أعلام النبلاء للذهبي 4/53.

10) ترجمته في سر أعلام النبلاء للذهبي 4/50.

11) انظر مقدمة ابن الصلاح ص: 223.

12) انظر سير أعلام النبلاء 4/167، وقد لقي زر في رحلته مجموعة من الصحابة منهم صفوان بن عسال المرادي وسأله عن السنة في المسح على الخفين وغيرها. انظر مسند الطيالسي ص: 160 ـ 161، ومسند الحميدي 2/388 ـ 389.

13) ترجمته في تهذيب التهذيب لابن حجر 7/36.

14) انظر الرحلة في طلب الحديث للخطيب ص: 130.

15) ترجمته في سير أعلام النبلاء 4/207.

16) انظر الجامع لأخلاق الراوي 2/225.

17) ترجمته في سير أعلام النبلاء 4/217.

18) انظر جامع بيان العلم وفضله 1/113، والجامع لأخلاق الراوي 2/226.

ـ أبو عثمان عبد الرحمن النهدي البصري(19) (تـ 100هـ) رحل من العراق إلى الحجاز للقاء أبي هريرة في حديث واحد.(20)

ـ أبـو قلابة عبد اللـه بن زيد الجرمي البصري(21) (تـ 105هـ) وهو القائل: «لقد أقمت بالمدينة ثلاثا مالي حاجةٍ إلا رجل عنده حديث يقدم فأسمعه منه».(22)

ـ بسر بن عبيد الله الحضرمي الشامي،(23) عاش إلى حدود سنة 110هـ وهو القائل: «إن كنت لأركب إلى المصر من الأمصار في الحديث الواحد لأسمعه».(24)

ـ عبد اللـه بن فيروز بن الديلمي،(25) رحل من بيت المقـدس إلى عبد الله بن عمرو بن العاص بالطائف لأجل حديث واحد.(26)

وأما بعد عصر التابعين فإن رحلات المحدثين يتسع نطاقها بشكل كبير بحيث يصعب حصرها ويضيق المقام بذكرها، وأصبح من النادر أن تجدِ محدثا ذا شأن ليست له رحلة في طلب الحديث.

ويكفي أن نشير بأن القاضي ابن خلاد الرامهرمزي (تـ 360هـ) في كتابـه «المحدث الفـاصل بين الراوي والـواعي»(27) ذكـر جملـة من الـراحلين مـرتبا إيـاهم على خمس طبقـات، منبهـا على من جمع بين الأقطار، ومن قصـد ناحية واحدة، ومن رحل من البصرة إلى الكـوفة، ومن الكـوفة إلى البصرة. ومن واسـط إلى البصرة، ومن خراسـان إلى العراق.

---

19) ترجمته في سير أعلام النبلاء 4/175.

20) انظر الرحلة في طلب الحديث ص: 132.

21) ترجمته في الهداية والإرشاد أو رجال صحيح البخاري للكلاباذي 1/406.

22) انظر المحدث الفاصل بين الراوي والواعي للرامهرمزي ص: 223. والجامع لأخلاق الراوي 2/227، والرحلة في طلب الحديث ص: 145.

23) ترجمته في سير أعلام النبلاء 4/592.

24) انظر جامع بيان العلم وفضله 1/113.

25) ترجمته في تهذيب التهذيب 5/358.

26) انظر الرحلة في طلب الحديث ص: 136 ـ 137.

27) انظر ص: 229.

ومما يلاحظ ابتداء من هذه الفترة تقريبا أن الرحلة لم تعد مقصورة على أهل المشرق والحواضر الشرقية، فبعد أن تم فتح شمال إفريقيا والأندلس وانتشار الإسلام بهذه الأصقاع، بدأ أهل الغرب الإسلامي يرحلون بدورهم في طلب الحديث.

وأهل الأندلس مثلا ـ وهم ممن شغفوا بالرحلات العلمية ـ(28) تذكر لنا كتب التراجم الأندلسية عنهم أخبارا كثيرة في هذا المجال، وكان لبعضهم الفضل في نقل أمهات كتب الحديث إلى الأندلس بعد سماعها على مصنفيها في المشرق.

فقد رحل الغازي بن قيس القرطبي (تـ 199هـ) في صدر إمارة عبد الرحمن الداخل: أي قبل منتصف القرن الهجري الثاني(29) وسمع الحديث على مالك وهو أول من أدخل موطأه إلى الأندلس.(30)

ـ كما رحل زياد شبطون (تـ 204هـ) وسمع على مالك وغيره، وانتشر الموطأ بروايته في الأندلس(31) أيضا.

ـ ثم رحل يحيى بن يحيى الليثي المصمودي (تـ 234هـ)، وأصله من البربر من المغرب الأقصى وسمع من كبار الشيوخ أمثال مالك بن أنس وسفيان بن عيينة والليث بن سعد وغيرهم، وارتحل إلى مالك مرتين وحضر في الثانية جنازته(32) ورجع إلى وطنه واشتغل بإفادة علوم الحديث،(33) وروايته للموطأ هي أشهر الروايات على الإطلاق في العالم الإسلامي إلى الآن.

---

28) خصص المقري في نفح الطيب قرابة مجلدين لذكر من رحل من الأندلسيين إلى المشرق وللوافدين المشارقة على الأندلس ومن ضمنهم مجموعة من المحدثين، انظر الأجزاء: 2 ـ 3 ـ 4. طبعة محيي الدين عبد الحميد.

29) استتب الحكم لعبد الرحمن بن معاوية الداخل بالأندلس ابتداء من سنة 138هـ إلى أن توفي سنة 172هـ، انظر جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس للحميدي ص: 9.

30) انظر الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب لابن فرحون 2/136.

31) انظر تاريخ العلماء والعلم بالأندلس لابن الفرضي 1/182 ـ 183.

32) نفسه 2/176.

33) انظر مقدمة الموطأ لمحمد فؤاد عبد الباقي.

- ورحل أبو بكر محمد بن معاوية القرطبي، المعروف بابن الأحمر (تـ 358هـ) وجال في البلدان، وسمع سنن النسائي بمصر على مصنفها أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي(34) (تـ 303هـ) قال الحميدي في «جذوة المقتبس»:(35) وهو أول من أدخل الأندلس مصنفه في السنن وحدث به وانتشر عنه».

- ومن المحدثين الأندلسيين الراحلين إلى المشرق من تفرد بإدخال مجموعة من الكتب إلى الأندلس لم يدخلها سواه كبقي بن مخلد القرطبي (تـ 276هـ) - مؤسس مدرسة الحديث بالأندلس إلى جانب محمد بن وضاح (تـ 287هـ) - قال ابن الفرضي:(36) «وكان مما انفرد به بقي بن مخلد ولم يدخله سواه: مصنف أبي بكر بن أبي شيبة رحمه الله بتمامه، وكتاب الفقه لمحمد بن إدريس الشافعي الكبير بكماله، وكتاب التاريخ لخليفة بن خياط، وكتابه في الطبقات، وكتاب سير عمر بن عبد العزيز رحمه الله للدورقي».

وكفى الرحلة فائدة أن تساهم في نشر العلوم ونقل مصادر المعرفة بين البلدان.

- ومن الأندلسيين من طالت رحلته كثيرا طلبا للحديث، فأبو عبد الله محمد بن عبد السلام الخشني (تـ 286هـ) ارتحل قبل الأربعين ومائتين وسمع من محمد بن بشار بندار ونصر بن علي الجهضمي(37) - وهما من شيوخ البخاري ومسلم - كما لقي أحمد بن حنبل ونظراءه ومكث خمسا وعشرين سنة متجولا في طلب الحديث وهو القائل عند رجوعه إلى الأندلس بعد هذه الغيبة الطويلة:

كأن لم يكن بين ولم تك فرقة
إذا كان من بعد الفراق تلاق
كأن لم تؤرق بالعراقين مقلتي
ولم تمر كف الشوق ماء مآق

34) انظر تاريخ العلماء بالأندلس 2/70.

35) ص: 89.

36) انظر تاريخ العلماء بالأندلس 1/108.

37) انظر المصدر السابق 2/16.

ولم أزر الأعــراب في خبـت أرضـهم
بــذات اللـوى مـن رامـة وبــراق
ولم أصطبح بـالبيد مـن قهوة النـوى
بكأس سقـانيها الفـراق دهاق(38)

- ومنهـم مـن خـرج من موطنـه وعاش في المشرق بقيـة حياتـه متجـولا كأبي عبـد اللـه محمـد بن فتـوح الحميـدي (ت 488هـ) - صاحب الجمع بين الصحيحين وجذوة المقتبس - ارتحل سنة 448هـ، ودخل مصر ودمشق ومكـة والمدينـة وواسـط وغيرهـا، ثم استـوطن بغداد(39) إلى وفاته.

ويظهر أنه لكثـرة تجواله، هو نفسه لا يحصي البـلاد التي دخلها، والشيوخ الذين لقيهم وأخذ عنهم. كما أنه عـانى من الغربة بعيدا عن بلده مما يدل عليه قوله:(40)

ألفت النــوى حتى أنسـت بــوحشتي
وصرت بها لا بـالصبـابـة مـولعـا
فلم أحص كـم رافقت فيهـا مـرافقـا
ولم أحص كم يممت في الأرض مـوضعا
ومن بعـد جـوب الأرض شرقـا ومغـربـا
فــلابــد لي من أن أوافي مصرعــا

- ومنهم من خرج إلى المشرق في طلب الحديث وتولى مشيخة كبرى دور الحديث هنـالك، كأبي عبد اللـه محمد بن سراقـة الشاطبي (تـ 663هـ) فقـد تولى مشيخـه دار الحديث البهـاديـة بحلب، ثم تـولى مشيخة دار الحديث الكـاملية بالقـاهرة بعـد وفاة ابن سهل القصري سنة 642هـ(41)

38) انظر جذوة المقتبس ص: 68.
39) انظر الأنساب للسمعاني 2/269.
40) انظر معجم الأدباء لياقوت 18/285.
41) نفح الطيب للمقري 2/269.

وأشير بأن بعـض المشارقة رحلوا بدورهم إلى الأندلس، ومنهم من نشر الحديث في ربوعه مثل صعصعة بن سلام الشامي(42) (تـ 180هـ)، ومنهم من تلقى الحديث مثل زيد بن الحباب الكوفي (تـ 203هـ) عن بعض الشيوخ الذين استوطنوا الأندلس.(43)

● أدبيات الرحلة في طلب الحديث :

أصبح من المعروف عند علماء الحديث أن المحدث لا يكتمل تكوينه إلا بالقيام بالرحلة حتى قال يحيى بن معين (تـ 233هـ) إمام الجرح والتعديل: «أربعة لا تؤنس منهم رشدا، منهم: «رجل يكتب في بلده ولا يرحل في طلب الحديث».(45)

وقال ابن الصلاح (تـ 643هـ): «وإذا فرغ من سماع العوالي والمهمات التي ببلده فليرحل إلى غيره».(45) وذكر البخاري (تـ 256هـ) لمن سأله عن آداب طلب الحديث جملة مسائل منها: أن يهون عليه الأهل والولد والمال والموطن، ثم قال للسائل: «وإلا تطق احتمال هذه المشاق كلها فعليك بالفقه الذي يمكنك تعلمه وأنت في بيتك قار ساكن لا تحتاج إلى بعد الأسفار ووطء الديار وركوب البحار».(46)

وهكذا بعد أن أصبح مقررا لدى طلاب الحديث ضرورة القيام بالرحلة فإنهم كانوا يأخذون أنفسهم بمجموعة من الآداب ويلتزمون بها، وقد نص عليها علماء هذا الشأن في مؤلفاتهم الخاصة بأخلاق المحدثين وآدابهم وهذه أهمها:

1 ـ الأخذ عن شيوخ البلد أوّلاً :

ينبغي لطالب الحديث قبل أن يرحل أن يسمع من شيوخ بلده، وأن يكتب عنهم ما تيسر من الأحاديث وإن قلت مما يجعل الطالب

42) انظر تاريخ العلماء بالأندلس 1/240.
43) نفسه 1/185 ـ 186.
44) مقدمة ابن الصلاح ص: 223.
45) نفسه ص: 222.
46) انظر الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع للقاضي عياض ص: 33.

يحتك بشيوخ بلده ويعرف مروياتهم، فما يمكن أخذه في بلده أولى أن تصرف فيه الجهود في غيره.

قال الحافظ أبو الفضل صالح التميمي (ت 384هـ): «وينبغي لطالب الحديث ومن عني به أن يبدأ بكتب حديث بلده ومعرفة أهله منهم وتفهمه وضبطه حتى يعلم صحيحها وسقيمها، ويعرف أهل التحديث بها وأحوالهم معرفة تامة إذا كان في بلده علم وعلماء قديما وحديثا، ثم يشتغل بعد بحديث البلدان والرحلة فيه». (47)

2 ـ استئذان الوالدين في الرحلة :

أجاز العلماء للشخص أن يرحل بغير إذن الأبوين إذا لم يكن ببلده من يعرفه الفروض والواجبات، أما الرحلة فيما دون ذلك تستلزم استرضاء الوالدين.

قال الخطيب البغدادي (ت 463هـ): والطلب المفروض على كل مسلم إنما هو طلب العلم الذي لا يسع جهله، فتجوز الرحلة بغير إذن الأبوين إذا لم يكن ببلد الطالب من يعرفه واجبات الأحكام وشرائع الإسلام، فأما إذا كان قد عرف علم المفترض عليه فتكره له الرحلة إلا بإذن أبويه». (48)

سئل الحافظ أبو القاسم ابن عساكر (ت 571هـ) صاحب «تاريخ دمشق» عن سبب تأخره عن الرحلة إلى أصبهان فقال: استأذنت أمي في الرحلة إليها، فما أذنت». (49)

وقال الذهبي في ترجمة الحافظ محمد بن بشار بندار (ت 252هـ) «لم يرحل برا بأمه، ثم ارتحل بعدها»، (50) فهو لم يرحل في حياتها إما لعدم إذنها له، أو للقيام بأمرها لعجزها وكبر سنها.

---

47) انظر الجامع لأخلاق الراوي 2/ 224.

48) نفسه 2/ 228.

49) انظر سير أعلام النبلاء 20/ 567.

50) انظر تذكرة الحفاظ للذهبي 2/ 511.

3 ـ اختيـار الرفيق قبل الرحلة :

ينبغي لطالـب الحديث قبل الرحيل أن يتخير لـرفقته من يشـاكله ويوافقه في مـذهبه وغرضـه ومطلبه. وتستلـزم المرافقة حسن المعاشرة وجميل الموافقة ويقال: إن السفر ميـزان القوم، وإنما سمي سفرا لأنه يسفر عن أخلاق الرجال.

وقد صحـب عبـد اللـه بـن الـمـبـارك (تـ 181هـ) سـفـيـان الـثـوري (تـ 161هـ) في سفر في موضع مخيف، فقال له ابن المبارك يأبا عبد الله، هذا موضع مخيف؟ فنهض سفيان وهو يقول:

وإذا صاحبت فاصحـب صاحبا
ذا عفـــاف ووفـــاء وكـــرم
قـولـــه للشيء «لا» إن قلت «لا»
وإذا قلت «نعم» قـــال: «نعم»(51)

4 ـ استشارة الشيوخ في أماكن الرحلة :

كان طـلاب الحديث قبل الرحيل يستشيرون شيـوخهم في الأماكن التي يستحب التـوجه إليهـا لكونها أولى بـالرحلة مـن غيرها لـوجود جهابذة المحدثين بها.

فقـد سأل أحدهم أحمد بن حنبل، وقـال له: عمن تـرى أن يكتب الحديث؟ فقـــال لـــه: اخـــرج إلى أحمد بـن يـوسف فإنـــه شيخ الإسلام».(52)

وعن معمر، قال: قال لي أيوب: «إن كنت راحلا إلى أحد فارحل إلى ابن طاوس.(53) وإلا فالـزم تجارتك»(54) واستأذن أحـدهم شيخ

51) انظر الجامع لأخلاق الراوي 2/ 243.

52) انظر الـرحلة في طلب الحديث ص: 91، والراجح أن أحمد بن يوسـف هو الملقب بحمدان (182 ـ 264هـ) محدث خراسان في زمانه وهو معاصر لأحمد بن حنبل انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء 12/ 384.

53) هو عبد الله بن طاوس اليماني محدث ثقة، حدث عنـه معمر بن راشد والسفيانان، توفي سنة 132هـ، انظر سير أعلام النبلاء 6/ 103.

54) انظر الرحلة في طلب الحديث ص: 92.

الإسلام أبا العلاء الهمداني(55) (تـ 569هـ) في الرحلة، فقال له: إن عرفت أستاذا أعلم مني أو في الفضل مثلي، فحينئذ آذن إليك أن تسافر إليه، اللهم إلا أن تسافر إلى الحافظ ابن عساكر، فإنه حافظ كما يجب».(56)

5 ـ الإسراع إلى كبار الشيوخ عند الورود إلى البلد المقصود :

ينبغي لطالب الحديث عند دخوله إلى البلد الذي رحل إليه أن يحرص على مهمات الرواية، قال زكرياء الأنصاري (تـ 926هـ) «وإذا رحلت فاسلك ما سلكته في مصرك من الابتداء بالأهم فالأهم».(57)

ومن المهمات التعجيل بالأخذ عن كبار الشيوخ لئلا يحول دونه عارض من العوارض.

قال الخطيب البغدادي: «إذا نزل بالبلد الذي رحل يقدم لقاء من به من المشايخ ويتعجل السماع منهم خوف اعتراض الحوادث».(58)

وقد خصص الخطيب فصلا من كتابه: «الرحلة في طلب الحديث»(59) لمن رحل إلى شيخ يبتغي علو إسناده فمات قبل ظفر الطالب منه ببلوغ مراده.

وقد يصادف وجود الطالب بالبلد المقصود وفاة أحد الشيوخ الذين قصدهم للأخذ عنهم بعد نيل بعض مراده منه، وهذا ما حدث ليحيى بن يحيى الليثي في رحلته الثانية مع شيخه مالك بن أنس (تـ 179هـ) ولأبي الحسن علي بن محمد القلصادي البسطي الأندلسي (تـ 891هـ) الذي رحل إلى مصر، وأخذ بها عن الحافظ ابن حجر العسقلاني حيث أجازه مشافهة برواية الكتب الستة والموطأ وغيرها،

---

55) ترجمته في سير أعلام النبلاء 21/40.

56) انظر المصدر السابق 20/563.

57) انظر فتح الباقي على ألفية العراقي لزكرياء الأنصاري 2/296.

58) انظر الجامع لأخلاق الراوي 2/243.

59) انظر ص: 166.

فصادف وجوده هناك سنة 852هـ تاريخ وفاة ابن حجر، وقد أشار إلى هذا القلصادي في رحلته المدونة.(60)

6 ـ الاعتناء بكثرة المسموع لا بكثرة الشيوخ :

ينبغي للطالب عندما يرحل إلى بلد ما أن يحرص على تلقي المرويات الحديثية التي لم يسبق له أن تحملها من قبل، أما الإكثار من الشيوخ فربما يصبح عنده هدفا في حد ذاته لأجل التباهي فقط، واتساع المشيخة لا يقوم دليلا وحده على اتساع العلم.

قال الخطيب:(61) «وليسمع من كل شيخ ما ليس عند غيره وما اشترك المشايخ فيه فليقتصر على سماعه من أحدهم». وقال ابن حجر:(62) «ثم يرحل فيحصل في الرحلة ما ليس عنده وأن يكون اعتناؤه بتكثير المسموع أكثر من اعتنائه بتكثير الشيوخ».

7 ـ الصبر على تحمل مشاق الرحلة في طلب الحديث :

بذل المحدثون في رحلاتهم جهودا كبيرة وعانوا كثيرا وتحملوا المشاق الجسام؛ ولعل ما ورد في القرآن الكريم عن رحلة موسى مع الخضر، وفي أحاديث النبي ﷺ ما حفزهم على ذلك، كقوله عليه السلام: «من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة»،(63) وقوله: «اطلبوا العلم ولو في الصين»(64) وغيرها. وقد مر بنا خبر جماعة من السلف تجشموا متاعب السفر لأجل حديث واحد.

وكان الرجل منهم يحج ولا يقصد الحج إلا لسماع الحديث، قال أبو عثمان النهدي (تـ 100هـ) وقد رحل إلى أبي هريرة في حديث واحد: «فحججت ذلك العام، ولم أكن أريد الحج إلا للقائه في هذا

60) انظر رحلة القلصادي ص: 153.

61) الجامع لأخلاق الراوي 2/244.

62) انظر نزهة النظر شرح نخبة الفكر ص: 124.

63) أخرجه الترمذي في جامعه 5/28 (باب فضل طلب العلم ـ كتاب العلم).

64) أخرجه الخطيب من ثلاثة طرق في كتاب الرحلة ص: 72، وهو حديث ضعيف.

الحديث» (65) وقال علي بن المديني (تـ 233هـ) حججت حجة وليس لي همة إلا أن أسمع».(66)

ودأب مشايخ الحديث على تهوين صعاب الرحلة من أجل العلم لطلابهم، قال عامر الشعبي (تـ 104هـ): «لو أن رجلا سافر من أقصى الشام إلى أقصى اليمن ليسمع كلمة حكمة ما رأيت أن سفره ضاع».(67)

وقد أدى طول رحلة المحدث في بعض الأحيان إلى إفلاسه، فالحافظ أبو سهل الهيثم بن جميل البغدادي (تـ 214هـ)، قال عنه مترجموه: «أفلس الهيثم بن جميل البغدادي في طلب الحديث مرتين»(68) ولشدة معاناة أصحاب الحديث أثناء رحلاتهم وتحملهم وصبرهم كان إبراهيم بن أدهم (تـ 162هـ) يردد: «إن الله تعالى يدفع البلاء عن هذه الأمة برحلة أصحاب الحديث».(69)

فهذه أهم الآداب التي يسلكها المحدثون في رحلاتهم، وقد حرصوا على غيرها من الآداب العامة كالاستخارة عند السفر، وتوديع الإخوان والمعارف، وما يقال عند التوديع، واختيار وقت الخروج، ويوم الخروج، والمداومة على الطاعات، وبذل المال والسخاء به، وما يقال عند الورود إلى البلد المقصود، وأفضلية عود الطالب إلى وطنه، واختيار إقامته على ظعنه وسفره، وجدوى اشتغاله بالنظر فيما حصله في رحلته، مما يضيق المقام بتفصيله.

● دور الرحلة في توثيق السنة :

لاشك أن الرحلة الحديثية ساهمت في تحقيق عدة مرامي وأهداف على رأسها لقاء كبار الرواة، وتحصيل المرويات، ونشر مصادر

65) انظر الرحلة في طلب الحديث ص: 133.

66) انظر علوم الحديث ومصطلحه لصبحي الصالح ص: 51.

67) انظر جامع بيان العلم وفضله 1/114.

68) انظر تهذيب التهذيب 11/91.

69) انظر شرف أصحاب الحديث للخطيب البغدادي ص: 59.

الرواية، وسنقتصر هنا على ذكر بعضها مما له أثر كبير في تمحيص السنة وتوثيقها وحفظها وهي كالتالي:

1 ـ الحرص على الرواية الشفوية المباشرة :

إن علماء الحديث حرصوا في نقلهم للخبر على الرواية الشفوية المباشرة التي تتم بين المؤدي والمتلقي، واعتبروا أن أساس العلم السماع واللقاء والاتصال المباشر بين العالم وطالب العلم، وحصروا طرق تحمل الحديث في ثمانية أنواع هي: السماع والعرض والإجازة والمناولة والمكاتبة والإعلام والوصية والوجادة.

وحصل بينهم الاتفاق على أن أرفع هذه الأنواع هما: السماع من لفظ الشيخ والقراءة عليه، وطبيعي أن التلقي بهما عن غير شيوخ البلد لا يتم إلا بواسطة الرحلة، لهذا قال شعبة ابن الحجاج:(70) «لو صحت الإجازة بطلت الرحلة» لأن الإجازة إذن إجمالي بالرواية لا يتحقق فيها سماع الحديث أو قراءته على الشيخ.

ومن هنا نستنتج أن الرحلة كانت تساهم في نقل الخبر عبر أوثق قناة يقع بها التواصل على الأقل إلى حدود تصنيف أمهات كتب الحديث حيث كان العدول عن السماع والعرض نادرا جدا.

2 ـ طلب العلو في الإسناد :

بعد التزام المحدثين بالإسناد، والإشادة به، واعتباره شرطا ضروريا لقبول الحديث، فإنهم حرصوا على طلب العلو فيه.

والإسناد العالي هو ما قلت فيه الوسائط، وهو «أقرب إلى الصحة وقلة الخطأ لأنه ما من راو من رجال الإسناد إلا والخطأ جائز عليه، فكلما كثرت الوسائط وطال السند، كثرت مظان التجويز وكلما قلت قلت».(71)

---

70) انظر الكفاية في علم الرواية للخطيب ص: 316، وشعبة بن الحجاج هو أبو بسطام الأزدي، نزيل البصرة ومحدثها، قال الشافعي: لولا شعبة لما عرف الحديث بالعراق، توفي سنة 160هـ. انظر طبقات علماء الحديث لابن عبد الهادي 1/ 293.

71) انظر نزهة النظر شرح نخبة الفكر لابن حجر ص: 93.

قال يحيى النووي (تـ 676هـ) في إرشـــاد طـلاب الحقـائق إلى معرفة سنن خير الخلائق: «الإسناد خصيصة لهذه الأمة وسنة بالغة مـن السنــن المؤكدة، وطلب العلـو فيه سنـة أيضا، ولـذلك استحبت الرحلـة».(72)

وسئل أحمد بن حنبل: أيـرحل الـرجل في طلب العلـو؟ فقـال: بلى والله شديدا، لقد كان علقمة والأسود يبلغهما الحديث ـ وهما بالبصرة ـــ عن عمـر رضي اللـه عنـه فـــلا يقنعهمـــا حتى يخرجـا إلى عمـر فيسمعانه».(73)

ويبدو جليـا من صنيع المحدثين في طلبهم للعلو والرحلـة من أجله الزيـادة في الاحتياط والاحتراز من الغلط والخلل والحرص على تـوثيق الخبر بأقرب الطرق الصحيحة المباشرة إلى النبي ﷺ.

3 ـ تدوين الحديث وجمعه :

لاشك أن تـدوين السنـة استـدعى القيـام بـالـرحلـة إلى صغـار الصحـابة وكبـار حفـاظ التابعين الـذين تفـرقوا في الأمصـار، ثم إن تصنيف الحديث في مصادره المشهـورة قد استلزم من القـائمين عليه الطـواف ببـــلاد الإســلام لجمع المادة الحديثيـة بنـوع مـن التكـامل والشمول.

وإذا أخـذنـا على سبيل المثـال أصحـاب الكتب الحديثيـة الستـة: البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجة، لا نجد أحدا منهم تخلف عن جوب الآفاق والرحلة لطلب الحديث.

ولا تخفى على أحد أهميـة تدوين الحديث وجمعـه في حفظ السنة وصيانتها.

وبعد تـدوين هذه المصنفـات في كتب، فإنه بفضل الـرحلة انتقلت بروايـاتها المختلفة عن أصحـابها في البلاد الإســلامية، وكفى الـرحلة فائدة أن تساعد على نشر الحديث في أرجاء العالم الإسلامي.

---

72) انظر ص: 175.

73) انظر مقدمة ابن الصلاح ص: 223.

4 ـ معرفة أحوال الرجال :

لاشك أن طالب الحديث عندما يرحل إلى بلد ما يتصل بالشيخ الذي يروي عنه ويقف بنفسه على حاله وسيرته، ويسأل أهل بلده عنه وذلك ليتعرف على مصدر الخبر هل هو موثوق أم لا؟ قال أبو العالية الرياحي: «كنت أرحل إلى الرجل مسيرة أيام لأسمع منه، فأول ما أفتقد منه صلاته، فإن أجده يقيمها أقمت وسمعت منه وإن أجده يضيعها رجعت ولم أسمع منه، وقلت هو لغير الصلاة أضيع».(74)

والمحدثون في بحثهم عن الرجال يركزون على معرفة عدالة الراوي وضبطه معا.

فإذا اجتمع في الراوي العدالة والضبط كان ثقة ووقع الاطمئنان إلى حديثه، وحكمنا على حديثه بالصحة إذا توفرت باقي الشروط التي نص عليها علماء مصطلح الحديث.

وهكذا فالرحلة ساهمت بدور كبير في التعرف على أحوال الرجال مما يؤدي إلى الحكم على الحديث بالصحة أو الضعف، وبالتالي توثيق الخبر أو توهينه، وبهذا صينت السنة عن أخبار الكذابين والضعفاء.

5 ـ مذاكرة الحفاظ في علل الحديث :

من الأهداف التي رامها المحدثون من رحلاتهم لقاء كبار الحفاظ ومذاكرتهم.

قال الخطيب البغدادي:(75) «المقصود في الرحلة في الحديث أمران: أحدهما: تحصيل علو الإسناد وقدم السماع، والثاني: لقاء الحفاظ والمذاكرة لهم والاستفادة عنهم». وأكثر ما كان يستوجب الرحلة للقاء أكابر الشيوخ هو البحث عن علل الأحاديث، لأنه من أصعب علوم الحديث التي تتطلب مجالسة أهل الاختصاص.

---

74) انظر الرحلة في طلب الحديث ص: 93.

75) انظر الجامع لأخلاق الراوي 2/223.

وممـن رحـل في ذلـك: الإمام أبـو عـيسى التـرمذي (تـ 279هـ) فإنـه سافـر إلى بخـارى،(76) ولقـي بها الإمام محمد ابـن إسماعيل البخاري (تـ 256هـ) صاحـب الصحيح، وسأله عـن عـدة أحاديـث مـعـلـولـة جـمـعـها التـرمـذي فـي كتـاب سمـاه «العلـل الكبـيـر».(77)

ولمن رجع إلى مـؤلفات القـوم في هذا الفن سيطلع بنفسـه أن علم العلل ساعد على تمحيص الأحاديث صحيحها من معلولها، سواء تعلق الأمر بعلة في السند أو في المتن.

وهذا مظهـر آخر من مظاهر تـوثيق وحفظ السنة النبويـة، ثاني مصادر التشريع الإسلامي.

6 ـ التأكد من صحة الحديث :

بعد انقضاء مرحلة صفـاء السنة النبوية ووقوع الفتن في المجتمع الإسلامي إثـر مقتل عثمان رضي الله عنـه وبروز الخلافات الكـلامية والسياسيـة بين طوائف المسلمين، وظهور الـوضع في الحديث والوهم فيه، حينئذ لم يعـد المحدثون يتساهلـون في الـرواية، فإذا حصل لهم أدنى شك في المخبر الـذي يروي عـن صحـابي معـروف أو تـابعي جلـيـل لازال على قيـد الحيـاة في بلـد مـا، فإن المتلقي يبـادر بالقيـام بالرحلـة إليـه ليسمـع منـه مباشـرة لأجـل التثبـت مـن الخبـر.

ومن أمثلة الرحلة لهذا الغرض، ما رواه أبو عثمان عبد الرحمن بن مل النهـدي البصري (تـ 100هـ) قال: «بلغني عـن أبـي هريـرة حديث أنـه قال: «إن الله ليكتب لعبـده المؤمن بالحسنة الـواحدة ألف ألف حسنة، فحججت ذلك العام، ولم أكن أريـد الحج إلا للقائه في هذا الحديث، فأتيت أبا هريرة فقلت: بلغني عنك حديث: فقلته له، فقال أبو

76) انظر التقييد لمعرفة رواة السنن والمسانيد لابن نقطة ص: 97.

77) مجموع أحاديثه 717 حديـث، انظر ص: 382، وللترمـذي أيضا «العلل الصغير» ألحقـه بآخر سننه.

هريرة: ليس هكذا ولم يحفظ الذي حدثك، قال: إنما قلت: إن الله ليعطي عبده المؤمن بالحسنة الواحدة ألفي ألف حسنة».(78)

ومن أمثلته أيضا رحلة عبد الله بن فيروز بن الديلمي(79) من بيت المقدس إلى عبد الله بن عمرو بن العاص بالطائف في حديث: «إن صلاة في بيت المقدس كألف صلاة وإن القلم قد جف».

فلما التقى به وأخبره بالحديث، قال عبد الله بن عمرو: اللهم إني لا أحل لهم أن يقولوا إلا ما سمعوا مني ـ قالها ثلاثا ـ ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن سليمان بن داود سأل الله ثلاثا: سأله ملكا لا ينبغي لأحد من بعده فأعطاه، وسأله حكما يصادف حكمه فأعطاه، وسأله من أتى هذا البيت لا يريد إلا الصلاة فيه أن يغفر له». وبالمثالين يتبين أن الرحلة ساهمت بدور مهم في تصحيح الروايات أو توهينها وردها وذلك بالرجوع إلى مصدر الخبر مما أدى إلى حفظ السنة من التزيد أو التنقص أو الافتراء.

وأخيرا عسى أن يساعد هذا البحث من جهة على التعرف على ما بذله علماء المسلمين منذ عهد الصحابة في مجال السنة لندرك أن الحديث لم يصل إلينا في مصادره مرتبا بأسانيده وعلى الأبواب الفقهية الجامعة إلا بعد جهد جهيد.

ومن جهة أخرى عسى أن يساهم في ضوء ما رأينا من خصوصيات الرحلة عند المحدثين على معرفة أكثر لبعض الرحلات المدونة التي قام بها علماء محدثون أمثال ابن رشيد السبتي(80) (تـ 721هـ) والقاسم التجيبي السبتي(81) (تـ 730هـ) خاصة وأن منهجهم في الكتابة نابع من تأثرهم بالمدرسة الحديثية.

---

78) انظر «الرحلة في طلب الحديث» ص: 132 ـ 133 بتصرف، وفي مسند أحمد ج 15/91، حديث رقم 7932 قال أبو هريرة. فوالله لقد سمعت النبي ﷺ يقول: «إن الله ليضاعف الحسنة ألفي ألف حسنة».

79) انظر «الرحلة في طلب الحديث» ص: 135 ـ 136.

80) رحلة ابن رشيد المسماة ملء العيبة.. طبع منها الأجزاء 2 ـ 3 ـ 5 بتحقيق الدكتور لحبيب بلخوجة.

81) رحلة التجيبي المسماة: مستفاد الرحلة والاغتراب: طبعت منها قطعة بتحقيق عبد الحفيظ منصور.

وهذا ما لم يستوعبه الـدكتور حسين مؤنس فيما يبدو حين قال: في معرض حديثه عن رحلة ابن جبير: «ومن حسن الحظ أن ابن جبير كان رجلا واعيا عائشا في دنيا النـاس لا طالب علم ذاهلا ينزل بالبلد فلا يـرى فيه إلا الشيخ فـلان والشيخ علان، وينفـق الصفحات فيما قرأ على هـذا وما سمع عنـد ذاك، وأنت إذ تقرأ رحلـة رجل، مثل ابن رشيد الفهري يخيل إليك أن هذا الـرجل يسير في فراغ لا يرى فيه إلا مجالس الشيـوخ وحالـه كحـال رجل سائر في الليل ونظـره مثبت في السماء يعد النجوم».(82)

وقال أيضا في معرض حديثه عن رحلة العبدري:(83)

«ولكن رحـالة آخريـن بعده كابـن رشيد السبتي سيغفلـون ذكر الأرض والناس تماما ولا يتحدثـون إلى عمن يلقونه من العلماء كأنهم مطالعون في مكتبة».(84)

وهذا في نظري تحكم من الدكتور مؤنس ورؤية أحادية من زاوية الجغـرافي الـذي لا ينتظـر من ابن رشيـد إلا ذكـر البلـدان والمسـالك والممالك على وجه الخصوص.

---

82) انظر «تاريخ الجغرافية والجغرافيين بالأندلس» د. حسين مؤنس ص: 451.

83) رحلة العبدري هي المسماة: الرحلة المغربية، وقام بتحقيقها المرحوم محمد الفاسي.

84) انظر «تاريخ الجغرافية والجغرافيين بالأندلس ص: 526.

مصادر البحث ومراجعه :

- إرشـاد طلاب الحقائق إلى معـرفة سنن خير الخلائق للنـووي تحقيق د. نور الدين عتر. مطبعة الاتحاد 1988.
- الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر.
دار الكتب العلمية بيروت.
- الإلماع إلى معرفـة أصول الرواية وتقييـد السماع للقاضي عياض. تحقيق أحمد صقر دار التراث القاهرة.
- الأنساب للسمعاني.
باعتناء عبد الله عمر البارودي مؤسسة الكتب الثقافية بيروت.
- تاريخ الجغرافية والجغرافيين بالأنـدلس للدكتور حسين مؤنس نشرته المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ط II 1986.
- تـاريخ العلم والعلماء بالأنـدلس لابن الفرضي بـاعتناء عـزت عطار الحسيني، مكتبة الخانجي القاهرة.
- تجريد أسماء الصحابة للذهبي.
دار المعرفة بيروت.
- تذكرة الحفاظ للذهبي.
دار إحياء التراث العربي.
- التقييد لمعـرفة رواة السنن والمسانيد لابن نقطـة تحقيق كمال يوسف الحوت، دار الكتب العلمية بيروت.
- تهذيب التهذيب لابن حجر.
دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.
- جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر القرطبي.
المكتبة السلفية - المدينة المنورة.
- جامع الترمذي.
تحقيق: أحمد شاكر وآخرون: دار الكتب العلمية بيروت.
- الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي.
تحقيق د. محمود الطحان، مكتبة المعارف، الرياض.
- جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس للحميدي.
الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر.
- الديبـاج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب لابن فـرحون. تحقيق: الأحمدي أبو النور. دار التراث القاهرة.

ـ رحلة القلصادي.
تحقيق: محمد أبو الأجفان ـ الشركة التونسية.
ـ الرحلة في طلب الحديث للخطيب البغدادي.
تحقيق: د. نور الدين عتر ـ دار الكتب العلمية بيروت.
ـ سير أعلام النبلاء للذهبي.
محقق بإشراف شعيب الأرناؤوط. مؤسسة الرسالة بيروت.
ـ شرف أصحاب الحديث للخطيب البغدادي.
تحقيق: محمد سعيد أوغلي ـ دار إحياء السنة.
ـ صحيح البخاري بهامش فتح الباري.
المكتبة السلفية ـ مصورة دار الفكر بيروت.
ـ طبقات علماء الحديث لابن عبد الهادي.
تحقيق أكرم البوشي ـ مؤسسة الرسالة بيروت.
ـ علل الترمذي الكبير.
تحقيق: صبحي السامرائي وآخرون. ترتيب: أبو طالب القاضي.
ـ علوم الحديث ومصطلحه. د. صبحي الصالح. دار العلم للملايين ـ بيروت.
ـ فتح الباقي على ألفية العراقي لزكرياء الأنصاري دار الكتب العلمية بيروت.
ـ الكفاية في علم الرواية للخطيب البغدادي.
تحقيق: د. أحمد عمر هاشم ـ دار الكتاب العربي بيروت.
ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي.
مؤسسة المعارف ـ بيروت.
ـ المحدث الفاصل بين الراوي والواعي للرامهرمزي.
تحقيق: د. محمد عجاج الخطيب ـ دار الفكر بيروت.
ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل.
تحقيق: أحمد شاكر. دار المعارف. مصر.
ـ مسند الحميدي.
تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي. عالم الكتب بيروت.
ـ مسند الطيالسي.
دار الكتاب اللبناني.
ـ معجم الأدباء لياقوت الحموي.
طبعة دار المأمون.

ـ معرفة علوم الحديث للحاكم النيسابوري. باعتناء معظم حسين. المكتب التجاري للطباعة ـ بيروت.

ـ مقدمة ابن الصلاح أو (علوم الحديث).

تحقيق: د. نور الدين عتر ـ المكتبة العلمية بيروت.

ـ مقدمة الموطأ لمحمد فؤاد عبد الباقي.

دار إحياء الكتب العلمية.

ـ نزهة النظر شرح نخبة الفكر لابن حجر. باعتناء: صلاح عويضة ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت.

ـ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقري.

تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد ط I 1949 مطبعة السعادة مصر.

ـ الهداية والإرشاد في معرفة أهل الثقة والسداد أو رجال صحيح البخاري ـ للكلاباذي.

تحقيق عبد الله الليثي ـ دار الباز ـ مكة المكرمة.

المحور السادس

إسهام الرحلات
في انفتاح المغرب
على العالم الخارجي

أدب الرحلة السفارية(*) المخزنية وأثرها في انفتاح المغرب على التجارب التحديثية العالمية

(النصف الثاني من القرن 19)

ذ. عبد السلام حيمر
ثانوية النهضة ـ مكناس

لعبت الرحلة ـ بالإضافة إلى التجارة والحرب ـ دورا مهما في انتقال القيم الحضارية وانتشارها بين الشعوب والأمم منذ أقدم العصور، وانفتاح بعضها على نظم البعض الآخر، وتمازجها الحضاري والثقافي. ولذلك، دأبت النخب الحاكمة على تشجيع مواطنيها الذين اشتهروا بالترحال في البلدان النائية على كتابة تقارير رحلاتهم.

---

*) يتكون هذا المتن من الرحلات التالية :
- رحلة الصفار إلى باريز : لمحمد بن عبد الله الصفار. مخطوط الخزانة الحسنية رقم 113.
- تحفة الملك العزيز بمملكة باريز : لإدريس بن محمد بن إدريس العمراوي، تقديم د. زكي مبارك، مؤسسة التغليف والطباعة طنجة 1989.
- الرحلة الإبريزية إلى الديار الإنجليزية : لأبي الجمال محمد الطاهر بن عبد الرحمان الفاسي، تحقيق محمد الفاسي / سلسلة الرحلات، مطبعة جامعة محمد الخامس فاس 1967.
- تحفة الأخيار بغرائب الأخبار : لأبي العلاء إدريس الجعيدي، مخطوط الخزانة الصبيحية بسلا (مخطوط خاص بدون رقم).
- التحفة السنية للحضرة الشريفة الحسنية بالمملكة الأصبانيولية : لأبي العباس أحمد بن محمد الكردودي، المطبعة الملكية، الرباط 1963.
- رحلة إلى أنجلترا : للحسن بن محمد الغسال، مخطوط الخزانة العامة، في مجموع تحت رقم 1496.
- الغصون الكاسية في الرحلة البارزية : للوزير عبد الله الفاسي، مجلة آفاق غ 1 س 10.

والنصوص التي اعتمدت عليها مأخوذة من هذا المتن.

وفي بعض الأحيان، تصبح تلك الكتابـة إلزامية وواجبة. ولم يقف أدب الرحلة ـ خـلال الأزمنة الحديثـة ـ عند حد التأثير في المجال السياسي العسكـري، بل تعـداه إلى التأثير في المجـال المعـرفي: العلمي والفلسفي والفني...(1) وبهذا المعنى يمكن مقـاربـة أدب الرحلـة مـن زوايـا مختلفة: من زاوية كـونه مصدر للتأريخ، وأثرا أدبيـا وفنيا، ووسيلة لانتشـار القيم الحضاريـة بين المجتمعات، ووثيقـة سوسيـولوجيـة، ومصدرا لمعـرفة وضعية الـذهنيات والعقليـات وتطورها عبر الـزمان والمكان...

في مغـرب القـرن 19، كـان السـلاطين يأمرون كتـاب بعثـاتهم السفارية إلى أروبا بتسجيل ما يرونه مفيدا ـ أثناء رحلتهم ـ من نظم المجتمعات الأروبية في زمن أصبحت فيـه دول هذه المجتمعات تحاصر المغرب مهددة استقلاله وأمنه. وفي نصـوص كتب الرحلات السفارية المغربيـة إشارات بهذا المعنى،(2) بل أن أبـا العلاء إدريس الجعيـدي يصرح في رحلته «تحفـة الأخيار» بأن أحمد بن خـالد النـاصري الذي تقلب في منـاصب مخزنيـة ساميـة منهـا منصب مستشار للسلطـان الحسن الأول هو الـذي اقترح عليه كتـابة رحلتـه وتقييد كل مـا يراه ويسمعه عن مقومات حداثة المجتمعات الأروبية التي ستزورها بعثته السفاريـة. ذلك، لأن تقاريـر كتاب الرحـلات السفاريـة كانت تشكل يومئـذ أهم قناة لمعرفـة «الآخر»(3) واستكشاف تنظيماتـه ووسائل تدبيره لـذاته، ومكامن قـوته وضعفـه للاستفادة منهـا عند الضرورة والاقتضاء. فقـد كانـت القيم والتقاليـد المرعيـة السائـدة في مغـرب

1) يظهر هذا التأثير في تأسيس علم الجغرافية بالإضافة إلى الأنثروبولوجيا والأتنوغرافيا
L'Anthropologie : col : Edma paris 1977 pp : 9 - 37.

2) يقول الصفـار في خاتمة رحلته : (... ولـولا مساعفة مـن تجب إجابته وتتحتم طـاعته لما كدت ولا قررت أن أفعل شيئـا من ذلك (يعني كتابة الرحلـة) لعلمي واعترافي بعجزي عن سلوك تلك المسالك، لكن بـركة الامتثال عادت على كنانة الفكر بـالانثيال، وإني أعتذر عن التقصير، وأعترف بعدم التحرير...).

3) بالإضـافة إلى التجـار المغاربـة العائدين من أروبـا، والأروبيين المقيمين بالمدن الشـاطئية، والدبلوماسيين الأروبيين المقيمين بطنجة أبرزهم البريطاني جون دريموند هاي...

القرن 19 لا تبيح للسلطان زيارة البلدان الأروبية لأنها «دار حرب» حسب التصور الفقهي الكلاسيكي للعالم(4) كما صاغته كتب الفقه القديمة في باب الجهاد، وكتب الأداب السلطانية... تلك الكتب التي ألفت إبان العهود الذهبية للإسلام، حينما كانت (دار الإسلام) تتسع أرجاؤها على حساب (دار الكفر والحرب) بوتيرة سريعة أصبح معها المشروع التوحيدي العالمي للديانة الإسلامية قريب المنال. وبالرغم من التغيرات الهائلة التي مست - خلال الأزمنة الحديثة - كل أقطار العالم، وعلاقات كل أقطار العالم، وعلاقات القوى فيما بينها، (ولعل أقل تلك التغيرات ظهور الحركات القومية، وبزوغ الدولة / الأمة، وسيادة القيم العلمانية في أروبا خلال القرن 19، ونزوع الحضارة الرأسمالية الأروبية إلى بناء نظام عالمي تحت قيادتها وهيمنتها)، فإن التصور الفقهي الثنائي للعالم ظل سائدا في الفضاء الثقافي - السياسي لمغرب القرن التاسع عشر. ولعل رواج رسالة محمد بن عبد الكريم المغيلي «جواب على سؤال فيما يجب على المسلمين من اجتناب الكفار».(5) وما يماثلها من الكتابات وسط النخبة المثقفة خلال النصف الثاني من القرن 19، خير دليل على ما ذهبنا إليه. ولا غرو أن نجد معظم كتاب الرحلات السفارية إلى أروبا يستهلون تقارير رحلاتهم بتبرير زيارتهم (لأرض الكفر) تبريرا فقهيا. ولأن زيارة أروبا جائزة فقهيا للبعثات السفارية المخزنية، فقد بات من اللازم على كتابها رصد مظاهر قوة هذه (الأوروبا) الغازية، ليتعرف عليها السلطان وحاشيته فيقتبس ما يراه منها مفيدا، إذ العدو - حسب تعبير اللجائي - «يقابل بمثل ما كافح به وقابل، ويقاتل بنحو ما قابل به وقاتل».(6) ولذلك دأب كتاب الرحلات السفارية على التدقيق في وصف التنظيمات الأروبية الحديثة، وفي مقدمتها التنظيمات العسكرية والتكنولوجية. بل أن إدريس الجعيدي يخبرنا في رحلته

---

4) انظر : دائرة المعارف الإسلامية ج 9 مادة : (دار الحرب) ص : 77 دار المعرفة - بيروت.

5) مخطوط الخزانة العامة رقم د 2013 الرباط.

6) الغالي اللجائي : مقمع الكفرة بالسنان والحسام، في بيان إيجاب الاستعداد وحرب النظام مخطوط الخزانة الحسنية رقم 1030.

بأنه كان يسجل مشاهداته على الورق في عين المكان مخافة أن تخونه الذاكرة. وأحيانا، نجده يرسم في طرة رحلته رسوما وخططات للمبتكرات التكنولوجية، ويعبر بالعامية المغربية عندما لا تسعفه العربية الفصحى، وكأنه يقدم وصفات صالحة للتطبيق متى تم استيعابها بالمغرب! (انظر صفحة من رحلة الجعيدي وقد ظهر في طرتها رسما توضيحيا).

وإذن، فقد تعرف السلاطين المصلحون ـ في النصف الثاني من القرن 19 ـ بواسطة أدب الرحلات السفارية على بعض مقومات الحداثة الأوروبية التي حاولوا اقتباسها في سبيل تقوية الدولة بل وفي سبيل «دولة المجتمع» المغربي آنئذ، والدفاع عن استقلاله الوطني. ويمكن القول، بعد استقراء متن الرحلات السفارية المغربية إلى أوربا، المعروفة إلى حد الآن، والتي تنتمي إلى النصف الثاني من القرن 19، بأن المخزن كان على علم بالخطوط الكبرى للتجربة التحديثية الأوروبية التي قادتها البورجوازية، وهي التجربة التي أفرزت الدولة الليبرالية، والاقتصاد الليبرالي والمجتمع الليبرالي وفق ما نصطلح على تسميته بخيار التحديث الرأسمالي بقيادة الطبقة البورجوازية.

بيد أن المخزن لم يكن يعرف عهدئذ هذا الخيار التحديثي وحده، فالظاهر أنه كان ملما أيضا بتجربة تحديثية أخرى وقعت هذه المرة في (دار الإسلام) بمصر، لاتقودها البورجوازية بل تقودها الدولة فيما اصطلحنا على تسميته بخيار التحديث الرأسمالي بقيادة الدولة. وهي التجربة التي نقل صورتها العامة للأوساط المخزنية الكاتب أبو العلاء إدريس في كتابه «الابتسام عن دولة ابن هشام».(7) وإذا كان «الابتسام» كتاب تاريخ، فإن صاحبه جمع فيه بين رحلته الحجازية التي قادته صحبة إبيه إلى الحجاز مارا بمصر زمن محمد علي والحركة الوهابية، وبين التأريخ للدولة العلوية زمن السلطانين

7) الابتسام عن دولة ابن هشام أو ديوان العبر، في أخبار القرن الثالث عشر، مخطوط الخزانة الحسنية رقم 1249 / لا نعرف عن مؤلفه إلا أنه يكنى بأبي العلاء ويسمى بإدريس وأنه كان كاتبا للسلطان عبد الرحمن بن هشام ويعمل تحت إشراف الوزير محمد بن إدريس العمراوي.

سليمان وعبد الرحمن بن هشام. وكان تاريخ الدولة مجرد رحلة في المكان والزمان، لها بداية ونهاية، ومبتدأ وخبر، وأطوار تمر بها، وأحداث تتكون منها على المؤرخ روايتها وتسجيلها للذاكرة الجماعية. وفي هذا كله تتماثل رحلة الدولة ورحلة الفرد، ويحق لهما ـ حسب هذا التصور ـ أن يتساكنا في كتابة تاريخية واحدة.

فما الصورة التي نقلها أدب الرحلة السفارية إلى الأوساط المخزنية عن خيار التحديث الليبرالي من جهة، وما الصورة التي نقلها كتاب «الابتسام» عن خيار التحديث بقيادة الدولة من جهة أخرى؟ وما الأثر الذي من الممكن أن تكون الصورتان قد خلفتاه في التجربة التحديثية التي قادها السلطان محمد بن عبد الرحمن وابنه الحسن الأول؟

1 ـ أدب الرحلة السفارية وخيار التحديث الليبرالي الأروبي :

إذا افترضنا أن الرحلات السفارية المخزنية تكون متنا واحدا، لكاتب واحد، هو الكاتب المخزني ـ مبعدين جانبا تفاوت الخبرة الإدارية والسياسية من كاتب لآخر، ـ واختلاف ظروف الرحلة وملابساتها ـ فإننا نستطيع القول بأن ذلك المتن يشكل خطابا متكاملا حول الدولة الليبرالية الأروبية.

بيد أن هذا الخطاب السفاري لم يكن قادرا على أن ينقل واقع الدولة الليبرالية البورجوازية كما كان الأروبيون يعيشونه من خلال ثقافتهم ومنظورهم إلى العالم وتجربتهم التاريخية المشتركة. فإذا كان هذا الخطاب السفاري ـ شأنه في ذلك شأن كل خطاب ـ قد فصل الواقع الأروبي وفككه منتقيا بعض معطياته وعناصره معيدا تنظيمها بشكل مكنه من إنتاج صورة عنه، فإن تلك الصورة ـ رغم تفاصيلها وجزئياتها وموادها الأروبية ـ ليست في واقع الأمر أروبية بل مخزنية. أنها صورة مغربية مخزنية عن واقع الحداثة الأروبية أو قل أنها صورة للحداثة الأروبية كما صاغها متخيل الكاتب المخزني الذي يستمد معاييره وقيمه وتصوراته من الثقافة المغربية العربية الإسلامية السائدة في عصره من جهة، ومن التجربة التاريخية

المشتركة للشعب المغربي في إطار دولته المخزنية من جهة أخرى ومن هنا هذه المسافة التي يلاحظها قارئ الخطاب السفاري المخزني بين النموذج والنسخة، بين الأصل والصورة. ومن ذلك على سبيل المثال إطلاق ألفاظ مستقاة من القاموس اللغوي الفقهي المخزني على الأشياء الأروبية الحديثة: كإطلاق «أهل الرأي» للدلالة على نواب الأمة في البرلمان والهيئات المنتخبة، والشورى على الديمقراطية، والسلطان على الملك أو رئيس الجمهورية الذي سمي أيضا (بكبيرهم) و(بالطاغية) أي الذي لا يتقيد في حكمه بنواميس الشريعة، وكإطلاق كلمة الرعية على المواطنين، والمكوس على الضرائب، والمخزن على الدولة الليبرالية...

والجدير بالملاحظة أيضا أن الكاتب المخزني ـ الذي ظل ينظر إلى العلاقة بين المغرب وأروبا من زاوية نظر فقهية دينية ـ لم يعبأ بالبحث عن الأساس الفكري الفلسفي والعلمي للحداثة الأروبية. فلا نجد في الخطاب السفاري المخزني ـ إلى حدود بداية القرن العشرين ما يدل على اطلاع الكاتب المخزني على كتب الفلاسفة والعلماء والمفكرين الأروبيين.

وفي الواقع، فإن الصورة التي رسمها كتاب السفاريات عما رأوه وسمعوه أثناء رحلاتهم في الديار الأروبية ـ مع الأخذ بالاحتياطات السابقة ـ هي صورة الدولة الليبرالية المتفاعلة مع مجالها الاجتماعي السياسي الحديث.

وحسب هذه الصورة، فإن الدولة الليبرالية الأروبية ـ هي قبل كل شيء ـ دولة القانون. بيد أن هذا القانون لم يستمده الأروبيون من ديانتهم النصرانية، وإنما استنبطوه بذكاء عقولهم بعد مناقشات حرة فيما بين ممثليهم في مؤسسات الدولة الليبرالية. فهو التعبير الأسمى عن إرادتهم التي تغيره متى شاءت. ولما كان هذا القانون أساسا «لنظام» الدولة الليبرالية وحسن ترتيبها، ولما كان بعيدا عن أن يكون نصرانيا، فلا بأس من التصريح بالإعجاب به وبالمؤسسات التي ينظمها وتأطيره ضمن الصيغ التقليدية المتداولة في التراث العربي

الإسلامي للعلاقة بين العقل والنقل، وبين السياسة الشرعية والسياسة العقلية. ولذلك قد يموت الحاكم، إلا أن نظام الدولة يبقى سائدا مادام القانون المعبر عن إرادة الأمة واتفاق فئاتها المختلفة سائدا. ففي «التحفة السنية...» مثلا يذكر أحمد بن محمد الكردودي أنه توقع حدوث فتن وفوضى في الدولة والمجتمع الإسبانيين بعد أن سمع بموت الملك الإسباني ألفونسو الثاني عشر، على غرار ما كان يحدث في المغرب حيث تنتشر الفوضى والفتن عادة بعد موت كل سلطان. إلا أنه - يقول الكردودي متعجبا - «لم يصدر بينهم شيء مما ظنناه، بل بقي أمرهم على حاله كما كان حياة سلطانهم، ولم يختلف أحد منهم في شيء ولا أن السلطانة هي زوجه وحين تضع حملها فإن كان ذكرا فبعد بلوغه يرد الأمر إليه وإلا فيرجع الأمر إلى أكبر بناته والسلطانة حاضنة وقائمة مقام من يرجع إليه الأمر بأولادها، لاتفاقهم على ذلك من قديم، والتزامهم إياه على أن يكون النظر في الأمور للوزراء وليس على متولي الملك إلا الإمضاء».

يرى الكاتب المخزني «النظام» منتشرا سائدا في كل أجهزة الدولة الليبرالية الحديثة : في المؤسسات التمثيلية / وبين وزراء الحكومة - ورئاسة الدولة. ويطنب أحيانا كثيرة في وصفها وبيان اختصاصات ووظائف كل منها وتكامل بعضها مع بعض تكاملا نسقيا يثير في نفسه مشاعر ملتبسة متناقضة تتأرجح مأساويا بين الاستحسان والاستهجان، والإعجاب والنفور، والرغبة والرهبة (خاصة وهو يدرك أن ذلك النظام هو نظام الآخر الذي يتماهى في متخيله بالكافر الطامح لغزوه واستعماره). وهذا (النظام) يلمسه الكاتب المخزني أيضا في ركائز الدولة الحديثة: في مؤسسة الجيش، والنظم الاقتصادية والجبائية، ومؤسسات التربية والتعليم والتكوين.

منذ معركتي إسلي وتطوان، درج الكاتب المخزني على تسمية الجيش الأروبي الحديث (بجيش النظام) مظهرا إعجابه بمستوى تسليحه وأسلوب قتاله المعتمد على الحرب بالصفوف الزاحفة المتراصة الخاضعة في حركاتها وسكناتها لقيادة موحدة تجيد اختيار الأهداف

وتحديد الوسائل الملائمة لبلوغها. وها هو الكاتب السفاري المخزني لا يتردد في إظهار إعجابه بنفس الجيش الذي شاهده هذه المرة وهو يعمل في ثكناته أو استعراضاته ومناوراته العسكرية في أروبا ذاتها، كما لايتردد في إظهار خشيته من تفوقه و«نظامه» مدركا أن نظام الجيش الحديث جزء من نظام الدولة والمجتمع الحديث. ولنا في الخطاب السفاري العام أدلة عديدة على ما ذهبنا إليه نورد من بينها على سبيل المثال ما سجله الصفار في «رحلة إلى فرنسا» عندما زار معسكرا لجيش البحرية ومصنعا للسفن قائلا: «والحاصل، كل واحد منهم له شغل معين لا يفعل غيره، وكل طائفة لها مدفع معين لاتباشر ألا هو. فإذا صاح به كبيره فلا يحتاج أن يأتيه ويقف ويقول له ما أفعل أو يذهب إثنان لأمر واحد يقوم به واحد وحده، أو تذهب جماعة لمدفع واحد ويبقى الآخر لا يذهب إليه أحد لأن ذلك كله عطلة وهو خلاف الحزم. فبمجرد ما صاح بهم كبيرهم المذكور جاءوا وجبذوا المدافع من طيقانها وعمروها وأخلوها في لحظة كأن ذلك كله فعل رجل واحد. ثم عادوا أيضا وعمروا تلك المدافع كلها وأخلوها في لحظة، ولا تسمع مدفعا واحدا إنما تسمع كالرعد المتتابع. ثم عادوا وعادوا وكل ذلك في أسرع زمان، وذلك كله على الضبط والحزم والاعتناء التام وعدم الغفلة في الأمور. والله، فليست لهم قوة بأبدانهم ليست لغيرهم بل ربما كانوا أضعف من غيرهم في ذلك، وإنما الذي لهم: الاعتناء والترتيب الحسن ووضع الأشياء في محلها ويبنون أمورهم كلها على أصح أساس ويستعدون للأمور قبل وقوعها، ولا يعرف حقيقة ذلك إلا من شاهده».

وفي «تحفة الملك العزيز» يعزو ابن ادريس نظام الجيش الحديث وقوته إلى ارتكازه على قوانين يعترف بها كافة المنخرطين في صفوفه ويلتزمون باحترامها مهما كانت مراكزهم ورتبهم. ولذلك اهتمت الدولة بتأسيس مدارس عسكرية يتعلم فيها المنخرطون في سلك الجندية علوما عسكرية بالإضافة إلى: «الأحكام اللازمة للعسكر من لزوم الطاعة وامتثال ما يأمره به كبيره. وأن من خالف يكون له كذا،

ومن قتل يكون لـه كذا، ومن فـر يكون له كـذا... فلا يخرج من تلك المدرســة حتى يكــون عـارفـا بجميع الملازم والأحكـــام المرتبـة على الجرائم». وعندما تحدث نزاعات بين بعض أفراد الجيش مهما اختلفت مراتبهم ـ يحتكمون إلى القانون قصد ترسيخ النظام ووحدة الصف : «ولو شكا أدنى عسكري من باشـا الجيش، رفعوا قضيته معه لمجلس الحكم ونظروا فيهـا حتى تفصل بالعـدل، فبذلك وقف كل واحـد عند حده فأمنوا بوائقه وفتنه. فترى قائد المائة يتفقد مائته واحدا بعد واحد كأنهم أولاده، ولا يخاطب أحـدا منهم إلا بالسيادة ولا يشتـم لأحدهم عرضا ولا أبا ولو كان مجرمـا، بل يأتي بالمجرم فيجمع عليه العسكر وقواد المائة ويـذكر حـريمته ويقـول له أن القـانون حكم عليـك بكذا لكونك فعلت كـذا، ويمكنه من المدافعة عن نفسه وإظهـار حجته حتى يغلب بالحجة ثم ينفذ فيه الحكم من غير إظهار شماتة ولا تشف».

وفي أنجلترا، حضر الطاهـر الفاسي استعـراضات رسميـة للجيوش حرص على وصفها منتهيا إلى القول بأن الإنجليز : «يستعملون أشياء تـدهش سيما من رآها فجأة، وربما اختل مـزاجه من ذلك، ولا حـول ولاقوة إلا بـالله العلي العظيم، كيف تحيلـوا على إصلاح دنيـاهم حتى أدركـوا منها منـاهم، واستعملوا لـذلك قـوانين وضوابط، وفي كل مـا يقـربهم منها ضـوابط...». وعلى إثر زيـارتـه لمصنع الأسلحة الـذي يصنع المدافع والـذخيرة ويستخدم سـتـة آلاف عـامل، انتهى الطاهــر الفاسي إلى خلاصة مفـادها أن الإنجليز : «أتعبوا أنفسـهم أولا في إدراك المسـائل النظـريـات، وكـابـدوا على تحصيلهـا حتى صـارت عنـدهم ضروريـات، ولا زالـوا يستنبطـون بعقـولهم أشيـاء كثيرة...». وإذن، فـالعقل مصـــدر «النظـام» وحسن «الترتيب» واستنبـــاط الضـــوابط والقـوانين، واختراع المستحدثـات التقنية كـالهاتف والتلغراف والقطـار والمدافع والأساليب الفلاحية الحديثة والطاقة البخارية وغيرها. لكن ما طبيعة هذا العقل الذي يستنبط ويخترع وينظم ويرتب؟

يجيب الطـاهر الفـاسي جوابا نجـد ما يماثلـه في التآليـف الفقهية المعاصرة له ككتاب محمد بـن المدني كنون «الدرر الدرية المستنيرة...»

مقسما العقل إلى نوعين: عقل ظلماني يدرك به صاحب الأمور المتعلقة (بـالدنيـا الفانيـة) أي الأمـور المادية وبـه يستنبط الإنسان ويبتكـر ويخترع وينظم العلاقات بين النـاس، وبينهم وبين الأشياء، وهو عقل الكافـر كالإنجليز وغيرهم، ولذلك كـانت (الدنيا جنة الكـافر) ثم عقل نوراني يختـص به المؤمن، وبـه يدرك الحقـائق «الأخرويـة الخالدة». ولذلك كانت (الدنيا سجـن المومن) وكانت (جنة الأخرى) محرمة على الكفـار والنصـارى. ولما كـان العقل النـوراني أرفع قـدرا من العقل الظلماني، وكانت الآخرة أرقى من الدنيا، فإن الخاسر في نهاية التحليل - رغم المظاهر الخادعـة - هم (أهل الظلام) الأروبيين، لا (أهل الحق) المسلمين!!؟

بيد أن هذا المنظـور الأخروي - الصوفي الـذي يعالج انطلاقـا منه الطاهر الفاسي الحداثة الأروبية متمثلة هنـا في (نظام) مكونات الدولة الليبرالية وركائزها الأساسية كالجيش وما شاكله. لم يمنع محمد بن عبد اللـه الصفار من اكتشـاف بعض خصائص الأروبيين التي تجعل (النظام) أمـرا ضروريا محايثـا للدولة والمجتمـع. من تلك الخصائص معرفتهم للقراءة والكتابـة وإقبالهم على قراءة الكتب في مختلف العلوم والصنـائع وتـرددهم على المدارس والمعـاهـد، وولعهم بتتبع أخبـار بلدانهم والعـالم من خلال (الكوازيط) والصحف التي يطـالعونها كل صباح في المقاهـي وقد يشتركون فيها فتصلهم بـانتظام إلى منازلهم، وتقديسهم لحرية الرأي ونشره في الصحف وتـداوله من طرف الرأي العـام، وحبهم للعمل والكسب والربح، واتصـافهم بفكـر نقدي يتجـه نحو الابتكار والتجديد، ورغبتهم في التقدم أي الترقي في الأمور بتعبير الصفار، وإنصافهم (بالظرف الدنيـوي) وإقبالهم على مباهج الدنيا... يقول الصفـار: «وأهل باريز مـوصوفـون بذكاء العقل وحـدة الذهن ودقة النظر، ولا يقنعون بمعرفة الأشياء بالتقليد بل يبحثون عن أصل الشيء ويستدلون عليه ويقبلون فيه ويردون. ومن اعتنائهم بذلك أنهم كلهم يعـرفـون القـراءة والكتابـة ويـدونـون في الكتب كل شيء حتى الصنـائع، فلا بـد أن يكـون الصانع يعـرف الكتـابة والقـراءة ليتقن

صنعته ويحب أن يبتدع في صنعته شيئا لم يسبق به، ولأن ان فعل زادت مرتبته وعلت حظوته عند دولتهم، ويعطونه على ذلك، ويمدحونه ويذكرونه بماذا استنبط ترغيبا منهم في الترقي في الأمور. فيكون كل شيء دائما في الزيادة. فذلك يحملهم على تدقيق النظر وإمعان التأمل واستكشاف دقائق الخفيات في سائر متصرفاتهم، ولهم مدارس ومكاتب حتى في علوم الطبخ والغرس والبناء والزراعة ومعالجة النباتات وإنتاج الحيوانات وغير ذلك...»

«ولأهل باريز حرص تام على التكسب رجالهم ونساؤهم لايتقاعدون عنه ولا يتكاسلون والنساء مثل الرجال في ذلك أو أكثر، ولا تجد أحدا منهم خاليا عن شغل وإن كان عندهم من أنواع البطالات والفرجات العجب العجاب، لكن ذلك لايلهيهم عن أشغالهم فيعطون لكل وقت ما يستحقه وتلك الفرجات تعينهم على أشغالهم لما فيه من استراحة ليعودوا لها بنشاط ولا يرضى أحد منهم أن يكون فقيرا فإن الموت عندهم أهون من الفقر وصاحبه حقير ذليل».

«ومن جملة قوانينهم التي أسسها لهم سلطانهم لويز الثامن عشر والتزموا اتباعها انه لا يمنع إنسان في فرنسا من أن يظهر رأيه وأن يكتبه ويطبعه بشرط إلا يضر ما في القوانين، فإن أضر أزيل. وكان من جملة ما نقموا على ملكهم شارل العاشر الذي كان قبل هذا الملك الموجود الآن. وكان السبب في قيامهم عليه وخلعهم طاعته أنه أظهر النهي عن أن يظهر أحد رأيه أو يكتبه ويطبعه في الكازيطات إلا إذا أطلع عليه أحد من أهل الدولة فلا يظهر منها إلا ما أراد إظهاره. ويكتبون في الكوازيط اعتراضات على أهل القمرتين (أي مجلسي النواب والشيوخ) فيما أبدوه من القوانين. وإن جار سلطانهم فضلا عن كبير من كبرائهم أو خرج عن القانون في أمر ما يكتبونه في الكازيطة ويقولون أنه ظالم وليس على الحق ولا يقدر أن يقابل من قال ذلك أو فعله بسوء».

هذه بعض خطوط الصورة الإيجابية التي ظل يرسمها الكاتب المخزني الأروبي طيلة النصف الثاني من القرن 19، والتي ستصبح

تبجيلية تقريضية في تقرير رحلة عبد الله الفاسي الفهري التي تمت سنة 1909، ذلك التقرير الذي ألقاه صاحبه في مسامرة ليلية أثناء الحماية الفرنسية وبحضور بعض ممثليها السامين (سنة 1915).

ونفهم من تلك الصورة الإيجابية أن نظام الدولة الليبرالية، ونظام المجتمع السياسي الليبرالي إنما يرتكز على نظام المجتمع المدني وقوته وحيويته. وفي إطار هذا (النظام) الشامل تنفتح الأبواب أمام التقدم المستمر، وهو ما يعبر عنه الصفار «بالترقي» في الأمور : في الصناعات العسكرية والمدنية التي تستعمل أعقد الآلات المتحركة بالطاقة البخارية وتنتج «جبالا» من السلع الجيدة وتشغل الآلاف من العمال والعديد من المهندسين وفي الفلاحة التي أصبحت ممكننة قادرة ـ بفضل الأساليب العلمية والتقنية ـ على إنتاج الخضر والفواكه حتى في غير إبانها مما يجعلها حاضرة في الأسواق طيلة السنة، وفي التجارة التي تعقدت تقنياتها وتنوعت وأصبحت تعتمد على «تجار» جدد تعلموا قواعدها وتقنياتها في المعاهد المتخصصة، وفي وسائل المواصلات كالقطار البخاري الذي تخرق سككه الجبال وكالقناطر الفخمة وتسخير الأنهار لنقل البضائع والسلع وكالسفن البخارية الضخمة، والهاتف والتلغراف.. وفي شؤون المال حيث ظهرت الأبناك وشركات التأمين والبورصة والشركات المجهولة الاسم، وفي بناء المختبرات العلمية التي ظل الكاتب المخزني يزور نماذج منها طيلة نصف قرن دون أن يتمكن من معرفة مخترعاتها وتسميتها بلغة عربية مبينة.

هذا «الترقي» الشامل الذي لم يدع مجالا من الحياة الأوروبية إلا وحرك سواكنه، ما دور الدولة في انبثاقه وتطوره؟ وعلى أية قاعدة اجتماعية يرتكز؟

من استقراء متن الرحلات السفارية المذكورة، يمكن القول بأن الكاتب المخزني كان على علم بعلاقة الدولة الليبرالية / بالطبقة البورجوازية الحديثة التي لم ير فيها ـ انطلاقا من مرجعياته التقليدية ـ إلا «تجارا» إذ التاجر في الاصطلاح المغربي آنئذ هو

«الغني» (الـذي يقلب المال الكثير في خصوص أنواع العـروض والسلع بماله أو مال غيره). بيد أن هؤلاء «التجـار» ـ عكس التجار المغاربة ـ لايـوظفون أمـوالهم في تـرويج السلع فقط بل في إنتـاجهـا وتطويـر وسائل إنتـاجها وإنشاء وسـائل النقل والمواصلات الحديثـة وتكوين الأطـر المختلفة والمسـاهمة في تجهيز (جيش النظـام) وتموينه... أمـا الدولة الأروبية الحديثة فإنها ـ عكس دولة المخزن ـ لا تحتكر لنفسها المجـال الاقتصادي بـل انها لا تمتلك منه إلا القليل. فإلى جـانب هـذا القليل الـذي يشكل الملك العمـومي أو «البيلك» حسب تعبير الصفـار، توجـد الملكية الخاصـة التي تعتبر «حرمـا» مقدسـا بموجـب قوانين تحترمها الدولة وتعمل على تطبيقها في البلاد، وهي في ملكية «التجار» سادة المجـال الاقتصادي بكل فروعـه وقطاعاته. يقـول «الصفار» في معـرض حديثـه عن السكك الحديـدية: «وطـرق الحديد عنـدهم على ضربين أحدهما مـا يقيمه «البيلك» بمعنى بيت المال عندنا، والآخـر ما يقيمه التجار وهو الغالب، وذلك عندهم ضرب من التجارة». كما يخبر الصفار رحالات المخزن أن هؤلاء «التجار» يستثمرون أموالهم في بناء القنـاطـر الضخمـة، واستخراج المعـادن وغيرهـا من أوجـه النشـاط الاقتصادي بعد أن يؤسسوا شركات مساهمة مجهولة الاسم يشركون عددا كبيرا من النـاس في رساميلها بواسطـة اشترائهم لأسهمها وفق تـرتيبات سهلـة ميسورة. «فـالقناطـر التي رأينـاها عنـدهم ـ يقـول الصفار بعد حديثه عن الأسهم ـ جديدة كلها، يؤدى عليها العوض في المرور، وهي من عمل التجار حتى تمضي المدة المحـدودة لهم فيرفعون أيديهم: ويبقى النـاس يمرون عليها بـلا شيء، كما بالقناطر القـديمة، ويعملون مثل ذلك في استخراج المعادن وغير ذلك».

أما دور الـدولـة فينحصر في تـوفير الإطـار التشريعـي لنشـاط «التجـار» ومبـادراتهم الحرة في كل القطـاعات الاقتصـاديـة للبـلاد، ومراقبـة مدى الالتزام بـه، وحماية حق الملكية الفـردية بصفة عـامة. ولذلك كان: «من جملـة قوانينهم التي أسسوها وجعلـوها شريعة من شرائعهم، أن أرض فرنسا كلها حـرم لا تهتك ولا يتعدى أحد على ملك

آخر، ومن فعل عوقب عقوبة معلومـة عندهم لا شفاعة فيها ولا يقدر أحد أن يـدفعها عنه [«فقد رأينـا ـ يقول الصفار ـ في بعض الطريق زربا صغيرا فـاصلا بين الطريق والملك. فأخبرنا بعض من كـان معنا أنه علامة على الحد بين الملك والطريق، فمن تخطاه برجل واحدة سجن خمس سنين، ومن وضع خلفـة بكلـه سجن خمس عشرة سنـة.(!) ولذلك لا تجد عنـدهم إنسانا ولا دابة هـائمة في ملك أحد، ولـو كانت أرض مرعى فإنما يتصرف فيها ربها ولا يشاركه فيها غيره»].

وما يجري على ملكيـة الأرض من تشريعـات، يجري على أصناف الملكيات الأخـرى لأدوات الإنتاج والمبادلـة في المجال الاقتصـادي الذي يكاد يطابق الصفار وابن إدريس بينه وبين التجارة.

وإلى جانب تـوفير الإطار التشريعي للنشاط الاقتصـادي وحماية حقوق الملكيـة الفردية، نجـد الدولة تسـاهم في تحمل قسط من أعباء تعليم أبناء الشعب ـ خـاصة الفقراء منهـم ـ فـي مـدارس التعـليـم التجاري وتسيير المقاولات، إذ أن من خاصيات هذا الاقتصاد الحديث أنـه لا يقـوم بأعبـائه على أحسن وجه إلا التجـار والصنـاع ورجـال الأعمال الذين تكـونوا تكوينـا علميا في مجال تخصصهم. لـذلك نجد البرجوازية الحديثـة أو «التجار» ـ حسب ابن ادريـس ـ [«لهـم دار يتعلمون فيها كيفية التجارة كما يتعلمون الكتابة والحساب وغير ذلك (بمقابل مالي سنوي يؤدونه)... ومـن لم يكن له مال، فالمخزن يؤدي عنه»].

لا تتدخل الدولة في توجيه النشاط الاقتصادي توجيها صارما، ولا تحتكـر فروعـه، بل تترك معظم مجاله في يـد البورجـوازية يتنـافس أفرادها وفئاتها في تطويره وتوجيهه وامتلاكه وتساعدهم في ذلك ومن أوجه تلك المساعدة أنه كلما تداول البرجـوازيون مشاكلهم وقضاياهم ورفعـوا مطالبهم وتصـوراتهم وملتمسـاتهم إلى «وزير التجـارة» إلا واهتمت بها الدولـة اهتماما بالغا، وسعت إلى إيجاد السبل لمسـاندتهم [«فإن ظهر لهم صلاح في أمر من أمور التجارة ـ يقول ابن ادريس ـ أو خافـوا ضررا أو خسارة في أمـر من الأمـور، واجتمعوا عليـه هناك،

وتفاوضوا فيه وكيفية إصلاح ذلك، رفعوا أمرهم فيه لوزير التجارة، وهو وزير مستقل، فيرفع أمرهم للديوان ويسعى في إصلاح أمورهم بغاية إمكانه»] ومن وجوه المساندة والمساعدة أن الدولة تمنح «التجار» أو البرجوازيين عقودا يتنافسون على اكتسابها في مزايدة علنية تخولهم الحق في تزويد السوق الوطنية بمختلف البضائع والسلع الحيوية لحياة المواطنين من الخبز أو غيره، بأسعار حددت في المزاد، فإن لم يلتزم بها المستفيد أثناء مباشرة العمل كان واجبا عليه ـ بمقتضى بنود العقد ـ تأدية غرامة للدولة، لقاء الأضرار التي يمكن أن تلحق بالمواطنين والدولة بسبب ذلك. ويحرص ابن ادريس على أن يخبر قراءه من رجالات المخزن، بأن المستفيدين من امتياز العقد المذكور لا يشترونه بالمال من الدولة، عكس ما كان العمل جاريا به في المغرب حيث كانت العادة تقتضي بأن يحتكر المخزن القطاعات الاقتصادية أو يبيع حقوقها ـ كحقوق السوق مثلا ـ لبعض التجار وأصحاب المال سنويا، بأثمان محددة يدفعونها له توا، على أن يترك لهم حق استثمارها بالشكل الذي يمكنهم من استعادة مبالغهم المدفوعة لبيت مال المخزن، يضاف إليها الأرباح التي يرتضونها لأنفسهم، الأمر الذي كان ينجم عنه ضرر كبير بالمستهلكين، وبالناس عموما. يقول ابن ادريس في هذا الصدد: [«إذا أراد أحد منهم الاختصاص «بكنطردة»، فإنه يأتي المخزن ويقول له إني أحب أن اختص بجلب القمح للبلاد، على أنني أقوم بها سنة كاملة، وأبيع الخبز بكذا بالرطل فيأتي آخر وينقص من ثمن الرطل ويأتي آخر وينقص منه حتى يقف على آخر ناقص، فيمضون له البيع ويشترطون عليه القيام بذلك، فإنه إن احتاجت البلاد يوما للخبز ولم تجده فيلزمه كذا وكذا، ولا يعطي أحد منهم على الاختصاص بذلك شيئا للمخزن»].

ولا شك في أن ابن ادريس أغرق في الوصف التفصيلي لهذه العلاقة بين الدولة (أو المخزن) / والبورجوازية (أو التجار)، نظرا لإعجابه بها من جهة، ولعله كان يريد تقريب صورتها لقرائه من رجالات المخزن فلربما اقتنعوا بانتحالها واقتباسها من جهة أخرى. ومما

يرجح هذا الاحتمال الأخير هو حرص ابن ادريس على إيراد التفاصيل الجزئية كلما تعلق الأمر بمسألة تدخل ضمن العلاقة بين «المخزن» و«التجار»، من ذلك قوله: [«ومثال بعض أمورهم مع المخزن في ذلك، أنهم إذا أرادوا إصلاح طريق وعرة في جبل أو شبه ذلك، فإنه يتصدى لها تاجر أو تاجران، ويطلب من المخزن الإذن فيه بأن يقول له إني أردت إصلاح الطريق التي بين البلد الفلاني والبلد الفلاني، فأخرق ما فيها من جبال وأبني ما تحتاجه من جسور، وأرصف ما يحتاجه إلى الترصيف على أني أقبض من الدابة كذا، ومن البغال كذا [لاحظ طريقة ضرب الأمثلة...] ومن الكروسة كذا من كل ما يمر بها، واستغل ذلك عشرين سنة مثلا، ويرجع ذلك للمخزن فإن شاء استخدمها بعد ذلك لنفسه وانتفع بمستفادها وإن شاء تركها للناس مجانا، فيأذن له ويكتب له»].

في هذا المجال الأقتصادي التنافسي، الحر، الذي يتبارى فيه الناس بالكد والعلم والعمل لإنجاز المشاريع وتحصيل الأرباح والمكاسب بقيادة الطبقة البورجوازية الحديثة. ما الذي يمكن أن تستفيده الدولة لقاء دورها في خدمة البورجوازية ؟

يجيب ابن ادريس بأن : «التجار عندهم معتبرون اعتبارا زائدا وهم ركن من أركان الدولة. وإذن، لا تقوم الدولة اللبرالية فقط على ركن: «جيش النظام» الحديث، وعلى وجود الحكومة «المنظمة» كما رأينا فيما سبق، بل إنها تقوم على ركن آخر أيضا هو البورجوازية. ولعمري إن البورجوازية الحديثة هي المحتوى الطبقي للدولة الوطنية الحديثة بأوروبا، لأن تلك البورجوازية استطاعت أن تنظم دولتها وتكيف مجتمعها بالشكل الذي جعل مصالحها الخاصة تبدو متماهية مع مصالح الدولة والمجتمع معا.

ولعل هذا ما جعل ابن ادريس يقول بأن [«اعتناء دولتهم بأمور التجارة كبير، وذلك لأن مستفاداتهم جلها منهم. فكلما صلحت تجارتهم كثر الدخل على خزاناتهم. وكل ما بنى النصارى من طرق

الحديد، وأخبار السلك، ومراكب، وغير ذلك، فالتجار هم الذين يقومون به والمخزن إنما يشد عضدهم ويعينهم بالكلمة»].

وإذا ما رجعنا إلى النصف الثاني من القرن 19، فإننا سنجد الدولة المخزنية المغربية تتخذ من البورجوازية التجارية المغربية ـ الفاسية خاصة ـ مستشاريها وموظفيها الكبار في الشؤون المالية والاقتصادية فهل يمكن اعتبار تمجيد هذه الكتابات السفارية لدور «التجار» بأوروبا عاملا من العوامل التي دفعت الدولة المخزنية إلى الاعتماد في تنظيم جهازها المخزني على التجار المغاربة أساسا؟ أم إن الأمر لا يعدو أن يكون محض صدفة؟

ومهما كان الأمر، فإن كتاب السفاريات المخزنية أعجبوا بهذه العلاقة النوعية بين (المخزن) و(التجار)، بين الدولة والبورجوازية الحديثة، لأنها مصدر ازدهار و«ترقي» للجميع : للدولة، والتجار» والمواطنين. في إطار تلك العلاقة، تجد كل فئة من فئات المجتمع الأوروبي الحديث مجالا واسعا للتنافس في الأعمال ووجوه الكسب بحيث [«أنك ـ يقول الصفار ـ لا تجد عندهم فقيرا قادرا على الشغل يسأل الناس، ويمنعونه من ذلك، ويرون أن إعطاء القادر على الشغل فيه إعانة له على الكسل وعدم التكسب»].

وهكذا فإذا كانت الدولة الأوروبية الحديثة تترك المجال الاقتصادي حرا للتنافس بين الأفراد والجماعات، وينحصر دورها في تنظيمه، وفي مساعدة «التجار» أو الطبقة البورجوازية التي تستثمر أموالها في الصناعة والتجارة والفلاحة والمعاملات البنكية خالقة بذلك فرصا عديدة أمام المواطنين للشغل والتكسب، فإنها تهتم ـ في نفس الوقت ـ بتعليم الناس، وفتح المدارس والكليات في وجوههم، بما فيها المدارس المتخصصة في علوم التجارة، والفلاحة، والصناعة، بل وفي علوم الطبخ وإنتاج الحيوانات.

وبذلك تكون أعمالهم ـ في مختلف فروع الإنتاج ـ ذات مردودية مرتفعة، لا تكف عن طلب الاختراع والابتكار. هكذا يضع كتاب

السفاريات المخزنية أصابعهم على سمة أخرى من سمات «الحداثة الاقتصادية» ـ كما لمسوها في مظاهر الحياة اليومية للناس في المجتمع البورجوازي الحديث ـ وهي المتعلقة بارتباط العمل، في فروع النشاط الاقتصادي المختلفة، بالعلم والمعرفة.

2 ـ نموذج التحديث بقيادة الدولة :

إن الصورة التي رسمها صاحب كتاب «الابتسام» لتجربة محمد علي هي صورة الدولة الراغبة في التحديث، التي وجدت نفسها مضطرة ـ في سبيل ذلك ـ لاحتكار الإنتاج الاقتصادي ومبادلته بسبب غياب الطبقة البورجوازية الرائدة. وفي سبيل هذا التحديث كان لابد من انفتاح دولة محمد علي على أروبا والاستفادة من تنظيماتها الصناعية والتكنولوجية والإدارية. وصاحب «الابتسام» يستحسن هذا الانفتاح والاقتباس قائلا: «ولما فرغ الباشا من أمير الوهابية، أحدث في أرض مصر مما لم يكن فيها من صنائع الثياب على اختلاف أشكالها تقليدا للأفرنج في عملهم والثياب التي تجعل عندهم... فيقلد الإنجليزي في عمله، والفرنسيس في عمله، والنامسة في عمله وجميع أجناس الأفرنج».

وفي نفس الوقت، حرص صاحب «الابتسام» على تعريف المخزن المغربي بأهم مفاصل التجربة التحديثية المصرية مخبرا إياه — في نصوص واضحة ـ بأن محمد علي حرصا منه على توفير الفلاحة الصناعية المتكاملة مع النسيج الصناعي الذي أقامه استورد زريعة القطن الهندي قصد استنباته في أرض مصر، والأغنام الأفرنجية ذات الصوف الجيد الغزير لتموين صناعة النسيج المصرية، وشجر التوت الشامي لتربية دودة القز لصالح صناعة الحرير المصرية... كما استورد الآلات والتقنيات الصناعية الحديثة من أروبا، تلك الآلات التي حرص صاحب كتاب الابتسام على وصفها وصفا دقيقا لتعريف النخبة المخزنية بها. واستعان محمد علي بالخبرة التقنية للعمال والفنيين الأروبيين. ويظهر من تحليل أسلوب كتاب (الابتسام) حماس صاحبه للحداثة الاقتصادية والصناعية وكأنه يبشر بذلك رجالات

المخزن بما يجب أن يعملوه في المغرب في سبيل تحديث الدولة المخزنية وتقويتها. يقول صاحب «الابتسام»:

«واحتاج للديار التي يصنع فيها أنواع الثياب، فبناها على شكل يصلح وأنزل فيها النواعير والآلات الأفرنجية والدواليب، وبعث للمعلمين فجاؤوه من بلدهم. ووضعوا له دواليب ونواعير تدور بمحرك واحد. فإذا رأيتها مصطفة هذا قدام هذا حسبت أن كل واحد منها يدور وحده بسبب يحركه، وليس كذلك، بل يدورها مدور واحد، ولو كانت مائة ناعورة.. وكل واحدة من هذه النواعير تدور بعمل مخصوص. ويختلف دورانها باختلاف مالها من العمل في القطن. فينزل القطن في أدناها حبة فينفش في أسرع حال فيأخذه الخديم، ويضعه في الناعورة التي تليها. فينبرم كالحبل الغليظ في أسرع ساعة. فينقله الخديم إلى الناعورة التي تليه فينبرم فوق ذلك في الدقة. وهذا هو الذي تنسج منه الثياب المذكورة على اختلاف أشكالها وألوانها ورقمها، وتوجد في أسرع حال. فيوجد في الشهر آلاف متألفة بسبب هذه الحركات الأفرنجية التي وضعها له الأفرنج».

أما فيما يتعلق بالخبرة الفنية الأوروبية فإن صاحب «الابتسام» يخبر بأن محمد علي استقدم المهندسين والفنيين الأوروبيين : «فيأتونه ويكرمهم ويجري عليهم المؤونة الكافية ويعدهم بالعطاء الجزيل. ويجلس معهم الولدان الصغار يتعلمون منهم الصنعة حتى تحصل فيهم الملكة، ويتعلموا الصنعة بجميع تفاصيلها. فإذا تعلمت الولدان أعطى النصارى ما وعدهم به، وأبقى الصنعة في يد المسلمين. وهكذا في جميع ما أحدثه في أرض مصر من الصنائع، فإنه يذهب فيه على قانون الأفرنج يفعل ذلك بإشاراتهم وقانونهم، حتى يتحصل في ملكة الفلاحين وأهل مصر» ويخبر صاحب كتاب «الابتسام» رجالات المخزن أن محمد علي لم يكتف بذلك بل أرسل «من أهل العلم لبر النصارى يتعلمون الطب والتوقيت والهندسة والحساب وعلوم البوصلة وصناعة المجانات وغير ذلك. وأجرى لهم المؤونة لعيالهم وأوصى بالاحتفاظ بهم في بلد النصارى. ومن تعلم منهم يرجع لبلده». ولا يخلو حديث

صاحب «الابتسام» عن ذكر صناعة السفن المصرية واستحداث موانيء أبراج الاستعلامات، وإنشاء «جيش النظام» الذي به هزم محمد علي الوهابيين والمماليك والإنجليز واستولى على السودان والشام الخ...

لكن، ما مصدر تمويل دولة محمد علي لمشاريعها التحديثية ؟

يجيب صاحب كتاب «الابتسام» بأن مصدر التمويل كان هو : المكس، بالإضافة إلى تحكم الدولة في النشاط الاقتصادي عند الإنتاج والبيع معا. وفي هذا الصدد يورد صاحب «الابتسام» بأن محمد علي وظف «المكس على الدور، والأراضي، والحرف... فلم يترك حرفة إلا جعل عليها مكسا ووضع لها معرفا يكون الكلام معه، حتى جماعة السؤال الذين كانوا يطوفون في الأسواق يسألون الناس عن اللقمة والمبرة وظف عليهم المكس كل واحد بقدر سعيه وقوته وضعفه وجعل من لا يقدر منهم على السعي قوتا مقدرا في كل يوم ومنعهم من السؤال... وكان يبيع المذبح الذي تذبح فيه الماشية لأهل مصر بألف في كل سنة، وصاحبه يبيع اللحم تحت يده... وكان يسأل الفلاحين عن الأشياء التي يكثر النفع فيها، ويكثر مستفادها، وتقل مؤونتها فيزرعها ويرغب الفلاحين في زرعها. وكانت مراكب الأفرنج تأخذ منه الحبوب في كل سنة، وأنواع القطنية من فول وحمص... ويشترون منه القطن لمصنوعاتهم فيعطيهم من ذلك كفايتهم، وهو لا يطلب منهم إلا القليل من الأشياء لاكتفائه بما عنده في أرضه».

وبعد، فإنه لمن الواضح أن المخزن كان على معرفة، خلال النصف الثاني من القرن 19 من خلال كتاب «الابتسام» من جهة وكتب الرحلات السفارية إلى أروبا، بنموذجين للتحديث، وأدرك أن نموذج التحديث المصري هو الذي يمكن للمغرب آنئذ الاقتداء به لأسباب تاريخية ـ اجتماعية من جهة، ودينية من جهة أخرى. وإن كان يدرك أيضا أن الحداثة الأروبية تبقى هي الأصل والمنبع. ولعل استقراء سياسة المخزن طيلة النصف الثاني من القرن 19 تقدم عددا من الأدلة على صواب هذا الرأي من حيث أن المخزن لم يكتف بإرسال بعثات

طلابية إلى أوروبا بل أرسلها أيضا إلى مصر (وبقي هذا التقليد مستمرا حتى بعد إقرار الحماية الأجنبية على المغرب)، ولم يستعن فقط بالأطر التقنية الأوروبية بل بالمصرية أيضا، ولم يعتمد في تجربته التحديثية على «التجار» المغاربة إلا بوصفهم خبراء في الشؤون المالية يستشيرهم ويختار منهم أمناءه. وتولت الدولة المخزنية مسؤولية إنجاز «تحديث» أصبح السلاطين يدركون ملحاحيته وضرورته لتوحيد البلاد تحت السلطة الفعلية لدولة المخزن، ولدرء خطر الاستعمار الأوروبي بعد أن أصبح شبحه ماثلا للعيان أكثر من أي وقت مضى.

تصورات مغربية للمدنية الأوربية من خلال الرحلات السفارية

ذ. جمال حيمر
كلية الآداب ـ مكناس

اللافت للانتباه في تطور الاسطوغرافيا المغربية الحديثة هو أنه إذا كان موضوع صورة المجتمع المغربي كما صاغتها خطابات الأجانب على اختلاف جنسياتها وتخصصاتها قد حضيت بنصيب وافر من اهتمامات الباحثين المغاربة الذين يلتقون حتما بعناصر جزئية من هذه الصورة في إطار موضوع أشمل، فإنه خلافا لذلك فإن الصورة المعكوسة نادرا ما اجتذبت فضول الدارسين، نقصد صورة المجتمع الأوربي كما أنتجتها نصوص فئة من مثقفي مغرب القرن التاسع عشر، ومن ضمنها نصوص تقارير الرحلات السفارية.

ويمكن أن نعزو سر هذه المفارقة إلى هاجس الرغبة الوطنية، الذي يحرك كل باحث مغربي للتحرر من عقدة الأسطوغرافيا الاستعمارية وتعرية خلفياتها التي غالبا ما عمدت إلى تشويه معالم صورة الكيان المغربي، هذا بالإضافة إلى ضخامة الإنتاج الأجنبي الذي ورثته الأسطوغرافيا الوطنية، إذ يصادف الباحث أمامه ركاما هائلا من نصوص متعددة ومتفاوتة القيمة من مونوغرافيات ومؤلفات الرحالة وتقارير البعثات العسكرية والدبلوماسية، وهي كلها تشكل مادة غنية تغري وتسعف الباحث المغربي في إنتاج خطاب تاريخي نقدي ومضاد لخطاب الآخر، بينما نرجع عزوف الدارسين عن دراسة موضوع تصورات النخبة المغربية لأوربا إلى عامل فقدان ما يكفي من

التآليف(1) التي تسمح للدارس أن يخضعها لتحليل يتيح استخراج عناصر الأفق النظري الذي كان يتحرك فيه تفكير أصحابها، هذا فضلا عما تتسم به هذه النصوص ـ في نظر البعض ـ من ضحالة فكرية(2) وخلوها من أي سعي نظري جاد، إذ لسنا حيال كتابات من صنف ومستوى كتابات رواد النهضة أمثال رفاعة الطهطاوي وخير الدين التونسي وغيرهم، والتي شكلت موضوع قراءات عديدة ومتباينة في منطلقاتها ونتائجها.

وإذا كنا نعتقد بصحة هذه العوائق، فإننا نسلم في نفس الآن بقيمة ما تكتسيه تقارير الرحلات السفارية. وهي قيمة تكمن بالأساس في فاعليتها الإصلاحية، ومن هذا المنظور يرتبط اهتمامنا بها.

ولا شك أننا لو انطلقنا من تصور ضيق الأفق. فقد يتبادر إلى الذهن التساؤل حول مشروعية العودة إلى نصوص تنتمي إلى حقبة ماضية، وعن الفائدة التي يمكن أن نجنيها من وراء مساءلة هذه النصوص وتحليلها.

تلك أسئلة تتجاوز حدود هذا العرض، ولا ندعي القدرة على تقديم أجوبة شافية لها، يكفي التأكيد على أن مبرر هذا العودة يستمد أساسه من الحوار الذي يفرض استمراريته بين الماضي والحاضر، ومن الجدل الذي يبقى قائما باعتبار أننا نحيى حاضرا تاريخيا مأزوما مازال يعاني مما حاولت نخبة القرن الماضي مباشرة التفكير في سبل تجاوزه.

إن طموحنا من وراء استقراء نماذج من تقارير الرحلات السفارية طموح جد متواضع، لا يتعدى حدود معرفة دور هذه التقارير في

---

1) الجابري محمد عابد : تطور الانتلجنسيا المغربية، الأصالة والتحديث ـ ضمن أعمال ندوة الانتلجنسيا في المغرب العربي، المجموعة بإشراف عبد القادر جغلول ـ دار الحداثة ـ الطبعة الأولى بيروت 1984 ص: 7.

2) A. Laroui : Les origines Sociales et culturelles du nationalisme Marocain (1830 - 1912) Maspera Paris 1977. P 219.

تعميق الوعي بضرورة مطلب الإصلاح الذي لم يكن نتاج مرحلة اقتضاها التطور الذاتي للمجتمع وقواه الخاصة به، بل اقتضاه ضغط خارجي وتهديد استعماري، فأصبح مطلبا للرفع من المستوى المادي والحضاري للمجتمع المهدد، وليتمكن من المواجهة والتطور معا.(3)

لقد تمت صياغة هذه التقارير ضمن سياق تاريخي معين لم تعد تخفى تفاصيله على أي مؤرخ، لذا تجنبا لاستعادة معطيات تاريخية معروفة يحسن الاكتفاء بالإشارة إلى العناوين البارزة لهذه الظرفية، ونقصد تعرض المغرب لهزيمتين عسكريتين (إيسلي ـ تطوان) سجلتا بداية مسلسل من النكسات اللاحقة زعزعت المعطيات السياسية والعسكرية والاقتصادية، ومهدت الطريق للاستعمار الأجنبي.

غير أن الوجه الآخر للهزيمتين كونهما شكلتا صدمة قوية رجت وعي المغاربة أو على الأقل نخبتهم السياسية والعالمة، فجاءت مواقفها عبارة عن ردود فعل على تأثير هذه الصدمة، واكتست في الغالب طبيعة سيكولوجية، حيث تباينت مواقف النخبة بين الرفض والامتناع عن أي تعامل أو حوار مع الآخر الكافر، وبين الاعتدال والانفتاح والميل إلى الاقتباس منه، ويعنينا التعرف على مواقف مؤلفي تقارير الرحلات السفارية الذين عاينوا مباشرة مظاهر المدنية الغربية، وضمنوا خطاباتهم أفكار أو آراء شكلت في حصيلتها رؤية حضارية مغربية لأوربا.

فلنتعرف في عجالة على الشروط الخاصة التي تبلورت في إطارها هذه الخطابات فمن المعلوم أن تكاثف العلاقات مع أوربا وما ترتب عنها من مشاكل تحولت إلى أخطار تهدد الكيان المغربي، جعل المسؤولين يبذلون جهودا متعددة ومتواصلة لدرء هذه الأخطار، ولم يكونوا على استعداد للدخول في مغامرة حربية مع إحداى الدول المتنافسة على المغرب قد تكون عواقبها أعمق مما خلفته هزيمتا إيسلي وتطوان. وهو اختيار عكسته آراء بعض العلماء الذين آثر واتجنب كل

---

3) أومليل علي : الإصلاح والديمقراطية تجربتا المغرب والمشرق ـ الاتحاد الاشتراكي ـ الملحق الثقافي ع 160.

اصطدام مباشر مع القوى الأوربية(4) على نحو ما عبر عنه أحد الحجاج المغاربة بقوله: «...ومن يحاج النصارى ويغالبهم لعلو كلمتهم وقوة شوكتهم في البحار والمراسي وفي كل الثغور...».(5)

ومحاولة من سلاطين المغرب لتطويق الأزمة وتفادي المواجهة المباشرة نهجوا سياسة متحايلة اتجاه الدول المتصارعة وقتذاك فيما بينها في حرب باردة بهدف بسط نفوذها على المغرب،(6) وقد تبلور جانب من هذه السياسة فيما شهده المغرب منذ سنة 1845 من حركة دبلوماسية مكثفة تمثلت في توجه عدة سفراء مغاربة إلى جل بلدان أوربا مكلفين بتسوية قضايا خاصة قد تتعلق بتصفية بعض المشاكل الترابية أو لطلب تأييد مواقف المخزن أو للاقتراض، وقد يتعلق الأمر فقط بزيارة مجاملة لتوطيد العلاقات بين البلدين، وإن ظل في الغالب موضوع السفارة مسكوتا عنه لأن السفراء كانوا يرون أن ذلك من أسرار المخزن التي من واجب أمثالهم كتمانها.(7)

وليس من شأننا في هذا المقام الخوض في تقويم الحصيلة السياسية لهذا النشاط الدبلوماسي، بل ما يستوقف الباحث هو ما نتج عن هذا النشاط من إنتاجات فكرية صيغت على شكل تقارير قد تكون من تأليف السفراء أو ممن كانوا يرافقونهم من كتاب وأدباء،

---

4) لا ننفي وجود بعض العلماء الذين عارضوا سياسة الصلح والمهادنة مع الدول الأوربية ودعوا في كتاباتهم إلى مواصلة الجهاد.
انظر ما جاء في مخطوط محمد الدرقاوي المدغري: منشور يدعو إلى الحرب. خ. ع. ر. رقم د 3353.

5) الغيغائي محمد بن عبد الله : رحلة الغيغائي. خ. ع. ر. رقم ج 98.

6) مبارك زكي : من أدب الرحلات تحفة الملك العزيز بمملكة باريز للكاتب الأديب الحاج ادريس العمراوي - مجلة البحث العلمي - العدد 31 - السنة أكتوبر 1980 ص. 69.

7) داوود محمد تاريخ تطوان - المجلد الثالث - المطبعة المهدية - تطوان 1962 ص.298.

وإذا كان بعضها في غير متناول الباحثين،(8) فإن المتوفر منها كاف نسبيا لتقديم تصور عام حول رؤية ومنظور مؤلفي هذه التقارير لمخترعات المدنية الغربية ومواقفهم إزاء مظاهر التقدم الأوربي الحديث، وسنقتصر في قراءتنا على بعض النماذج من تقارير المرحلات السفارية.

ـ «رحلة إلى فرنسا» من تأليف محمد بن عبد الله الصفار التطواني الذي رافق بصفته كاتبا سفارة الحاج عبد القادر بن محمد أشعاش عامل تطوان إلى فرنسا ابتداء من سنة 1845.

«تحفة الملك العزيز بمملكة باريز» لمؤلفها ادريس ابن ادريس العمراوي عن سفارة توجهت برئاسته إلى فرنسا سنة 1860.

ـ «التحفة السنية للحضرة الحسنية بالمملكة الاصبنيولية» من تأليف أبو العباس أحمد الكردودي عن سفارة كان عضوا فيها قصدت إسبانيا سنة 1844 برئاسة عبد الصادق أحمد الريفي.

وقبل أن نعرض نماذج من تصورات مؤلفي هذه الرحلات نسجل الملاحظتين التاليتين:

* بالرغم مما يمكن أن يلاحظه قارىء هذه النصوص من تباين في دقة الأوصاف وحجم المعلومات التي نقلوها إلى الدوائر المخزنية، ومستوى إدراك مظاهر التقدم الأوربي وتفسير أسسه ومقوماته، فإنه يجوز اعتبار هذه النصوص نصا واحدا كتب بعناوين مختلفة بالنظر إلى أن الأفكار المعبر عنها تشترك في كونها تعكس رؤية واحدة للكون لدى أصحابها، رؤية الكون المنشطر إلى دار إسلام ودار حرب.

---

8) لا يستبعد العروي إمكانية توفر تقارير رحلات سفارية لم يكشف النقاب عنها بعد. ومن الرحلات التي لم تشغل بعد نذكر.

رحلة لأبي عبد الله محمد بن الحاج محمد بن السعيد السلاوي (ت 1310هـ / 1892م) إلى بلاد فرنسا حوالي سنة 1868م / 1283 بأمر من السلطان محمد الرابع تقع في سفر صغير توجد عند حفدته بسلا.

انظر ابن سودة : دليل مؤرخ المغرب الأقصى ـ الجزء II طبعة دار الكتاب الدار البيضاء 1960 ص.ص 352 ـ 353.

انظر العروي مرجع سابق ص.215.

* حـرص مؤلفي هـذه الرحـلات على تقديم صـورة تكاد تكـون شـاملـة ومفصلة عن مختلف جـوانب الحيـاة الأوربيـة حيث اهتمت أوصافهم بالتعريف بأهم منجـزات التقدم التقني وخصائص العمران، كما اعتنت بـرصد أوجـه النشاط السيـاسي كحديثهم عن المؤسسـات السياسيـة القائمـة ووظائفهـا واختصاصاتها، وعـن تشريع القوانين ودور الصحافـة أو كما سماها أحـدهم «الأوراق اليوميـة»، كما أولوا اهتماما للتنظيمات الاقتصاديـة والتكنولوجية ودور الـدولة في الحياة الاقتصادية وعلاقتها بالطبقة البورجوازية، دون أن ينسوا نقل بعض المعطيات عـن النشاط العلمي ومـؤسساته ودوره في تحريـك اقتصاد البـلاد، كما لم يفتهم تسجيل ارتسـامـاتهم عن الأخـلاق والعـادات الاجتماعيـة التي كانت تسـود الأوساط الغـربية، على أن مـا سترعى انتباههم أكثـر هو كل مـا يرتبط بـالمجال العسكـري حيث أسهبوا في وصف مـؤسة الجيش، ومكـوناتها وتنظيماتها وقـوانينها وأسـاليب تكوين الـوحدات العسكريـة، وإذا كانت هذه المعلـومات المتنوعـة قد وردت متناثرة ومتفرقة لا يضبطها ناظم منهجي، فإنه بوسع الدارس أن يلم شتـاتها ويـركبها في بنـاء متكـامل يطـال المسألة العسكـريـة والسياسية والتكنولوجية والاقتصادية والثقافية.

وإذا كانت بعض مصادر المرحلة تؤكد على نحو ما سجله العربي المشرفي من أن أغلب الذين زاروا أوربـا قد عادوا يستعظمـون أنظمتها وينوهون بضبط الأحكـام ونفوذ الكلمة(9)، فإن من شـأن العـودة إلى النصـوص وإخضاعهـا لتأمل نقـدي، يكشف عما طبع خطاب كتـاب السفاريات من توتر خفي بـاطن وملازم لهذا الخطاب، توتر يكمن في تقديم صور متعددة لأوربا، صـور ملتبسة ومتناقضة، حيث جسدت أدبيـات هذه التقـاريـر تعـايش نزعتين محافظـة ومتفتحـة، تمثل في تأرجح هذا الإنتاج بين الدعـوة للانغلاق والانطواء، والميل إلى الانفتاح والاقتباس، وهو تأرجح يجد تفسيره في المنطلقات النظرية التي يصدر

9) المشرفي العـربي بن علي : الحسـام المشرفي، خ. ع.ر. ضمن مجمـوع رقم ك 2276 ص.321.

عنها، إذ لابد من استحضار ثقل الموروث الديني التقليدي الذي كان يحرك صياغة هذا الخطاب.

ويحسن أن نعرض بعض الأمثلة من هذه التصورات التي تعكس مواقف متقدمة وتفيد إعجاب أصحابها ببعض مزايا الحضارة الأوربية.

وأول ما نلمس مثل هذه المواقف في تفسير بعض كتاب السفاريات لدواعي كتابة تقاريرهم، يقول الصفار في مستهل رحلته «...وكان من الحزم لمن تغرب عن وطنه ونأى أن يعد كل ما سمع ورأى لما قد يوجد في ذلك من العلوم والعبر، وما حصلت جم الفوائد إلا من مخالطات البشر...»،(10) وهو نفس الموقف الذي نجده عند الكردودي معبرا عن أمله في اللحاق بالركب الأوربي حيث كتب وهو مشرف على ختم تقريره «...هذا وقد ألحنا في هذا التقييد العجيب ببعض ما شاهدناه من الأعاجيب، واقتصرنا على ما لابأس بذكره للعلم به، ومعرفة جملته وتفصيله قصد المزيد للاستعداد بأفضل منه، والسعي في تحصيله».(11)

ويبدي الصفار في كثير من فقرات تقريره نوعا من الإعجاب ببعض التنظيمات التي شهدها، ومن ذلك على سبيل المثال ما جاء في معرض وصفه لمظاهر السكن العمراني بنوعيه الحضري والبدوي «...اعلم أن هؤلاء القوم ليس عندهم في مساكنهم لا إخصاص ولا خيم ولا نواويل، وإنما يعرفون البناء لا غير، إلا أن بناء البوادي متميز عن بناء الحواضر، فقراهم في الحقيقة من جملة المدن يوجد فيها ما يوجد في الحاضرة من الأسواق وما يباع فيها وغير ذلك، وقد رأينا في طريقنا هذا ما يشهد شهادة حق لأهل هذه البلاد بالاعتناء التام

---

10) الصفار محمد بن عبد الله التطواني : رحلة إلى فرنسا ـ مخطوط خ. ح. ر رقم 113 ـ ص. 24 ـ 25.

11) الكردودي أبو العباس أحمد بن محمد : التحفة السنية للحضرة الحسنية بالمملكة الاصبنيولية ـ مطبوعات القصر الملكي ـ الرباط 1963 ص. 92.

والتبصر العام بأمور دنياهم وإصلاح معاشهم وإتقان تدبيرهم».(12)

ولم يكن محمد ابن داوود مبالغا في استنتاجه من وصف الصفار لميزانية الدولة الفرنسية ومداخيلها ومصاريفها، إذ كتب معلقا على هذا الوصف «...وقد أسهب (الصفار) في هذا الموضوع إسهابا ولعله كان يود لو كان شيء من ذلك النظام المالي موجودا في بلده أيضا...».(13)

ويستنتج من حديث ادريس العمراني عن نشاط التجار الفرنسيين ومكانتهم في المجتمع كون هذا الأخير يوجه نقدا غير مباشر للتجار المغاربة حسبما يؤكد تنويهه بدور البورجوازية التجارية في النهوض باقتصاد فرنسا، «...واعتناء دولتهم بأمور التجارة كبير وذلك لأن مستفادهم جلها منهم، فكلما صلحت تجارتهم كثر الدخل على خزينتهم، وكل ما بين النصارى من الحديد وأخبار السلك (التلغراف) ومراكب وغير ذلك، فالتجارهم الذين يقومون به والمخزن إنما يشد عضدهم ويعينهم بالكلمة لا غير...».(14)

وإذا كانت أوصاف كتاب السفاريات لمنتجات ثوره أوربا الصناعية (البواخر ـ القطارات ـ أجهزة التلغراف ـ ميزان الطقس) قد تميزت بنوع من الدهشة والانبهار الغيبي، فإنهم لا يخفون شعورهم بتأخر مجتمعهم في هذا المجال. إذ لم يتردد بعضهم في الإفصاح عن إعجابه ببعض هذه المخترعات كوصف ادريس العمراوي لآلة الطبع «...وهذه الآلة التي اتخذوها للطبع هي في كل الأمور عامة النفع معينة على تكثير الكتب والعلوم، وقد اتخذوها في جميع بلاد الإسلام، واغتبط بها مشاهير العلماء الإعلام، ويكفيك من شرفها وحسن موقعها

12) الصفار محمد بن عبد الله التطواني : رحلة إلى فرنسا ص. 29.

13) داوود محمد : تاريخ تطوان ج 3 ـ ص. 308.

14) العمراوي ادريس ابن دريس : تحفة الملك العزيز بمملكة باريز ـ الطبعة الحجرية الموجودة بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم 23440 بدون تاريخ ص: 95.

رخص الكتب التي تطبع بها، وقد اعتنوا بتصحيحها وبالغوا في تهذيبها وتنقيحها مع جودة الخط وإيضاح الضبط...».(15)

وإذ يقتنع العمراوي بمزايا جهاز المطبعة، فإنه لا يلبث أن يعرض صراحة على الجهات المسؤولة فكرة إنشاء هذا الجهاز بالمغرب لما ارتأى فيه من منفعة وفائدة «...ونطلب الله بوجود مولانا أمير المومنين أن يكمل محاسن مغربنا بمثل هذه المطبعة، وتجعل في ميزان حسناته هذه المنفعة...».(16)

وعن سير الحياة السياسية فإن ما يستوقف الدارس في رحلة الصفار هو وصفه الدقيق لنظام الصحافة ودورها، ووظائف المؤسسة البرلمانية بلهجة إيجابية توحي بالتبني. حيث كتب معلقا على سير عمل نواب الأمة «...ومن وظيفتها (أي القمرة مجلس البرلمان) تجديد قانون مفقود أو إبقاء قانون موجود على حاله، والفرق بينهما (أي القمرة الصغيرة والكبيرة) أن القمرة الكبيرة تحامي عن الملك ورؤساء الدولة وتعضد أمرها والصغيرة تحامي عن الرعية وتنصرها وتطلب حقوقها،... وأما أحكام النوازل والجزئيات فهي عندهم مدونة في الكتب ولا يستقل السلطان وحده بحكم من الأحكام...».(17)

ولم يفت العمراوي هو الآخر أن يضمن تقريره ارتسامات تفيد مدى إعجابه ببعض مزايا النظام السياسي الفرنسي، يقول: «...ومن عوائدهم السياسية التي جرى عليها عملهم أن يجتمع في كل سنة بباريز ستمائة رجل من كل مدينة من مدنهم، وعدد معين من التجار والفلاحين وأرباب العقار، فيعقدون مجالس ثلاثة في ثلاثة أيام في دار معلومة لذلك... يحضر فيها معهم الوزراء وسائر رؤساء الدولة يتذاكرون فيما يصلح بلادهم، ويذكرون ما وقع في سائر السنة الماضية، فيحسنون الحسن ويقبحون القبيح، وسيالون عن موجب كذا وما ألجأ إلى كذا، ويبشرون بما يصلح في المستقبل... ويحاسبون

---

15) العمراوي ادريس تحفة الملك العزيز... ص. 54.

16) نفسه ص. 55.

17) الصفار : رحلة إلى فرنسا ص 133 ـ 134.

الدولة على ما دخل عليها، وما خرج من يدها، فإن وجد عليها دين أحدثوا ما يخرج منه، وإن وجدوا زائدا عينوا له مصالح يصرف فيها...».(18)

ويخبرنا أحمد الكردودي أن وصول السفارة التي كان عضوا فيها إلى إسبانيا قد صادف وفاة ملك إسبانيا، وأنه توقع حدوث اضطراب وفتنة عقب هذا الحدث: «وخشينا من اضطرابهم ووقوع الفتنة بينهم، فوقانا الله مما توخيناه ولم يصدر شيء مما ظنناه»،(19) ولا نجازف إن اعتبرنا تخوف الكردودي أنه صادر عن مقارنة ضمنية بما كان يحدث في الغالب من اضطراب في المغرب مباشرة بعد وفاة السلطان ولقد فسر هدوء واستقرار الوضع بمزايا وحسنات النظام السياسي المتبع في إسبانيا ومنها «...أن يكون النظر في الأمور للوزراء وليس على متولي الحكم إلا الإمضاء...».(20)

وبالنظر إلى أن آثار الهزيمة كانت ما زالت عالقة بذهن كتاب السفاريات، فقد أولوا اهتماما بالغا بالأمور العسكرية، فزاروا معامل صنع الأسلحة، ووصفوا بإسهاب صناعة الكرطوشات والمدافع، وعاينوا التمرينات العسكرية وأشاروا إلى أن الفن العسكري علم يكتسب بالكتابة،(21) كل هذه الاهتمامات شكلت قاسما مشتركا عند أغلب هؤلاء الرحالة مما يعكس رغبتهم في تحصيل أسباب التفوق العسكري الأوربي، يتأكد استنتاجنا هذا من خلال الوقوف على تنويه العمراوي بتنظيمات وقوانين الجيش الفرنسي كقوله: «...أما قاعدتهم في ضطبه فقرروا أحكاما ككل جريمة تجري على فاعلها حتما، وقطعوا الطمع على أن يتولى أحد مرتبة فيه برشوه أو شفاعة... ولم يطلقوا للمتولين اليد في العسكر بالتعدي والضرب والحيف...».(22) وواضح أن

---

18) العمراوي ادريس : تحفة الملك العزيز... ص. 92.
19) الكردودي أبو العباس : التحفة السنية للحضرة الحسنية بالمملكة الاصبنيولية ص. 43.
20) الكردودي : التحفة السنية... ص. 44.
21) عبد الله العروي : الأصول... ص. 217.
22) العمراوي ادريس : تحفة الملك العزيز ص. 105 ـ 106.

العمراوي يصف حالة الجيش الفرنسي بعين تستحضر في ذات الوقت وبشكل ضمني مساوىء تنظيم الجيش المغربي والفوضى السائدة في صفوفه، وما يترتب عنها، مما ينم عن رغبة دفينة في اقتباس هذه التنظيمات وإدخالها إلى المغرب، نفس الانطباع يمكن أن نلحظه لدى الكردودي في تعليقه على زيارته لمصنع المدافع باشبيلية «...وهذه الدولة وإن اقتفت أثر غيرها في ذلك فإنها لم تبلغ بعض البعض مما استنبطوه، ولا علمت من صناعتهم مثل ما صنعوه، ولكنها لم تهمل ذلك إهمالا كليا ولا جعلته وراءها ظهريا، بل جدت في إدراكه فأدركت ما تيسر من ذلك وهم جادون فيما سلكه غيرهم من تلك المسالك...».(23) فالكردودي كان على وعي تام بتأخر إسبانيا بالقياس إلى باقي الدول الأوربية، لكنه لم يفته التأكيد على محاولة الاسبان وسعيهم الجاد في سبيل اللحاق بهذه الدول، وكأن الكردودي بتأكيده هذا يتمنى لو أن المغرب حذا حذو الدولة الاسبانية.

وإذا كانت هذه الأمثلة التي عرضناها تعكس إيجابية مواقف أصحابها وانفتاحهم على بعض مظاهر الحضارة الأوربية ورغبتهم في اقتباس بعض منجزاتها، فإن هذه المواقف سرعان ما تنقلب إلى أضدادها ويتحول الاعجاب إلى نوع من المناجاة الداخلية(24) وتعزية الذات بأحكام نكوصية تعويضية.

إن إعجابهم لا يثير أية موافقة خلقية، ومن هنا لا مبالاتهم اتجاه تأقلم ممكن مع هذه الحضارة واكتفائهم بالوصف الظاهري المشوب بالدهشة والحذر، دون أن يرتقي إلى مستوى التقصي وتفسير عوامل ظهور وتطور هذه المخترعات،(25) ويبقى التفسير الممكن أسير النظرة اللاهوتية،(26) يأتي في شكل نص فرعي انبثق من نص أصلي هو

---

23) الكردودي أبو العباس : التحفة السنية ص. 90.

24) القدوري عبد المجيد : صور أوربا في نوع من الكتابة المغربية ـ الرحلة مجلة المشروع العدد 10 السنة 1988 ص. 130.

25) العروي : الأصول، ص. 219.

26) نفسه نفس الصفحة.

النص الإلاهي، حيث اعتبروا مشاهد التقدم التي عاينوها من قبيل إمهال الله للكفار وبرهانا منه على قدرته على إبراء الأمور عكس ما ينبغي أن تكون،(27).هكذا لا يرى ابن ادريس العمراوي في إتقان المخترعات الأوربية وفعاليتها التي وقف أمامها مذهولا إلا علامة على انحدارهم الذي هو وشيك الوقوع، كتعقيبه على وصفه لاختراع التلغراف «...وفيه أدل دليل على أن أمورهم بلغت الغاية وتجاوزت النهاية، وأنه في الحال يعقبها الانحلال، وتأخذ في الانعكاس والاضمحلال، فمعلوم أنه ما بلغ شيء من الغاية إلا ورجع، ولا نال منتهى الصعود إلا اتضح...»،(28) إنه التبرير الجاهز منذ زمن بعيد على حد تعبير العروي،(29) ومجرد نسخ على منوال بأسلوب جديد وإعادة إنتاج لخطاب مقدس، نفس الاستلهام يمكن إدراكه عند أبو الجمال محمد الطاهر الفاسي، إذ بعد تعرضه الدقيق لمختلف الإنجازات الحديثة التي شهدها، يستخلص في نوع من التبرؤ من كل ما سبق أن وصفه، أن الفكر الظلماني هو الذي يسمح للأوربيين للوصول إلى هذه المخترعات لإغراقهم في مزيد من الكفر والزندقة(30) «...العقل على قسمين ظلماني ونوراني، فالظلماني به يدركون هذه الأشياء الظلمانية، ويزيدهم ذلك توغلا في كفرهم، والنوراني به يدرك المؤمن المسائل المعنوية»(31) واضح أن الحكم السلفي القيمي قد طبع خطاب كتاب السفاريات، إذ رغم اعترافهم الضمني تارة والصريح تارة أخرى بتفوق المدنية الغربية خاصة في صيغتها العسكرية، فإن ذلك لم

---

27) الجابري تطور الانتلجنسيا المغربية الاصالة والتحديث ص. 15 ـ 16.

28) العمراوي ادريس تحفة الملك العزيز ص 61 ـ 62.

29) العروي عبد الله : الإيديولوجية العربية المعاصرة دار الحقيقة بيروت 1970 ص. 45.

30) العروي عبد الله : الأصول 216 ـ 217.

31) أبو الجمال محمد الطاهر بن عبد الرحمان الفاسي : الرحلة الإبريزية للديار الانجليزية تحقيق محمد الفاسي منشورات المعهد الجامعي للبحث العلمي الرباط ص. 68.

يـزعـزع إيمانهم الـراسخ بقـوة التنظيمات المحليـة، مـن ذلك قـول الكردودي «...وأين ذلك من ترتيبنا الـذي لا يزدريه إلا خائن في دينه مريب، فإنك ترى خيـولنا العربية متى أخرجت من أمـاكينها وبرزت عن مكامنهـا واصطفت صفوفا وصارت ببسيط الأرض وقـوفا عليها فـرسـان لا يـدرك شأوهم في الفـروسيـة، أولئك حـزب اللـه هم المفلحون».(32)

إن خطاب كتاب السفـاريات يجمع بين الحث والنهي، بين التحفيز والتراجع بين التأكيد والنفي، ينطوي على توتر حاد يعكس مأزقه، وقد يكون من باب التقصير الاكتفاء بعامل أثر المنظور الفقهي التقليدي في تفسير تأرجح هـذا الخطاب بين الانطـواء والانفتـاح، بل لا ينبغي أن يغرب عن بالنا أن جل هؤلاء الكتاب كانوا مرتبطين بالدوائر المخزنية، ممـا قلص من إمكـانـات التعبير الحر عن آرائهم خـاصـة في المجـال السياسي، كما لا ننسى أن هـذا الغرب لم يكن يقدم نفسـه في صـورة واحدة كما يذهـب الجابري، لقد كان ولا يزال يحمـل بالنسبة لمشروع النهضة مظهرين متناقضين، مظهـر يجسد الغزو والعدوان والسيطرة. ومظهر يمثل العلم والحرية والتقدم، من هنا ذلك الموقف المزدوج الذي اتخذه كتـاب السفاريـات من أوربـا، الموقف الـذي اتسم بالتنـاقض الوجداني. الإعجاب والكراهية في نفس الوقت. الإعجاب بثمرات المدينة الأوربية وتنظيماتها والدعوة إلى اقتفاء أثرهـا والأخذ بأسباب تفوقها. والكراهية لنفس أوربا التوسعية الذي يجب الحذر منها والوقوف ضد مطامعها.(33)

---

32) الكردودي أبو العباس التحفة النسبية... ص. 92.

33) الجابري محمد عـابد : العرب والغرب على عتبة العصر التكنـولوجي مجلة الفكر العربي المعاصر ع 3 س 1984 ص. 44 ـ 45.

العلاقات المغربية التركية
من خلال أدب الرحلات
كتاب النفحة المسكية في السفارة
التركية نموذجا

د. محمد رزوق
كلية الآداب ـ عين الشق

يعتبر الكتاب وثيقة هامة تؤرخ لجوانب عدة من العلاقات المغربية التركية، فهو يصف ما شاهده أو سمع به في المناطق التي كانت تحت أيدي الأتراك، بل يصف بلاد الترك نفسها، وهو من خلال ذلك يحاول أن يقدم الخطاب الرسمي للدولة السعدية، أي أن السعديين أحق بالخلافة من المماليك الأتراك، وهو يصف من خلال ذلك أيضا سفره البري الطويل، وأعمال القرصنة، وكذا وضعية الثغور المحتلة. ولم يهمل الناحية العلمية فذكر بمختلف العلاقات التي كانت قائمة بين المغاربة وعلماء الشرق الإسلامي.

I ـ صاحب الرحلة (علي بن محمد ابن علي التمجدوتي المتوفى سنة 1003/1594 ـ 95) :

لا نتوفر على معلومات أساسية تمكننا من رسم الخطوط الكبرى لحياة الرجل، فمؤرخو الدولة السعدية لم يخصصوا له ترجمة كافية كما فعلوا مع غيره من أعلام العصر السعدي، والمصادر الموالية أشارت إليه إشارة عابرة.

ويمكن أن نعدد المصادر التي ترجمت له على الشكل الآتي:

- عبد الواحد السجلماسي، فهرس، ص: 80 ـ 84.
- محمد اليفرني، الصفوة، ص: 106.
- محمد الحضيكي، طبقات، ص: 249.
- محمد القادري، التقاط الدرر.

ولولا وجود الرحلة لما أمكن أن نطلع على أي أثر للرجل، ولظلت أعماله مختفية عنا إلى الآن.

وهذا يجعلنا نطرح التساؤل الآتي: لماذا هذا التجاهل من طرف معاصريه؟

- ألقلة وزنه داخل الخريطة الفكرية في عهد المنصور؟
- أم لأنه كان قليل الإقامة بالعواصم المغربية الكبرى آنذاك، وبالتالي لم تتح له فرصة الاتصال بأعلامها، إذ نجده غالبا ما يفضل التدريس بزاوية تامكروت.

ويبقى بعد هذا السؤال الرئيسي مطروحا لماذا اختاره السلطان أحمد المنصور الذهبي كسفير له لدى مراد الثالث سلطان القسطنطينية؟

يمكننا أن نشير في هذا الصدد إلى نقطتين تتعلقان بزاوية سيدي علي التي ينتمي إليها مؤلفنا:

أولا: علاقة أهل هذه الزاوية الوثيقة بالسعديين بحكم جوارهم لتكمدارت، والاتصالات الشخصية بين مؤسس هذه الزاوية علي بن محمد الجزولي في القرن العاشر الهجري ومحمد بن عبد الرحمان القائم بأمر الله، ومن المحتمل جدا أن يكون لآل سيدي علي هؤلاء دور سياسي في إقامة صرح دولة الشرفاء، كما يدل على ذلك، الحظوة الكبرى التي كانوا يتمتعون بها طوال العهد السعدي.(1)

1) م. الناصري، الرياحين الوردية نقلا عن كتاب تاريخ درعة لمؤلف مجهول، ص: 80 ـ 81. وم. المنوني، دليل مخطوطات دار الكتب الناصرية بتمكروت، ص: 4ـ 46.

ثانيا: اتصال أبناء هذه الزاوية بالشرق العربي والبلاط العثماني في القسطنطينية عن طريق الرحلات العلمية والسفارية التي قاموا بها تلقائيا أو بتكليف.(2)

II ـ الرحلة :

سبق للباحث الفرنسي هنري دوكستري أن نشرها بالاوفسيط عن نسخة مغربية الخط سنة 1929، وذلك عن مخطوط الخزانة العامة رقم 28295.

كما أشار إليها ليفي بروفسال في كتابه «مؤرخوا الشرفاء» سنة 1922 ونشر الأستاذ عبد القادر زمامة مقالا عن الرحلة في مجلة المناهل (دجنبر 1992، العدد 25، ص (221 ـ 236).

ونشرت أخيرا بتقديم وتعليق الباحث الجزائري سليمان الصيد سنة 1988.

ولنا ملاحظات على هذه النشرة.

أولا: لم يضف الأستاذ شيئا جديدا إلى ترجمة المؤلف، وكان عليه أن يستفيد على الأقل من الرحلة نفسها ليستخرج لنا صورة تقريبية لحياة الرجل.

ثانيا: لم يذكر لنا النسخ التي اعتمدها في النشر، خاصة وأننا نعلم بوجود نسخ أخرى مثل نسخة الخزانة العامة رقم 795 د.

ثالثا: هناك بعض المشاكل التي تطرح في الرحلة خاصة عندما ينقل عن مصادر معينة، ممثلا عند وصفه لبعض المدن يذكر أنه أخذ من كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي، لكن النسخ التي تتوفر عليها حاليا لا توجد فيها هذه المعلومات، فهل كان يتوفر على نسخ أخرى لا نتوفر عليها الآن، أم أنه كان ينقل من كتاب آخر نسب خطأ لهذا الكاتب. ونفس الشيء أيضا نلاحظه عندما ينقل من رحلة ابن بطوطة.

---

2) كان هناك ـ مثلا ـ أخ لعلي التمجروني سفيرا للسلطان عبد الله الغالب السلطان العثماني.

III ـ الخطاب السعدي تجاه العثمانيين من خلال الرحلة :

1 ـ ظروف الرحلة :

في سنة 1589 تحرك الأسطول العثماني نحو غرب البحر المتوسط، تحت قيادة حسن فينزيانو الذي خلف علوج علي على رأس الأسطول لإفاد بعض الثورات التي قامت في طرابلس وتونس ضد السلطة العثمانية المحلية، ويظهر أن قائد الأسطول العثماني قد تمكن في نفس الوقت من إقناع مراد الثالث بضرورة مطالبة المنصور بالهدايا «واجبات التبعية»، المترتبة عليه لثلاث سنوات، فقام المنصور بتحرك دبلوماسي مكثف لاحتواء هذه الأزمة الجديدة، خاصة وأنه كان على وشك الانطلاق نحو السودان، ففي هذا الإطار سيتوجه التمجروني إلى القسطنطينية حاملا الهدايا ورسائل المنصور إلى مراد الثالث، ونجحت فعلا في إعادة العلاقات إلى حالتها الطبيعية.

2 ـ خطاب الرحلة :

* يحاول المؤلف أولا أن يوجه خطابه للقارئ من خلال عرض المشروع السعدي أي أحقية الشرفاء بالخلافة عوض الأتراك (المماليك): «والعثمانيون في جملة المماليك والموالي الذين دافع الله بهم عن المسلمين وجعلهم حصنا وسورا للإسلام وإن كان أكثرهم وأكثر أتباعهم ممن يصدق عليهم قوله ﷺ يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر، إن كانوا إنما حملوا الإمارة وقلدوا الأمر في الحقيقة وأمانة يؤدونها إلى من هو أحق بها وأهلها هم موالي وسادة الشرفاء ملوك بلاد المغرب...».(3)

* ولتأييد المشروع السعدي يصف واقع المناطق الخاضعة للأتراك، ليصل إلى النتيجة المعروفة وهي أن هذه المناطق تتطلع لحكم الشرفاء: وقد رأينا منهم العجب العجاب في كثرة اشتياقهم وحنينهم إلى حكم موالينا الشرفاء وما كان فيه أهل المغرب معهم من الراحة والعدل والرفق والنعمة، تالله لقد كان من تحدثنا معهم من أخبار أهل تونس

---

3) النفحة المسكية، ص: 147.

وأعيان مصر الذين لقيناهم بالقسطنطينية فيبكون على ذلك بالدموع وينتحبون ويودون لو وجدوا سبيلا إلى الانتقال إلى المغرب والتخلص إليه لاشترى بالدنيا ما فيها..». (4)

* التذكير بأن هناك عددا من المراكز المغربية المحتلة وهنا إشارة واضحة إلى أن الأتراك العثمانيين لم يقدموا للمغرب ما يكفي من المساعدات لاسترجاع ثغوره، بل على العكس من ذلك ضايقوه.

* التأكيد على الأندلس، تصريح ضمني بأن المغرب هو المؤهل عمليا لتقديم المساعدات للأندلسيين بالمغرب وبإسبانيا نفسها، وأن الأتراك لم يقوموا بواجبهم في هذا الشأن.

ونشير في الأخير أيضا إلى أن أحمد بن القاضي سجل نفس الشيء عند زيارته للمشرق إذ يقول في هذا الصدد: «... ولقد حضرت مجالس ذكر فيها من مصر والإسكندرية والصعيد وجدة ومكة والمدينة على ساكنها الصلاة والسلام. لما طنت في آفاق العالم حصاته، وتعبت عن حمل حسناته بغزوته حفظة القول وحصاته، فكادت قلوب الناس أن تتفطر إليه شوقا وودا، أن يكونوا تحت رايته، ومن الذين دخلوا في سلك بيعته...». (5)

وفعلا فقد حاول المنصور الاستفادة من الأوضاع المضطربة التي كانت تعيشها الإمبراطورية العثمانية خلال أواخر القرن السادس عشر للدعوة له وذلك بإحكام الصلات مع كبار العلماء والفقهاء بالعالم الإسلامي.

---

4) نفس المصدر والصفحة.

5) المنتقى المقصور، 2: 842.

فوائد علمية وحقائق تاريخية
من خلال الرحلة الناصرية
لأحمد بن ناصر الدرعي

ذ. محمد كنون
كلية الآداب ـ وجدة

الرحلة مـن تدبير أبي العباس أحمد بن الإمام عبد اللـه بن محمد بن ناصر الـدرعي المتوفى في ثـالث عشر من ربيع النبوي عـام ثمانية وعشرين ومائة وألف.

كان رحمه الله عـالما عاملا قوالا بـالحق مكبا على العلم قائما على البخـاري وغيره من الكتب الحديثيـة، أخـذ عن أبيـه وحضر عليـه في التفسير والحديث والعـربيـة وأصول الـدين كما أخـذ عن الشيخ أبي سـالم العيـاشي وعن الشيخ أبي عبـد اللـه محمـد بن أبي الفتـوح التلمساني وعن الفقيه أبي العبـاس الجزولي ثم رحل إلى المشرق فأخذ عن الملا إبراهيم بن الحسن وعن عبد الله بن سالم البصري وعن عدد آخر من شيوخ الشام والحجاز يطول تتبعهم.

كانت له مشاركة في القراءة وعلم الرسم وعلم التوقيت والفرائض. وكان أبوه استخلفه على القيـام بزاويته وأذن له في تلقين الأوراد ورفع الراية للـزوار، فقام بذلك أحسن القيام وحـافظ على سيرة أبيه في كل شؤونه فهـرع الناس إليه الأخذ عنه والاستفـادة منه. وأخباره كثيرة، وله رحلة حسنـه ذكر فيها أشياخه وثلـة من علماء وشيوخ الأمصار التي مر بها، وأخبار الأمم وتاريـخ المواطن التي عرج عليها في رحلته، كما شحنهـا بفوائد علميـة استقى جلها من رحلـة شيخه أبي سـالم العياشي.

وهي الرحلة التي نود اليوم قراءتها لاستنباط الحقائق التاريخية التي حوتها والفوائد العلمية التي ضمتها، يعود تاريخها إلى عام عشرين ومائة وألف وهي السنة التي خرج فيها مؤلف هذه الرحلة من موطنه ناويا حج بيت الله الحرام، فأضحى يسجل كل شيء، رآه في طريقه، وكل واقعة مرت به في سفره مازجا ذلك بفوائد علمية وحقائق تاريخية. والرحلة مطبوعة على الحجر بفاس عام عشرين وثلاثمائة وألف تقع في جزئين الأول من 245 صفحة والثاني من 200 صفحة. وقد حوت بالإضافة إلى ما ذكرنا أحاديث نبوية ساقها ليؤكد بها ما ذكره من أمور العقيدة والشريعة. فحين تحدث عن الاستخارة أورد أحاديث في ذلك، وحين عبر عن رغبته في الخروج لحج بيت الله جاء بأحاديث يرغب فيها الرسول ﷺ في الحج، وحين تحدث عن التوبة وشروطها أورد الأحاديث' الدالة على الخصال المكفرة لما تقدم وما تأخر من الذنوب. وهو أثناء هذا وذاك يعرض بعض الأحكام الشرعية في أمور عارضة أو نازلة فقد تحدث عن حكم الشريعة في صلاة المسافر وفي الآذان وفي السماع كما عرض لحكم الرقص والدفوف والمزاهير، إضافة إلى حديثه عن مناسك الحج وأركانه. وإشارته إلى أمور يستحسنها أو يستنكرها. فقد استحن القهوة وأورد أقوال العلماء فيها إذ يقول: «أكثر العلماء ماثلون في القهوة إلى الإباحة وترشيح قولهم بفعل أكثر الصوفية مع تورعهم في المطاعم والمشارب زاعمين أنها تعين على السهر في العبادة ويستعين بها الطلبة كثيرا مفي المطالعة الليلية قال الإمام أبو سالم ولا شك أنها تزيل ما يحصل في الرأس من تدويخ بسبب السهر... وقد شاع وذاع عند كثير من الناس بل ذكره غير واحد ممن تكلم عليها أن أول من أحدثها وأخرجها من أرض اليمن الشيخ الولي الصالح المتفق على ولايته سيدي علي بن عمر الشاذلي اليمني وأمر أصحابه بشربها ليستعينوا بذلك على السهر في العبادة ثم لم يزل أمرها يفشو شيئا فشيئا ومن بلد إلى

بلد إلى أن آل إلى ما آل بحيث عمت البلاد المشرقية وكثيرا من المغربية(1) ثم يخلص إلى أنها إن استعملت للتنشيط والاستعانة على السهر فهي مباحة مستحسنة، أما إن أصبحت عادة يصعب الابتعاد عنها وبلية تلحق الضرر بشاربها فهي مستنكرة مستقبحة مثلها مثل الدخان الذي يقول عنه «قال شيخنا أبو سالم وأخبرني من أثق به بحكاية وقعت لبعض الناس في شأن نالدخان تدل على قبحه وخبثه وقبح وخبث متعاطيه قال كان عند قبر أحد الصالحين، زيتونة كان يجلس إليها في حياته فجاءه رجل بعد موته فجلس في ذلك المحل وشرب فيه الدخان وكان من أكابر البلد فلما نام في الليل جاءت ووقف عليه وضربه على رأسه فقال له يافلان مكان كنت أجلس فيه .. وقد كثر خوض المتأخرين من العلماء في أمر هذا الدخان بين مبيح ومحرم ولأكثر على التحريم منهم علامة زمانه الشيخ سالم السنهوري وغيره من محققي المتأخرين المغاربة ومن ألف في إباحته الشيخ أبو الحسن الأجهوري ورد كلامه فيها الشيخ الفكون ردا بليغا نقضه عروة عروة»،(2) وهكذا يبسط الحديث في هذه المسألة عارضا آراء العلماء فيها على عادته في الحديث عن بعض المسائل وموقف الشرع منها. ومن خلال هذا الحديث وهذه الآراء نقف على بعض رجال الحديث والفقهاء الذين اشتهروا في هذا العصر أو ذاك، وعلى بعض مشاهير العلماء الذين أفتوا في هذا الأمر أو تلك النازلة. ولم يكتف الشيخ أحمد بن ناحر الدرعي بذكر أسمائهم فحسب، بل كثيرا ما عرف ببعضهم وعدد مؤلفاتهم وأبحاثهم الأمر الذي يجعل الاستفادة من الرحلة في هذا الباب وارد أيضا. فتراجيم كثير من العلماء يمكن استخراجها من الرحلة وتاريخ وفاة ثلة من الأعلام يمكن استقاؤه منها أيضا. فقد ترجم للشيخ محمد بن سالم الروداني وأحمد الهشتوكي وعبد المالك التجموعتي وعبد الرحمان الأخضري وشعيب بن عبد الرحمان الثعالبي ومحمد المقري والشيخ زروق

1) الجزء الأول ص: 135.

2) الجزء الثاني ص: 148.

الفاسي وغيرهم من كبار العلماء والأدباء. فقد اعتاد صاحب الرحلة أن يذكر علما، كل مدينة مر بها وأوليا، وفقهاء كل قطار أو مكان عرج عليه مع التعريف ببعضهم أو ذكر بعض أخبارهم فمن ذلك قوله مثلا: «ونزلنا عين الماضي عصر الأحد تاسع رجب رابع شتنبر وتلقانا أهلها أفواجا وأقمنا به يوم الإثنين لاستراحة الإبل وتنعيل الدواب وعين الماضي أهلها كلهم طلبة وجلهم طلبة علم يقرؤون خليل وكبيرهم سيدي أحمد الدهصاء... وأولاده الثلاثة فقهاء سيدي عبد الرحمان وسيدي محمد وسيدي زروق ومن فقهائهم سيدي أبو حفص وسيدي محمد بن عيسى وصنوه سيدي أبو القاسم وسيدي عيسى بن يحيى»(3) ثم يستمر في ذكر فقهاء وعلماء هذه البلدة على عادته في ذكر علماء كل مكان نزل به وبسط أخبار رجال كل قطر عرج عليه أو زاوية مر بها، يقول عن خلوة عبد الرحمان الأخضري: «ومررنا على خلوة ولي الله أبي زيد سيدي عبد الرحمان الأخضري لقصد التبرك به وهو إمام جامع بين علمي الظاهر والباطن له تآليف مشهورة وكرامات مأثورة وأشهر تآليفه المنظومة في المنطق المسماة بالسهم المرونق وقد نفع الله بها وله منظومة في السلوك تشابه المباحث الأصلية ربائقة النظم فائقة الحسن حلوة سلسة وله شرح السلم ومقدمة في الفقه مشهورة عند أهل ذلك البلد وبيتهم بيت علم وصلاح».(4)

وهكذا يمكن دراسة الرحلة من جوانب متعددة والاستفادة منها من زوايا كثيرة فهناك:

1 ـ باستخراج الأحاديث النبوية والأحكام الشرعية.

2 ـ تراجيم مشاهير العلماء وأخبار الفقهاء والصلحاء.

3 ـ استخراج القصائد والمقطوعات الشعرية، فقد ضمت الرحلة أشعارا كثيرة أوردها المؤلف أثناء حديثه عن شخصية من الشخصيات إذ يورد ما أبدعته من قصائد شعرية أو ما مدح به علم

3) الجزء الأول ص: 31.

4) الجزء الأول ص: 37.

من الأعلام أو مـا قيل في مناسبـة أو نازلـة أو مسألة يتحـدث عنها، فحين تحدث عن القهوة وآراء العلماء فيها قـال: «ومن أحسن ما رأيت من الأسئلـة والأجوبـة في شأن القهـوة نظما مـا اشتملت عليه هـذه الأبيـات التي كتب بها العلامـة رضي الدين رضي اللـه عنه محمـد بن إبراهيم الحنفي المعروف بابن الحنبلي للشيخ علي بن محمد عراف:

أيها الشـامي لكلتـا الـذروتين
بجـوار المصطفـى والمروتين
والعلي قـدرا علما وكـذا
عمـلا فـوق علـو النيرين
أفتني في قهـوة قـد ظلمت
حيثما شيب تعـاطيهـا بسين
من تلـة نهٰا لنـا مهيعـه
وافـتراق لأقـاويـل ومـيـن

فأجابـه الإمام بن عـراف رضي الله عنـه:

أيها السـامي سمـو الفـريقين
وإمـام العلم مفتـي الفـرقتين
يـارضي الـدين يـابحـر النـدى
من رجـاكم راح مملـو اليـدين
جـاء منكم نظـام قـد حكى
في نصـوع اللفـظ مسبـوك اللجين
قلت فيـه أر في القهـوة قـد
خلطـوهـا بتلـه وبمين
طلبت الحكـم فيهـا بعـدمـا
قـد رأيتم مـا ذكـرتم رأي عين
وجـوابي أنها حـل ولا
يقتضي مـا قلتـم تحريم عين(5)

5) الجزء الأول ص: 138.

وهكذا أثبت النـاصري في رحلته 1368 بيتـا من الشعـر من بين قصائد ومقطوعات وأبيات مفردة.

ـ أخبـار المدن وعجائب الأمصـار: إذ عمد النـاصري في رحلته إلى التعريف بالمدن والقرى التي يمر عليها وذلك بإعطاء نظرة موجزة عن تاريخها، أو وصف مظهرها أو ذكر مـا امتازت به وانفردت عن باقي المدن والمنـاطق. فعن قرطـاجنـة يقول: «وكـانت مـدينة عظيمـة تضر بأمـواج البحـر سـورهـا وهي من تـونس على اثني عشر ميـلا وبين تونس والقيروان مائة ميل».(6) وقد يتعدى حـديثه عن المدن مستوى تحديـد الموقـع ووصف المظـاهـر إلى البحث في أصل معنـاهـا وفي مؤسسها وفاتحها. فحين وصل إلى مـدينة طرابلس وصف الاستقبال الذي خصصـوه لهم وذكر رجال العلم والأدب القـاطنين بها ثم قال: «قـال الشيخ محمد بن علي شـارح الشقـراطسية نـاقلا عن البكـري ويـذكر أن تفسير طـرابلس بالعجميـة ثـلاث مدن قـال وعلى مدينـة طرابلس سور ضخ جليل البنيان وهي على شاطئ البحر وبها أسواق حـافلة وحمامـات كثيرة فـاضلة وفيهـا ربـاطات كثيرة يأوي إليهـا الصـالحون ومرسـاها مأمون من أكثر الرياح ومـدينة طرابلس كثيرة الثمار والخيرات وبها بساتين جليلة».(7)

وعلى هذا المنـوال يسير في وصفه لجل المناطق التي مر منهـا فقد وصف مدينة بسكـرة والأغواط، ومدن الزاب وتوزر وتـاهرت وفاس وأدنـاه والإسكنـدرية ولميـس وباغيـة والقيروان وابن غـازي ونفطـة وغيرها من المدن والقـرى التي لم يقتصر فيها على ما ذكـرنا فحسب، بل سجل أيضا مـا رآه فيها من ظـواهر تتفرد بها أو استغـرب منها. فعن مدينة لبدة الأثرية يقول: «مـدينة عظيمة يقال لها مدينة لبدة قد خلت في العصر الأوائل وبقيت آثارهـا ورسومها قـد أكل البحر كثيرا منها وفيهـا مباني عظيمـة وهياكـل جسيمة وأبـراج خارجهـا مبنية

6) الجزء الأول ص: 47 وانظر ما كتبه عن مـدينة جرقة ص: 103 من الجزء الأول.

7) الجزء الأول ص: 59.

بالحجر المنحوت في غاية الإتقان... وترى أعمدة الرخام وغيره واقفة في وسط البحر قد أحاط بها الماء بحيث لا يرتاب أن البحر قد أكل كثير منها... يقال أن بانيها ملك روماني وذكر بعضهم أن النمرود لما بنى دمشق بقي ثلاث سنين وبعث ولده وأمره أن يبني مدينة بالمغرب فبنى هذه المدينة»(8) وعند انتقاله إلى مصر ذكر أن المجتمع المصري كان يتكون دائما من طائفتين إحداهما في غاية العتو والاستكبار الأخرى في غاية الدل والاحتقار، فمن فرعون الطاغية الذي استضعف بني إسرائيل وقتل أبناءهم إلى الولاة والحكام الذين اشتهروا باستكبارهم وعتوهم إل أن أهل مصر امتازوا بذكائهم ورجحان عقولهم وجدهم في عملهم. فقد جاء في الرحلة على لسان عيسى الثعالبي: «من لدن دخلت هذه المدينة ما رأيت أحدا يمشي في أسواقها وأزقتها على مهل وسكينة وتؤدة بل كل من تلقاه تراه مشمرا جادا في سيره إن راكبا فراكب وإن ماشيا فكذلك... وسبب ذلك والله أعلم أمران أحدهما الرغبة والحرص المستكن في القلب... والآخر كثرة الزحام في الأسواق».(9) وهكذا يستمر في وصف مصر ومجتمعها وما لاحظه على أهلها لينتقل بعد ذلك إلى الإسكندرية التي وقف عندها طويلا، فذكر تاريخها بدءا من فرعون وذي القرنين ووصف مظهرها معددا عجائبها التي امتازت بها عبر الدهور. فذكر حديث النبي ﷺ الموجه إلى أهل الكتاب الذين جاؤوا يحادونه ويعجزونه بسؤالهم عن ذي القرنين إذ قال لهم ﷺ: «جئتم تسألوني عن ذي القرنين وسأخبركم عما تجدونه مكتوبا عندكم، إنه أول أمره كان غلاما من الروم أعطي ملكا فسار حتى ساحل البحر من أرض مصر فابتنى عنده مدينة يقال لها الإسكندرية» وأخرج ابن عبد الحكم عن عبد الله بن عمر بن العاص قال كان أول شأن الإسكندرية أن فرعون اتخذ بها مصانع ومجالس وكان أول من عمرها وبنى بها فلم تزل على

8) الجزء الأول ص: 80.

9) الجزء الأول ص: 116.

بنائه ومصانعه إلى أن تداولها ملوك مصر بعده».(10) وهكذا يستعرض الملوك الذين أعادوا بناءها وشيدوا مآثرها مع وصف بعض عجائبها كالتماثيل التي كانت قائمة وسطها وهي تماثيل من نحاس منها تماثل يشير بسبابته نحو الشمس ويدور معها حيث دارت من الشروق إل الغروب ومنها تمثال وجهه نحو البحر متى صار العدو قريبا منهم على نحو من ليلة سمع له صوت هائل، ومنها تمثال كلما مضى من الليل ساعة صوت صوتا مطربا وكان بأعلاه مرآة يرى منها بلاد الروم. وحكى المسعودي أن هذه المنارة كانت وسط الإسكندرية بناها ملك يونايين يدعى الإسكندر. ومن عجائب الإسكندرية أيضا القبة الخضراء التي كانت قائمة وسطها تبدو كأنها من الإبريز لا يبليها لاقدم ولا تغير لونها السنون. ومن عجائبها أيضا كنيسة تحت الأرض ومدينة على مدينة يقال إنها إرم ذات العماد سميت بذلك لأن عمرها لا يرى مثله طولا وعرضا. يقول النحاري: «وما ذكرت في الإسكندرية من الغرائب والأبنية لم يبق بها الآن سوى عمود السواري وغيره اجتاحه الدهر وأبلاه واستأصله وأفناه ولم يبق لها من الآثار إلا ما يذكر في الأخبار».(11)

4 ـ معارف وحقائق تاريخية، فبالإضافة إلى حديث الناصري في رحلته عن الأماكن ووصفها، وذكره للمدن والمناطق والتعريف بحدودها ومميزاتها العمرانية والطبيعية والبشرية، كان يستطرد أحيانا ليبسط الحديث عن الوقائع التاريخة والأحداث البارزة التي كان هذا الموطن أو ذاك مسرحا لها.

ففي مطلع رحلته وبعد أن ذكر ابتداء الاستعداد للمسير والخروج من البلد ومفارقة الأهل والإخوان شرع في بسط الحديث عن الأماكن التي يمر بها والنقط التي يعبرها فتحدث عن سجلماسة وعن فجيج وعف بلدة الأغواط وهي «بلدة واسعة ذات الأرضين الواسعة بها محاريث كثيرة وفواكه متنوعة غير أنها كثيرة الرياح والرمال، وقد

---

10) الجزء الثاني ص: 112.

11) الجزء الثاني ص: 118 ـ 119.

أخبرني فقيههم سنة ست وتسعين سيدي أحمد بن أبي زيان أن الأرياح ذهبت بقرية كانت قرب قريتهم قبل هذا الزمان ولم يدر أين ذهبت بها ولا بأهلها ولم يبق لها أثر قائلا أن ذلك بدعوة ولي كان عندهم».(12)

وفي طريقه يقف على قبور الصالحين وأضرحة الأولياء، فقد مر بزاوية نبي الله الد بن سنان وخلوة ولي الله الإمام الأخضري صاحب السلم المرونق في المنطق ليصل إلى مدينة بسكرة التي وصفها بقوله: «وفي الاستبصار في أخبار الأمصار وبسكرة قرية فيها مدن وهي مدينة كبيرة كثيرة النخل والزيتون وأصناف الثحار... وبها جامع ومساجد وحمامات كثيرة وحواليها بساتين كثيرة وفيها غابة كبيرة مقدار الستة أميال فيها أجناس التحار»(13) وبسكرة هاته هي مدينة من مدن الزاب فقد ورد في المعجب أثناء حديثه عن صحراء إفريقية والمغرب قوله: «وقسم يسمى الزاب وهذا الإسم أيضا يقع على مدينة بسكرة وأعمالها ومن مدينة توزر إلى بسكرة أربع مراحل».(14)

وهنا يستطرد الناصري ليبسط الحديث عن إفريقية وتاريخها مستهلا ذلك بالتعريف بعقبة بن نافع الفهري الذي قاد الجيوش لفتح هذه الثغور، وغامر بنفسه وأقحمها المخاطر في سبيل نشر الدعوة الإسلامية وبثها بهذه الأصقاع فقد ولاه «معاوية بن أبي سفيان على إفريقيا ووجهه إليها في عشرة آلاف من المسلمين ففتحها وقاتل من بها من النصارى حتى أفنى أكثرهم ثم قال إني أرى إفريقية إذا دخلها إمام تحرم أهلها بالإسلام، وإذا خرج رجع كل من أجاب دين الله فهل لكم يامعشر المسلمين أن تتخذوا مدينة تكون لنا عزا للأبد فأجابه الناس لذلك واتفقوا على أن يكون أهلها مرابطين وقالوا نقربها من البحر ليتم الجهاد ثم رأوا أن ذلك لا يومن معه من

12) الجزء الأول ص: 33.

13) الجزء الأول ص: 41.

14) المعجب في أخبار المغرب للمراكشي ص: 219 مطبعة الثقافة سلا 1357 - 1938.

كيد الـروم فأبعدوهـا من البحر مخافـة من ملك القسطنطينية..»(15) وهكذا بنـى مدينـة القيروان وجعلها حصنا مـن حصونـه. وإذا كان الناصري قـد نحا منحـا تاريخيـا في هاتـه الاستطرادات، فإن الاتجاه القصصي والأسطوري كـان يبدو واضحا على مـا كتبه في هـذا الباب. فأسلوبه يوصي بهذا وطريقتـه في عرض الأحداث التاريخية أقرب إلى أسلوب رواة الأخبـار والقصاصين إضافـة إلى إقحامـه بعض الأخبار كقولـه عن عقبة حين عـزم على بناء مـدينة القيروان «ولما اتفق رأيهم على ذلك وكان موضع المدينة غيظـا نادى عقبة جميع الوحوش والهام التي كانت بالغيظـة وقال لهم أنا صاحب رسول اللـه ﷺ ونريد أن نبني هنا مدينة وتأردنا أطراف هـذه الغيظة، فأخرجوا منها بإذن الله فخرج كل من كـان فيها. واختلف أصحابه في موضـع القبلة وجعلوا ينظرون مطالـع النجوم ليهتدوا إلى سمتها فبـات عقبة مهتما فرأى في المنـام قائلا يقـول له خـذ هـذا اللواء بيـدك إذا أصبحت فإنك تسمع تكبيرا ولا يسمعـه أحد غيرك فـاتبعه فحيث مـا انقطع التكبير فاركـز اللـواء فإنه مـوضع القبلة ففعل ذلك وسأل أصحـابه هل تسمعـون شيئـا فقـالـوا لا فاتبعـــه حتـى انقطـع فركــز اللــواء بموضـــع القبلـة».(16)

ولقد أسهب النـاصري في هذا الباب وتـوسع في بسط الأخبار عن مراحل الفتوح وجهاد عقبة في نشر الدعوة الإسلامية ومحاربة كل من يقف في وجهه مع ذكـر القبائل والأقوام التي نـازلها وتحديد المواطن التي حـارب فيها فقـد ذكر أنـه لما تغلب على أبي مهـاجر الـذي ألب الناس ضـده وخرب مـدينته التـي بناهـا عاد إلى محاربـة النصارى فرحل إلى مـدينة بـاغية وهي كما وصفهـا «مدينـة جليلة ذات أنهار وتمار ومزارع ومســارح وعلى مقربة منهـا جبل أوراس وهو المتصل بالسوس».(17)

15) الجزء الأول من مرحلة الناصري ص: 42.

16) الجزء الأول من مرحلة الناصري ص: 42.

17) الجزء الأول من مرحلة الناصري ص: 43.

ثم مضى إلى مدينة لميس وهي من أعظم مدائن الروم فقاتل أهلها وتبعهم إلى باب حصنهم وأصاب منهم غنائم كثيرة ليرحل بعد ذلك إلى بلد الزاب إذ حارب بمدن أذناه وهي أعظم مدائنهم وتاهرت وغيرها. لينتقل بعد ذلك إلى طنجة وهي أول ما فتح من المغرب تلتها مدينة وليلي. وقد سمى الناصري طنجة في الرحلة بباخ. يقول: «ثم سار عقبة حتى باخ وكان بها ملك من ملوك الروم وكان شريفا في قومه فأهدى إلى عقبه ولاطفه فنزل على حكمه فسأله عن الأندلس فقال له: دونها هذا البحر الذي لا يرام فقال له دلني على رجال البربر والروم تفقال له تركت الروم خلفك وليس أمامك إلا البربر وهم في عدد لا يحصى ولا يعلمه إلا الله وهم أنجاد قال فأين موقعهم قال له السوس الأدنى وليس لهم دين يأكلون الميتة ويشربون الدم وهم أمثال البهائم يكفرون بالله ولا يعرفونه فدخل عقبة حق أتى جموعهم بمقربة من فاس فقاتلهم قتالا ذريعا وفرت بقيتهم ومرت خيل في آثارهم ومر حتى بلغ السوس الأقصى وهي بلاد درعة ونزل إلى الصحارى وهي لمتونة وسبا منها سبيا لم يدخل المشرق أغلى منه».(18)

وكما تلاحظون فالمنحى القصصي مسيطر على ما يكتبه وأسلوب الإثارة هو المعتمد عنده. فالطريقة التي اعتمدها في رواية هذه الأحداث هي طريقة القصاصين ومنهجه هو منهج رواة الأخبار الذين يعتمدون الحوار والإثارة والتفخيم والمبالغة. ويتجلى هذا أيضا في بعض القصص والأحداث التي يضمنها هذا التاريخ كقصة كسيلة البرنسي مع عقبة تابن نافع التي ابتدأها من تاريخ إسلامه مرورا بأخباره مع عقبة إلى أن يصل إلى وقاته. ومن ذلك أيضا قصة الكاهنة التي كانت بإفريقيا والتي تحدث عنها أثناء حديثه عن قدوم حسان بن النعمان الغساني إلى إفريقيا. أي بعد أن انتهى من الكلام عن جهاد عقبة وكفاحه من أجل نشر الإسلام بهذه الثغور، وبعد أن أشار إلى سنة وفاة معاوية ابن أبي سفيان وعن أيام ملك ابنه يزيد وما جد

18) الجزء الأول من مرحلة الناصري ص: 44.

بإفريقية في عهده. إلى أن وافاه الأجل وتولى العهد بعهده عبد الملك بن مروان الذي بعث زيهر بن قيس البلوي الذي قضى على كسيلة البرنسي ومن معه، وحارب الروم حتى سقط شهيدا وسطهم، فأرسل عبد الملك بن مروان حسان بن النعمان الغساني الذي واصل الجهاد من أجل فتح الثغور ونشر الدين. وأثناء حديث الناصري عن حسان يستحضر خبر تلك الكاهنة ويرويه في أسلوب مثير إذ لما قدم حسان مدينة القيروان: «قال لهم دلوني على أعظم ملك بقي بإفريقيا إذا قتل خاف البربر والنصارى وهابت المسلمين فلا تقدم عليهم فقالوا ليس بإفريقية أعظم من امرأة بجبل أوراس يقال لها الكاهنة فبلغ الكاهنة أمره فارتحلت من جبل أوراس في عدد عظيم إلى مدينة باغية فأخرجت منها الروم وخربت حصنها وظنت أن حسانا إنما يريد معقلا يتحصن فيه وأقبل حسان في جيوشه... واقتتلوا أشد قتال وقتل من العرب خلق كثير وأسرت الكاهنة من أصحاب حسان منهم خالد بن يزيد العبسي»(19) الذي تركته أسيرا عندها فأرسل إلى قائده يخبر بفساد رأيها ونظامها وعملها على إتلاف المزارع والمراعي، فأعد حسان لها العدة وجهز لها جيشا جرارا استأصل قوتها وهزم جموعها «وتبعها حسان حتى قتلها وقطع رأسها عند بئر يعرف ببئر الكاهنة» وولى حسان الأكبر من ولدي الكاهنة على جماعة من البربر استأمنوا إلى حسان فلم يقبل إلا أن يعطوا من قبائلهم اثني عشر ألفا يكونوا مع العرب مجاهدين فأجابوا وأسلموا».(20)

وهنا يعود الناصري إلى الحديث عن أطوار رحلته وما رآه فيها حتى إذا وصل إلى طرابلس وقف وقفة أخرى ليحدثنا عن حصار عمر ابن العاص لها سنة ثلاث وعشرين حيث أقام فيه شهرا كاملا ليفاجئ الروم بعد ذلك ويكسر شوكتهم ويفتح نالمدينة لينتقل بعد ذلك إلى نفوسة ويدخلها منتحرا فاتحا.

19) الجزء الأول من مرحلة الناصري ص: 48.

20) الجزء الأول من مرحلة الناصري ص: 50.

توصيات المشاركين في ندوة أدب الرحلة والتواصل الحضاري

في إطار إحياء الذكرى العاشرة لتأسيسها، شهدت رحاب كلية الآداب بمكناس طيلة أيام 21 ــ 22 ــ 23 أبريل تظاهرة علمية كبرى تجلت في تنظيم عدة ندوات من بينها ندوة أدب الرحلة والتواصل الحضاري. وقد شملت هذه الندوة عددا من العروض الجادة تخللتها مناقشات عميقة في إطار حوار علمي بناء فكانت فرصة لتبادل وجهات النظر بين فعاليات ثقافية من أقطار المغرب العربي ومصر وإيطاليا وفرنسا.

ومما يعكس أهمية هذا الملتقى الإسهام الفعال من طرف المتتبعين لأشغاله وما أثارته مختلف المداخلات من قضايا وإشكاليات يعتبر بعضها جديدا. ولا يزال البعض الآخر في حاجة إلى المزيد من البحث والتنقيب.

وانطلاقا من مضامين الأبحاث المقدمة في هذه الندوة، وما أثارته من مناقشات عميقة، فإن المشاركين يوصون بما يلي:

1) نشر أعمال هذه الندوة في كتاب مستقل يعكس خصوصيتها.

2) تشجيع البحث العلمي المغاربي وذلك بتنظيم لقاءات علمية تشارك فيها فعاليات ثقافية من أقطار المغرب العربي.

3) دعم «المجموعة المغاربية للدراسات التاريخية والأثرية والحضارات المقارنة» التي تمخضت عن هذا اللقاء العلمي الهام.

وفي الختام يسعد اللجنة المنظمة أن ترفع باسم المشاركين أحر تشكراتها إلى السيد قيدوم كلية الآداب بمكناس على الجهود التي بذلها في سبيل إنجاح هذه الندوة وعلى حفاوة الاستقبال وكرم الضيافة التي خص بها المشاركين. كما يتوجهون بنفس الشكر إلى من ساعد في تنظيم هذه التظاهرة، والآمال تحدونا في ملتقى علمي قريب، والسلام عليكم.

رقم الإيداع القانوني : 556 / 1993

ردمك 5 ـ 01 ـ 881 ـ 9981

مطبعة فضالة

3 زنقة ابن زيدون المحمدية (المغرب)
الهاتف : 32.46.43 / 32.46.45 (03)
تليكس M 24910 — فاكس : 32.46.44 (03)